

## سُورَةُ النُّورِ

٥٧٩٥

وبذلك يعلم الإنسان أن الحق سبحانه شاء ذلك ؛ ليعرف كل عبد علم الواقع ، لا علم الحصول .

إذن : فذكر كلمة ﴿وَلْيَعْلَم﴾ وكلمة ﴿لِنَنْظُر﴾ في القرآن معناها علم واقع ، وعلم مشاهد ، وعلم حجة على العبد ؛ فلا يستطيع أن ينكر ما حدث ، وقوله الحق :

﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذه الآية تبين لنا أدوات انتظام الحكم الإلهي : رسل جاءوا بالبرهان واليعة ، وأنزل الحديد للقهر ، قال الحق سبحانه :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

وقرن ذلك بالرسل ، فقال : ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ والنصرة لا تكون إلا بقوة ، والقوة تأتي بالحديد<sup>(١)</sup> الذي يظل حديداً إلى أن تقوم الساعة ، وهو المعدن ذو البأس ، والذي لن يخترعوا ما هو أقوى منه ، وعلم الله سبحانه هنا علم وقوع منكم ، لا تستطيعون إنكاره ؛ لأنه سبحانه لو أخبر خيراً دون واقع منكم ؛ فقد تكذبون ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ وفي هذا لون من الاحتياط الجميل .

وقوله : ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كأن الله يطلب منكم أن تنصروه ، لكن إياكم أن تفهموا المعنى أنه سبحانه ضعيف ، معاذ الله ، بل هو قوي وعزيز : فهو القاتل :

﴿لَا تَأْتِيهِمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ .. (١٤)﴾ [التوبة]

(١) الحديد : الفلز المعروف تصنع منه الآلات المختلفة النافعة للناس . يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أي : فيه صلابة وقوة ؛ وهو وسيلة من وسائل النصر والعمران ، وقد يكون وسيلة للدمار ؛ إذا وضع في يد من لا ضمير له ولا إيمان عنده .

بل يريد سبحانه أن يكون أعداء الإيمان أضلاء أمامكم ؛ لأنه سبحانه يقدر عليهم .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إنما يعنى : أن يكون علم الله بمن ينصر منهجه أمراً غيبياً ؛ حتى لا يقول أحدٌ إن انتصار المنهج جاء صدفة ، بل يريد الحق سبحانه أن يجعل نُصْرَةَ منهجه بالمؤمنين ، حتى ولو قَلَّتْ عدَّتُهُمْ ، وقلَّ عددهم .

إذن : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ .. (١٤) ﴾

أى : نظر واقع ، لا نظر علم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا تَسَاءَلْتُمْ عَنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِشُرٍّ أَنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِنَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾

نحن نعرف أن الآيات ثلاثة أنواع : آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويسمىها الله سبحانه آيات ، فالآية هى عجيبة من العجائب ، سواء

(١) الآية : العبرة ، والآية : المعجزة أو الشئ العجيب . والجمع : آيات ، رأى . قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ .. (٣٦) ﴾ [قصص] ، والآيات هنا : الأدلة الواضحة على وحدانية الله وكمال قدرته وتبؤمته . [لسان العرب : مادة (أيا) . . . بتصرف] .

(٢) التلقاء : مصدر لقى ، يقال : يسرنى تلقاؤك أى : لقاءك . ويستعمل ظرف مكان بمعنى جهة اللقاء والمقابل .

فى الذِّكَاةِ أَوِ الْجَمَالِ أَوِ الْخُلُقِ ، وَقَدْ سَمَّى الْحَقَّ سَبْحَانَهُ الظَّوَاهِرِ الْكُونِيَةِ  
آيَاتٍ ؛ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ﴾ (٤٧)

[فصلت]

وَقَالَ سَبْحَانَهُ :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. ﴾ (٢١)

[الروم]

وَهَذِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَةِ .

وَهَنَّاكَ آيَاتِ هِىَ الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِ الرِّسْلِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِى الْبَلَاغِ  
عَنِ اللَّهِ ، وَهِيَ الْمَعْجِزَاتُ ؛ لِأَنَّهَا خَالَفَتْ نَامُوسَ الْكُونِ الْمَأْلُوفَ لِلنَّاسِ .  
فَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ طَبِيعَةٌ ، فَإِذَا خَرَجَ عَنْ طَبِيعَتِهِ ؛ فَهَذَا يَسْتَدْعِى الْإِنْتِبَاهَ .

مِثْلَمَا يَحْكِى الْقُرْآنُ عَنْ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْ أَعْدَاءَهُ أَخَذُوهُ  
وَرَمَوْهُ فِى النَّارِ فَنَجَّاهُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ مِنَ النَّارِ ؛ فَخَرَجَ مِنْهَا سَالِمًا ، وَلَمْ يَكُنِ  
الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَنْجُو إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ ، فَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَنْجُو  
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ النَّارِ ؛ لَحَدَّثَتْ أُمُورٌ أُخْرَى ، كَأَلَّا يُمْكِنُهُمْ  
الْحَقُّ - عِزٌّ وَجَلٌّ - مِنْ أَنْ يُمْسِكُوهُ ، لَكِنَّهُمْ أَمْسَكُوا بِهِ وَأَشْعَلُوا النَّارَ  
وَرَمَوْهُ فِيهَا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَطْفِئَهَا لَفَعَلَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ مِنَ الْمَطَرِ ،  
لَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ ؛ فَقَدْ تَرَكَهُمُ اللَّهُ فِى غِيَّتِهِمْ <sup>(١)</sup> ، وَلِأَنَّهُ وَاهِبُ النَّارِ  
لِلْإِحْرَاقِ قَالَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهَا :

﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩)

[الأنبياء]

(١) الْغَيُّ : الضَّلَالُ . غَوَى غَيًّا وَغَوَابَةً : أَمِنَ فِى الضَّلَالِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا جِئَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ (٥)  
[النجم] وَتَغَاوَى الْقُرْمُ : تَجَمَّعُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الشَّرِّ . وَاسْتَقْوَاهُ بِالْأَمَانِ الْكَاذِبَةُ : طَلَبَ غِيَّةً وَأَضَلَّهُ .  
وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ لِىَ الْبَاطِلِ قَدْ بُيِّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَى .. ﴾ (١٥٦) [البقرة] . [المعجم الوسيط : مادة  
(غوى) .. بتصرف]

وهكذا تتجلى أمامهم خيبتهم .

إذن : الآيات تُطْلَقُ على الآيات الكونية ، وتطلق على الآيات المعجزات ، وتطلق أيضاً على آيات القرآن ما دامت الآيات القرآنية من الله والمعجزات من الله ، وخلق الكون من الله ، فهل هناك آية تصادم آية ؟ لا ؛ لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو إله واحد ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ .. وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٨٢) [النساء]

وقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ .. ﴾ (١٥) [يونس]

أى : آيات واضحة . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ وعرفنا أن الرجاء طلب أمر محبوب ومن الممكن أن يكون واقعاً ، مثلما يرجو إنسان أن يدخل ابنه كلية الطب أو كلية الهندسة . ومقابل الرجاء شيء آخر محبوب ، لكن الإنسان يعلم استحالة ، وهو التمنى ، فالمحبيبات - إذن - قسمان : أمور مُتَمَنَّاة وهى فى الأمور المستحيلة ، لكن الإنسان يعلن أنه يحبها ، والقسم الثانى أمور نحبها ، ومن الممكن أن تقع ، وتسمى رجاء .

﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ هم مَنْ لَا يُؤْمِنُونَ ، لَا بِإِلَهِ ، وَلَا بِبَعْثٍ ؛ فَقَدْ قَالُوا :

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢٤) [الحاقة]

(١) الدهر : الزمان الطويل ، ومدة الحياة الدنيا . قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ (١) [الإنسان] . وقال تعالى : ﴿ لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ وَمَعْنَاهُ : أَنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ ، فَإِنَّهُ فاعله وليس الدهر ، فإذا شئت الدهر ، فكأنك أردت به الله تعالى سبحانه عما يقولون أو يصفون . [لسان العرب : مادة (دهر) - بتصرف] .



وقالوا:

﴿أَنذَأْ مَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ .. (٨٢)﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ؛ فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذي يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيفاجأون بالإله الذي أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ <sup>(١)</sup> بِقِيعَةٍ <sup>(٢)</sup> يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. (٣٩)﴾ [النور]

السراب : هو أن يمشى الإنسان في خلاء الصحراء ، وينخيل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد . وهذه العملية لها علاقة بقضية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ؛ ليصور الماء وهو ليس بماء :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ .. (٣٩)﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذي لم يكن في بآله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله ، وهو ممن جاء فيهم القول :

(١) السراب : ما يرى في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء في الصحراء يلتصق بالأرض . وهو من خداع البصر . وقد سُمّي السراب سراباً لأنه يسرب سروباً ، أي : يجري جزئياً ، أي : يتحرك حركة تتخلع الراى من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع بصري ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ، ويجرى إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء .

(٢) القِيعَة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر . قال الفراء : القِيعَة جمع القاع ، والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٤٠)﴾ [طه] . [اللسان : مادة (قوع) . . بتصرف] .

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة]

رغم أن الكون الذي نراه يُحتمُّ قضية البعث ؛ لأننا نرى أن لكل شيء دورة ، فالوردة الجميلة الممتلئة بالنضارة تذبل بعد أن تفقد مائيتها ، ويضيع منها اللون ، ثم تصير تراباً . وأنت حين تشم الوردة فهذا يعنى أن ما فيها من عطر إنما يتبخّر مع المياه التي تخرج منها بخاراً ، ثم تذبل وتحلل بعد ذلك .

إذن : فللوردة دورة حياة . وأنت إن نظرت إلى أى عنصر من عناصر الحياة مثل المياه سوف تجد أن الكمية الموجودة من الماء ساعة خلق الله السموات والأرض هي بعينها ؛ لم تزد ولم تنقص . وقد شرحنا ذلك من قبل . وكل شيء تنتفع به له دورة ، والدورة تُسلم لدورة أخرى ، وأنت مستفيد بين هذه الدورات ؛ هدماً وبناءً .

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذي يعيشون فيه<sup>(١)</sup> ؛ لأن النظر في الكون وتأمل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

(١) ضللنا في الأرض : قال أبو منصور : الأصل في كلام العرب أن يقال : أضللت الشيء إذا غيبيته ، وأضللت الميت : دفنته . فالضلال من معانيه : الفساد والمعصيان ونقض الهداية والرشاد . ومن معانيه : التفتيت والدفن . فكانهم يقولون : «إِذَا دُفِنَّا رَغِينَا تَحْتَ الْأَرْضِ» . فهل نحيا من جديد ؟ فيردّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..﴾ (١٥٦) ﴿[الروم]﴾ . [إنسان العرب : مادة (ضلل) - بتصرف] .

(٢) وقد حكى الله تعالى عنهم هذا فقال : ﴿وَكَانَ مِنْ آيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٥٠) ﴿[يوسف]﴾ ويقول سبحانه : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مُخَفًّوْطًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٢٤) ﴿[الأنبياء]﴾ .

[الأنبياء]

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ<sup>(١)</sup> نُعِيدُهُ .. (١٠٤)﴾

وهؤلاء الذين لا يرجعون لقاء الله يأتي القرآن بما جاء على ألسنتهم: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ .. (١٠٥)﴾ [يونس]

هم هنا يطلبون طلبين: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

أى: يطلبون غير القرآن. ولنلاحظ أن المتكلم هو الله سبحانه ؛ لذلك فلا تفهم أن القولين متساويان .

﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هما طلبان: الطلب الأول: أنهم يطلبون قرآناً غير الذى نزل . والطلب الثانى: أنهم يريدون تبديل آية مكان آية ، وهم قد طلبوا حذف الآيات التى تهزأ بالأصنام ، وكذلك الآيات التى تنوعدهم بسوء المصير<sup>(٢)</sup> .

ويأتى جواب من الله سبحانه على شق واحد مما طلبوه وهو المطلب الثانى ، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ ولم يرد الحق سبحانه على قولهم: ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ .

وكان مقياس الجواب أن يقول: « ما يكون لى أن أتى بقرآن غير هذا أو أبدله » ؛ لكنه اكتفى بالرد على المطلب الثانى ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ ؛ لأن الإتيان بقرآن يتطلب تغييراً للكل . ولكن التبديل هو الأمر السهل . وقد نفى

(١) عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٢٤) بنحوه ، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ لمسلم .

(٢) وهذا يتفق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٢٤٥) لهذه الآية . قال: فى قولهم ذلك ثلاثة أوجه: أحدها: أنهم سألوه أن يعزك الوعد وعيداً والزعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً . قاله ابن جرير الطبرى .

الثانى: سألوه أن يسقط ما فى القرآن من عيب ألهمهم وتسفيه أحلامهم . قاله ابن عيسى .

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور . قاله الزجاج .

الأسهل ؛ ليسلموا أن طلب الأصعب منفي بطبيعته .

وأمر الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾<sup>(١)</sup>  
 أى : أن أمر التبديل وارد ، لكنه ليس من عند رسول الله ﷺ . بل  
 بأمر من الله سبحانه وتعالى ، إنما أمر الإتيان بقرآن غير هذا ليس وارداً .  
 إذن : فالتبديل وارد شرط ألا يكون من الرسول ﷺ ، ولذلك قال الحق  
 سبحانه :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ (١) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ .. (١-١)﴾ [النحل]  
 وهو ما تذكره هذه الآية : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾  
 و﴿تَلْقَاءِ﴾ من «لقاء» ؛ فتقول : «لقيت فلاناً» ، ويأتى المصدر من جنس  
 الفعل أو حروفه ، ويسمون «التلقاء» هنا : الجهة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ (٣) .. (٢٢)﴾ [القصاص]

(١) يقول سبحانه وتعالى عن محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (١) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٢) ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٣) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ (٤)﴾ [الحاقة] ، فهذا تأكيد أن محمداً ﷺ لا يستطيع أن يزيد أو ينقص فيما يوحى إليه من عند الله ، وإلا لبطش الله به ولقطع نياط قلبه وأمانته .

(٢) وهذا هو نسخ التبديل ؛ للتيسير على الناس أو لحكم يعلمها الله سبحانه ، والتيسير ورفع الخرج هو من مقاصد الشريعة ، يقول سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ خَرَجٍ مُثْقَلٍ أَوْ إِكْرَاهٍ وَهُوَ سَعَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ .. (٧٨)﴾ [الحج] ويقول تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (٩٧)﴾ [البقرة] والنسخ فى القرآن أنواع :

١- ما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، قالت عائشة : كان فيما أنزل عشر رخصات معلومات فنسخن بخمس معلومات .

٢- ما نسخ حكمه دون تلاوته ، وهو قليل جداً فى القرآن ، وأكثر فيه بعض الناس بغير مقتضى .

٣- ونسب نسخ شرائع من قبلنا وما كان عليه الأمر فى الجاهلية . انظر : الانتقان فى علوم القرآن للتيسير طى (٣/ ٥٩ - ٧٧) .

(٣) مَدْيَن : اسم قرية شعيب - عليه السلام .

و«تلقاء مدين» أى: جهة مدين . و«التلقاء» قد تأتى بمعنى اللقاء ؛ لأنك حين تقول : «لقيته» أى : أنا وفلان التقينا فى مكان واحد ، وحين نتوجه إلى مكان معين فتحن نوجد فيه ، ويظن بعض الناس أن كل لفظ يأتى لمعنيين يحمل تناقضاً ، ونقول : لا ، ليس هناك تناقض ، بل انفكاك جهة ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .. ﴾ (١٤٤) [البقرة]

والشطر معناه: الجهة ؛ ومعناه أيضاً: النصف ، فيقال : «أخذ فلان شطر ماله» ، أى: نصفه ، و«اتجهت شطر كذا» ، أى: إلى جهة كذا . وهذه معان غير متناقضة ؛ فالإنسان من ساعة يقف فى أى مكان ؛ يصبح هذا المكان مركزاً لمراتبه ، وما حوله كله محيطاً ينتهى بالأفق .

ويختلف محيط كل إنسان حسب قوة بصره ، ومحيط الرؤية ينتهى حين يُخيّل لك أن السماء انطبقت على الأرض ، هذا هو الأفق الذى يخصك ، فإن كان بصرك قوياً فأفقك يتسع ، وإن كان البصر ضعيفاً يضيق الأفق .

ويقال : «فلان ضيق الأفق» أى : أن رؤيته محدودة ، وكل إنسان منا إذا وقف فى مكان يصير مركزاً لما يحيطه من صَراء ؛ ولذلك يوجد أكثر من مركز ، فالمقابل لك نصف الكون المرتى ، وخلفك نصف الكون المرتى الآخر ، فإذا قيل : إن «الشطر» هو «النصف» ، فالشطر أيضاً هو «الجهة» .

(١) شَطْر الشيء : ناحيته ، وشَطْر كل شيء : نحوه وقصدّه ، وقصدتُ شَطْرَهُ أى : ناحيته . «وشَطْرُ المسجد الحرام» : نحوه وتلقاه . قال تعالى : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. ﴾ (١١١) [البقرة] . وشَطْرُ الشيء : نصفه ، والجمع : أشطر ، وشَطْرور . وشَطْرته : جعلته نصفين ، وشاطرته ماله : ناصفه . وفى الحديث : أن سعداً استأذن النبي ﷺ أن يصدق نجاله كله ، قال : «لا» قال : «لا» قال : «لا» قال : «لا» قال : «لا» . وفى الحديث : «الظهور شَطْرُ الإيمان» أخرجه مسلم فى قال : الظن ، فقال : «الثلث» ، والثلث كثير . وفى الحديث : «الظهور شَطْرُ الإيمان» أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن مالك الأشعرى (٢٢٣) ؛ لأن الإيمان يظهر بحاشية الباطن ، والظهور يظهر بحاشية الظاهر . [اللسان العرب : مادة «شَطْر» - يتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَنْتَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

أى : أنه ﷺ لا يأتى بالقرآن من عند نفسه ﷺ ، بل يُوحَى إليه .  
ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .. (١٥)﴾ [يونس]

أى : أنه ﷺ لو جاء بشيء من عنده ، ففى هذا معصية لله تعالى ، ونعلم أن رسول الله ﷺ لم يُعرف عنه أنه كان شاعراً ، ولا كان كاتباً ، ولا كان خطيباً . وبعد أن نزل الوحي عليه من الله جاء القرآن فى منتهى البلاغة .

وقد نزل الوحي ورسول الله ﷺ فى الأربعين من عمره ولا توجد عبقرية يتأجل ظهورها إلى هذه المرحلة من العمر ، ولا يمكن أن يكون النبى ﷺ قد أجّل عبقريته إلى هذه السن ؛ لأنه لم يكن بضمن أن يمتد به العمر .

ويأتى لنا الحق سبحانه بالدليل القاطع على أن رسول الله ﷺ لا يتبع إلا ما يُوحى إليه فيقول :

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾ [يونس]

ويأتى الأمر بالردّ من الحق سبحانه على الكافرين :

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ فِيهِ ۖ فَمَا تَلَوْتُمْ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾

وهنا يبلغ محمد ﷺ هؤلاء الذين طلبوا تغيير القرآن أو تبديله : لقد عشت طوال عمري معكم ، ولم تكن لي قوة بلاغة أو قوة شعر ، أو قوة أدب . فمن له موهبة لا يكتبها إلى أن يبلغ الأربعين ، ورأيت أنه ﷺ لم يجلس إلى معلم ، بل عندما اتهمتموه وقتلتم :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۖ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وفضحكم الحق سبحانه بأن أنزل في القرآن قوله تعالى :

﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٤) ﴾ [النحل]

ولم يخرج النبي ﷺ من شبه الجزيرة العربية ، ولم يقرأ مؤلفات أحد . فمن أين جاء القرآن إذن ؟

لقد جاء من الله سبحانه ، وعليكم أن تعقلوا ذلك ، ولا داعي للاتهام بأن القرآن من عند محمد ، لأنكم لم تجربوه خطيباً أو شاعراً ، بل كل ما جاء به رسول الله ﷺ ، بعد أن نزلت عليه الرسالة ، هو بلاغ من عند الله .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يُنسب الكمال إلى إنسان فينتفيه ، فالعادة أن

(١) لحَدَّثَ في الدين والحدِّ والتحدُّ : مال عنه ، وحاذ ، وابتعد . والإلحاد : الخدال والمراء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۖ (١٠٤) ﴾ [فصلت] وقال تعالى : ﴿ رَفَعُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا (١٠٥) ﴾ [الأعراف] : والإلحاد : الظلم والجور . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ الْإِلْحَادَ يَظْلَمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ (١٠٦) ﴾ [الحج] . والإلحاد في اللغة : الميل عن القصد . وقوله : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۖ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٧) ﴾ [النحل] وأصل الإلحاد : الميل والعدول عن الشيء . والمُلْحِد : الملجأ ، لأن اللاجئ يميل إليه . [لسان العرب : مادة (لحذ) - ينصرف] .

(٢) عجم : العجم والعجم : بخلاف العرب والعرب . ورجل عجمي وعجمي : غير عربي . قال أبو إسحاق : الأعجم : الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربياً . والعجمي هو الذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٠٨) قَفَرَاءَ عَلَيْهِمْ مَا تَكَلَّمُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٠٩) ﴾ [الشعراء] .

يسرق شاعر - مثلاً - قصيدة من شاعر آخر ، أو أن يتحلل<sup>(١)</sup> كاتب مقالة من آخر ، لكن رسول الله ﷺ يبلغكم أن كمال القرآن ليس من عنده ، بل هو مجرد مبلغ له ، وكان يجب أن يتعمقوا تلك القضية بمقدماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان<sup>(٢)</sup> ؛ ليكذبوا ويغاندوا ، فالأمر بسيط جداً<sup>(٣)</sup> .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

[يونس]

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن رسول الله ﷺ قد أرسله الله رسولا من أنفسهم<sup>(٤)</sup> ، فإن قلت :

﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (١٦٤)

[آل عمران]

أى : أنه ﷺ من جنس الناس ، لا من جنس الملائكة ، أو ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : من أمة العرب ، لا من أمة العجم ، أو ﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : من قبيلتهم التي يكذب أصحابها رسول الله ﷺ .

إذن : فحياته ﷺ معروفة معلومة لكم ، لم يَغِبْ عنكم فترة ؛ لتقولوا

(١) يتحلل الشيء : يشبه إلى نفسه . تحلله القوي : شبه إليه . وتحلل الشاعر قصيدة إذا نسبت إليه وهي من قبل غيره . [لسان العرب : مادة نحل] .

(٢) العنان : عنان اللجام : السَّيْر الذي تُمسك به الدابة ، والجمع : أعنة . والعنان : الحبل . والمراد هنا : تشبيه الأفكار بالسيور الذي له عقال أو عنان ؛ إذا أرغبت له سار وانطلق كما يشاء ويهوى على غير هدى . والعنان للذَّراب كالعقل للإنسان فإذا قصد العقل ضلَّ صاحبه ، وإذا لم يعقل الإنسان أفكاره ضلَّ . [لسان العرب : مادة عنن] - بتصرف .

(٣) فرسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَقْرَأُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ يَمِينُكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٩٨) [التكوير] .

(٤) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٧) [التوبة] .



بُعثَ بعثةٌ ؛ ليتعلَّم علماً من مكانٍ آخر ، ولم يجلس إلى معلِّم عندكم  
ولاً إلى معلِّم خارجكم ، ولم يَتَلُ كتاباً ، فإذا كان الأمر كذلك ،  
فيجب أن تأخذوا من هذا مقدِّمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه  
الحكمة فجأة ؟

أنتم تعلمون أن المواهب والعبقريات لا تنشأ في الأربعينات ، ولكن  
مخايل العبقرية إنما تنشأ في نهاية العقد الثاني وأوائل العقد الثالث ، فمن  
الذي أحرَّ العبقرية عند رسول الله ﷺ ليقول هذا القول البليغ الذي  
أعجزكم ، وأنتم أمة البلاغة وأمة الفصاحة المرتاضون <sup>(١)</sup> عليها من قديم ،  
وعجزتم أمام ما جاء به محمد ﷺ ؟

كان يجب أن تقولوا : لم نعرف عنه أنه يعلم شيئاً من هذا ، فإذا حلَّ لكم  
اللغز وأوضح لكم : أن القرآن ليس من عندي ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛  
لأنه ﷺ يعزوه إلى خالفه وربه سبحانه . والدليل على أنكم مضطربون في  
الحكم أنكم ساعة تقول لكم : القرآن بلاغ عن الله ، تكذبونه ، وتقولون :  
لا ، بل هو من عندك ، فإذا فترَ عنه الوحي مرة قلتم : فلاه <sup>(٢)</sup> ربه .

لماذا اقتنعتم بأن له رباً يَصِلُهُ بالوحي ويهجره بلا وحي ؟

أنتم - إذن - أنكرتم حالة الوصل بالوحي ، واعترفتم بالإله الخالق عندما  
غاب عنه الوحي ، وكان يجب أن تسبِّهوا وتعودوا إلى عقولكم ؛ لتحكموا  
على هذه الأشياء ، وقد ذكر الحق سبحانه ذلك الأمر في كثير من آياته ،  
يقول سبحانه :

(١) المرتاضون : الذين لهم تربية ، قد قللت ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة .  
(٢) فلاه ربه : أبغضه وتركه . ولذلك قال له ربه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الصحيح] .

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ﴾ <sup>(١)</sup> **أَنَّهُمْ يَكْفُلُ** <sup>(٢)</sup> **مَرْيَمَ** <sup>(٣)</sup> ﴿٤٤﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ <sup>(٤)</sup> **إِذْ قُضِيَ** <sup>(٥)</sup> **إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ** . ﴿٤٥﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ تَارِيًا﴾ <sup>(٦)</sup> **فِي أَهْلِ مَدْيَنَ** .. ﴿٤٦﴾ [القصص]

ويقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ <sup>(٧)</sup> ﴿٤٨﴾ [العنكبوت]

فمن أين جاءت تلك البلاغة ؟ كان يجب أن تأخذوا هذه المقدمات ؛ لتحكموا بأنه صادق في البلاغ عن الله ؛ لذلك يُنهي الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد حواطرها عنها بقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

وحين ينبهك الحق سبحانه وتعالى إلى أن تستعمل عقلك ، فهذا دليل على الثقة في أنك إذا استعملت عقلك ؛ وصلت إلى القضية المرادة . والله

(١) أَفْلَاهُمْ : سباهم ، وقيل : أَفْلَاهُمْ التي كانوا يكتوبون بها التوراة . قال الزجاج : الأفلام هنا : الفداح . وهي قديح جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم ، على جهة القرعة ، وإنما قيل للسهم : القلم ؛ لأنه يُقْلَم ، أي : يُبْرَى . وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شئ ، فقد قُلِّعَتْ ، من ذلك القلم الذي يكتب به ، وإنما سُمِّيَ قلماً ؛ لأنه قُلم مرة بعد مرة ، ومن هنا قيل : قُلِّمْتُ أطفاني . قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ .. ﴿١٧﴾ [القصص] . [لسان العرب : مادة (قلم) - يتصرف] .

(٢) يكفل : يعول ، والكافل : العائل . قال تعالى : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ .. ﴿١٧﴾ [آل عمران] .

(٣) الغربي : الجبل الغربي الذي كَلَّم الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام عنده من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي المقدس (هَلَوِي) . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٩١ - يتصرف] .

(٤) تارياً : متقيماً والشواء : الإقامة ، ثوبت بالمكان : أقمت فيه . قال تعالى : ﴿وَمَا وَاعَاهُ النَّارُ وَيَنْسُ مَقْوَى الظَّالِمِينَ﴾ .. ﴿١٧﴾ [آل عمران] ، [لسان العرب : مادة (ثوا) - يتصرف] .

سبحانه وتعالى مُنْزَهٌ عَنْ خَدِيعَةِ عِبَادِهِ ، فَمَنْ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ هُوَ مَنْ يَحَاوِلُ أَنْ يَصِيبَ عَقْلَهُ بِالْغَفْلَةِ ، لَكِنَّ الَّذِي يَنْبَغِي الْعَقْلُ هُوَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ دَلِيلَ الْحَقِيقَةِ الْمُنَاسِبَةَ لِمَا يَقُولُ ، يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ بِالْعَقْلِ .

وَقَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الْقَضِيَّةَ الَّتِي كَذَّبُوا فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَشَأَتْ مِنْ عَدَمِ اسْتِعْمَالِ عَقُولِهِمْ ، فَلَوْ أَنَّهُمْ اسْتَعْمَلُوا عَقُولَهُمْ فِي اسْتِخْدَامِ الْمَقْدِمَاتِ الْحَسَنَةِ الَّتِي يُؤْمِنُونَ بِهَا وَيَسْلُمُونَ ؛ لَانْتَهَوْا إِلَى الْقَضِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ الَّتِي يَقُولُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَالُوا : مُحَمَّدٌ نَشَأَ بَيْنَنَا وَلَمْ نَعْرِفْ لَهُ قِرَاءَةً ، وَلَا تِلَاوَةَ كِتَابٍ وَلَا جُلُوساً إِلَى مَعْلَمٍ ، وَلَمْ يَنْبَغِ عِنَّا فِتْرَةٌ لِيَتَعَلَّمَ ، وَظَلَّ عِدَّةٌ طَوِيلَةً إِلَى مَنْ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَرْتَضِ عَلَى قَوْلٍ وَلَا عَلَى بِلَاغَةٍ وَلَا عَلَى بَيَانٍ ؛ فَمَنْ أَيْنَ جَاءَتْهُ هَذِهِ الدَّفْعَةُ الْقَوِيَّةُ ؟

كَانَ يَجِبُ أَنْ يَسْأَلُوهُ هُوَ عَنْهَا : مَنْ أَيْنَ جَاءَتْكَ هَذِهِ ؟ وَمَا دَامَ قَدْ قَالَ لَهُمْ : إِنَّهَا جَاءَتْهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَصْدُقُوهُ .

وَمَهْمَةُ الْعَقْلِ دَائِمًا مَأْخُودَةٌ مِنْ اِشْتِقَاقِهِ ، « فَالْعَقْلُ » <sup>(١)</sup> مَأْخُودٌ مِنْ « عَقَالِ » الْبَعِيرِ . وَعَقَالُ الْبَعِيرِ هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي تَرْبِطُ بِهِ سَاقِي الْجَمَلِ ؛ حَتَّى لَا يَنْهَضَ وَيَقُومَ ؛ لِتَوْقُرَ لَهُ حَرَكَتُهُ فَيَمَّا نَحْبُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِيهِ ، فَيَبْدُلًا مِنْ أَنْ يَسِيرَ هَكَذَا بِدُونِ غَرَضٍ ، وَبِدُونِ قَصْدٍ ، فَتُحْنُ تَرْبِطُ سَاقِيهِ ؛ لِتُرْتَاحَ وَلَا يَتَحَرَّكَ ، إِلَى أَنْ نَحْتَاجُهُ فِي حَرَكَةٍ .

إِذَنْ : فَالْعَقْلُ إِذَا جَاءَ ؛ لِيَحْكُمَ الْمَلَكَّاتِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَلَكَّةٍ لَهَا نَزْوِعٌ إِلَى شَيْءٍ ، فَالْعَيْنُ لَهَا مَلَكَّةٌ أَنْ تَرَى كُلَّ شَيْءٍ ، فَيَقُولُ لَهَا الْعَقْلُ : لَا دَاعِيَ أَنْ

(١) الْعَقْلُ : النَّهْيُ ، ضِدُّ الْحَقْنِ ، وَعَقْلٌ يَعْقِلُ فَهُوَ عَاقِلٌ . قَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ : الرَّجُلُ الْعَاقِلُ هُوَ الْجَمَاحُ لِأَمْرِهِ وَرَأْيِهِ ، مَأْخُودٌ مِنْ عَقَلَتِ الْبَعِيرَ إِذَا جَمَعَتْ قِرَانَهُ ، وَقِيلَ : الْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْبِسُ نَفْسَهُ وَيَرْدَعُهَا عَنْ هَوَاهَا . وَالْعَقْلُ : التَّيَبُّتُ فِي الْأُمُورِ .

تشاهدى ذلك ؛ لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أن تسمع كل قول ، فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك ؛ حتى لا يضررك <sup>(١)</sup> .

إذن : فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح . وكذلك كلمة «الحكمة» ، مأخوذة من «الحَكَمَة» <sup>(٢)</sup> وهى فى «اللَّجَام» الذى يوضع فى فم الفرس ؛ حتى لا يجمع ، وتظل حركته محسوبة ؛ فلا يتحرك إلا إلى الاتجاه الذى تريده .

إذن : شاء الحق سبحانه أن يميز الإنسان بالعقل والحكمة ؛ ليقيم الموازين للملكات النفس ؛ فخذوا المقدمات المحسنة التى تؤمنون بها وتشهدونها وتسلمونها لرسول الله ﷺ لتستنبطوا أنه جاء بكلامه من عند الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِآيَاتِهِ إِنَّكَ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

وهنا يوضح القرآن على لسان الرسول ﷺ : أكذب على الله ؟ إذا كنت لم أكذب عليكم أنتم فى أمورى معكم وفى الأمور التى جريتموها ، أفأكذب على الله ؟ ! إن الذى يكذب فى أول حياته من المعقول أن يكذب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء] .

(٢) حكمة اللجام : ما أحاط بحنكى الفرس ، سميت بذلك لأنها تمتنع من الجرى الشديد . وقيل : الحكمة حديدة فى اللجام تكون على أنف الفرس وحكمة تمتنع عن مخالفة رآيه . [لسان العرب : مادة (حكم)] .

وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : «ما من آدمى إلا فى رأسه حكمة بيد ملك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبر قيل للملك : ضع حكمته» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٢٩٣٩) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٨٢ / ٨) وقال : إسناده حسن .

(٣) افترى : اختلق . الفرية : الكذب . و«افترى» تفيد المبالغة فى الكذب .

فى الكِبَر ، وإذا كنت لم أكذب عليكم أنتم ، فهل أكذب على الله ؟  
وإذا لم أكن قد كذبت وأنا غير ناضج التفكير ، فى طفولتى قبل أن أصل  
إلى الرجولة ، فأنا الآن لا أستطيع الكذب . فإذا كنتم أنتم تتهمونى بذلك ،  
فأنا لا أظلم نفسى وأتهمها بالكذب ، فتصبحون أنتم المكذبين ؛ لأنكم  
كذبتُمونى فى أن القرآن مبلغ عن الله ، ولو أننى قلت : إنه من عند نفسى  
لكان من المنطق أن تُكذِّبوا ذلك ؛ لأنه شرف يدعى . ولكن أرفعه إلى  
غيرى ؛ إلى من هو أعلى منى ومنكم .

وقوله الحق : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى : لا أحد أظلم ممن افترى على الله سبحانه  
كذباً ؛ لأن الكاذب إنما يكذب ليدلّس على من أمامه ، فهل يكذب أحد  
على من يعلم الأمور على حقيقتها ؟ لا أحد بقادر على ذلك . ومن يكذب  
على البشر المساوين له يظلمهم ، لكن الأظلم منه هو من يكذب على الله  
سبحانه .

والافتراء كذب متعمد ، فمن الجائز أن يقول الإنسان قضية يعتقد بها ،  
لكنها ليست واقعاً ، لكنه اعتقد أنها واقعة بإخبار من يثق به ، ثم تبين بعد  
ذلك أنها غير واقعة ، وهذا كذب صحيح ، لكنه غير متعمد ، أما الافتراء  
فهو كذب متعمد .

ولذلك حينما قسم علماء اللغة الكلام الخبرى ؛ قسموه إلى : خبر  
وإنشاء ، والخبر يقال لقائلة : صدقت أو كذبت ، فإن كان الكلام يناسب  
الواقع فهو صدق ، وإن كان الكلام لا يناسب الواقع فهو كذب .

وقوله الحق : ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ يبين لهم رسول الله  
ﷺ : إن قلتم إننى ادعيت أن الكلام من عند الله ، وهو ليس من عند  
الله . فهذا يعنى أن الكلام كذب وهو من عندى أنا ، فما موقف من  
يكذب بآيات الله ؟

إن الكذب من عندكم أنتم ، فإن كنتم تكذبوننى وتدعون أنى أقول إن هذا من الله ، وهو ليس من الله ، وتتمادون وتكذبون بالآيات وتقولون هى من عندك ، وهى ليست من عندى ، بل من عند الله ؛ فالإثم عليكم .

والكذب إما أن يأتى من ناحية القاتل ، وإما من ناحية المستمع ، وأراد الرسول ﷺ عدالة التوزيع فى أكثر من موقع ، مثلما يأتى القول الحق مبيّناً أدب النبوة :

﴿وَأَنَا أَوْ بِإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤) [سبا]

وليس هناك أدب فى العرض أكثر من هذا ، فيبين أن قضيته ﷺ وقضيتهم لا تلتقيان أبداً ، واحدة منهما صادقة والأخرى كاذبة ، ولكن من الذى يحدد القضية الصادقة من الكاذبة ؟ إنه الحق سبحانه .

وتجده سبحانه يقول على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفى ذلك طلب لأن يعرضوا الأمر على عقولهم ؛ ليعرفوا أى القضيتين هى الهدى ، وأيهما هى الضلال (٢٢) .

وفى ذلك ارتقاء للمجادلة بالتى هى أحسن من رسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه :

(١) هذا من باب اللف والنشر ، وهو لون من ألوان البديع فى القرآن ، وتعريفه : « أن يذكر شيئاً أو أشياء ، إما تفصيلاً بالتص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عبدة ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويؤرخ إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، (الإنفاق فى عبود القرآن للسيرى ٢٧٩/٣ ، ٢٨٠) وهو هنا تفصيلى ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَسُكِّنُوا فِيهِ وَتَجَنَّبُوا مِنْ فَضِيلِهِ ..﴾ (٥٥) [القصص] ، فالسكون راجع إلى الليل ، والإنفاق راجع إلى النهار .

(٢) وقد استخدم صحابة رسول الله ﷺ هذا المنهج مع المشركين ، فكانوا يقولون لهم : « والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين نهتد » ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٣٨/٣) من قول قتادة . وهو دعوة لإعمال الفكر والعقل من جانب المشركين .

﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ... ﴾ (٢٥) [أ]

أى : كل واحد سيُسأل عن عمله ، فجزيمتك لن أسأل أنا عنها ، وجزيمتى لا تُسأل أنت عنها . ونسب الإجماع لجهته ولم يقل : " قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا تُسأل عما نجرمون " وشاء ذلك ليرتقى فى الجدل ، فاختار الأسلوب الذى يهذب ، لا ليهيج الخصم ؛ فيعاند ، وهذا من الحكمة ؛ حتى لا يقول للخصم ما يسبب توتره وعناده فيستمر الجدل بلا طائل .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ فإذا كان الظلم من جهتى ؛ فسوف يحاسبني الله عليه ، وإن كان من جهتكم ؛ فاعلموا قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ولم يحدد من المجرم ، وترك الحكم للسامع .

كما تقول لإنسان له معك خلاف : سأعرض عليك القضية واحكم أنت ، وساعة تفوضه فى الحكم ؛ فلن يصل إلا إلى ما تريد . ولو لم يكن الأمر كذلك لما عرضت الأمر عليه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ  
وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُشْرِكُونَ  
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى  
عَمَّا يُشْرِكُونَ <sup>(١)</sup> (١٨) ﴾

(١) قال الجوهري : الشرك الكفر . وأشرك يشرك إشراكاً فهو مشرك وهم مشركون . وفى الحديث : « الشرك أخفى من ديب النمل » ، قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل فكانه أشرك فى عمله غير الله . وفى الحديث : « من خلف بغير الله فقد أشرك » . [ اللسان : مادة (شرك) بتصرف ] .

وكلمة ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ تقتضى وجود عابد ؛ ووجود معبود ؛ ووجود معنى للعبادة . والعابد أدنى جالاً من المعبود ، ومظهر العبادة والعبودية كله طاعة للأمر والانصراف عن المنهى عنه .

هذا هو أصل العبادة ، ووسيلة القرب من الله .

وحتى تكون العبادة فى محلها الصحيح لا بد أن يقر العابد أن المعبود أعلى مرتبة فى الحكم على الأشياء ، أما إن كان الأمر بين متساويين فيسمونه التماساً .

إذن : فهناك أمر ومأمور ، فإن تساويا ؛ فالمأمور يحتاج إلى إفتاح ، وأما إن كان فى المسألة حكم سابق بأن الأمر أعلى من المأمور ؛ كالأستاذ بالنسبة للتلميذ ، أو الطبيب بالنسبة للمريض ، ففى هذا الوضع بطبع المأمور الأمر لأنه يفهم الموضوع الذى يأمر فيه .

وكذلك المؤمن ؛ لأن معنى الإيمان أنه آمن بوجود إله قادر له كل صفات الكمال المطلق ؛ فإذا اعتقدت هذا ؛ فالإنسان ينفذ ما يأمر به الله ؛ ليأخذ الرضاء والحب والثواب . وإن لم ينفذ ؛ فسوف ينال غضب المعبود وعقابه .

إذن : فأنت إن فعلت أمره واجتبت نهيه ؛ نلت الثواب منه ، وإن خالفت ؛ تأخذ عقاباً ؛ لذلك لا بد أن يكون أعلى منك قدرة ، ويكون قادراً على إنفاذ الثواب والعقاب ، والقادر هو الله جل علاه .

أما الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فبأى شيء أمرتهم ؟ إنها لم تأمر بشيء ؛ لذلك لا يصلح أن تكون لها عبادة ؛ لأن معنى العبادة يتطلب أمراً ونهياً ، ولم تأمر الأصنام بشيء ولم تنه عن شيء ، بل كان المشركون هم الذين يقترحون الأوامر والنواهي ، وهو أمر لا يليق ؛ لأن المعبود هو الذى عليه أن يحدد أوجه الأوامر والنواهي .



إِذَنْ : فَمَنْ الْحَقُّ <sup>(١)</sup> أَنْ يَعْبُدَ أَحَدُ الْأَصْنَامِ ؛ لِأَنَّهُ لَا تَضُرُّ مِنْ خِلَافِهَا ، وَلَا تَنْفَعُ مِنْ عِبَادَتِهَا ، فَلَيْسَ لَهَا أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ .

وَمَنْ أَوْقَفُوا أَنْفُسَهُمْ هَذَا الْمَوْقِفَ نَسُوا أَنْ فِي قُدْرَةِ كُلِّ مَتْنَمٍ أَنْ يَنْفَعِ الصَّنَمَ وَأَنْ يَضُرَّهُ ، فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَ الصَّنَمَ ، وَأَنْ يَصْلَحَهُ إِذَا انْكَسَرَ ، أَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْسِرَهُ بِأَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى الْأَرْضِ . وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ الْعَابِدُ أَقْدَرُ مِنَ الْمَعْبُودِ عَلَى الضَّرَرِ وَعَلَى النِّفْعِ ، وَهَذَا عَيْنُ التَّخَلُّفِ الْعَقْلِيِّ .

إِذَنْ : فَمِثْلُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ لَوْنٍ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَوْ عُرِضَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ عَلَى الْعَقْلِ ؛ فَيَسُوفُ يَرْفُضُهَا الْعَقْلُ السَّلِيمُ .

وَعِنْدَمَا تَجَادَلُهُمْ ، وَتَثْبِتَ لَهُمْ أَنَّ تِلْكَ الْأَصْنَامَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، تَجِدُ مِنْ يَكَايِرٍ قَائِلًا : ﴿ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ بِمَعْتَرِفُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَضُرُّ ، وَلَكِنْ أَمَا كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَّخِذُوا شَفِيعًا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنْ يَكُونَ الشَّفِيعُ مَتَمَتًا بِمَكَانَةٍ وَمَحَبَّةٍ عِنْدَ مَنْ يَشْفَعُ عِنْدَ <sup>(٢)</sup> ؟

ثُمَّ مِذَا يَقُولُونَ فِي أَنْ مَنْ تَقْدِمُ لَهُ شَفَاعَةٌ هُوَ الَّذِي يَنْهَى عَنْ اتِّخَاذِ الْأَصْنَامِ آلِهَةً وَيَنْهَى عَنْ عِبَادَتِهَا ؟

وَهَلْ هُنَاكَ شَفَاعَةٌ دُونَ إِذَنْ مِنَ الْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ ؟ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ الْأَمْرُ مِنَ الْحَقِّ بِسَبْحَانِهِ لِرَسُولِهِ ﷺ :

(١) الْحَقُّ : وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَالْحَقُّ : ضِدُّ الْعَقْلِ أَوْ قُلَّةُ الْعَقْلِ وَضَعْفُهُ . وَالْجَمِيعُ : الْحَمْرُ ؛ لِأَنَّهَا تَعْقِبُ شَارِبِيهَا الْحَقَّ . وَالْأَحْمَقُ مَا خُذَ مِنْ اتِّعَاقِ السُّوقِ إِذَا كَسَدَتْ ، فَكَأَنَّهُ قَسَدَ عَقْلِهِ حَتَّى كَسَدَ . قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْحَقُّ أَصْلُهُ الْكَسَادُ . وَيُقَالُ : الْأَحْمَقُ الْكَاسِدُ الْعَقْلُ . وَالْحَقُّ أَيْضًا : الْغُرُورُ . وَاتَّحَقَّ الرَّجُلُ : ضَعُفَ عَنِ الْأَمْرِ . [ اللِّسَانُ : مَادَّةُ ( حَقِّ ) ] .

(٢) يَقُولُ سَبْحَانَهُ : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [ طه ] ، إِنْ ادَّعَى الْمُشْرِكِينَ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ - ادَّعَاءٌ بِاطْلٍ وَمَعَ بَطْلَانِهِ اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَشَفَاعَةُ اللَّهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْحَبِيبِ وَمُحِبِّهِ فَرَضًا وَفَضْلًا .

﴿قُلْ أَتَنبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١٨)

[يونس]

إذن : فمن أين جئتم بهذه القضية ؛ قضية شفاعة الأصنام لكم عند الله ؟ إنها قضية لا وجود لها ، وسبحانه لم يبلغكم أن هناك أضناماً تشفع ، وليس هذا وارداً ، فقولكم هذا فيه كذب متعمد وافتراء .

فهو سبحانه الذى خلق السموات وخلق الأرض ، ويعلم كل ما فى الكون ، وقضية شفاعة الأصنام عنده ليست فى علمه ، ولا وجود لها ، بل هى قضية مفتراة ، مُدَّعاة .

وقوله الحق هنا : ﴿أَتَنبِئُونَ اللَّهَ﴾ مثلها مثل قوله الحق :

[الحجرات]

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ..﴾ (١٦)

ويعنى هذا القول بالرد على من قالوا ويقولون : إن المطلوب هو تشريعات تناسب العصر ، وكلما فسد العصر طالبوا بتشريعات جديدة ، وما داموا هم الذين يشرعون ، فكأنهم يرغبون فى تعليم خالقهم كيف يكون الدين ، وفى هذا اجتراء وجهل بقدرة وحكمة مَنْ خلق الكون ، فأحكمه بنظام .

وقوله الحق : ﴿قُلْ أَتَنبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه تنزيه له سبحانه ، فهو الخالق لكل شيء ، خالق الملك والملكوت ويعلم كل شيء ، وقضية شفاعة الأصنام إنما هى قضية مفتراة لا وجود لها ؛ لذلك فهى ليست فى علم الله ، والحق سبحانه مُنزَّه أن توجد فى ملكه قضية لها مدلول يقينى ولا يعلمها ، ومُنَزَّه جل وعلا عن أن يُشرك به ؛ لأن الشريك إنما يكون ليساعد من يشركه ، ونحن

نرى على سبيل المثال صاحب مال يديره في تجارة ما ، ولكن ماله لا ينهض بكل مسئوليات التجارة ، فيبحث عن شريك له .

وسبحانه وتعالى قوى وقادر ، ولا يحتاج إلى أحد في ملكية الكون وإدارته ، ثم ماذا يفعل هؤلاء الشركاء المدَّعون كذباً على الله ؟  
إن الحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا<sup>(١)</sup> إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا<sup>(٢)</sup> ﴾ [الإسراء]

وهذا القول الحكيم ينبه المشركين إلى أنه بافتراض جدلي أن هؤلاء الشركاء قوة وقدرة على التصرف ، فهم لن يفعلوا أى شيء إلا بابتغاء ذي العرش ، أى : بأمره سبحانه وتعالى . وهم حين ظنوا خطأ أن لكل فلك من الأفلاك سيطرة على مجال في الوجود ، وأن النجوم لها سيطرة على الوجود ، وأن كل برج من الأبراج له سيطرة على الوجود ، فلا بد في النهاية من الاستئذان من مالك الملك والملوك .

ومن خيبة من ظنوا مثل هذه الفنون ، ومعهم الفلاسفة الذين أقروا بأن هناك أشياء في الكون لا يمكن أن يخلقها إنسان ، أو أن يدعى لنفسه صناعتها ؛ لأن الجنس البشري قد ظراً على هذه المخلوقات ، فقد ظراً الإنسان على الشمس والقمر والنجوم والأرض ، ولا بد إذن أن تكون هناك قوة أعلى من الإنسان هي التي خلقت هذه الكائنات . كل هذه الكائنات تحتاج إلى مُوجد ، ولم نجد معاملاً لصناعة الشمس أو القمر أو الأرض أو وجدنا من ادعى صناعتها أو خلقها .

ولكن الفلاسفة الذين قبلوا وجود خالق للكون لم يصلوا إلى اسمه

(١) ابتغوا : طلبوا . قال تعالى : ﴿ قَدْ ابْتَغُوا الْقُبَّةَ مِنْ قَبْلُ وَقَالُوا لَكَ الْأَمْرُ ... ﴾ (٥٨) [التوبة] [اللسان : مادة (بغى) ] .

ولا إلى منهجه ، وقوة الحق سبحانه مطلقة ، ولا يحتاج إلى شريك له .  
وإذا أردنا أن نتأمل ولو جزءاً بسيطاً من أثر قوة الله التي وهبها للإنسان ،  
فلنتأمل صناعة المصباح الكهربى .

وكل منا يعلم أنه لا توجد بذرة نضعها فى الأرض ، فتنبت أشجاراً من  
المصابيح ، بل استدعت صناعة مصباح الكهربى جهد العلماء الذين درسوا  
علم الطاقة ، واستنبطوا من المعادلات إمكان تصور صناعة المصباح  
الكهربى ، وعملوا على تفريغ الهواء من الزجاجاة التى يوضع فيها السلك  
الذى يضىء داخل المصباح ، وهكذا وجدنا أن صناعة مصباح كهربى واحد  
تحتاج إلى جهد علماء وعمل مصانع ، كل ذلك من أجل إنارة غرفة واحدة  
لفترة من الزمن . فما بالنا بالشمس التى تضىء الكون كله ، وإذا كان أضع  
الأشياء يتطلب كمية هائلة من العلم والبحث والإمكانات الفنية والتطبيقية ،  
وتطوير للصناعات ، فما بالنا بالشمس التى تضىء نصف الكرة الأرضية  
كل نصف يوم ، ولا أحد يقدر على إطفائها ، ولا تحتاج إلى صيانة من  
البشر ، وإذا أردت أن تنسبها قلن تجد إلا الله سبحانه .

وأنت بما نتكره وتصنعه لا يمكن أن يصرفك عن الله ، والذى حقاً هو  
من يجعل ابتكاراته وصناعاته دليلاً على صدق الله فيما أخبر .

وإذا كان الحق سبحانه قد خلق الشمس<sup>(١)</sup> - ضمن ما خلق - وإذا أشرقت  
أطفاً الكل مصابيحهم ؛ لأنها هى المصباح الذى يهتدى الجميع ، وإذا كان  
ذلك هو فعل مخلوق واحد لله ، فما بالنا بكل نعمة من سائر مخلوقاته .  
ونور الشمس إنما يمثل الهداية الحسية التى تحمينا من أن نضطهد بالأشياء  
فلا تحطمنا ولا نحطمها ، فكذلك يضىء لنا الحق سبحانه المعانى والحقائق .

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ سَاءَ لِقَبِهِمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٢٥) ﴿ لَقَمَنَّا ﴾ ويقول  
سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ﴾ (٢٦) ﴿ الْأَنْبِيَاءُ ﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ  
شَاءَ لَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .. ﴾ (٢٧) ﴿ الْفُرْقَانِ ﴾ .

وإياك أن تقول : إن الفيلسوف الفلاني جاء بنظرية كذا ، فخذوا بها ، بل دع عقلك يعمل وقيس ما جاء بهذه النظرية على ضوء ما نزل في كتاب الحق سبحانه ، وإن دخلت النظرية مجال التطبيق ، وثبت أن لها تصديقاً من الكتاب ، فقل : إن الحق سبحانه قد هدى فلاناً إلى اكتشاف سر جديد من أسرار القرآن ، لأن الحق يريد منا أن نتعقل الأشياء وأن ندرسها دراسة دقيقة ، بحيث نأخذ طموحات العقل ، لنقربنا إلى الله ، لا لتبعدنا عنه ، والعباد بالله .

وإذا قال الحق سبحانه : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذلك لأن الشراكة تقتضي طلب المعونة ، وطلب المعونة يكون إما من المساوي وإما من الأعلى ، ولا يوجد مساو لله تعالى ، ولا أعلى من الله سبحانه وتعالى . ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا  
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ  
فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١١)

وقد جاءت آية في سورة البقرة متشابهة مع هذه الآية وإن اختلف الأسلوب ، فقد قال الحق سبحانه في سورة البقرة : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ (٢١٣) ، والذين يقرأون القرآن بسطحية وعدم تعمق قد

(١) الذين ذهبوا إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر ، فاختلَفوا في عبادة مظاهر القوى ، ثم أدركوا أن القوى الكونية زائلة ، فامتثلوا بالعقل إلى الله تعالى . هؤلاء نسوا الميثاق الأول في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَقَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٢٢) ، ولكن الناس كانوا أمة واحدة على فطرة الإيمان ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرَةَ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ (٣٠) ، فاختلَفوا بعبادة غير الله ، فبعث الله الرسل ، وإلا كان إرسال الرسل عبثاً إذا كان الناس أمة واحدة على الكفر واعتدوا بقولهم إلى الله سبحانه ، وهذا فهم قاصر .

لا يلتفتون إلى الآيات المشابهة لها في المعنى العام ، وهذه الآيات توازن بين المعاني فلا تضارب بين آية وأخرى .

ولذلك نجد بين المفكرين العصريين من يقول : إن الناس كانوا كلهم كفاراً ، ثم ارتقى العقل محاولاً اكتشاف أكثر الكائنات قوة ؛ ليعبدوه ، فوجدوا أن الجبل هو الكائن العالى الصلب ؛ فعبدوه . وأناس آخرون قالوا : إن الشمس أقوى الكائنات فعبدوها ، وآخرون عبدوا القمر ، وعبد قوم غيرهم النجوم ، واتخذ بعض آخر آلهة من الشجر ، وكل جماعة نظرت إلى جهة مختلفة تتلمس فيها القوة .

وهم يأخذون من هذا أن الإنسان قد اهتدى إلى ضرورة الدين بعقله ، ثم ظل هذا العقل فى ارتقاء إلى أن وصل إلى التوحيد .

ونرد على أصحاب هذا القول : أنتم بذلك تريدون أن تعزلوا الخلق عن خالقهم ، وكأن الله الذى خلق الخلق وأمدهم بقوام حياتهم المادية قد ضنَّ عليهم بقوام حياتهم المعنوية ، وليس هذا من المقبول أو المعقول ، فكيف يضمن لهم الحياة المادية ، ولا يضمن لهذه المادية قيماً تحرسها من الشراسة وتمحيها من الفساد والإفساد ؟

وقوله الحق :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢١٣) [البقرة]

لذلك فهم البعض أن الناس كانوا أمة واحدة فى الكفر ، وحين جاء

النبيون ، اختلف الناس ؛ لأن منهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر ، ولكن لو أحسن الذين قالوا مثل هذا القول الاستنباط وحسن الفهم عن الله لوجدوا أن مقصود الآية التي نحن بصدد خواطرتنا عنها الآن إنما هو : ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين ؛ ليخرجوهم عن الخلاف ويعيدوهم إلى الاتفاق على عهد الإيمان الأول الذي شهدوا فيه بربوبية الحق سبحانه وتعالى <sup>(١)</sup> ؛ لأن الأصل في المسألة هو الإيمان لا الكفر <sup>(٢)</sup> .

ومن أخذ آية سورة البقرة كدليل على كفر الناس أولاً ، يقول له : اقرأ الآية بأكملها ؛ لتجد قوله الحق : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴾ (٢١٣) [البقرة]

وهكذا نرى أن الاختلاف الذي حدث بين الناس جاء في آية البقرة في المؤخرة ، بينما جاء الاختلاف في هذه الآية في المقدمة ، وهذا دليل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان <sup>(٣)</sup> ، فليس هناك أناس أولى من

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَعَثْنَاهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلِفَ آلِهَةٍ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ (٢١٣) [الأعراف] .

(٢) وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وأدم عشرة نرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين - أورده ابن كثير في تفسيره (٢٥٠/١) .

(٣) إن تصدير الاختلاف في آية سورة يونس وتأخيرها في سورة البقرة ، فأول القضية أن الأمة واحدة على دين الله ومنهجه ، والخلاف عارض ؛ لهذا كان الرسل ، أما موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٢٢) فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ بِهَٰذَا رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٢٣) فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢٤) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢٥) [الأنعام] فسيدنا إبراهيم كان في مرحلة إيمان الهداية ، ثم بالتأمل يصل إلى إيمان الدلالة حتى يصل إلى إيمان اليقين .

أناس عند الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يكن عدل الله ليترك أناساً متخبطين في أمورهم على الكفر ، ويرسل الرسل لأناس آخرين بالهداية ؛ فالناس بالنسبة لله سواء . وما دام الحق سبحانه قد أوجد الخلق من البشر فلا بد أن يُنزل لهم منهجاً ؛ ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ <sup>(١)</sup> مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [آل عمران]

نجد فيه الرد على من يقول إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى الكعبة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يترك الخلق من آدم إلى إبراهيم دون بيت يحججون <sup>(٣)</sup> إليه ، ولكن الحق سبحانه وضع البيت ؛ ليحج إليه الناس من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، والذي وضع البيت ليس من الناس ، بل شاء وضع البيت خالق الناس ، وما فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - هو رفع القواعد من البيت الحرام .

أى : أنه أقام ارتفاع البيت بعد أن عرف مكان البيت طويلاً وعرضاً ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا <sup>(٤)</sup> لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. <sup>(٥)</sup> ﴾ [الحج]

(١) بكّة : موضع البيت الحرام . ومكة : الحرم كله وتدخل فيه البيوت . وبعض علماء التفسير مثل مجاهد ذهب إلى أن كليهما واحد ، وأن الميم مبدلة من الباء . ثم قيل : بكّة مشتقة من البك وهو الازدحام أى : ازدحامهم في موضع ضوايقهم . والبك أيضاً : دق العنق ، سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا أُلحدوا فيها بظلم . يتصرف من تفسر القرطبي (١٤٨٦/٢) .

(٢) يحججون إليه : يقصدونه بشد الرحال إليه للعبادة والتعظيم . قال الجرجاني في كتابه : « التعريفات » (من ٧٢) : « الحج : القصد إلى الشيء العظيم ، وفي الشرع قصد لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة في أماكن مخصوصة » .

(٣) بواؤنا له : أقرنناه بمكان البيت الحرام وهديناه إليه . والتبوء : أن يعلم الرجل الرجل على مكان ليتزل به . وبواؤنا له : هبنا له المكان ومكناه منه . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعْهَا حَيْثُ شَاءَ .. <sup>(٦)</sup> ﴾ [يوسف] . [اللمان : مادة (بوا) - بتصرف] .



وهكذا يصدق قول الحق سبحانه بأن البيت قد وُجد للناس قبل آدم ، وهو للناس إلى أن تقوم الساعة ، وهكذا نعلم أن الحق سبحانه خلق الخلق وأنزل لهم المنهج ، وأن الأصل في الناس هو الإيمان ، لكن الكفر هو الذي طرأ على البشر من بابين : باب الغفلة ، وباب تقليد الآباء .  
والدليل على ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ميثاق الذر ، قال :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ<sup>(١)</sup> وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ<sup>(٢)</sup> أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْتَطِلُونَ<sup>(٣)</sup>﴾  
[الأعراف]

إذن : فالتعصبي عن الحكم الإيماني مدخله بابان : الأول باب الغفلة ، أى : أن تكون قد علمت شيئاً ، ولم تجعله دائماً في بؤرة<sup>(١)</sup> شعورك ؛ لأن عقلك يستقبل المعلومات ، ويستوعبها من مرة واحدة ، إن لم تكن مُشَتَّتَ الفكر في أكثر من أمر ، فإن كنت صافى الفكر ومتنبهاً إلى المعلومة التي تصلُّك ؛ فإن عقلك يستوعبها من مرة واحدة ، ومن المهم أن يكون الذهن خالياً لحظة أن تستقبل المعلومة الجديدة .

ولذلك نجد فارقاً بين إنسان وإنسان آخر في حفظ المعلومات ، فواحد يستقبل المعلومة وذهنه خال من أي معلومة غيرها ، فتثبت في بؤرة

(١) ذرية الرجل : ولده ، والجمع : الذريات والذرائى . قال تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِنْهُمَا مِنْ بَعْثَرٍ .. ﴾ (٥٤) [آل عمران] والذرية مأخوذة من ذرأ الله الخلق ، أى : خلقهم . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى ، وأصلها الهمز ولكنهم حذفوه فلم يستعملوها إلا غير مهموزة ؛ وقيل : الذرية أصلها من الذر بمعنى : التفريق ؛ لأن الله تعالى ذرهم في الأرض ، أى : فرقهم . [اللسان : مادة (ذر)] .

(٢) بارئ الشيء : بخله وأبعده . ومنه قيل للحفرة : البؤرة . ومنها بؤرة الشعور أى : حفرة ومركز الشعور الذي يحتفظ فيها الإنسان بمعلوماته ومشاعره تجاه الأحداث التي تواجهه . انظر لسان العرب (مادة : بار) .

الشعور ، بينما يضطر الآخر إلى تكرار قراءة المعلومة إلى أن يخلو ذهنه من غيرها ؛ فتستقر المعلومة في بؤرة الشعور ، وحين تأتي معلومة أخرى ، فالمعلومة الأولى تنتقل إلى حاشية الشعور إلى حين أن يستدعيها مرة أخرى .

وإذا أراد طالب - على سبيل المثال - أن يستوعب ما يقرأ من معلومات جديدة ، فعليه أن ينفذ عن ذهنه كل المشاغل الأخرى <sup>(١)</sup> ؛ ليركز فيما يدرس ؛ لأنه إن جلس إلى المذاكرة وباله مشغول بما سوف يأكل في الغداء ، أو بما حدث بينه وبين أصدقائه ، أو بما سوف يرتدي من ملابس عند الخروج من البيت ، أو بغير ذلك من المشاغل ، هنا سوف يضطر الطالب أن يعيد قراءة الدرس أكثر من مرة ؛ حتى يصادف الدرس جزئية خالية من بؤرة الشعور ؛ فتستقر فيها <sup>(٢)</sup> .

وقد نجد طالباً في صباح يوم الامتحان وهو يسمع من زملائه أن الامتحان قد يأتي في الجزء الفلاني من المقرر ؛ فيفتح الكتاب المقرر على هذا الجزء . ويقراه مرة واحدة ؛ فيستقر في بؤرة الشعور ، ويدخل الامتحان ، ليجد السؤال في الجزء الذي قرأه مرة واحدة قبل دخوله إلى اللجنة ؛ فيجيب عن السؤال بدقة .

(١) ولذلك أوصى العلماء طلاب العلم أن يقتنوا علائق الاستعمال بالذنب ، فإن العلائق - كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي - في إحيائه (كتاب التعميم) « شاعلة وصارفة وإلهام جعل الله للإنسان قلبين في جوفه .. » (١) [الأحزاب] ، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن ذلك الحقائق ؛ ولذلك قيل : « العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كله » والفكرة الموزعة على أمور متفرقة كجدول نقرق ماؤه فتشتت الأرض بعضه واختلط الهوى بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزارع . قال الزبيدي في تحف السادة المتقين (١/ ٥٠٤) : « لذا كرهوا التفتت ثم الاشتغال في دروس في علمين مستغلين لئلا تتوزع الفكرة ، والانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول » .

(٢) وأمر تعالى الذهن والفكر من الشواغل والخواطر شيء ، حيث سلبه حديث رسول الله ﷺ بالنسبة للصلاة ، فمن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهم » . اضعه الآخر . « أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٠) » والأخيران هما البول والبراز . وكذلك درس العلم يجب على المتعلم أن يخلو ذهنه وتركيزه فلا يشغله شيء .

ولذلك فالتلميذ الذكي هو من يقوم بما يسميه علم النفس «عملية الاستصحاب» ، أى : أن يقرأ الدرس ثم يخلق الكتاب ؛ ليسأل نفسه : «ما الجديد من المعلومات فى تلك الصفحة ؟» ويحاول أن يتذكر ذلك ، ويحاول أن يتعرف حتى على الألفاظ الجديدة التى فى تلك الصفحة ، وما هى الأفكار الجديدة التى صحَّحت له معلومات أو أفكاراً خاطئة كانت موجودة لديه .

وهكذا يستصحب الطالب معلوماته بتركيز وانتباه .

وكذلك الأستاذ المتميز هو من يشرح الدرس ثم يتوقف ؛ ليسأل التلاميذ ؛ ليشير انتباههم ؛ حتى لا ينشغل أحدهم بما هو خارج الدرس ، والأستاذ المتميز هو الذى يلقي درسه بما يستميل التلاميذ ، كما تستميلهم القصة المروية ، وحتى لا تظل المعلومات الدراسية مجرد معلومات جافة .

وبهذا يستمر الذهن بلا غفلة ، والغفلة تأتى إلى القضايا الدينية ؛ لأن فى الإنسان شهوات تصادم الأوامر والنواهي ؛ فيستأسى الإنسان بعض الأوامر وبعض النواهي إلى أن يأتى الران<sup>(١)</sup> الذى قال عنه الحق سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين]

وبين النبي ﷺ ذلك بالحديث الشريف : « نزلت الأمانة فى جحر<sup>(٢)</sup> قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم يحدثنا ﷺ عن رفع الأمانة فيقول : « ينام الرجل النوم فتقبض الأمانة

(١) الرين : الطبع والدنس . وهو كالمذا ينشئ القلب . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب . يتصرف من لسان العرب (مادة : رين) والرين : الصدا يعلو السيف فيذهب بريقه ويستعاز للشفاوة تغطي على القلب بسبب القنوب . وران الصدا عليه : غلب عليه وغطاه كله . قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين] .

(٢) جحر كل شئ : أصله : ومنه هنا الحديث : جحر قلوب الرجال ، أى : فى أصلها . (اللسان مادة : جحر) .

من قلبه ؛ فيسظل أثرها مثل أثر الوُكْتِ<sup>(١)</sup> ، أي : مثل لسعة النار وهكذا تنوالى ؛ حتى يأتي الرآنُ على القلب .

إذن : فالغفلة تنلصص على النفس الإنسانية ، وكلما غفل الإنسان في نقطة ، ثم يغفل عن أخرى وهكذا . ولكن من لا يغفل فهو من يتذكر الحكم ، ويطبقه ، ويدوق حلاوته<sup>(٢)</sup> . ومثال هذا : المسلم الذي يشرح الله تعالى قلبه للصلاة ، فإن لم يُصَلِّ يظَلْ مُرْهَقاً وفي ضيق .

ولذلك جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجَنِّحاً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه »<sup>(٣)</sup> .

إذن : فالغفلة هي أول باب يدخل منه الشيطان ؛ فيبعد الإنسان عن

(١) الوُكْتُ : الأثر في الشيء ، كالنقطة من غير لونه ، والجمع : وكت . وفي الحديث : « لا يحلف أحدكم على مثل جناح بعوضة ، إلا كانت وُكْتة في قلبه » . ومنه في حديث حذيفة : « . . . ويظل أثرها كأثر الوُكْتِ » . [اللسان : مادة (وكت)] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٩٧) ومسلم (٢٤٣) من حديث حذيفة بن اليمان وهو حديث طويل ، ههنا قطعنا عنه .

(٣) هذه الحلاوة تحدث عنها رسول الله ﷺ فقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة طعم الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » متفق عليه . أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٤) وأحمد في مسنده (٣٨٦ / ٥ ، ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان . مثل الصفا : الصغيرة المساء العريضة .

مرباداً : أسود مشوباً بغيره .

كالكوز : كلمة عربية صحيحة لا فارسية وهو كوب بمروءة .

مجحجاً : مثلاً ، أي : عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه . [انظر لسان العرب مادة : جحج] .

أحكام الله . وإذا ما غفل الأب ، فالأبناء يُقلّدون الآباء ، فتأتيهم غفلة ذاتية . وهكذا يكون الغافل أسوة لمن بعده .

ولذلك قال الحق سبحانه عن الأبناء الذين يتبعون غفلة الآباء : ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا <sup>(١)</sup> عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (١٧٠) [البقرة]

والف تقليد الآباء قضية كاذبة ؛ لأننا إن سلسلنا مسألة الإيمان إلى آدم عليه السلام ، وهو الأب الأول لكل البشر ؛ لوجدنا أن آدم عليه السلام قد طبق كل مطلوب لله <sup>(٢)</sup> ، فإن قلت : ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ فهذا القول يختم عليك ألا تنحرف عن الإيمان الفطري ، وإلا كنت من الكاذبين غير المدققين فيما دخل على الإيمان الفطري من غفلة أو غفلات ، تبعها تقليد دون تمحيص .

والحق سبحانه قد شاء أن تكون كل كلمة في القرآن لها معنى دقيق مقصود ، فالحق سبحانه يقول على السنة الكافرين في القرآن : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (١٢) [الزخرف]

ولم يقل : «مهندون» بل قال : «مقتدون» ، والمقتدى من هؤلاء هو من اتخذ آباء قذوة ، لكن المهتدى هو من ظن أن آباء على حق .

إذن : فالمقتدى هو من لا يهتم بصدق إيمان أبيه ، بل يقلده فقط ، وتقليد الآباء نوعان : تقليد على أنه اقتداء مطلق لا صلة له بالهدى أو الضلال ، وتقليد على أنه هدى صحيح لشرع الله تعالى .

(١) ألفينا : وجدنا . يقال : ألفيت الشيء إذا وجدته وجادته وألفيته . انظر اللسان مادة (فـي) .  
(٢) إن آدم عليه السلام طبق المطلوب ، أما أكله من الشجرة التي نهى عنها ، فكان نسياناً ، والنسيان وارد وعارض ؛ لذلك علمه الله كلمات فتاب عليه وهدى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ وَّلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزًّا ﴾ (١١٩) [طه] وهذا لا ينافي أنه طبق كل المطلوب .

وقد حدث خلاف حول آدم عليه السلام أهو رسول أم نبي فقط <sup>(١)</sup> ؟  
فهناك مَنْ قال: إن أول الرسل هو نوح عليه السلام ونقول: وهل من  
المعقول أن يترك الله الخلق السابقين على نوح عليه السلام دون رسول ؟

إن الحق سبحانه هو القائل: ﴿وَأَنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا <sup>(٢)</sup> فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾  
[ناظر]

والذي أشكل على هؤلاء المفسرين الذين قالوا: إن أول رسول هو نوح  
عليه السلام أنهم قد فكروا تفكيراً سطحياً ، وفهموا أن الرسول يطرأ على  
المرسل إليهم ، وما دام لم يكن هناك بشر قبل آدم فكيف يكون آدم مبعوثاً  
برسالة ، ولئن تكون تلك الرسالة ؟

ولم يفتن هؤلاء المفسرون إلى أن آدم عليه السلام كان رسولاً وأمراً  
إلى أبنائه ، فالحق سبحانه قد قال له: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ  
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]

وسبحانه قد قال لأدم عليه السلام: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ  
وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]

وما دام الحق سبحانه قد ذكر الهدى ، فهذا ذكر للمنهج ، وهو الذي  
طبقه سلوكاً يقلده فيه الأبناء . وغفل هؤلاء المفسرون أيضاً عن استقراء قوله  
الحق: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا <sup>(٣)</sup>﴾ .. ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]

(١) هناك فرق بين النبي والرسول ، فالنبي هو من بُشِيَ وأوحى إليه دون أن ينزل عليه كتاب أو يؤمر بتبليغ  
قومة رسالة معينة ، لذلك كان كل رسول نبياً ، وليس كل نبي رسولاً .

(٢) خلا: مضى . أى: مضى وأرسى . ويقال: القرون الخالية: الماضية ومنها قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ  
خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ .. ﴿١٢٢﴾﴾ [البقرة] ، وقوله عز وجل: ﴿كَلِمَاتٍ وَأُشْرُوا فِيهَا بِمَا أُسْلِفْتُمْ  
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة] .

(٣) القربان: ما قُرِبَ إلى الله - عز وجل - وتقربت به ، تقول: قُرِبتُ لله قرباناً . وتقرب إلى الله بشئ .  
أى: طلب به القربة عنده تعالى . قال الليث: القربان ما قُرِبتُ إلى الله ، تبسفي بذلك قربة  
ورسيلة . [اللسان: مادة (قرب) - يتصرف] .

وَابْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ قَدَّمَا الْقَرِيبَانِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. إِذْنِ: فِيمَا قَدْ عَرَفَا أَنَّ هُنَاكَ إِلَهُاً.

وَحِينَ قَالَ قَائِلُ الْأَخِيَّةِ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ (٢٧) [المائدة]

بعد ما تقبل الله قربان أخيه ولم يقبل منه . قال هابيل : ﴿ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ  
 مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (TV) [المائدة]

ثم في قول هابيل: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَى يَدِكَ لِسَتِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٨)

إِذْ: لو لم يكن آدم عليه السلام رسولا فمَنْ بَلَغَ أَبْنَاءَهُ أَنَّ اللَّهَ يَشِيبُ وَيَمُوتُ؟

والحق سبحانه يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها: ﴿وَقَوْلًا  
كَلِمَةً<sup>(١)</sup> سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقَاضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن  
الله سبحانه - قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام - كان يعاقب مَنْ  
يكذِّبُ البلاغ عنه وما جاء به السابقون من الرسل، يقول سبحانه:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا <sup>(٢٧)</sup> وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتِ  
الصَّيْحَةُ <sup>(٢٨)</sup> وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ <sup>(٢٩)</sup> وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ  
لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الغناكوت]

(١) وعد الله سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين [ابن كثير ٢/ ٤١١] .

(٢) الحاصب: ربيع صرع من باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض ، فتلقها عليهم وتقتلعهم من الأرض. [ابن كثير ٣/ ٤٨٣].

(٣) عَذَّبَ بِهَا نَوْمَ نَارِدٍ، جَاءَتْهُمْ صَبِيحَةُ أَمْسَتِ أَذَانُهُمْ وَأَخْمَدَتْ مِنْهُمْ الْأَصْوَاتُ وَالْحَرَكَاتُ. [ابن كثير ٤/ ٤١٣].

(٤) الحُف: إقْهَاب الأَشْيَاء فِي الأَرْضِ - وَخُفَّ بِالرَّجُلِ: إِذَا أَخَذَتْهُ الأَرْضُ وَغَابَ فِيهَا، وَقَدْ عَذَّبَ يَهُوَنَّا قَارُونَ: (الْبَيْتُ كَبِيرٌ ٢ / ٤٨٣).

إلا أمة محمد ﷺ فقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) [الأنفال]

أى : أنه سبحانه قد أجل الجزاء والعقوبة عن أمة محمد ﷺ إلى الآخرة . وهذه الكلمة التى سبقت ، أنه سبحانه لا يؤخذ أمة محمد ﷺ بذنوبهم فى الدنيا ، ولكنه يؤخر ذلك إلى يوم الجزاء . ويقضى سبحانه فى ذلك اليوم بين من اتبعوا الرسول ﷺ ومن عاندوه ، وبطبيعة الحال يكون الحق سبحانه فى جانب من أرسله ، لا من عاند رسوله ﷺ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ  
فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ  
الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠)

والآية كما عرفنا هى الشئ العجيب ، وإما أن تكون آية كونية ، أو آية إعجاز ، أو آية قرآن تشتمل على الأحكام .

ولماذا لم يصدقوا آيات القرآن ، وهى معجزة بالنسبة إليهم ؟

نقول : إن استقبال القرآن قرع تصديق للرسول ﷺ ، وقد حدث اللبس عندهم ؛ لأنهم ظنوا أن الآية هى الآيات المحسنة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتتناسب أزمان

(١) تستعمل (لولا) أداة عرض وتحضيض ، مثل (علا) وتختص بالدخول على المضارع كقوله تعالى : ﴿لَوْلَا فَتَنَّاكَ اللَّهُ ..﴾ (٥٥) [التعل] وتدخل على ماضى فى تأويل المضارع كقوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ..﴾ (٥٥) [الطافقون] أى : لولا تؤخرنى ، وتستعمل (لولا) للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضى كقوله تعالى : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ..﴾ (٥٥) [النور] ، ولها استعمالات أخرى يرجع إليها فى كتب اللغة [القاموس القويم : ٢٠ / ٢٠٧ ، ٢٠٨] .



رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ - وعلى جميع الرسل السلام - قد بُعث كل منهم لأمة محدودة زماناً ومكاناً ؛ ولذلك كانت الآيات التي اصطحبها آيات حسية ، وكل آية كانت من جنس ما نبخ فيه القوم المبعوث إليهم .

أما رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فهي لعامة الزمان وعامة المكان (١) . فلو جعل الله سبحانه له آية حسية لأمن بها من شاهدها ، ولصارت خيراً لمن لم يشاهدها .

وتحس على سبيل المثال كمسلمين لم تصدّق أن موسى - عليه السلام - قد ضرب البحر فانشق له البحر ؛ إلا لأن القرآن قال ذلك ؛ لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمن شاهده أمن به ، ومن لم يره إن حدث به له أن يكذب ، وله أن يصدّق ، ولكننا صدقنا ؛ لأن القائل هو الحق سبحانه وقد أبلغنا ذلك في القرآن . وثقتنا فيمن قال هي التي جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

وقد يتساءل البعض عن السر في عدم إرسال معجزات حسية مع رسول الله ﷺ ، فنقول : لقد شاء الله سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أن تقوم الساعة وهي معجزة القرآن . وتحدث كتب السيرة أن الماء نبخ من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدّق صدّق ، وإن قرأت ولم تصدّق ذلك ، فأعلم أنك لست المقصود بها ، فقد كان المقصود بها هم المعاصرون

(١) وهذا مما خص به الله رسوله ﷺ وأمه ، ويدل عليه حديث رسول الله ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي المغنم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة\* من حديث جابر بن عبد الله . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٥) ومسلم (٥٢١) .

لها ، وقد جاءت لتربيب الإيمان في القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى شدّة أزرهم الإيمانى ، وحدثتنا كتب السيرة أيضاً عن حفة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال ، ومن صدّق الرواية ؛ فليصدقها ، ومن لم يصدقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسية كياقى إخوانه من الرسل علينا أن نؤمن بها بالثقة فيمن أخبر بها .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ وإن دخلت «لولا»<sup>(١)</sup> على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقول إنسان لآخر : لولا زيد عندك لايتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده . وهكذا تكون «لولا» حرف امتناع لوجود ، وكذلك كلمة «لوما» إن وجدت تدخل على جملة اسمية فاعرف أنها امتناع شيء ، لوجود شيء وإن دخلت «لولا» على جملة فعلية فاعلم أنها حثّ وتخصيص .

وهم هنا قد قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ﴾ وكأنهم لا يعترفون بالقرآن ، وطلبوا آية حسية ؛ لذلك نجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر بالقرآن الكريم : ﴿ لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ (٢٨) [القصص]

وهذا تأكيد أنهم طلبوا الآية الحسية ؛ لأنهم علموا بالآيات الحسية للرسول السابقين على رسول الله ﷺ ، ولكن قولهم هذا كان تشبهاً بالكفر

(١) «لولا» حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط وجملة الشرط اسمية ( مبتدأ وخبر ) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كونه عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع منفصلاً مثل : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨) [سبا] وجملة الجواب فعلية وتقرن باللام إذا كانت مثبتة فى الغالب وتجرد منها إذا كانت منفية . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (٢٨) [النور] وقد يحذف الجواب إذا دل عليه دليل كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٩) [النور] القاموس القويم ج ٢ / ٢٠٧

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٥٨٢٢

رغم أنهم شهدوا رسول الله ﷺ في كل أحواله ، وقد حدثت الآيات الحسية ورآها من آمن به ، وزاد تمسكهم بالإيمان .

والذين طلبوا أن يأتي لهم محمد ﷺ بمعجزة حسية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نسوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين هم بنو إسرائيل .

أما محمد ﷺ فقد بُعث إلى الناس كافة ؛ لذلك كان لا بد أن تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان . أما المعجزة الحسية فهي تنقضي بانقضاء زمانها ومكانها .

أو هم طلبوا الآيات التي اقترحوها مثل قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا <sup>(١)</sup> ﴾ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعُيُنٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا <sup>(٢)</sup> ﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا <sup>(٣)</sup> أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا <sup>(٤)</sup> ﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ <sup>(٥)</sup> أَوْ تَرْقَى <sup>(٦)</sup> فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ <sup>(٧)</sup> ﴾ (٩٣) [الإسراء]

إذن : فهم قد طلبوا آيات اقترحوها بأنفسهم ، والآيات لا تكون باقتراح المرسل إليهم ، بل بتفضل المرسل .

(١) ينبوع : العين الجارية والجداول الكثير الماء ، والجمع يتابع . (اللسان : مادة نبع) .  
(٢) كسفاً : جمع كسفة وهي القطعة ، والمراد : العذاب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَنَا نَقَبًا نَّخْبِئُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ <sup>(١)</sup> ﴾ [نبا] . [اللسان : مادة (كسفت)] .

(٣) القيل : الجماعة من أي شيء .

(٤) زخرفاً : نقش وزينة وقوية بالذهب . والزخرفت : الذهب في غيره . قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطَنَّتْ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا نَّجِيًّا أَوْ نَهَارًا <sup>(٢)</sup> ﴾ [يونس] .

[اللسان : مادة (زخرف)]

(٥) ترقى : تصعد ، والرقى : الصعود . وفي الحديث : «كُتِبَ رَقَاءٌ عَلَى الْجِبَالِ أَي : صَعَادًا عَلَيْهَا ، وَفَعَالٌ لِلْمَالِعَةِ . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقُرَاقِي <sup>(١)</sup> وَقِيلَ مِن رَّاقٍ <sup>(٢)</sup> ﴾ [القيامة]

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يُرسل الحق سبحانه لهم آية حسية معجزة كما قالوا؟

فنقول: إن الحق سبحانه قد قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ .. (٥٩)﴾ [الإسراء]

وعلى ذلك يكون قولهم بطلب الآيات مدحوضاً<sup>(١)</sup>؛ لأن الحق سبحانه قد أرسل الآيات من قبل وكذب بها الأولون، أو هم طلبوا آيات اقترحوها، ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وفي هذا إقرار منهم بأن لمحمد ﷺ رباً، وهو ﷺ يُبلغ عنه، فكيف... إذن - يُنكرون أنه رسول؟!

ونعلم أنهم قالوا من قبل: «إن رب محمد قد قلاه»<sup>(٢)</sup> حين فتر<sup>(٣)</sup> الوحي عنه ﷺ، ولكن الحق سبحانه ردّ عليهم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٢)﴾ [الضحى]

إذن: هم قد ناقضوا أنفسهم، ففى الوصل منعوا وأنكروا أن يكون له رب، وفى الهجر سلّموا بأن له رباً، وهذا تناقض فى الشيء الواحد، وهو لون من التناقض يؤدى إلى اضطراب الحكم، واضطراب الحكم يدل على يقظة الهوى<sup>(٤)</sup>.

(١) الدحض: الدفع والبطان، ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ .. (٥٦)﴾ [الشورى] أى: باطله.  
(٢) قلاه: أبغضه ونزكه وتخلّى عنه، عن جندب البجلي قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون: قد ودّع محمد. فانزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى (٢) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٣) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٤)﴾ [الضحى] أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٩٧) والترمذى فى سننه (٣٣٤٥) وقان: حديث حسن صحيح. وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٥٢٢) من الطريق الذى أخرجه مسلم والترمذى إلى جندب بنلفظ: «فقال المشركون: ودّع محمداً ربّه».

(٣) فتر الوحي: انقطع.

(٤) أى: أنه يُحكّم عباده فى كل نصراته ومنازع تفكيره، أى: يتخذ عباده إلهاء، يأتمر بأمره، ويستوى بنهيه؛ لهذا يحدث التناقض. ويقرون سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَخْلَفَ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٠)﴾ [الجاثية].

ثم يقول الحق سبحانه رداً على طلبهم للآية الحسية : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وهكذا يُعلم الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ جواباً احتياطياً ، فمن الممكن أن يُنزل الحق سبحانه الآية الحسية ، ومن الممكن ألا ينزلها ، فرسول الله ﷺ لا يحكم على ربه ؛ لأن الغيب أمر يخصه سبحانه ، إن شاء جعل ما في الغيب مشهداً ، وإن شاء جعل الغيب غيباً مطلقاً ، وليس عليكم إلا الانتظار ، ويعلم رسول الله ﷺ أنه معهم من المنتظرين ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠)

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرُفٌ عَابِئَاتٌ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا مَكْرُوتٌ﴾ (٢١)

والرسول ﷺ حين ضاق ذرعاً بالكافرين من صناديد قريش دعا عليهم أن يهديهم الحق بسنين الجذب كالسنين التي أصابت مصر واستطاع سيدنا يوسف عليه السلام أن يدبر أمرها ، فسلط الحق سبحانه على قريش الجذب والقحط<sup>(١)</sup> ، ثم جاء لهم بالرحمة من بعد ذلك . وكان من المقروض أن يرجعوا إلى الله ، وأن يؤمنوا برسالة رسوله ﷺ ، بعد أن علموا أن ما

(١) المقصود بالرسول هنا : الحفظة من الملائكة . قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْبَينِ﴾ (٢) وإن عليكم لعاقبين (٣) كراماً كاتبين (٤) يعلمون ما تفعلون (٥) ﴿[الانتظار].

(٦) الجذب : تقيض الخشب ، أي : الجفاف وانقطاع المطر . وفي حديث الاستسقاء : «هلكت المواشي وأجدبت البلاد» ، أي : قحطت وغلت الأسعار . [اللسان : مادة (جذب)].

القحط : احتباس المطر ، والقحط : الجذب ؛ لأنه من أثره . وفي حديث الاستسقاء : «قحط المطر وأخضر الشجر» هو من ذلك . وقد يشتق القحط لكل ما قلَّ غيره ، والأصل للمطر . والقحط في كل شيء قلة خيره . [اللسان : مادة (قحط)].

مَسَّنَهُمْ مِنَ الْقَحْطِ وَمَنِ الْجُدْبِ كَانَ بِسَبَبِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ : «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»<sup>(١)</sup>.

وانتهت السنوات السبع وجاءت لهم الرحمة ممثلة في المطر ، ولم يلتفتوا إلى ضرورة شكر الله والإيمان برسوله ﷺ ، ولكنهم ظلوا يحشرون عن أسباب المطر ، فمنهم من قال: لقد جاء مطرنا نتيجة لنوء<sup>(٢)</sup> كذا ، ولأن الرياح هبت على مناطق كذا ، وفعلوا ذلك دون التفات لانتهاه دعوة رسول الله ﷺ ، مثلهم مثل من جلس يبحث في أسباب النصر في الحرب ، وجعلوا أسبابها مادية في العدة والعتاد<sup>(٣)</sup> . ولا أحد ينكر أهمية الاستعداد للقتال وجدواه ، ولكن يبقى توفيق الله سبحانه وتعالى فوق كل اعتبار ؛ لأن المؤمنين بالله الذين استعدوا للقتال ودخلوا المعارك وجدوا المعجزات تتجلى بنصر الله ؛ لأن الحق سبحانه ينصر من ينصره .

أما الذين يحصرون أسباب النصر في الاستعداد القتالي فقط ، فالقاتلون الذين خاضوا الحرب بعد التدريب الجاد ، يعلمون أن التدريب وحده لا يصنع روح المقاتل ، بل تصقل<sup>(٤)</sup> روحه ورغبته في القتال وتبل الشهادة ودخول الجنة .

(١) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : «اللهم اشدد وطأتك على مصر ، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف» . الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠٦) . وأحمد في مسنده (٢٧٠ / ٢ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

(٢) ناء نوء من باب قال يقول أي : نهض . ومنه النوء للمطر وجمعه أنواء . المصباح (١٤١ / ٢) .  
(٣) العتاد : العدة ، والجمع : أعتدة وعتد . قال الليث : العتاد : الشيء الذي تعدّه لأمر ما وتهيئه له . وفي حديث صفته ﷺ : «لكل حال عنده عتاده أي : ما يصلح لكل ما يقع من الأمور» . والفراد هنا بالعتاد : الأسلحة وآلات الحرب . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَابًا وَأَغْلَاقًا وَسَجِيرًا ۝٤١ ﴾ [الإنسان] . [اللسان : مادة (عتد)] .

(٤) الصقل : الجلاء والشحذ ، والفراد : الحمية الدنيوية والتعبئة النفسية والمعنوية للمقاتلين . [اللسان : مادة (صقل) - ينصرف] .

إذن: فلماذا السهم مدخل ، ومن رأى من المقاتلين آية مخالفة لنواميس الكون ، فليعلم علم اليقين أن يد الله كانت فوق أيدي المؤمنين المقاتلين . ومن يدعى أن أي نصر هو نتيجة للحضارة ، يجد الرد عليه من المقاتلين أنفسهم بأن الحضارة بلا إيمان هي مجرد تقدم مادة هشة<sup>(١)</sup> لا يصنع نصراً<sup>(٢)</sup> ، والنصر لا يكون بالمادة وحدها ، وقد أمرنا الله بحسن الاستعداد المادي ، ولكن النصر يكون بالإيمان فوق المادة .

ولذلك نجد من خاضوا حربنا المنتصرة في العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ يعلمون أن مدد الله كان معهم بعد أن أحسنوا الاستعداد ، ولا أحد من المقاتلين يصدق أن الاستعداد المادي وحده يمكن أن يكفي للنصر ، إنه ضرورة ، ولكن بالإيمان وحسن استخدام السلاح يكون النصر ؛ ولذلك لا يصدق المقاتلون من ينسب النصر للمادة وحدها ، وينسحب عدم التصديق على كل ما يقوله من ينكر دور الإيمان في الانتصار .

وهكذا نجد أن من مجرد النصر من قيمة الإيمان إنما يخدم الإيمان ؛ لأن إنكار الإيمان يقلل من قيمة الرأي المادي . وهكذا ينصر الله دينه حتى يشبه في قلوب جنده ، ويقلل من قيمة ومكانة من يتكبرون قيمة الإيمان .

ومثال هذا في تاريخ الإسلام أن اليهود الذين كانوا يستفتحون على أهل المدينة من الأوس والخزرج بأن رسولا سوف يظهر ، وأنهم - أي : اليهود - سيتبعونه<sup>(٣)</sup> ، وسوف يقتلون العرب من الأوس والخزرج قتل عاد وادم .

(١) الهش والهشيش من كل شيء : ما فيه رخاوة ولين ، والمراد : الضعف .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَزْوِ الْحَكِيمِ ﴾ [ آل عمران ] .

(٣) وقد حكى الله سبحانه هذا لنا في قرآنه ، فقال عن اليهود : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا نَحْنُمُ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [ البقرة ] . وعن أشياخ من الأئمة قالوا : كنا قد علمناهم قهراً فخرأ في الجاهلية ونحن أهل شرك ونحن أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن تبعه قد أظلم زمانه فتقتلكم معه ثقل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١٢٤/١) نقلاً عن ابن إسحاق .

ولما جاء وقت ظهور محمد بن عبد الله ﷺ بمكة ، أسرعت الأوس والخزرج إلى الإيمان به ، وقالوا : إنه النبي الذي تهددنا به يهود ، فلنسبق إليه حتى لا يسبقونا .

هكذا كانت كلمة اليهود هي دافع الأوس والخزرج إلى الإيمان .

إذن : قاله ينصر دينه بالفاجر <sup>(١)</sup> ، رغم ظن الفاجر أنه يكيد للدين .

وكذلك حين جاءت لهم الرحمة بعد القحط أرجفوا <sup>(٢)</sup> وظلوا يحللون سبب سقوط المطر بأسباب علمية محدودة بالمادة ، لا بالإيمان الذي فوق المادة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ <sup>(٣)</sup> فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس]

(١) وقد ورد بهذا حديث رسول الله ﷺ ، فمن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حيناً فقال لرجل من يَدْعَى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتلاً شديداً فأصابته جراحة . فقبل : يا رسول الله الرجل الذي قلت له أنفاً فإنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتلاً شديداً . وقد مات فقال النبي ﷺ : «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب . فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديداً فلما كان من الليل ثم يصير على الجراح فقتل نفسه ، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال : «الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى في الناس «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة» وإن الله يؤيد هذا الذين بالرجل الفاجر . حديث صحيح ، متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٦٢) ومسلم (١١١) .

(٢) أرجفوا : اضطربوا اضطراباً شديداً . (اللسان مادة : رجف) .

(٣) المكر : احتيال في خفية . قال تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل] . قال أهل العلم بالتأويل : المكر من الله تعالى جزاء سُمِّيَ باسم مكر المجازي كما قال تعالى : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴿٥٠﴾﴾ [البُورِ] فالثانية ليست بسينة في الحقيقة ، ولكنها سميت سينة لازدواج الكلام ، وكذلك قوله تعالى : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ .. ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ، ولكنه سُمِّيَ بالذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . قال ابن الأثير : مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه . (اللسان : مادة (مكر)) .



والمكر: هو الكلام الملتوي الذي لا يريد أن يعترف برحمة الله ، والادعاء بأن نوء كذا هو السبب في سقوط المطر ، وبرج كذا هو السبب في سقوط المطر .

وقوله الحق: ﴿مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ والمكر هو الكيد الخفى ، والمقصود به هنا محاولة الالتفاف ؛ لتجريد العجائب من صنع الله لها ، وحتى العلم وقوانينه فهو هبة من الله ، والحق هو القادر على أن يوقف الأسباب وأن يفعل ما يريد وأن يخرق القوانين ، فهو سبحانه رب القوانين ، فلا تنسبوا أى خبر إلا له سبحانه ؛ حتى لا نضل ضلال الفلاسفة الذين قالوا بأن الله موجود ، وهو الذى خلق الكون وخلق النواميس ، لتحكم الكون بقوانين .

ونقول : لو خلق الحق سبحانه القوانين والناواميس وتركها تتحكم لما شُدَّ شئٌ عن تلك القوانين ، فالمعجزات مع الرسل - على سبيل المثال - كانت خروجاً عن القوانين . وأبقى الله في يده التحكم في القوانين ، صحيح أنه سبحانه قد أطلقها ، ولكنه ظل قيُوماً عليها ، فيعطل القانون متى شاء ويبرزه متى شاء ويؤجّه كيفما شاء .

والمكر كما نعلم مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أى غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق ؛ حتى صارت خفية عليك ، وأخذ من ذلك الكيد الخفى ، وأنت قد تكيد لمناويك ، لكنك لن تقدر على أن تكيد لمن هو أعلى منك ، فإن كُتِمَ تمكرون فإن الله أسرع مكرأ ، والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ، وهذه اسمها «مشكلة التعبير»<sup>(١)</sup>

(١) المشكلة : مصطلح بلاغى جاء في القرآن كثيراً ، وهو يعنى : ذكر الشئ بلفظ غيره ، لوقوعه فى صحبته تحفيظاً أو تقديراً . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرَ اللَّهِ . (٢٢)﴾ [آل عمران] فإن إطلاق المكر فى جانب الباري تعالى إنما هو لمشكلة ما يبعه . (الإتقان فى علوم القرآن : ٣ / ٢٨١) .

أى : عليك أن تأخذ ذلك فى مقابله فى ذات الفاعل والفعل ، ولكن لا تأخذ من هذا القول اسماً لله ، فيأياك أن تقول : إن الله - سبحانه وتعالى - ماكر ؛ لأن المكر كيد خفىً تفعله أنت مع مساويك ، ولكنك لن تستطيع ذلك مع من هو مُطَّلِع على كيدك ، ولا تطلع أنت على ما يشاء لك .

وانظر إلى أى جماعة تكيد لأى أمر ، وستجد من بينهم من يبلغ عنهم السلطات ، وأجهزة الأمن ، فإذا كان كيد البشر للبشر مفضوحاً بمن يشئ منهم بالآخرين ، بل هناك من البشر غير الكائدين من يستطيع بنظرته أن يستبطن ويستكشف من يكيدون له .

وهناك من الأجهزة المعاصرة ما تستطيع تسجيل مكالمات الناس والتتبع<sup>(١)</sup> عليهم ؛ وكل ذلك مكر من البشر للبشر ، فما بالنا إن كاد الله لأحد ، وليس هناك أحد مع الله - سبحانه وتعالى - ليبلغنا بكيده ، ولا أحد يستطيع أن يتجسس عليه ؟ !

مكر الله سبحانه - إذن - أقوى من أى مكر بشرى ؛ لأن مكر البشر قد يهدم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم ، أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وكلمة ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ تلفتك إلى أن هناك اثنين يتنافسان فى سباق ، وحين تقول : فلان أسرع من فلان ، فمعنى ذلك : أن كلا منهما يحاول الوصول إلى نفس الغاية ، لكن هناك واحداً أسرع من الآخر فى الوصول إلى الغاية .

ومكرهم البشرى هو أمر حادث ، لكن الله - سبحانه - أزلى الوجود ،

(١) التتبع : المراقبة : التجسس . وأنصت الرجل إنصتاً : استمع باهتمام . قال تعالى : ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف : ٢٠١] . [اللسان : مادة (نصت) - بتصرف] .

يعلم كل شيء قبل أن يقع ، ويرتب كل أمر قبل أن يحدث ؛ لذلك فهو الأسرع في الرد على مكركم ، إن مكركم .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا<sup>(١١)</sup> لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ و«إذا» الأولى ظرف ، أما إذا الثانية فهي «إذا المفجائية» مثلما تقول : خرجت فإذا الأسد بالباب .

وهم حين أنزل الحق لهم الأمطار رحمة منه ، فهم لا يهدأون ويستمتعون ويزوقون رحمة الله تعالى بهم من الماء الذي جاءهم من بعد الجذب ، بل دبروا المكر فجأة ، فيأتى قول الحق سبحانه : ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ .

وهكذا ترى أن ما يبطل كيد الماكرين من البشر ، يكون بإحدى تلك الوسائل : إما أن يكون بوشاية من أحد الماكرين ، وإما أن يكون بقوة التخابير من الغير ، وإما أن يكون من رسل العلى القدير وهم الملائكة الذين يكتبون كل ما يفعله البشر ، فسبحانه القائل : ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ<sup>(١٢)</sup> كَرَامًا كَاتِبِينَ<sup>(١٣)</sup> يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ<sup>(١٤)</sup>﴾ . [الانتمار]

واقرا أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا<sup>(١٥)</sup>﴾ . [الاسراء]

(١) «إذا» تأتي لمعين : شرطية ، وفجائية . وإذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل فتختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون ما بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذي بعده مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كَشَفَتْ<sup>(١٥)</sup>﴾ [التكوير] ، وقد تكون «إذا» للمفاجأة وتختص بالجملة الاسمية كقوله تعالى : ﴿فَاقْبَاهَا فَإِذَا مِنْ حَيْثُ تَسْمَعُ<sup>(١٦)</sup>﴾ [طه] ، وقد اجتمعت الشرطية والمفجائية في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ<sup>(١٧)</sup>﴾ [الزمر] . وكما في الآية : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مُكْرٌ فِي آيَاتِنَا ..<sup>(١٨)</sup>﴾ [يونس] .

وجاء الحق سبحانه بكل ما سبق ؛ لأنه سبحانه قد شاء أن يعطى لقريش فرصة التراجع فى عنادها للرسول ﷺ ، هذا العناد الذى قالوا فيه : إنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وهذا قول مغلوط ؛ لأن الآباء فى الأصل كانوا مؤمنين ، ولكن جاءهم الضلال كأمر طارئ ، والأصنام التى عبدوها طائفة عليهم من الروم ، جاء بها إنسان ممن ساخوا فى بلاد الروم هو «عمرو بن لحي»<sup>(١)</sup> ، فإن رجعتهم إلى الإيمان بعد عنادكم ؛ فهذا هو الطريق المستقيم الذى كان عليه آباؤكم بالفطرة والميثاق الأول .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ  
وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ  
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا  
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ  
الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٢)

وهذه الآية الكريمة جاءت مرحلة من مراحل إخبار الله سبحانه وتعالى عن المعاندين لدعوة الإسلام ، التى بدأها الحق سبحانه بأنه قد رحمهم فأجل لهم استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر ؛ ولو أنه أجابهم إلى ما دعوا به على أنفسهم من الشر فى قولهم : ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٢) [الأنفال]

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٧٧) أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فلما قدم سأل من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، وأهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام تعبدوها ، فاستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسيره إلى أرض العرب ، فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هكل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لقضى أمرهم . فمن رحمة الله تعالى أنه لم يُجيبهم إلى دعائهم .

وإذا كان الله سبحانه قد أجل استجابة دعائهم على أنفسهم بالشر رحمة بهم ، فيجب أن يعرفوا أن تأجيل استجابتهم بدعاء الخير رحمة بهم أيضاً ؛ لأنهم قد يدعون بالشر وهم يظنون أنهم يدعون بالخير ، وبعد ذلك دُلك على كذبتهم في دعائهم على أنفسهم بالشر بأنهم إذا مسَّهم ضررٌ دعوا الله تعالى مضطجرين<sup>(١)</sup> وقاعدين وقائمين .

فلو كانوا يحبون الشر لأنفسهم ؛ لظلوا على ما هم فيه من البلاء إلى أن يقضى الله تعالى فيهم أمراً .

ثم عرض سبحانه قضية أخرى ، وهي أنه سبحانه إذا مسَّهم بضر ؛ ليعتبروا ، جاء الله سبحانه برحمته ؛ لينقذهم من هذا الضر . فياليتهم شكروا نعمة الله تعالى في الرحمة من بعد الضر ، ولكنهم مروا كأن لم يدعوا الله سبحانه إلى ضر مسَّهم .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ، يصور لنا الحق سبحانه وضعاً آخر ، هو وضع السير في البر والبحر ، فيقول : ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..﴾ (٦٦) .

وكلمة ﴿يُسِيرُكُمْ﴾ تدل على أن الذي يسير هو الله ؛ ولكن في القرآن آيات تثبت أن السير يُنسب إلى البشر حين يقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٦٦) .

(١) الاضطجاع : الاستلقاء ووضع الجنب إلى الأرض . قال ابن المنذر : كانت هذه الطاء تاء في الأصل ، ولكنه فتح جندهم أن يقولوا (اضجع) فأبدلوا التاء طاءً . قال تعالى : ﴿تَجَالَى جُنُودُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ بِهِمْ خَوْفاً وَطَعناً ..﴾ (٦٦) [السجدة] . [اللسان : مادة (ضجع)] .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ.. (٢٩) ﴾ . [القصر]

وهو سبحانه يقول : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ.. (١٨) ﴾ . [سبا]

فكان هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد نسبت التسيير إلى الله سبحانه ، وبعض الآيات الأخرى نسبت التسيير إلى النفس الإنسانية ، ونقول لمن توهموا أن في ذلك تعارضاً :

لو أنكم فطتم إلى تعريف الفاعل عند النجاة<sup>(١)</sup> وكيف يرفعونه ؛ لعرفتم أن تحقق أى فعل إما يعود إلى مشيئة الله سبحانه ، فحين نقول : «نجح فلان» فهل هو الذى نجح ، أم أن الذى سمح له بالنجاح غيره ؟ إن المستحسن والمصحح هما من سمحا له بالنجاح ؛ تقديرًا لإجاباته التى تدل على بذل المجهود فى الاستدكار .

وكذلك نقول : «مات فلان» ، فهل فلان فعل الموت بنفسه ؟ خصوصاً ونحن نعرب «مات» كفعل ماض ، ونعرب كلمة (فلان) «فاعل» أو نقول : إن الموت قد وقع عليه و اتَّصفَ به ؛ لأن تعريف الفاعل : هو الذى يفعل الفعل ، أو يتَّصف به .

وإذا أردنا أن ننسب الأشياء إلى مباشرتها السببية ؛ قلنا : «مبار الإنسان» .

وإذا أردنا أن نورِّخ لسير الإنسان بالأسباب ، وترحلنا به إلى الماضى ؛ لوجدنا أن الذى سيره هو الله تعالى .

وكل أسباب الوجود إن نظرت إليها مباشرة ؛ وجدتها منسوبة إلى من هو فاعل لها ؛ لكنك إذا تتبعتها أسباباً ؛ وجدتها تنتسب إلى الله سبحانه .

(١) لأن تعريف الفاعل عند النجاة هو : كل اسم مرفوع سبقه فعل متعذر أو لازم ، وهذا الاسم هو الذى فعل الفعل أو قام به أو اتَّصف به ، مثل : قرأ محمد الكتاب ، ونجح محمد ، وأشربت الشجرة .

فمثلاً : إذا سُئِلْتُ : مَنْ صَنَعَ الْكُرْسِي ؟ تجيب : النجار . وإن سَأَلْتُ النجار : مَنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِالْخَشَبِ ؟ سيجيبك : مَنْ التاجر . وسيقول لك التاجر أنه استورده من بلاد الغابات ، وهكذا .

إذن : إذا أردت أن تسلسل كل حركة في الوجود ؛ لا بد أن تنتهي إلى الله تعالى <sup>(١)</sup> .

وحين قال الحق سبحانه : ﴿ قَلَمًا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ <sup>(٢)</sup> وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. (٢٩) ﴾ [القصص]

نفهم من ذلك أن موسى - عليه السلام - قد سَيرَ بأهله ؛ لأن التسيير في كل مقوماته من الله تعالى .

والمثال الآخر : نحن نقرأ في القرآن قوله الحق : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَيْ <sup>(٣)</sup> ﴾ [النجم]

فهو سبحانه الذي خلق الضحك ، وخلق البكاء .

فنجد من يقول : كيف يقول الله سبحانه إنه خلق الضحك والبكاء وهو الذي يقول في القرآن : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا .. (٨٢) ﴾ [التوبة]

ونقول : أنت إن نظرت إلى القائم بالضحك ، فهو الإنسان الذي ضحك ، وإن نظرت إلى من خلق غريزة الضحك في الإنسان ؛ تجده الله سبحانه .

(١) يقول عز وجل : ﴿ يَخَيَّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَكُمْ بِهِدَاءٍ وَتُكْمٍ يُوقِنُونَ .. (٦) ﴾ [الرعد] ويقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ غَیْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٠٢) ﴾ [هود] .

(٢) وذلك إن شعبياً قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكُحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَابٍ فَإِنْ أَتَيْتَ خَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ .. (٢٩) ﴾ [القصص] . فقال له موسى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ

قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقد ثبت في الحديث أن موسى عليه

السلام قصى الأجل الأثم والأكمل وهو عشر سنين (ابن كثير : ٢ / ٣٨٤ - ٣٨٧) .

وغريزة الضحك موجودة باتفاق شامل لكل أجناس الوجود ، وكذلك البكاء فلا يوجد ضحك عربي ، وضحك انجليزي ، ولا يوجد بكاء فرنسي ، أو بكاء روسي .

إذن : فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الضحك والبكاء .

وقد صدق قوله الحق : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٧) [النجم]

لكن الضاحك والباكى يقوم به الوصف . وكذلك قوله الحق : ﴿وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (٧٧) [الأنفال]

فقد شاء الحق سبحانه أن يمكن رسوله ﷺ بالبشرية أن يرمى الحصى ، ولكن إيصال الحصى لكل فرد في الجيش المقابل له ، فتلك إرادة الله <sup>(١)</sup> .

إذن : فقول الحق سبحانه : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ . لا يتعارض مع أنهم هم الذين يسيرون ، وأنت إذا علقت السير في الأرض أو في البحر ؟ مستجد أن السير هو انتقال السائر من مكان إلى مكان ، وهو يحدد غاية السير بعقله ، والأرض أو البحر الذي يسير في أى منهما بأقدامه أو بالسيارة أو بالمركب ، هذا العقل خلقه الله تعالى ، والأرض كذلك ، والبحر أيضاً ، كلها مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى . وأنت حين تحرك سائقك ؛ لتسير ، لا تعرف كيف بدأت السير ولا كم عضلة تحركت في جسدك ، فالذي أخضع كل طاقات جسمك لمراد عقلك هو الله تعالى .

إذن : فكل أمر مرجعه إلى الله سبحانه .

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما : رفع رسول الله ﷺ يديه بمعنى يوم بدر فقال : «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم ، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من مشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخرته وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مديريين . أخرجه أبو نعيم (ص ٤٠٤) والبيهقي (٣/ ٧٩) كلاهما في دلائل النبوة ، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٩٤) .



وهنا ملحظ في السير في البر والبحر ، فكلاهما مختلف ، فالإنسان ساعة يسير في الأرض على اليابسة ، قد تنقطع به السبل ، ويمكنه أن يستصرخ<sup>(١)</sup> أحداً من المارة ، أو يتنظر إلى أن يمر عليه بعض المارة ؛ ليعاونه . أما المرور في البحر ؛ فلا توجد به سابلة أو سالكة<sup>(٢)</sup> كثيرة ؛ حتى يمكن للإنسان أن يستصرخهم .

إذن : فالمرور في البحر أدق من المرور في البر ؛ ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية التي نحن بصدد خواتمها يقول عن السير في البحر : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرْيَحٌ طَيْبَةٌ وَقُرْخُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢٢) [يونس]

وهكذا لا نجد أن في الآية نفسها حديثاً عن السير في البر ؛ لأن الحق سبحانه ما دام قد تكلم عن إزالة الخطر للمضطر في البحر ، فهذا يتضمن إزالته عمن يسير في البر من باب أولى . وإذا ما جاء الدليل الأقوى ، فهو لا بد أن ينضوي<sup>(٣)</sup> فيه الدليل الأقل .

ومثال هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَوَعَيْتَنَا الْإِنْسَانَ بِالذِّينِ إِحْسَانًا .. ﴾ (٢٥) [الاحقاف]

وجاءت كل الخيشيات بعد ذلك للأمم ، ولم يأت بأي خيشية للأب ،

(١) يستصرخ : يصرخ طالباً النجدة . والصرخة : الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴾ (٢٨) [القصص] . وقال : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴾ (٢٩) [يس] . والصریح : المقيث . [اللسان : مادة (صرخ) . . بتصرف] .

(٢) سبل سابلة : طريق مسلوكة . والسابلة : أناة السبل المختلفون على الطرقات في حوائجهم ، والجمع : السوايل . والسلوك : مصدر سلك طريقاً ومن يسلكون طريقاً فهم سالكة . قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .. ﴾ (٣٢) [طه] . [اللسان : مادة (سبل) ، (سلك) ] .

(٣) ضوى إليه : انضم إليه . وينضوي في الشيء : يدخل فيه ويتدرج تحته . [اللسان : مادة (ضوا) . بتصرف] .

فيقول : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ <sup>(١)</sup> ثَلَاثُونَ شَهْرًا <sup>(٢)</sup> ۝ ﴾ [الأحقاف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن حيثية الأم مبنية على الضعف ، فيريد أن يرقق قلب ابنها عليها ، فالأب رجل ، قد يقدر على الكدح في الدنيا ، كما أن فضل الأب على الولد يدركه الولد ، لكن فضل أمه عليه وهو في بطنها ؛ لا يعيه ، وفي طفولته الأولى لا يعي أيضاً هذا الفضل . ولكنه يعي من بعد ذلك أن والده يحضر له كل مستلزمات حياته ، من مأكّل وملبس ، ويبقى دور الأم في نظر الطفل ماضياً خافئاً .

إذن : فحيثية الأم هي المطلوبة ؛ لأن تعبها في الحمل والإرضاع لم يكن مُدركاً من الطفل .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها ، ترك الحق سبحانه حيثية البر وأبان بالتفصيل حيثية البحر :

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ <sup>(٣)</sup> ۝ ﴾ [يونس]

(١) الفصال : النظام . والمعنى : أن مدى حمل المرأة إلى منتهى الوقت الذي يفصل فيه الولد عن رضاعها ثلاثون شهراً ، وفصلت المرأة ولدها أي : قطعت . وقال تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَمَاسٍ .. <sup>(١)</sup> ﴾ [لقمان] . وقال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الْإِرْضَاعَةَ .. <sup>(٢)</sup> ﴾ [البقرة] . [اللسان : مادة (فصل) - بتصرف] . وقد استنبط العلماء من هذا أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر ، وقد حدث أن امرأة رُفِعَ امرؤها إلى علي بن أبي طالب وأنها حملت ستة أشهر واتهمها زوجها بالزنا ، وبُراهما حتى استدلالاً بالجمع بين هذه الآيات . وهو مذهب الجمهور [قفه السنة : ٣/٣٦٧] .

(٢) الفلك : السفينة للمذكر والمؤنث والواحد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمُنَجِّينَ <sup>(١)</sup> ۝ ﴾ [الشعراء] جعله مفرداً ومذكراً ، أي : المركب ؛ وقال : ﴿ وَتَوَدَّىٰ الْفُلُوكُ مَوَاجِرَ فَجَيْدٍ .. <sup>(٢)</sup> ﴾ [البحر] جمل الفلك جمعاً ووصفه بقوله : (مَوَاجِرُ) أي : السفن . [القاموس القويم (٢/٨٩) .

وكلمة (الفلك) تأتي مرة مفردة ، وتأتي مرة جمعاً ، والوزن واحد في الحالتين ومثال هذا أنه حين أراد الله سبحانه أن ينجي نوحاً عليه السلام ، وأن يفرق الكافرين به ، قال لسيدنا نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. ﴾ (٢٧) .

[هود]

إذن : هي تطلق على المفرد ، وعلى الجمع ، ولها نظائر في اللغة في كلتا الحالتين ، فهي في الإفراد تكون مثل : قُطِلَ ، وقُتِرَ . وعند الجمع تكون مثل : أُسِدَ .

والحق سبحانه وتعالى يصف الريح هنا بأنها طيبة ، والقرآن الكريم من طبيعة أسلوبه حين يتكلم عن الريح بلفظ الإفراد يكون المقصود بها هو العذاب ، مثل قوله الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرٌ لِّبَلِّ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٤) تدمر كل شيء بأمر ربها .. ﴾ (٢٥) .

[الأحقاف]

وإن تكلم عنها بلفظ الجمع فهي للرحمة ، وسبحانه القائل :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ ۚ ﴾ (٢٦) .

[الحجر]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ مَنَاجِبُهَا ثِقَالًا سَقْنَاهُ لَيْلًا مُّيْتًا فَاُنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ ﴾ (٥٧) .

[الأعراف]

(١) لواقح : حوامل ، لأنها تحمل الماء والسحاب وتقلبه وتصرقه ، ثم تستدره ، فهي تلقح السحاب بالماء فيدر ماء وينزل المطر وتلقح الشجر فتعطى نتاجها . (السان العرب : مادة : (لقح) وابن كثير (٥٤٩/٢) .

والرياح هنا جاءت في صيغة الجمع ، وعلة وجود ربيع للشر<sup>(١)</sup> ، ورياح للخير ، يمكنك أن تستشفها من النظر إلى الوجود كله ؛ هذا النظر يوضح لك أن الهواء له مراحل ، فهواء الرُخَاء هو الذي يمر خفيفاً ، مثل النسيم العليل ، وأحياناً يتوقف الهواء فلا تمر نسمة واحدة ، ولكننا نتنفس الهواء الساخن أثناء حرارة الجو ، ثم يشتد الهواء أحياناً ؛ فيصير رياحاً قوية بعض الشيء ، ثم يتحول إلى أعاصير .

والهواء - كما نعلم - هو المقوم الأساسي لكل كائن حي ، ولكل كائن ثابت غير حي ، فإذا كان الهواء هو المقوم الأساسي للنفس الإنسانية ، فالعمارات الضخمة - مثل ناطحات السحاب - لا تثبت بمكانها إلا نتيجة توازن تيارات الهواء حولها ، وإن حدث تفريغ للهواء تجاه جانب من جوانبها ؛ فالعمارة تنهار .

إذن : فالذي يحقق التوازن في الكون كله هو الهواء .

ولذلك نجد القرآن الكريم قد فصل أمر الرياح وأوضح مهمتها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجُودٌ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ۖ وَكَانَ سَبْحَانَهُ يَتَكَلَّمُ هُنَا عَنِ السَّفِينِ الشَّرَاعِيَةِ الَّتِي تَسِيرُ بِالْهَوَاءِ الْمُنْجَمِّعِ فِي أَشْرَعَتِهَا . وَإِذَا كَانَ التَّقَدُّمُ فِي صَانَعَةِ السَّفِينِ قَدْ تَعَدَّى الشَّرَاعَ ، وَانْتَقَلَ إِلَى الْبَخَارِ ، ثُمَّ الْكَهْرِبَاءِ ، فَإِنَّ كَلِمَةَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ : ﴿ رِيحٌ طَيِّبَةٌ ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء ، خصوصاً وأن كلمة «الريح» قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أياً كانت : من هواء ، أو محرك يسير بأية طاقة . وسبحانه

(١) ومن الريح ما يسخره الله ويحكمه ربيع خير ، مثل نوله تعالى عن سليمان عليه السلام : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٢٢) [ص] . والريح الرخاء هي : الريح اللينة الضريعة التي لا تؤزع شيئاً من مكانه . انظر [اللسان مادة (رغو)] .

القاتل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (٤٦) [الأنفال]

وهكذا نفهم أن معنى الريح ينصرف إلى القوة: وأيضاً كلمة «الريح» تنسجم مع كل تيسيرات البحر.

وقوله الحق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ هذا القول الكريم يضم ثلاثة وقائع: الوجود في الفلك ، وجرى الفلك بريح طيبة ، ثم فرحهم بذلك ؛ هذه ثلاثة أشياء جاءت في فعل الشرط ، ثم يأتي جواب الشرط وفيه ثلاثة أشياء أيضاً:

أولها: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ وثانيها: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ وثالثها: ﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ﴾.

أما الريح العاصف: فهي المدمرة ، ويقال: فلان يعصف بكذا ، وفي القرآن: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (٥) [الفيل].

إذن: «ريح عاصف» هي الريح المدمرة المفرقة. وقوله الحق: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾.

فالموج يأتي من أسفل ، والريح تأتي من أعلى ، وترفع الريح الموج فيدخل الموج إلى المركب ، ونعلم أنهم يقيسون ارتفاع الموج كل يوم حسب

(١) أي: فونكم ، فالريح هنا مثلها القوة وذهب الريح أي: ذهب القوة والهيبة ، فالقوة هي التوازن في الحياة ، إن استعملت بأخلاق عادت على الإنسانية بالخير والسلام ، أما إذا انحدرت من الأخلاق أصبحت طغياناً وقسداً في الأرض وفيما حكاية التاريخ ونشأته في دنيا الواقع لأكبر دليل . وقد تطلق على الراححة ، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْغَمْرُ قَالَ لِيَوْمَ هِيَ لَأَمِيدٌ رِيحٌ يَوْسُفَ﴾ (١١) [يوسف] ، وهذا يخدم معنى القوة أيضاً ، فإن من ذهب رائحته من الوجوه ، فهذا دليل على ذهب قوته.

(٢) العصف المأكول: الثين . والنصف له معنيان:

- أنه جعل أصحاب الفيل كورق أخذ ما فيه من الحب وبقى هو لا حب فيه .

- أو أراد أنه جعلهم كعصف قد أكلته البهائم . [اللسان (مادة: عصف) ] .

قوة الريح ، فحين تكون الريح خفيفة ؛ يظهر سطح مياه البحر مجعداً <sup>(١)</sup> ،  
وحين تكون الريح ساكنة ؛ فأنت لا تجد صفحة المياه مجمعة ، بل  
مبسوطة ، وقد جاءتهم الريح عاصفاً فيزداد عنف الموج ، ويتحقق نتيجة  
لذلك الظن بأنهم قد أحيط بهم .

ومعنى الإحاطة هو عدم وجود منفذ للفرار ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه  
يتكلم عن الكافرين بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ (١٩) ﴾ . [البقرة]  
أى : ليس هناك منفذ يفلتون منه .

ولحظة ظنهم أنه قد أحيط بهم ؛ لا يسلمون أنفسهم لهذه الحالة ؛  
بدعوى الاعتزاز بأنفسهم عزيزاً ، بل يتجهون إلى الله بالدعاء ، هذا الإله  
الذى أنكروه ، لكنهم لحظة الخطر لا يكذب أحد على نفسه أو يخدعها <sup>(٢)</sup> .

ولذلك نجد سيدنا جعفر الصادق يجيب على سائل سأله : أهنأك دليل  
على وجود الصانع الأعلى ؟ فيقول سيدنا جعفر : ما عملك ؟ فيجيب  
السائل : تاجر أبحر فى البحر . فسأله سيدنا جعفر : أو لم يحدث لك فيه  
حال ؟ قال الرجل : بل حدث . فسأل سيدنا جعفر : ما هو ؟ قال :  
حملت بضائعى فى سفينة ، فهبت الريح وعلا الموج وغرقت السفينة  
وتعلقت بلوح من الخشب . قال سيدنا جعفر : ألم يخطر على بالك أن تفرع  
إلى شيء ؟ قال الرجل : نعم . قال سيدنا جعفر : هذا الصانع الأعلى .

وكذلك لجأ هؤلاء الذين كفروا بالله إلى الله تعالى حين عصفت بهم  
الريح ، وعلا عليهم الموج ، وظنوا أنهم قد أحيط بهم ويقول الحق سبحانه

(١) المراد بتجعد سطح الماء : التموجات التى تبدو على سطح المياه إذا هب عليها الهواء .

(٢) لأن فطرة الميثاق الأول تستجيب للإنسان عند الحاجة وعند إضحاخ الحفيفة يقول الحق : ﴿ وَهِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝ (٣٠) ﴾ [لقمان] ، فهذا القول نابع من الفطرة التى غابت عنهم فى

رحمة العناد ، ويظهر ذلك جلياً عند حدوث الأخطار .

وتعالى عنهم - وهم في مثل هذه الحالة : ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا يعنى أنهم لم يدعوه فقط ، بل دَعَوْهُ بإخلاص وأقروا بوحدانيته ، والأشريك له أبداً ؟ لأنهم يعلمون أن مثل هذا الشريك لن يفعهم أبداً . ثم يجيء الحق سبحانه بصيغة دعائهم : ﴿لَئِنْ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فهل وقوا بالعهد؟ لا ؛ لأن الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿فَلَمَّا أَنجَسْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بَأْتِيهَا  
النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا  
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وبعد أن أجهلهم الحق سبحانه مباشرة تأتى «إذا» الفجائية لتوضح لنا أنهم لم يتظفروا إلى أن يسترردوا أنفاسهم ، أو تمر فترة زمنية بينهم وبين الدعاء ، وتحقق نتيجة الضراعة ، لا ، بل بغوا<sup>(١)</sup> - على الفور - فى الأرض ﴿فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والبغي : هو تجاوز الحد فى الظلم وهو إفساد ؛ لأن الإنسان إذا ما أخرج أى شىء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه» ، فإن حقرت طريقاً مُمهّداً ؛ فهذا إفساد ، وإن ألقيت بنفاية<sup>(٢)</sup> فى بئر يشرب منه الناس ؛ فهذا إفساد وبغى ، وأى شىء قائم على الصلاح فتخرجه عن مهجته وتطراً عليه بما يفسده ؛ فهذا بغى .

(١) البغى : الظلم والفساد والكبر والاستعانة على الناس والإيذاء والجور وأصل البغى : متجاوزة الحد . قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .. (٥٧)﴾ [الشورى] . وقال : ﴿لَئِنْ بَقِيتَ بِمَدَائِنُنَا عَلَى الْأَخْرَى لَقَاتِلُوا آلَ نَبِيِّكُمْ .. (٥٨)﴾ [الحجرات] . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

(٢) نفاية الشىء : بقيته وأردؤه . والنفاية : ما بقيه من الشىء لردائه . والمراد بالنفاية هنا : الفضلات وكل ما من شأنه تلويث الشىء - وإفساده . [اللسان : مادة (بغى) - بتصرف] .

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القاتل : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ (٧٦) . [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البغى المثقلة في الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ : «أسرع الخير ثواباً : البر وصلة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة : البغى وقطيعة الرحم»<sup>(١)</sup> .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البغى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما في الدنيا ؛ حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا في رضا ورخاء ثم يموت بخير ، فكل مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً في الدنيا ، سوف يستشري في الظلم .

ولذلك نجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم في الدنيا وأن يرى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ؛ فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن في المجتمع .

وإلا فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة ؛ لشقى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم في الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار في الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : « لا تبغ ، ولا تكن باغياً »<sup>(٢)</sup> .

فالباغى إنما يصنع خللاً في توازن المجتمع . والذي يبغى إنما يأخذ حق الغير ، ليستجيع نتائج من غير كدّه وعمله ، ويتجهوّل إلى إنسان يجترّف

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢١٢) وابن عدى في الكامل (٧٠ / ١) ط ، دار الفكر ، والذهبي في ميزان الاعتدال (ت ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما في ترجمة صالح بن موسى الطلحي ، وهو كوفي ضعيف ، وقال ابن عدى : لا يعتمد الكذب ، وسياق نص الحديث يؤيد به .

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين (٣٣٨ / ٢) عن أبي بكر ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .



فرض الإتاوات<sup>(١)</sup> على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك . وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممن يغتربون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى (فتوات)<sup>(٢)</sup> يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بذل جهد فى عمل شريف .

والبغى - إذن - هو عمل من يفسد على الناس حركة الحياة ؛ لأن من يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكد والعمل الشريف الطاهر . وإذا ما زهد الناس فى الكد والعمل الشريف ؛ تعطلت حركة الحياة ، وتعطلت مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تعطل ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٢٣) . [يونس]

ولقائل أن يسأل : وهل هناك بغى بحق ؟

أقول : نعم ؛ لأن البغى اعتداء على الصالح بإفساد . وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح ، فتسأله : لماذا تفعل ذلك ؛ وقد يجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعَدُّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بغى بحق ، أما إن كان بغياً بدون سبب شرعى فهذا هو البغى ، بل قمته .

ومثال البغى بحق ، أقول : ألم يَسْتَوْلِ النِّبِيُّ ﷺ على أرض بني قريظة ، وأحرق زرعهم وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

(١) إتاوات : جمع إتاوة وهى قدر من المال يُدْفَعُ غصباً وإجباراً - بدون وجه حق - إلى ذوى السطوة والتسلط . وهى تشبه المكوس .

(٢) هذا لفظ يستعمله الناس لكل إنسان منحرف ليتخذ من قوته تهديداً للأمن والسطوة على ممتلكات الناس وتخويف الناس . وفى لغة العرب : الْبَغْيُ : هو الشاب القوى والفنى : العبد ، وجمعه على القلة فتية . وفى الكثرة فتيان ، والأمة : فتاة ، وجمعها فتيات . والفتوة عرفت عند العرب بأهل التجلدة والعون والاحتساب ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على كل منحرف ومنحرف الإفساد .

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه ردّ على عدوان أقسى من ذلك .

وهكذا نرى أن هناك بغياً بحق ، وبغياً بغير حق . ولذلك يسمي الله جزءا السيئة سيئة مثلها <sup>(١)</sup> ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ (١٩٤) [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل ردّ الاعتداء .  
ويطلقها الحق سبحانه وتعالى قضية تظل إلى الأبد بعد ما تقدم ،  
فيقول : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَتَّقِيكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢٢) [يونس]

وهنا يبين الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغي : يا مَنْ تريد أن تأخذ حق غيرك ، اعلم أن قصارى <sup>(٢)</sup> ما يعطيك أخذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، لم تجازي من بعد ذلك بنار أبدية <sup>(٣)</sup> .

وأنت إن قارنت زمن المتعة المقتضية الناجمة عن البقي بزمن العقاب عليها ؛ فوجدت أن المتعة رخيصة هينة بالنسبة إلى العقاب الذي سوف تناله عليها ولا تأخذ عمرك في الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أن يجعل عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

(١) وذلك في نحو قوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ۖ ﴾ [الشورى] . وهذا من قبيل المشاكلة ، وهو مصطلح بلاغي مؤداه ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صيحته ، فالجزء هنا حق لا بوصف بأنه سيئة ، ولكنه سمي هكذا لما معه . انظر (الإتقان في علوم القرآن ٣ / ٢٨١) .

(٢) قصارى الشيء : آخره وغايته وهي من معنى القصر ، أي : الخبس ؛ لأنك إذا بلغت الغاية حَبَسَكَ . [اللسان : مادة (قصر) - يتصرف] .

(٣) ومن أمثلة المصعب والبغى بغير حق ما رواه ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله ، أي الظلم أعظم ؟ قال : ذراع من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حق أخيه ، فليس حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا حوكتها يوم الحساب إلى قعر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها . أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٦ / ١) والطبراني في معجمه الكبير (٢٦٦ / ١٠) . قال الهيثمي في المجمع (٤ / ١٧٤) : «إسناده أحمد حسن» .

## سُورَةُ يُوسُفَ

٥٨٥٧

فَارْتَأَوْا<sup>(١)</sup> عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَاقْنَمُوا أَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، إِنْ كَانَ هَذَا الْمَتَاعُ نَتِيجَةً ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ؛ لِأَنَّ نَتِيجَةَ هَذَا الظُّلْمِ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَيْكُمْ ؛ لِأَنَّ مَقْتَضِي مَا يَعْطِيكُمْ هَذَا الظُّلْمُ مِنَ الْمُنْعَةِ وَالنِّعْمَةِ هُوَ أَمْرٌ مَحْدُودٌ بِحَيَاتِكُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَحَيَاتِكُمْ فِيهَا مَحْدُودَةٌ ، وَلَا يَظُنُّ الْوَاحِدُ أَنَّ عَمْرَهُ هُوَ عَمْرُ الْبَشَرِيَّةِ فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ لِيَقْنَسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَمْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ مَحْدُودٌ .

ولذلك يقول الحق سبحانه في آية أخرى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. ﴾ (٧٧)

[النساء]

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٧٢)

[يونس]

وقد يتمثل جزاء البغي في أن يشاء الحق سبحانه ألا يموت الظالم إلا بعد أن يرى مظلومه في خير مما أخذ منه ؛ ولذلك أقول دائماً : لو علم الظالم ما ادخره الله للمظلوم من الخير ؛ لَضُنَّ عَلَيْهِ بِالظُّلْمِ .

وعلى فرض أن الظالم يتمتع بظلمته وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴾ (٧٢)

[يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظلم أبداً ؛ لِأَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَظْلِمَ أَوْ يُظْلَمَ فَكُلٌ مِنْكُمْ سَوْفَ يَلْقَى مَا يَنْبَغُ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِنْ ثَوَاباً أَوْ عِقَاباً ؛ مُصَدِّقاً لِقَوْلِهِ الْحَقِّ : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ<sup>(٢)</sup> بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٤)

[يونس]

وقد جاء الخبر عن نبيّ الجزاء من قبل أن يقع ؛ ليعلم الجميع أن لكل فعل

(١) ارتأوا على أنفسهم : حافظوا عليها وأبعدوها عن كل ما من شأنه أن يجلب لها العذاب في الآخرة . وفي الحديث : « مثل من ظلمكم كرجل ذهب يربأ أهله » أي : يحفظهم من عدوهم . (اللسان مادة (ربأ)) .

(٢) الأنبياء : الأخبار الهامة . قال الحق : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا .. ﴾ (٤٤) [الأعراف] وقال :

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ .. ﴾ (٦٧) [الأنعام] . أي : لكل خبر عام وقت أو مكان يقع فيه في المستقبل أو في الماضي . ونبيّاء مثل أنبياء . والتضعيف يفيد المبالغة والتكرار . قال الحق : ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .. ﴾ (٤٤) [المائدة] - القاموس القويم ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥١

مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن في ذكر النبا مقدماً تقريراً لمن يظلمون أنفسهم بالبغي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا قَتَلْنَاهَا أَمْ حَتَّى إِذَا أَثْبَتْنَا لَهَا أَتْرَافَهَا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

والماء الذي ينزل من السماء ، هو الماء الصالح للرى والسقى ؛ لأن المياه الموجودة في الوجود ، هي مخازن للحياة ، وغالباً ما تكون مالحة ، كمياه البحار والمحيطات ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ لحمايتها من الغن والفساد ، ثم تتم عملية تقطير المياه بأشعة الشمس التي تحوّل الماء إلى بخار ، ويتجمع البخار كسحاب ، ثم يسقط ماء عذباً مقطراً صالحاً للشرب والرى .

(١) الزخرفة : الزينة . قال ابن سيده : الزخرف : الذهب ، هذا الأصل ، ثم شئ كل عمرة مزورة به . وبيت مزخرف . وزخرف البيت : زينته وأكمله . وفي الحديث : أن النبي ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فشئ . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ (٢٤) ﴿ [يونس] المراد بالزخرف هنا : زينة الحياة الدنيا ومناعها الزائل الذي يخلع برفه أعين الغافلين عن الآخرة وما فيها من نعيم عقيم . [اللسان : مادة (زخرف) - بتصرف] . وقال القرطبي : زخرفها ، أي : حسنها وزينتها . والزخرف : كمال حسن الشيء . ومنه قيل للذهب زخرف (تفسير القرطبي : ٤ / ٣٢٥٤) . وقال ابن كثير : زخرفها ، أي : زينتها القاتية . وازبئت ، أي : حُلت بما خرج في رباعها من زهور ونضرة مختلفة الأشكال والألوان (تفسير ابن كثير : ٢ / ٤١٣) .

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ (٢٤) ﴿لِيونس﴾

والاختلاط: اجتماع شيئين أو أشياء على هيئة الانفصال بحيث يمكن أن تعزل هذا عن ذاك ، فإن خلطت بعضاً من حبات الفول مع بعض من حبات الترميس ، فأنت تستطيع أن تفصل أياً منهما عن الأخرى ، ولكن هناك لوناً آخر من جمع الأشياء على هيئة المزج ، مثلما تعصر ليمونة على ماء محلى بالسكر ، وهذا ينتج عنه ذوبان كل جزىء من الليمون والسكر فى جزئيات الماء .

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ وقد يفهم من ذلك أن الماء والنبات قد اختلطاً معاً ، لكن النبات - كما نعلم - ككائن حي مخلوق من الماء مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٢١) ﴿لِالْأَنْبِيَاءِ﴾

وهنا لا بد أن تلتفت إلى الفارق بين «باء» الخلط ، و«باء» السببية<sup>(١)</sup> فالباء هنا فى هذه الآية هى باء السببية ، وبذلك يكون المعنى: فاختلط بسببه نبات الأرض . وأنت ترى بعد سقوط المطر على الأرض أن المياه تغطى الأرض ، ثم تجد بعد ذلك بأيام أو أسابيع ، أن سطح الأرض مغطى بالزروع ، وكلها مختلطة متشابكة ، وكلما تشابكت الزروع مع بعضها فهذا دليل على أن الرى موجود والخصوبة فى هذه الأرض عالية ، وهذا نتيجة تفاعل الماء مع التربة .

(١) الباء: حرف يجر الاسم الظاهر والمضمر ، ويقع أصلياً أو زائداً ، ويؤدى عدة معان: أشهرها خمسة عشر ، هى: الإلصاق ، والاستعانة ، والسببية ، والتعدي ، والظرفية ، والترض ، والمصاحبة ، والتبويض ، والجاوزة ، والاستعلاء ، والتوكيد ، وأن تكون بمعنى كلمة (بذل) ، وأن تكون بمعنى كلمة (إلى) . انظر تفصيل ذلك فى النحو الرافى (٢ / ٤٩٠ - ٤٩٧) .

أما إن كانت الأرض غير خصبة ، فأنت تجد نبتة في منطقة من الأرض ،  
وأخرى متباعدة عنها ، وهذا ما يطلق عليه أهل الريف المصرى أثناء زراعة  
الذرة - على سبيل المثال : «الذرة تفلس» أى : أن كل عود من أعواد الذرة  
يتباعد عن الآخر نتيجة عدم خصوبة الأرض .

إذن : فخصوبة الأرض لها أساس هام في الإنبات والماء موجود لإذابة  
عناصر الغذاء للنبات ، فتتشر بها جذور النبات .

وإن سمحت لك الظروف بزيارة المراكز العلمية للزراعة في «طوكيو»  
أو «كاليفورنيا» ؛ فلسوف ترى أنهم يزرعون النباتات على خيوط رفيعة ؛  
تُسقى بالماء الذى يحتوى على عناصر الغذاء اللازمة للإنبات ؛ لأنهم وجدوا  
أن أى نبات يأخذ من الأرض المواد اللازمة لإنباته بما لا يتجاوز خمسة في  
المائة من وزنه ، ويأخذ من الهواء خمسة وتسعين في المائة من وزنه .

إذن : فالمطر النازل من السماء خلال الهواء هو الذى يذيب عناصر  
الأرض ؛ ليمتصها النبات .

والحق سبحانه وتعالى هنا أراد أن يضرب لنا المثل ، والمثل : هو قول  
شُبِّهَ بِمَضْرِبِهِ بِمَوْلَدِهِ ، أى : شىء نريد أن نمثله بشىء ، ولا بد أن يكون  
الشىء الممثل به معلوماً ، والشىء المأخوذ كمثال هو الذى نريد أن نوضح  
صورته ؛ ولذلك لا يصح أن نمثل مجهولاً بمجهول ، وإنما نمثل مجهولاً  
بمعلوم .

ونجد من يقول لك : ألا تعرف فلاناً ؟ فتقول : لا أعرفه ، فيرد عليك  
صاحبك : إنه مثل فلان فى الشكل . وهكذا عرِّفَت المجهول بمعلوم .

وبعض من الذين يحاولون الاعتراض على القرآن ، دخلوا من هذه  
الناحية ، وقالوا : إذا كان الشىء مجهولاً ونريد أن نعرف به ، ألا نعرفه



الذي يرتوى بالمطر ، فأراد الحق سبحانه أن يجمع لنا صورة الدنيا في مثل معروف لنا جميعاً ، ونذكره جميعاً ؛ فنذكر ما سبق ، وما يلحق ، فكل شيء يأخذ حظه في الازدهار ، والجمال ، ثم ينتهي ، كذلك الدنيا .

يقول الحق سبحانه :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ (٧١) [يونس]

والزخرف : هو الشيء الجميل المستعمل للنفس وتُسَرُّ به حينما تراه ، وتزين الدنيا بالألوان المتروعة في تنسيق بديع ، ثم يصبح كل ذلك حصيداً <sup>(١)</sup> وهذا ما نراه في حياتنا ، وهكذا جمع الله سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها بالصورة المثالية لكل إنسان ، حتى لا يخدع إنسان بزخرف الدنيا ولا بزينتها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) رَعِينًا وَقَضْبًا <sup>(٢)</sup> (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا <sup>(٣)</sup> (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا <sup>(٤)</sup> (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا

(١) حصيداً : محصورة مقطوعة لا شيء فيها ، قال أبو عبيدة : الحصيد : المستأصل . [تفسير القرطبي ٣٦٥٤ / ٤]

(٢) قال الحسن البصري : القضيب : العلف الذي تأكله الدواب [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ - بصرف] .  
(٣) حدائق غلباً ، أى : بساتين . وقيل : من نخل غلاظ كرام . وقيل : هي الشجر الذي يُسْتَلُّ به . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢]

(٤) قال ابن عباس : الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وقيل : هو الحشيش للبهائم . وقيل : الأب الكلا . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٢ ، ٤٧٣]



جَاءَتِ الصَّاحَّةُ <sup>(١)</sup> (٢٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبَتِهِ  
وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧) ﴿[عيس]

إذن : فالدنيا بكل جمالها الذي تراه إنما تذوي <sup>(٢)</sup> ، وما تراه من بديع  
ألوانها إنما يذبل ، ومهما ازدادت الدنيا فهي إلى زوال ، فإياك أن تبغى ؛  
لأن البغى فيه متاع الدنيا ، والدنيا كلها إلى زوال ؛ كزوال الروض التي  
ينزل عليها المطر ؛ فتنبت الأرض الأزهار ، ثم يذوي كل ذلك .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ  
(٥٧) وَلَا يَسْتَنْشِئُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)  
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ <sup>(٣)</sup> (٢٠) 〉 ﴿[القلم]

إذن : فالدنيا بهذا الشكل وعلى هذا الحال .

(١) الصَّاحَّةُ : قال ابن عباس : هي اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذر منه . وقال البيهقي : الصَّاحَّةُ  
يعنى : صليحة يوم القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تضح الأسجاع ، أى : تبالح في إساعتها حتى تكاد  
تصيحها . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٧٣] .

(٢) تذوي : تذبل . ذوى النبات : أصابه الحر والعطش فذبل . وسعت . وذوى عود النبات : بين .  
[اللسان : ناعة (ذوى)] .

(٣) هذا مثل ضرب به الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة وأعطاهم من النعمة  
الجميلة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالكذب والرد والحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا  
بَلَوْنَاهُمْ 〉 أى : اختبارناهم ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ 〉 وهى البستان المشتعل على أنواع الشار والفواكه  
﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ 〉 أى : حلفوا فيما بينهم ليتجدن ثمرها (يجمعونه) ليلاً لئلا يعلم بهم فغير  
ولا سائل ؛ ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء . ﴿ وَلَا يَسْتَنْشِئُونَ 〉 أى : فيما حلفوا به ، ولهذا  
حشركم الله في آياتهم ، فقال تعالى : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ 〉 أى : أصابها آفة  
سماوية ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ 〉 قال ابن عباس : أى : كالليل الأسود . وقال الثوري والسيدي : أى :  
هشياً يساً . [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٠٦] .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا  
وَارْزَنَتْ ﴾ (٢٤) ﴿

والأرض تتزين بأمر ربها ، والحق سبحانه ينسب الإدراكات إلى  
ما لا تعرف أن له عقلاً أو إرادة . ألم يقل الحق سبحانه في قصة العبد  
الصالح : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبْرَأَ أَن يَضِفُوهُمَا  
فَرَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ (٧٧) ﴿ . [الكهف]

فهل يملك الجدار إرادة أن ينقض ؟ ولو حققنا الأمر جيداً ؛ لوجدنا أن  
الحق سبحانه جعل لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، وله إرادة تناسبه ،  
وله انفعال تناسبه . وقد ضرب الحق سبحانه لنا في ذلك صوراً شتى ، فنجد  
أن الشيء الذي يغزُ على عقولنا أن تفهمه يبرز لنا بيان من الله تعالى .

ومثال هذا : معرفة الهدهد في قصة سليمان عليه السلام بالتوحيد ،  
وكيف أخبر هذا الهدهد سيدنا سليمان عليه السلام بحكاية مملكة سبأ حيث  
يسجد الناس هناك للشمس من دون الله ، فكان الهدهد قد علم من يستحق  
السجود له إذ قال : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ ﴾ (٢) ﴿ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ .. ﴾ (٢٥) ﴿ . [النمل]

ومن كان يظن أن الهدهد ، وهو طائر ، يكون على هذه البصيرة  
بالعقائد على أصفى ما تكون ؟ لأن الحق سبحانه أراد أن يبين لنا أن هذا

(١) يريد أن ينقض : الانقضاء السقوط بسرعة وإضافة إرادة الانقضاء إلى الجدار مجاز عن قرب  
سقوطه ، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل ، وفي كتاب الله قوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى  
الْغَضَبُ .. ﴾ (١٥٤) ﴿ [الأعراف] وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ .. ﴾ (٢٥) ﴿ [محمد] [تفسير سورة الكهف للشيخ  
محمد محمد المدني] يتصرف .

(٢) الخبء : ما خُفي ، والخبء الذي في السموات هو المطر ، والخبء الذي في الأرض هو النبات .  
وقيل : الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى : يعلم الخبء في السموات والأرض . [اللبان : مادة  
(خبأ)] .

الظائر لا هوى له يفسد عقيدته ، وأن أهوائنا هي التي تفسد العقائد ، ومن أعطاه الله سبحانه البدائل هو الذي يفسد الاختيار ما دام لا يحرس الاختيار بالإيمان ، وأن يختار في ضوء منهج الله تعالى .

ونحن نرى أن ما دون الإنسان من طائر أو حيوان لا يفسد شيئاً ؛ لأن غريزته تقوده ، فلا نجد حيواناً يأكل فوق طاقتة ، لكننا نجد إنساناً يصيب نفسه بالتخمة<sup>(١)</sup> ، ولا نجد حماراً يقفز فوق قناة من الماء لا يقدر عليها ، بل تراه وهو يتراجع عنها ، ولكننا نجد إنساناً يشمر عن ساعديه<sup>(٢)</sup> ؛ ليقفز فوق قناة مياه ؛ فيقع فيها<sup>(٣)</sup> .

إذن : فنحن بأهوائنا التي تسيطر على غرائزنا نوقع أنفسنا فيما يضرنا ، ما لم نحرس أنفسنا بمنهج الله سبحانه وتعالى . ونجد في مثال الهدد صفاء عقدياً في التوحيد كأصفي ما يكون المتصوفة ، ويأتى بما يهيم ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن الخبء هو رزق الهدد ، فهو لا يأكل من الشيء الظاهر على سطح الأرض ، بل يضرب بمنقاره الأرض ؛ ليأتى لنفسه بما يطعمه .

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً آخر بالنملة التي قالت : ﴿يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨) .

[النمل]

- (١) التخمة : الذي يعيب الإنسان من الطعام إذا استوعبه أي : استغلة . وقد تطلق «التخمة» على كثرة الطعام والمبالغة في الأكل والشرب حتى يشغل على الجسم هضم الطعام ؛ فيصاب الإنسان بالرجم والقل وعدم القدرة على الحركة . [اللسان : مادة وخم] .
- (٢) الساعد : ملتقى الزندين من عند المرفق إلى الرسغ . والساعد : ساعد الزنار ، وهو ما بين الزندين والمرفق ، سُمي ساعداً لمساعدته الكف . وجمع الساعد : سواعد . [اللسان : مادة (ساعد) ] .
- (٣) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَلْفَتْنَ فِيهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٣٢) [الأحزاب] .

وهذه دقة عدالة من هذه النملة ، فإنها لم تقل : إن سليمان وجنوده سيحطمون أخواتها من النمل ظلماً لهم ، بل قالت : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنكم لا تظهرون تحت أرجلهم .

إذن : كل كائن في الوجود له حياة تناسبه ، ولكن الآفة أننا نريد أن نتصور الحياة في كل كائن ، كتصورها في الكائن الأعلى وهو الإنسان .

ولا بد لنا أن نعلم أن النبات له حياة تناسبه ، والحيوان له حياة تناسبه ، والجماذ له حياة تناسبه ، وكل شيء في الحياة له لون من الحياة المناسبة له .

وقد أوضحنا من قبل أن الحق سبحانه قد قال : ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ..﴾ (٤٢) . [الأنعام]

والهلاك مقابل للحياة ، والحياة مقابلة للموت ، والهلاك يساوي الموت . والحق سبحانه يصور الحالة يوم القيامة فيقول : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ..﴾ (٨٨) . [القصص]

إذن : فالجماذ هالك ، ولكنه يتمتع بلون من الحياة لا نعرفه ، وكذلك كل كائن له حياة تناسبه ، والآفة أن الإنسان يريد أن يعرف الحياة التي في الجماذ كالحياة في الإنسان .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله الحق : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ (٢٤) . [يونس]

وقد جاء هذا القول من قبل أن يتقدم العلم ويثبت أن الأرض تشبه الكرة ، وأنها تدور ، وأن كل ليل يقابله نهار ، وكذلك جاء قول الحق

## سُورَةُ يُوسُفَ

○ ٥٨٦٧ ○

سبحانه : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ (٩٧) أو أمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَحَى ً . . ﴿ (٩٨) ﴿ [الأعراف]

إذن : فأمر الله سبحانه يتحقق حين يشاء ، وهو أمر واحد عند من يكونون في ضحى أو في ليل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا خَصِيدًا <sup>(١)</sup> كَمَا كَانَ لَمْ تَقْنِ <sup>(٢)</sup> ﴾ [يونس]

أى : كأنها لم يكن لها وجود .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ [يونس]

فإذا كانت الدنيا كلها مثل عملية الزرع في الأرض الذى ينمو ويزدهر ويزدان ، ثم ينتهى ، ألا يجب أن نتنبه إلى أن كل زخرف إلى زوال ؟ وعلينا ألا نفتتن بزينة الدنيا ومتاعها فى شيء ، وأن نحرص على ألا نبغى فى الأرض ؛ لأن البغى متاع الحياة الدنيا ، وهى إلى زوال <sup>(٣)</sup> .

ونجد القرآن يأتى بذكر التفصيل للآيات ، ويتبع ذلك بأن هذا التفصيل لقوم « يذكرون » ، أو « يتذكرون » ، أو « يعقلون » ، أو « يتدبرون » .

وكل هذه عمليات تتناول المعلوم الواحد فى مراحل متعددة ، فالتعقل :

(١) الحصيد والحصد : الزرع للحصود بعد ما يحصد ، والمراد بالحصيد هنا : تشبيهه وتصوير إهلاك الله للأرض فى نهاية الدنيا بما يحدث عند حصد النبات من اقتلاعه وتقطيعه . [اللسان : مادة (حصد) - بتصرف] .

(٢) ﴿ كَمَا كَانَ لَمْ تَقْنِ ﴾ أى : لم تكن خامرة ، والمغالى فى اللغة : المنازل التى يغمرها الناس . وقال قتادة : كان لم تستعم . وقرأ قتادة (يقن) بالياء ، يذهب به إلى الزخرف ، يعنى : فكما يهلك الزرع هكذا ، كذلك الدنيا . [تفسير القرطبي : ٤ / ٣٢٥٤] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا لَانٍ ﴾ (٢٦) وَيَقْنِ رُجَّةً رَبُّكَ فُوَ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ (٢٧) ﴿ . [الرحمن] .

هو أن تأتى بالمقدمات ؛ لتستنبط ولتتري إلى أى نتائج تصل . والتذكر  
يعنى : ألا تنسى وألا تغفل عن الأمر الهام . والتفكر : هو أن تعمل الفكر .  
والفارق بين الفكر والعقل هو أن العقل أداة التفكير . والتدبر<sup>(١)</sup> : هو  
ألا تنظر إلى ظواهر الأشياء ، بل إلى المعطيات الخفية فى أى أمر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ ۝ (٨٢) ﴾ . [النساء]

أى : اجعل بصيرتك تمحص البدايات والنهايات ؛ لتعرف أن المرجع  
والمصير إلى الله تعالى . والعاقل هو من يعتد نفسه للقاء الله سبحانه ، وقد  
يرهب نفسه فى الدنيا الفانية ؛ ليستريح فى الآخرة .

وإذا نظرنا إلى الدنيا والآخرة من خلال معادلة تجارية ، سنجد أن الآخرة  
لا بد وأن ترجح كفتها ؛ لأن عمر الإنسان فى الدنيا مئطون ، ولا يعرف  
فرد هل يحيا فى الدنيا عاماً أو عشرة أو سبعين أو مائة عام .

ومهما طالت الدنيا مع كل الخلق فهى منتهية ، والنعيم فيها على قدر  
إمكاناتك البشرية وعلى قدر تصورك للنعيم ، أما الآخرة فهى بلا نهاية ،  
وأمر الإنسان فيها متيقن ، والنعيم فيها على قدر عطاءات الله تعالى ومراده  
سبحانه للنعيم . فإن قارنت هذا بذاك وقارنت الدنيا بالآخرة لرجحت كفة  
الآخرة .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ<sup>(٢)</sup> لَوْ كَانُوا  
يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ . [العنكبوت]

(١) التدبر فى الأمر . التفكير فيه وأن تنظر إلى ما تؤدى إليه عاقبته ، وفلان ما يدري قبال الأمر من دياره ،  
أى : أوله من آخره . ويقال : إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهدى لوجهة أمره ، أى : لو علم  
فى بدء أمره ما علمه فى آخره لاسترشد لأمره . قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ  
وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْوَابِ ۝ (٦٤) ﴾ [ص] . [اللسان : مادة (دبر) - بتصرف] .

(٢) ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ ۝ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] أى : هى الحياة الدائمة التى لا زوال لها  
ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبداً الأبد . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٢١] .

وفى قوله سبحانه : ﴿لَهُى الْحَيَوانُ﴾ . مبالغة فى كونها حياة لا فناء فيها .  
فاتبع منهج الله سبحانه ؛ ليأخذك هذا المنهج إلى دار السلام والسلامة من  
الآفات . وضمن لنفسك الخروج من دار الفناء والأغيار ، وَضَعَ يَدَكَ فى  
يد من يدعوك إلى دار السلام .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلٰمِ وَيَهْدِىْ مِنْ شِئْءٍ اِلٰى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ ﴿١٥﴾﴾

ودار السلام : هى الآخرة التى تختلف عن دار الدنيا المليئة بالمتاعب ،  
هذه الدنيا التى تزهو وتزخرف ، وتنتهى إلى حطيم ؛ لذلك يدعوا الله  
تعالى إلى دار أخيري ، هى دار السلام ؛ لأن من المتخصصات على أهل  
الدنيا ، أن الواحد منهم قد يأخذ حظه جاماً ، ومالاً ، وصحة ، وعافية ،  
ولكن فى ظل أرق من أمرين : الأول هو الخوف من أن يفوته هذا النعيم  
وهو حى ، والثانى أن يفوت هو النعيم .

أما الآخرة فالإنسان يحيا فيها فى نعيم مقيم ؛ ولذلك يقول الله سبحانه :  
﴿وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى دَارِ السَّلٰمِ﴾ .

وهذه الآخرة لن يشاغب فيها أحد الآخر ، ولن يجد من يأكل عرق غيره

(١) دار السلام هى الجنة ؛ لأنها دار الأمان والسلامة من كل سوء يقول الحق : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . . .﴾ [الأنعام] وسلم تأتى لعان منها : ألقى السلام وانقاد وأذعن ، وسلمه

الله : أئناه . وسلمه الأمانة أو سلمها لمصاحبها ، وإذا ما فهمي مُسَلِّمة ، يقول الحق : ﴿مُسَلِّمَةٌ لِأَشْيَءٍ فِيهَا

. . .﴾ [البقرة] وأسلم قلبه : أخلص . وأسلم : دخل فى دين الإسلام ، يقول الحق : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ

أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة] القاموس القويم ج ٢ ص ٣٢٥

مثلاً يحدث في الدنيا<sup>(١)</sup> ، وإذا كنا نعيش في الدنيا بأسباب الله ، فتحن في الآخرة نعيش بالله سبحانه وتعالى ، فكل ما يخطر على بالك تجده .

فإذا كانت الأسباب تتنوع في الدنيا وتختلف قدرات الناس فيها مع أخذهم بالأسباب ، فبئسهم في الآخرة يعيشون مع عطاء الله سبحانه دون جهد أو أسباب ؛ لأن دار السلام هي دار الله تعالى ، فالله تعالى هو السلام .

ولله المثل الأعلى ، فأنت إذا دعاك ولي أمرك إلى داره ، فهو يُعَدُّ لدعوتك على قدره هو ، وبما يناسب مقامه ، فما بالك حين يدعوك خالقك سبحانه وقد اتبعت منهجه . إنه سبحانه هو القائل :

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاعِهُونَ ﴾<sup>(٥٥)</sup> هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ<sup>(٥٦)</sup> لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ<sup>(٥٧)</sup> سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ<sup>(٥٨)</sup> ﴿

[يس]

وهذا السلام ليس من البشر ؛ لأن من البشر من يعطيك السلام وهو يَكُنُّ لك غير السلام ، أو قد يعطيك السلام وهو يريد بك السلام ، ولكنه

(١) وفي هذا يقول رب العزة عن أهل الجنة : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأَلُفًا ﴾<sup>(٥٥)</sup> إِلَّا أَهْلًا سَلَامًا سَلَامًا<sup>(٥٦)</sup> ﴿ [الواقعة] . فهم لا يسمعون فيها كلاماً عبثاً أو فيه تبجح ، بل قولهم لبعضهم سلاماً سلاماً ، أي : نسلطهم على بعضهم ، فهي دار السلام .

(٢) ﴿ فِي شُغْلٍ فَاعِهُونَ ﴾ : مرفهون ناعمون بتعيم الجنة . قال تعالى : ﴿ فَاعِهِينَ بِمَا أَنَاهُم رَّبُّهُمْ .. ﴾<sup>(٥٥)</sup> ﴿ [الطور] . [اللسان : مادة (فكه) - بصرف] .

(٣) ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴾ قال المفسرون : الأرائك : السرر في المجال ، وقيل : هي العرش . وقيل : الأريكة : سرير متجد مزين في قبة أو بيت . وقيل : الأريكة : هو كل ما انكب عليه من سرير أو فراش أو منصة . قال تعالى : ﴿ مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ يَقُومُ الْقَوَائِمُ .. ﴾<sup>(٥٦)</sup> ﴿ [الكهف] . [اللسان : مادة (أرك) - بصرف] .



من الأغيار<sup>(١)</sup>؛ فيتغير فلا يقدر أن يعطيك هذا السلام، لكن إذا ما جاء السلام من الله تعالى، فهو سلام من رب لا يعجزه شيء، ولا يُعوزُه شيء، ولا تلحقه أغيار؛ لذلك يقول سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ... (٢٤)﴾ [الرعد].

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام الله تعالى، وحتى أصحاب الأعراف<sup>(٢)</sup> الذين لم يدخلوا الجنة، ويرون أهل الجنة وأهل النار، هؤلاء يلقون السلام على أهل الجنة. وهكذا يحيا أهل الجنة في سلام شامل ومحيط ومطمئن؛ لأن الداعي هو الله سبحانه، ولا أحد يجبره على أن ينقض سلامه.

ودعوة الله سبحانه هي منهجه الذي أرسل به الرسل؛ ليحكم به حركة الحياة حركة إيمانية، يتعاش فيها الناس تعايشاً على وفق منهج الله تعالى، بما يجعل هذه الدنيا مثل الجنة، ولكن الذي يرهق الناس في الدنيا أن بعض الناس يعطلون جزئية أو جزئيات من منهج<sup>(٣)</sup> الله سبحانه.

وأنت إذا رأيت مجتمعاً فيه لون من الشقاء في أي جهة؛ فاعلم أن جزءاً من منهج الله تعالى قد عُطِّلَ.

(١) فالسلام عند أهل الأغيار يتغير حسب المصالح، أما سلام الله فلا يلحقه التغيير ولا التبديل، لأن وعده الحق، وقوله الصادق، وهو السلام، ومنه السلام.

(٢) أصحاب الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيقفون بين الجنة والنار يوم القيامة، ينظرون إلى أهل هذه وأهل تلك، ينتظرون عفو الله عنهم، وفيهم قال سبحانه: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَتَافَرُوا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا حُشِرَ آبَاؤُهُمْ تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ فَالْتَمِسُوا رَبَّنَا لَنَجْعَلَ لَكَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [الأعراف].

(٣) منهج الله تعالى: طريقه وشريعته، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَاعَةٍ شَرْعٌ وَمِنْهَا جَا (١٨)﴾ [المائدة]. فقد وضع منهجاً للروح سمواً، وللقلب حباً، وللغنى سكيناً وللعقل فكراً وتأملاً وللجسم حركة. ومنهج هذه الطاقات يوجد مجتمع الربوبية بمقيدة توحده، وعبادة تحبه وتخشاه ومعاملات بأخلاق فإذا اختلفت طاقة من هذه الطاقات بسبب نسيانه أو غفلة تعطل المسير في المنهج نحو الله جل جلاله.

ولو أن الناس قد ساروا على منهج الله سبحانه وتعالى ؛ لما كان بالوجود عورة واحدة ؛ فالذى يُظهر عورات الوجود هو غفلة بعض الناس عن منهج الله سبحانه .

وأنت إن رأيت فقراء لا يجدون ما يأكلونه ؛ فاعلم أن هناك مَنْ عَظَلَ منهج الله تعالى ، إما من الفقراء أنفسهم ، الذين استمروا<sup>(١)</sup> بعضهم الكسل ، وإما أن الأغنياء قد ضنوا برعاية حق الله تعالى في هؤلاء الفقراء ؛ وبذلك يتعطل منهج الله سبحانه .

أما إذا سيطر منهج الله تعالى على الحياة ؛ لصارت الحياة مثل الجنة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ونعلم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة بالمنهج ، فمن أخذ المنهج سهل الله تعالى له طريق الصراط المستقيم ؛ وبذلك انتقل العبد من مرحلة الهداية بالدلالة إلى الهداية بالمعونة ، وحين تقوم القيامة يهديهم الله سبحانه بالنور إلى الجنة : ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ .. (٦) ﴾ . [يونس]

إذن : فمن أخذ هداية الله بالدلالة وهي المنهج ، واتبع هذا المنهج ؛ فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسمى بين يديه : ﴿ نورهَم يَسْمَعُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمَنُهُمْ .. (٨) ﴾ . [التحریم]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٢٥) ﴾ [يونس]

لأن كل شيء في هذا الكون لا يخرج عن مشيئته سبحانه ، فالقوانين لا تحكمه ، بل هو الذى يحكم كل شيء .

وإذا كان الله قد بين من شاء هدايته ، فهو أيضاً قد بين لنا من شاء إضلاله بقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾ . [التوبة]

(١) استمروا : استحسن الشئ واعتاده . [اللسان : مادة (مرا) - بتصرف] .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) . [التوبة]

إذن : فقد بين الحق سبحانه لنا من الذين يهديهم إلى الجنة ومن الذين لا يهديهم ، فلا يقولن أحد : وما ذنب الكافرين والفاستقين<sup>(١)</sup> ؟ لأن الحق سبحانه قد بين منهجه ، فمن أخذه به ؛ جعل له نوراً يسمى بين يديه ، ويدخله الجنة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥)

وكلمة ﴿الحُسْنَىٰ﴾ مثلها مثل قولنا : «امرأة فضلى» ونقول أيضاً : امرأة كبرى ، وهى أفضل تفضيل ، أى : مبالغة فى الفضل<sup>(٢)</sup> .

والمقصود بقوله سبحانه : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أى : بالنوا فى أداء الحسنيات ، والحسنة كما نعلم بعشرة أمثالها ، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فما هذه الزيادة ؟

نقول : هى عطاء زائد فى الحسنيات ، فهناك «كادر» للجزاء بالحسنيات ، يبدأ بعشرة أمثال الحسنة ويصل إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٨) قال رب لم نحشره أعمى وقد كنت بغيره (١٢٩) قال كذلك أفك أهلكا فسبها وكذلك اليوم يحس (١٣٠) ﴿طه﴾ .

(٢) أفضل التفضيل : اسم مشتق على وزن (أفعل) يدل غالباً على أن شيئين اشتركا فى معنى ، وزاد أحدهما فيه على الآخر . مثل (أحسن - أفضل - أكبر) فى مثل قولنا : نعيم الآخرة أحسن وأفضل وأكبر من متاع الدنيا . وعند التانيث تصاغ الكلمة على وزن (فعللى) مثل : (حسنى - فضلى - كبرى) . انظر تفصيل ذلك فى (النحو الوافى : ٢ / ٣٩٤ - ٤١٥) .

فيواحدة <sup>(١)</sup> ، وهذا «الكادر» لا يحدد فضل الله تعالى ، بل الحق سبحانه يزيد من فضله مَنْ يشاء .

ولذلك يجب ألا نفرق بين عدل الله سبحانه في أن الشيء يساوى الشيء ، وفضل الله تعالى في أن يجزى على الشيء الحسن بأضعاف أضعاف ما تتصور .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ ۝٥٨ ﴾ [يونس]

وقال قوم من العارفين بالله : إن الزيادة المقصودة هي في العشرة الأمثال والسبعمئة ضعف ، والفضل هو ما فوق ذلك .

وهكذا تتعدد مراتب الجزاء : فهناك العشرة الأمثال ، والسبعمئة ضعف ، والحسنى ، والزيادة عن الحسنى ، وقد قال رسول الله ﷺ في ذلك : «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم . فيقولون : ألم تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ؟ ألم تُدْخِلْنَا الجنة وتُنْجِنَا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» <sup>(٢)</sup> .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا يَزُولُ فِيهِمُ النَّارُ وَلَا ظُلُمٌ ۖ ۝٢٢ ﴾ أي : لا يغطي وجوههم غبار ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ ۝٢٢ ﴾ إلى ربها نَاطِرَةٌ ﴿ ۝٢٣ ﴾ .

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : «إِذَا هُمْ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَحْسِبُوا أَنَّهَا كَسَنَةٌ ۖ ۝١٨﴾ فإن عملها كتبها عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يحسبوا أنها سيئة لم يكتبها عليه ، فإن عملها كتبها سيئة واحدة أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٨) والبخاري في صحيحه (٦٤٩١) بلفظ آخر عن ابن عباس .

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) وأحمد في مسنده (٣٣٢ / ٤) والترمذي في سننه (٢٥٥٢) من حديث صهيب الرومي .

وهو سبحانه القاتل : ﴿وَرُجُوعُهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١)﴾ .  
[عبس]

وترهقها : أي : تغطيها ، وقتره تعني : الغيار ، وهي مأخوذة من القُتَار وهو الهواء الذي يمتلئ بدخان الدُّخَان المحترق من اللحم المشوي ، وقد تكون رائحته أخاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن من يوضع على وجهه هذا القُتَار يصنع له طبقة سوداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿وَلَا يَرْمُقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ (٤٢)﴾ [يونس]  
لأنهم اتقوا الله سبحانه وأحبوا منهجه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. (٤٣)﴾

[آل عمران]

فليس المقصود هو لون الوجه في الدنيا ؛ لأنك قد تجد إنساناً أسود اللون لكنه بالإيمان قد أشرق وجهه ، وأحاطت ملامحه هالة من البهاء . وهناك من هو أبيض الوجه ولكنه من فرط معصية الله صار وجهه بلا نور .

ويقول الحق سبحانه : ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾ [يونس]

أي : أنهم ملازمون للجنة ملازمة الصاحب لصاحبه ، أو «أصحاب الجنة» أي : من يملكونها .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) القُتَر : جمع القُترة ، وهي القبرة ، وفي التهذيب : القُترة غبرة يملوها سواد كالدخان ، والقُتَار : ريح القدر ، وقد يكون من الشواء والعظم المحترق ، وريح اللحم المشوي . وفي حديث جابر ، رضي الله عنه : لا تؤذ جارك بقُتَار قنرك . [اللسان مادة (قتر)] .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾



وما دام الحق سبحانه قد جاء بمن دعاهم إلى دار السلام وأعطاهم الجنة جزاء للعمل الحسن ، فذكر بمقابل الشيء يجعله ألصق بالذهن ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَكُونُوا كَثِيرًا ... ﴾ (٨٢) . [التوبة] وأيضاً من أمثلة المقابلة<sup>(١)</sup> في القرآن قوله الحق : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (٨٣) وإن الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ (٨٤) . [الانفطار]

إذن : فمجيء المقابل للشيء إنما يرسّخه في الذهن ؛ ولأن الحق سبحانه قد تكلم عن الدعوة إلى دار السلام ، ومن دخل هذه الدعوة ؛ فله الجنة خالداً فيها ، لا يرهق وجهه فتر ولا ذلة ، كان لا بد أن يأتي بالمقابل ، وأن يشجع رفض الدعوة لدار السلام ، ويحسن الأمر عند من يقبلون الدعوة .

ولا بد - إذن - أن يفرح المؤمن ؛ لأنه لن يكون من أهل النار ، ولا بد أيضاً أن يخرج بعض من الذين ضلّوا عن الغفلة ؛ ليهربوا من مصير النار ، ويتحولوا إلى الإيمان .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ... ﴾ (٢٧) [يونس]

(١) المقابلة نوع من أنواع المطابقة أو الطابق ، ويقصد بها الجمع بين متضادين في الجملة ، فالمقابلة هي أن يذكر لفظان فأكثر ، ثم أضعدهما على الترتيب . ومن أمثلتها أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة] . انظر : الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٣ / ٢٨٤ - ٢٨٧) .



أَوْ أَنْ (لَا عَاصِمَ لَهُمْ) بِمَعْنَى : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَنْ يَأْمُرَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَلَّا يُعَذِّبُوا .

وَلَا يَقْتَصِرُ أَمْرُهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَطْ ، بَلْ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : ﴿ كَأَنَّمَا أَغْشِيتُ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ أَيْ : كَأَن قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ قَدْ غَطَّتْ وَجُوهَهُمْ ، وَيَكُونُ مَا وَاهُمُ النَّارُ ﴿ أَوَلَيْسَ لَكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

هَذَا هُوَ حَالُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ، وَتَأَبَّأُوا عَنْ دَعْوَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَاتَّخَذُوا شُرَكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَشَاءَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ أَنْ يُجَلِّىَ لَنَا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي الدُّنْيَا ؛ حَتَّى يَكُونَ الْكَوْنُ كُلُّهُ عَلَى بَصِيرَةٍ بِمَا يَحْدُثُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ نَتِيجَةُ حَتْمِيَّةٍ لِّمَا حَدَثَ مِنْ هَوْلَاءَ فِي الدُّنْيَا .

يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وَالْحَشْرُ : هُوَ أَخَذَ النَّاسَ مِنْ أَمَكْنَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ ، وَبِاسْتِغْدَافِ هَذِهِ الْأَمَكْنَةِ الْمُتَعَدِّدَةِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْكُفَرَةِ ؛ لِيَصِيرُوا فِي الْمَكَانِ الَّذِي شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ .

وَكَلَّمَا اقْتَرَبَ النَّاسُ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ ؛ ازْدَحَمُوا ، وَذَلِكَ شَأْنُ الدَّائِرَةِ



بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى في المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع في دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلقى بهم في المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون في شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة <sup>(١)</sup> .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه الْمُتَّخِذَ أَندَاداً <sup>(٢)</sup> ، وَالْمُشْخَذَ نَدَاً ، ويواجههم ؛ لشكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبود لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ .. ﴾ (٢٨) ﴿ [يونس]

وهكذا يتلافى من عبَد الملائكة مع الملائكة ، ويتلافى من عبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبَد صنماً ، أو عبَد شمساً ، أو عبَد قمراً ، أو جناً

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٥٩) والبخاري (٦٥٢٧) فهو يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتنون أن ينتهي يوم الحساب حتى ولو كان يصيرهم إلى النار .

(٢) التذ : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً ﴾ (٢٨) ﴿ [إبراهيم] أي : أنداداً وأشياء . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُخْذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (٦٥) ﴿ [البقرة] [اللسان : مادة (نذ)] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن .

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم في ذلك  
الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذي اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة  
أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه  
وتعالى - ففتنوا في الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا غنى لها بمن  
يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذي له علم ، وله دعوة إلى أن يعبد غيره ، فهو يتركز في  
شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ،  
فيألهم : أنتم وعدم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانه أنت  
وثبتا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ  
تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى  
قمتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ،  
ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه في القرآن  
الكریم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلُّهُ  
فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. ﴾ (١٦٦) [المائدة]

فكان هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأنيه ، ولم يدع إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادّعى ألوهيتها ، ولكن الذي له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عزّ عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقبّل الله سبحانه وتعالى تربته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه ردّ حكم المولى - عز وجل - بالسجود لأدم ، واستكبر ، وظنّ نفسه أعلى مكانة <sup>(١)</sup> . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجّه أن الذين لا يقدرّون على أنفسهم في إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نخضع أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الأمر ، ويأمكنهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المخضبة .

إذن : فالمخاصمة والمحااجة <sup>(٢)</sup> موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالنسجود فأبى فبئى الثراء أخرجه مسلم في صحيحه (٨١) .

(٢) الحاجة : المغالبة والمجادلة . والحجة : الدليل والبرهان . وحجّه وحاجّه : غلبه على حجّته . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْمِعْتُ وَحْيِي لِلَّهِ ﴾ (٢٠) [آل عمران] قال الأزهري : إنما سميت الحاجة حجة ؛ لأنها تخرج ، أى : تُفصّد لأن الفصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجّة الطريق هي المقصد والمسلك [اللسان : مادة (حجج)] .

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم<sup>(١)</sup> .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هي التي تمكّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن المُنصّاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس في إغواء البشر ، فيتسلط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاؤون إبليس في الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغوينهم أجمعين ﴾ (٢٥) إلا عبادك منهم المخلصين ﴿٢٦﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم في سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، ومن أبى سعيد الخدرى في حديث أن إبليس قال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/٣) والحاكم في مستدركه (٢٦١/٤) وصححه وأقره الذهبي .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومن عبدوهم من البشر؟  
وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها؟ وهل يكون  
الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونَا وَنَحْنُ أَعْبَدُ لِلَّهِ مِنْ الْقَائِمِينَ بِالْأَسْحَارِ»<sup>(١)</sup>

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾  
(١٤) ﴿[الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صُمْتًا عَلَيْنَا دَلِيلًا قَعَدُونَا لَهُمْ وَقُودَ النَّارِ»

والحق سبحانه هو النازل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ  
وَالْحِجَارَةُ...﴾ (٢٤) ﴿[البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّنَا جَهْلًا كَمَا تَجَنَّنَا عَلَى ابْنِ مَرْيَمَ وَالْحَوَارِيِّ»<sup>(٢)</sup>

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك؟ فنقول :

إِنَّ لِلْمَعَالِي حِزَاءً ، وَالْمَعَالِي فِيهِ تُنَجِّسُهُ رَحْمَةُ الْغَفَّارِ .

وهكذا وَضَحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

(١) الأسحار : جمع السحر وهو آخر الليل قبل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأصهار هم الصميدون المتهجدون بالليل .

(٢) أى : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالذقيق الأبيض الذي يتقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (٢٨) ﴿٢٩﴾

[يونس]

وهكذا يُحْشَر مَنْ عَبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، ولنتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفْضَح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهم جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ (٢٨) ﴿٣٠﴾

[يونس]

وحين نسمع الأمر : «مكانك» فهو يعني : «الزم مكانك» وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم .

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلات من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عَبد من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ، ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبْرَاءَ تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿٣١﴾

[يونس]

(١) نحشرهم : نجتمعهم للحساب . ومنه يوم المحشر . والحشر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَأَنْقِضُوا إِلَهُكُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٧٣) ﴿البقرة﴾ .

(٢) زَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ : قَرَّبْنَا بَيْنَهُمْ . والتراويل : التباين . قال تعالى : ﴿لَوْ تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ فِتْنَةً لَأُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ سَمَانٍ مَاءً كَذَّابًا﴾ (٢٥) ﴿الفتح﴾ [اللسان : مادة (ز ي ل)] .

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبِدُوا دون علمهم  
فريقاً آخر ، وأعلن فريقٌ مَن عُبِدُوا دون علمهم : ﴿ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا  
تَعْبُدُونَ .. ﴾ (٢٨) ﴿

[يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا .

وانظروا إلى الموقف المخزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ،  
إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدري به المعبود ، مع أن الأصل فى  
العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تصدق على الملائكة  
وسيدنا عيسى عليه السلام ، ونصدق أيضاً على الكواكب والأحجار ؛ لأن  
الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على  
صاحبها ، قادر على أن يُنطق الأحجار .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (٢٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا  
شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٠) وَقَالُوا  
لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴾ (٣١) ﴿

[أفصحت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَن عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من  
صاحبه إن عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ  
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣٤) ﴿

[التورا]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح  
الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقّلت كيف تنطق  
اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرجل فى الآخرة ، أنت تؤمن  
بخير الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدل في الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل في الجنة ، ولا تخرج فضلات <sup>(١)</sup> ؟

وهذا أمر غير منطقي - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث في الجنة ، لو قسناها بعقولنا على ما نعرف في الدنيا لوقفنا أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مطروفي <sup>(٢)</sup> بين السماء والأرض . وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ..﴾ (١٨) ﴿[إبراهيم]

إذن : فكل شيء يتبدل يوم القيامة ، فإذا حدثت أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبّد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ﴾ (٢١)

إذن : فالكائنات التي عبّدت من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً في الهدهد - قد أعلن من قبل أندهاشه

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبرئون ولا يتغوطون ولا يتخبطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أورشح كرشع المسك ، يلهثون التسبيح والتحميد» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد في مستدركه (٣/ ٣٦٤) .

(٢) أي : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة في كل منهما .



## سُورَةُ يُوسُفَ

6887

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى<sup>(١)</sup> .

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد علم الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقي من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب .

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿ أَهَلُّوْا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ .. ﴾ (٤٠) ﴿

فيجيب الملائكة يقولهم : ﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُرِّهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. ﴾ (٤١) ﴿

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سور القرآن الكريم عرضاً منشوراً<sup>(٢)</sup> مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ<sup>(٣)</sup> مِّنَ الْإِنْسِ .. ﴾ (١٢٨) ﴿

ويقول على السنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَائِهِمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا .. ﴾ (١٢٨) ﴿

(١) وذلك في قصة الهدمد مع سليمان : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَرُتِبَ لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٤٠) وَجَدْتُهَا وَفُورُهَا يُسْجَدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَضَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) ﴿ [النمل] .

(٢) المنشور : الشيء يُنْفَخُ منفوخاً هنا وهناك كالخبء وغيره . [اللسان : مادة نشر] .

(٣) أي : أضللتهم منهم كثيراً وأكثرهم من اغوائهم وإضلالهم .

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن .

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس ؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصاً تختلف عن خواص الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ <sup>(١)</sup> مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٢٧) . [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين . وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قار <sup>(٢)</sup> ، أي : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة .

يعني : أنك لو كنت تجلس في حجرة ، وخلف ظهرك في الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالسائر - أي : كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة .

أما لو كانت هناك تفاحة - وهي مخلوقة من الطين - موجودة في الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك .

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه . وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نقلت الجرم <sup>(٣)</sup> إلى المكان الذي توجد فيه .

(١) القبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة قصاعداً من قوم بني كنعان ، والروم ، والفرج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة . وكل جيل من الجن والناس قبيل . قال تعالى : ﴿ أَوْفَايَ بِاللَّهِ وَالْعَلَاةِ قَيْلًا <sup>(٢٧)</sup> ﴾ [الإسراء] . [اللسان : مادة (قيل)] .  
(٢) قار : أي : مستقر في مكانه لا ينتقل منه شيء إلا إذا نقلت أنت . يقال : فلان قار ، أي : ساكن ثابت . [اللسان : مادة (قور)] .  
(٣) الجرم : الجسم . والجمع (الأجرام) .

ونلمح هذه المسألة التقنية في قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبا تسير في الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتي لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو في مجلسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .. ﴾ (٢٨) [النمل]

وهذا يدل على أنه كان في مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين في قدراتهم ما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي .. ﴾ (٢٨) [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراه سليمان عفريت من الجن - لا جنأ عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ، ومنهم من هو ذكي ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضاً ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ .. ﴾ (٣٩) [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو يضع ساعات <sup>(١)</sup> ، والتكلم هو عفريت من الجن الذي يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادي - ممن كان حاضراً مجلس سليمان - فلم يتكلم ، لأن المطلوب ليس في قدرته ، أما الذي تكلم من الإنس فهو من عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴾ (٤٠) [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .. ﴾ (٤١) [النمل]

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس في مطالعهم من أول النهار إلى أن تروق الشمس .

(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجن على الجن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنسان <sup>(١)</sup> ، ولم يأخذ الجن خواصه في الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكون سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنسان وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنسان أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنسان .

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على من يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد زهقاً <sup>(٢)</sup> .

واقروا قول الحق سبحانه :

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَقُولُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَما رُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَجْنُ فِتْنَةً فَلَا تَكْفُرْ ۚ﴾ (٦٠:٢)

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس .

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه التاري تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مدنية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلى ذلك في أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عَفَرْتُكَ مِنَ الْيَمِينِ أَنَا أَتَيْكَ بِدَقِيقٍ أَتَقُولُ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (٢١) قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرند إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليثربني بالأسفار أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن إني غني كريم ﴾ (٢٢) [التمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العظام الإلهي ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (٢٣) [الجن] أي : ذلة وضعفاً . قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فيبزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٢٨) .

ولكن الملكين هاروت وماروت<sup>(١)</sup> حينما عَلَّمَا الإنسان السحر حذَّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتثقي نفسك من الشر لا لتوقعه بتغييرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتي لك إنسان ليُودعَ عنك ألفاً من الجنيھات كأمانة ، ولكن أنظر على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أمانة مالية فتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تبه الذكي هو من يقول لمودع هذا المال : «احفظ عليك مالك ، لأنني من الأغيار» .

وتلك هي القضية الإيمانية الأصيلة في الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٧) [الأحزاب]

والأمانة هي ما يكون في ذمة المؤمن ، ولا حجة للمؤمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هي وديعة لا توثق فيها ؛ إلا ذمة المؤمن ، قد يقرُّ بها ، وقد ينكرها .

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزل إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم في المباد ، فامضتا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ...

(٢) اختلف العلماء في تفسير الأمانة في الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هي الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يعطها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يعطنها فهل أنت أخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فحملها . انظر ابن كثير في تفسيره (٦٢٢/٣) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤمن عند المؤمن خاضعٌ لخيار المؤمن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجن والانس والحيوان والنبات والجمادات كلها في هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلنا مقهورين ولا اختيار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قبلَ الإنسان حمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظنَّ في نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أنعلمه لأدفع الضرَّ عن نفسي ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿ اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

واستمتع الإنس بالجن مصدِّره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتع الجن بالإنس مصدِّره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقسم إبليس اللعين : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ <sup>(١)</sup> أَجْمَعِينَ .. (٥٤) ﴾ [ص]

(١) الاغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُم بِمَا كُنَّا عَارِفِينَ (٥٤) ﴾ [الصافات] . [الإنسان : مادة غوى] .



وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذي استخدم الجن ، وللجن الذي أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى في هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الْأَخْلَاءُ ﴾<sup>(١)</sup> يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التي يجمع أفرادها صفة ومودة ، ويتخلل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخلَّة<sup>(٢)</sup> في الله تعالى ، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن هم واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يرده عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتصرون ، وتدور حياتهم في إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه»<sup>(٣)</sup> وهذا لون من الخلَّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصي ، فإذا جاء يوم القيامة يتأهلون حكم الله تعالى : ﴿ لَا يَتَّبِعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ .. ﴾<sup>(٤)</sup> [البقرة]

فلا خلَّة إلا خلَّة اللقاء في الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء في الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه عن معصية ، أما من كانوا

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق . قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .. ﴾ [النساء] . وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَى نَيْبِي ثُمَّ اتَّخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ [الفرقان] . [النساء : مادة (خ ل ل)] .

(٢) الخلَّة : الصداقة والمحبة . والخل : الود والصديق . [النساء : مادة (خ ل ل)] .  
(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم بيده ما تصفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) والبخاري في صحيحه (٦٦٠) .



يجتمعون في الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٧) [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَمَا قُمْنَا بِهَذَا الْفِعْلِ إِنَّا كُنَّا مِنْكُمْ قَوْمًا مَلُومِينَ ﴾ (٢٨) [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحْصٍ ﴾ (٢٩) [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذي يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْوَني وَلَوْ أَنَّكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَأَنَا بِصُورِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصَرِّخِينَ ﴾ (٣٠) [إبراهيم]

(١) أجزع : يقض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)] .

(٢) محيص : منهرب . قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْكَ مَا وَاعَدَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حصص)] .

(٣) السُّلْطَان : سلطان القهر في قهرهم على أتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهلك الهدهد : ﴿ لَا أُعَذِّبُهُ عَذَابًا مُهِمًّا وَلَا أَضِلُّهُ وَلَا أَجْزِلُهُ أَوْ تَكَلِّمُنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل] .

(٤) مصرّحكم : مفيثكم . والمصريح : المنيث . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَثْبَرَتْ اسْتَحْضَرَهُ الْفُؤَادُ الْمَظْهَرُ ﴾ [يس]

(٥) [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَأَنْتُمْ لَأَنْفُسُكُمْ فَلَا تُصْرِحُونَ وَلَأَنْتُمْ لَأَنْفُسُكُمْ فَلَا تُصْرِحُونَ ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)] .

وهذا الخوار هو الذي يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (٦٦) ﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت في خواطرننا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبِدَ من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .  
ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا <sup>(١)</sup> الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

ولنتنبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون في الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذي يهتدي الانحراف إلى ما يريد <sup>(٢)</sup> .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿ مَكَانَكُمْ ﴾ تفهم من ذلك أنهم كانوا معاً في الدنيا وهي دار الاختيار ، وهم الآن في دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) احشروا : اجتمعوا ، وحشروا : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب . [اللسان : مادة (حشر)] .  
(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادٍ ثُمَّ عُدُّوا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... (١٥) ﴾ [التغابن] .

﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَقْبِلُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَحْصُرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ [الصفافات]

أى : كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا تتبعكم ، فلا يظن ظان أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أى قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء .

إذن : فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله : ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزين الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه على الطاعة .

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلُّوا مِن الْجِنِّ وَالْإِنسِ (١) نَجْعَلُهُمَا نَحْنُ أَقْدَامًا لِّكُونُوا مِنَ الْآسَفِينَ﴾ (٢٩) [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة ، يتبرأون عن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

(١) من أبى هزيرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فى ذكره ابن كثير فى تفسيره (١٣٤/٤) وعزاه للمعافى ابن عساكر .

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿الَّذِينَ ضَلُّوا ..﴾ (٢٩) [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحدوا لآسره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى الأرض . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٩٨/٤) .

سبحانه في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا<sup>(١)</sup> عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾ (٢٩) ﴿[يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذي عُبِدَ ، وحتى الأصنام ، من الذين عُبِدُوا في الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك : (٢)

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣٠)

وقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ﴾ يعني : في هذا الوقت ، أو في هذا المكان . والزمان والمكان هما طرفا الحدث : لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتي طرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتي طرف المكان .

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً في قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ . . .﴾ (٣٨) ﴿[آل عمران]

أى : في ذلك الوقت الذي فالت فيه مريم - رضى الله عنها - قوله أدت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذي يأتي لها بالطعام ، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلّمه هي . يقول

(١) إِنْ كُنَّا : أى : ما كنا . فَإِنَّ هُنَالِكَ نَفْسِي ، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ لَآ فِي غُرُورٍ . . .﴾ (٣٥) ﴿[الملك] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى : ﴿إِنْ أَرَادْنَا إِلَّا أَنْ نَبْعَثَ . . .﴾ (٣٦) ﴿[التوبة] .

(٢) ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ (٣٨) ﴿[يونس] : تدلّ على جزء ما عملت وقدمت . وقيل : نخبر : وقيل : تنبح ، أى : تنبح كل نفس ما قدمت في الدنيا . وقرا حمزة والكسائي «تبلوه» أى : تقرأ كل نفس كتابها الذي كُتب عليها . [تفسير القرطبي ١/ ٣٢٦١ وابن كثير ٢/ ٤١٦] .

سبحانه: ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا .. (٢٧)﴾

[آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء  
تحتاجه ، لكنه فرجى بوجود رزق لم يأت هربه ؛ بدليل أنه قال :  
﴿أَتُنِي<sup>(١)</sup> لَكَ هَذَا ... (٢٧)﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية وبقطة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به .  
وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع  
حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يكشف  
مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يعرف كافله ، ولو أن كافله اصر  
على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لحتم المجتمع من الفساد .

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي  
ذكره رب العزة سبحانه: ﴿أَتُنِي لَكَ هَذَا ... (٢٧)﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

ثم تعلل الجواب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ<sup>(٢)</sup> .. (٢٧)﴾

[آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

(١) أتني لك هذا ؟ كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله فن عطاه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من غير وعمل  
صالح ، يقاس القسط بمقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذي بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا  
كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَّيْتُ وَنَسَّيْتُ وَنَسَّيْتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢٢٢)﴾ [الأنعام] .  
إن : يكون الرزق من بلا حظ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحُكْمِ الْعِلْمِ الَّذِينَ يُسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ  
آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا فُرْقَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٢٢)﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف  
قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعَجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين :  
 شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأن وجد  
 عندها عنياً في زمن غير أوانه ، أو وجد يرتقياً في غير أوانه <sup>(١)</sup> ، وسؤاله  
 كان دليل يفضة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ  
 مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران]

وما دام ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - منا طرح حسابك أنت  
 للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله  
 تعالى يرزق مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حيثند ؛  
 فجاءت بها فولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكر زكريا نفسه ،  
 كرجل بلغ من الكبر عتياً <sup>(٢)</sup> ، وامراته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من  
 يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته  
 صغيرة ليسجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿هَٰذَا نَذَارٌ لَّكَ مِنَّا زَكْرِيَّا رَبِّهِ ..﴾ (٢٨) [آل عمران]

أى : في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ،  
 وهنا جاءت الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ  
 خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٢٩) [مريم]

(١) ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ (٢٧) [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة  
 وآخرون : يعنى : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . وهذا فيه دلالة  
 على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٠] .  
 (٢) عتاً الشيخ عتياً وعتياً وعتياً : كبر وأسن . [اللسان : مادة (عش)] .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية لمنع أي ظأن من أن يستء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها في موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفي غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذي دعت به امرأة عمران :

﴿وَأَنى أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٢٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ (٢٧) وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

وتطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هي لها ، حين يبشرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن عيسى ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تنازل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بذلك المقدمة على لسانها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت : ﴿رَبِّ أَنى يَكُونُ لى وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّنى بَشَرٌ .. (٢٧)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُخَوِّدُ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمَ الْمَسِيحِ عِسى ابن مريم .. (٢٥)﴾ [آل عمران]

فيحفظها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

(١) تقبل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فانت قد تأخذ بكثرة أو على مضض ، أما أن تقبل فذلك يعنى الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة فى الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتي نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التي ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧) [آل عمران]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواتمها يقول الحق سبحانه : ﴿هَٰئِلِكَ تَبْلَوُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَصْلَفَتْ ..﴾ (٣٨) [يونس]

أى : في ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا ؟ فإن كانت قد عملت البش : فسُجِدَ الجزاء شراً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ<sup>(١)</sup> الْحَقَّ ..﴾ (٣٩) [يونس]

وكانهم كانوا في الدنيا عند مولى آخر غير الإله الحق سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس موالى لهم ، وهنا في اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضد ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ..﴾ (٤٢) [القصص]

فدلَّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ<sup>(٢)</sup> الْحَقَّ ..﴾ (٤٠) [يونس]

(١) المولى : النصير والمولى الذي يلي عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذي تنزع إليه في شدائدك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ..﴾ (٤٠) [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال في آية أخرى : ﴿وَإِنَّ الْكَافِرِينَ لَأَمْرَأَىٰ لَهُمْ ..﴾ (٤١) [محمد] . فهو سبحانه ليس مولى لهم في النصرة والمعوذة ، بل هو مولى لهم في الرزق وإدراك النعم .



(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحصون فيها من جدعاء؟» ثم قال : «ولفطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .» [٢٥] [الروم]. متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وَحُوفُهُمْ وَبَشَعَ لَهُمْ مَا سَوْفَ يَنْظُرُهُمْ مِنْ مُصِيرٍ إِنْ ظَلَمُوا عَلَى الْكُفْرِ ؛  
لَعَلَّهُمْ يَرْتَدِعُونَ <sup>(١)</sup> ، وَيَتَذَكَّرُونَ ضَرُورَةَ الْعُودَةِ إِلَى عِبَادَةِ إِلَهِ الْحَقِّ  
سُبْحَانَهُ ، يَأْتِي الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَعِيدُ إِلَيْهِمْ رُشْدَ الْإِيمَانِ فِي  
نَفْسِهِمْ ، فَيَقُولُ :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ  
السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ  
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ  
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ٢٦

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ،  
ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق في أن المسئول لو أدار في ذهنه كل  
الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

رمثال ذلك من حياتنا - والله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى  
يُهمِّلنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم  
ويطعمك ويُعلمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن  
يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت  
تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو  
في المسألة .

(١) الارتداد . الكف عن الشيء . وتراجع القوم : زجع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفواهم عن المعاصي  
وأيذا الناس [وانظروا : لسان العرب - مادة رجع] .

(٢) في الآية منطلق الفطرة بالشمس ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب  
الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدير هو الله .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

والحق سبحانه وتعالى قال في بداية هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بدأ بقوله سبحانه : ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾

[المصد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخلق ، ويختلف عن خطاب الخلق للخلق ، فحين تقول لابنك : «اذهب إلى عمك ، وقل له كذا» . فالابن يذهب إلى العم ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له : «قل» ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد شاء سبحانه أن يبلغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين في البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحي دون أن يبلغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي أمره ، فهو يبلغ ما أمر ، حتى لا يحرم أذن خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه .

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول : ﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . (٣١)﴾

[يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يتتفع به ، والانتفاع الأول مقوم حياة ، والثاني ترف أو كماليات حياة ، والرزق الذي هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، وثبات يخرج من الأرض<sup>(١)</sup> .

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدماً ، فلم يقل لرسوله ﷺ : «أجب أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم .

وكذلك جاء الحق سبحانه يسؤال آخر : ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ (٣٦)﴾ . .

[يونس]

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة في قوله تعالى : ﴿لِيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٢)﴾ إذا سبأ الماء ميا (٢٥) ثم شققا الأرض شققا (٢٦) فأنبتا فيها حيا (٢٧) وعبا وقصبا (٢٨) ورتونا ونخلا (٢٩) وحدائق فلجا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) طاعا لكم ولأنفاسكم (٣٢) [عيس] .

والسمع والبصر هما السيدان لللكات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات <sup>(١)</sup> له وسائل متعددة ، إن أردت أن تدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإن أردت أن تدرك نغومة ؛ فبلمسك وببشرك ، وإن أردت أن تدرك مذاق شيء ؛ فبلسانك ، وإن أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإن أردت أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلى لك المراتى <sup>(٢)</sup> بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتكون أشياء تسميها خميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلتسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهي أن هذه نار محرقة ؛ واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة في النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكاتن الحى هي الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تنعزز فيه لتستقر من بعد ذلك في الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هي : إدراك حسي ، وتفكير عقلي ، فانتهاه عقدي ؛ ولذلك تسمى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشيء في يقينك بصورة لا تحلّه بعدها من جديد لتحلّه ، فهذا يسمى عقيدة .

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر التأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راء ، وما يقع عليه البصر فهو مرئى ، والجمع : مراتى .



وجاء قول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها  
بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى  
الظاهرة ، مع أن المعلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط  
للأمر وقرر أن هذه الحواس هي الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعني أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهي  
حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البين بين ، التي تفرق بها بين  
أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة  
توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين <sup>(١)</sup> .

وكذلك حاسة العضل التي تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلًا ما  
مدى الإجهاد الذي يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حمل ثقل آخر .

وحين نظر العلماء في معاني الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد  
من علة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق  
سبحانه في آلة الإدراك «السمع» ، وقال في الآلة الثانية «الإبصار» ؟ ، ولماذا  
جاء السمع بالإنفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأت بالاثنتين على  
وتيرة <sup>(٢)</sup> . واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة  
بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أي صوت قادم من أي مكان ، لكنك  
بالمعين ترى من جهة واحدة ، فإن أردت أن ترى ما على يمينك فأنت تنحى

(١) وهذا غير حاسة اللمس التي ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يدرك بحاسة اللمس  
وعادة يكون هذا بإمرار كف اليد على القماش ، أما إدراك (تخنة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه  
بهذه الحاسة .

(٢) التوتيرة : الطريقة : مأخوذة من التواتر أي : التابع ، وجرت الأشياء على وتيرة واحدة : أي : بنفس  
الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)] .

## سُورَةُ يُوسُفَ

٥٩٩

بعينيك إلى اليمين ، وإن أردت أن ترى ما خلقتك ، فأنت تغيّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد .

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعطّلها ، وقد أعطانا الحق مثالا لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ مِثِينَ عَدَدًا ﴾ (٦٦) [الكهف]

فَعَطَّلَ اللهُ سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً .

كيف حدث هذا ؟ . . إن أقصى ما يتأمله الإنسان العاوي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴾ (٦٧) [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوُكِّتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا .. ﴾ (٦٨) [الكهف]

ونلاحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعُ وَالْأَبْصَارُ .. (٢١)﴾ [يونس]

بينما يقول في آية أخرى في سورة السجدة : ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن نتنبه إلى الفارق بين «الخلق» و«الجعل» ، و«الملك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْزَمٌ في العقيدة ، ومعروف ، أما «الجعل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته .

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشري ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمْ يَمْلِكُ﴾ ، فمن خَلَقَ هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينهبها إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يملكها له .

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلِقَتْ في الإنسان ، وجُعِلَتْ له لانتفاع بها ، ولكنها ستظل ملكاً لله ، يبقِيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بأفة ، أو يعطلها<sup>(١)</sup> .

إذن : فهي خُلِقَتْ لله ، وجُعِلَتْ من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصِيرُها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله .

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكْفُرُ الْبَرَقُ بِخَطْفِ أَبْصَارِهِمْ كُلَّمَا أُنْهَاءَ لَهُمْ مَشْرُوعُهُمْ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَنُفِثَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥)﴾ [البقرة] .



والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكل حيوان جلداً ؛ نتفح به  
ونذبعه إلا جلدَيْن اثنين : جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام  
جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدُلَّ  
على حرمة ونجاسته .

وعلينا أن نتنبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وَجَعَلَ وَمَلَكَ ،  
ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى الْمُشْتَرِكِ<sup>(١)</sup> ؛  
لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لست ملك  
نفسك . ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه  
أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره .

لذلك فإنه سبحانه هو الذي رزق ، وهو - سبحانه - الذي يملك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. ﴾ (٣١)  
[يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق  
سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨)  
[القصص]

وما دام كل شيء سيأتي له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء  
حياة ، إلا أن حياتنا نحن في ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ،  
والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها  
يكون الجسم الحيوانات المتوية في الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما  
يأتي الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصبة ؛ لأن البيضة

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يشبع في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصصة لا تُخرج كتكوّنات ؛ فهي بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها .

وكذلك ثواة النمرة ، إذا ما أُلقيت دون أن توضع في الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعت في الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجت نخلة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَدِيرُ الْأَمْرَ ... ﴾ (٣١) [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأي شيء ؛ حتى يؤدي مهمته ، وبالله من يدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك .

إياك أن تقول : إني أنا الذي أدير ذلك ؟ ونقول : كنت طفلاً في مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومن الذي يدير حركة رئتيك ؟ إن الذي يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزةكم التي لا تدخل لكم فيها ؛ لأن الذي خلقها فيكم قيوم لا تأخذه سنة<sup>(١)</sup> ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك<sup>(٢)</sup> .

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى - الإجابة التي حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ... ﴾ (٣١) [يونس]

إذن : أما كان يجب أن نرهف الأذان ، ونُعمل الأبصار ؛ لثري قدرة الله سبحانه الذي وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

(١) السنة : النعاس من غير نوم . وقيل : السنة نعاس يبدأ في الراس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [اللسان مادة : وسن] .

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أي : لا يعجزه سبحانه ولا يتغلب عليه . يقال : آده الأمر : بلغ منه الجهد والمثقة . [اللسان مادة : أود] .

أما كان يجب أن نقول : يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منا ؛ لنعمر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبي ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلفته بشيء ؟ ... لا .

إذن : يتساوى عندها مَنْ عبدها ، وَمَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى .

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقريكم من آثار صفات الجمال <sup>(١)</sup> وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه .

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقي نفسه النار .

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خلق ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٨٧) [الزخرف] ويقول أيضاً : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٢٥) [النمل]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودير الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتجهون لعبادة غيره ؟

(١) صفات الجمال هي صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهي صفات القهر والعلو . وكونه سبحانه هو العزيز : فعلى العبد أن يهزب من آثار صفات الجلال ليندوق حلاوة آثار صفات الجمال ، لينهل في عباد الله المتقين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾<sup>(١)</sup>

وقد جاء قول الحق سبحانه : ﴿فَذَلِكُمْ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قبلاً من الرزق ، وملكة السمع والأبصار ، وقدرة إخراج الحي من الميت ، وإخراج الميت من الحي ، وتدبير الأمر .

إذن : فقوله سبحانه : ﴿فَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد ؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد .

﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. (٣٢)﴾ [يونس]

ولا يوجد في الكون حقان<sup>(٢)</sup> ، بل يوجد حق واحد ، وما عداه هو الضلال ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. (٣٢)﴾ [يونس]

إذن : أنتم إن وجهتم الأمر بالربوبية إلى غيره ؛ تكونون قد ضللتكم الطريق ، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها ، فتتجه إلى طريق لا يوصل إليها . فإن صرّتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال .

ولذلك ينهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال ، فيقول سبحانه : ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .. (٣٢)﴾ [يونس]

(١) فَأَنَّى تُصْرَفُونَ : أي : كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يوزن ولا يحصى ولا يعبث . [تفسير القرطبي ٤/ ٤٣٢٦٧ .]

(٢) الحق واحد لا يتطور الفكر البشري ولكنه يتهج الحق ذاته ؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للفسطاطية ، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق ، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول ، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغاظة .

أي : أنكم إن انصرفتم عن الحق - سبحانه وتعالى - فإلى الضلال ،  
والحق واحد ثابت لا يتغير .

ومن عبيد الملائكة أو الكواكب أو النجوم ؛ أو بعض رسل الله - عليهم  
السلام - أو صنماً من الأصنام ؛ فقد هوى إلى الضلال .  
وإن كنتم تريدون أن نجادلكم عقلياً ، فلنقرأ معاً قول الحق سبحانه  
وتعالى بعد ذلك :

﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾

﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٢)

قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من رزق الله تعالى للبشر  
جميعاً ، ومن ملك السمع والبصر ، ومن تدير الأمر كله ، ومن إخراج  
الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، ذلك هو الإله الحق سبحانه ،  
وقد ثبت ذلك بسؤاله سبحانه وتعالى هذا السؤال الذى علم مقدماً ألا إجابة  
له إلا بالاعتراف به إلهاً حقاً : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .. ﴾ (٣٢) .

ومثل هذه القضية تماماً قول الحق سبحانه : ﴿ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ  
فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٢) [يونس]

لأنهم أساءوا الفهم فى الوحدانية ، وفى العقيدة ، واستحقوا أن  
يُعَذَّبوا ؛ لأنهم صرفوا الحق إلى غير صاحب الحق .

وقد كان هذا خطاباً للموجودين فى زمن النبى ﷺ ، لكن بعضهم آمن  
بالله تعالى ؛ ولذلك فالعذاب إنما يحل على من لم يؤمن .

وهذا القول متحقق فيمن سبق فى علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ،

وكذلك حَقَّتْ كلمَةُ ربِّكَ على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم ، وإصرارهم على الانحراف بالعبودية لغير الله الأعلى والربِّ الحقِّ سبحانه وتعالى .

وَأَنذِيتُ عَلَى الْعِلْمِ الْأَزَلِيِّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ مَا نَقَرَأُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) [البقرة] إِذَنْ : معلومُ اللهِ تعالى مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ ، وَمَنْ يَسْتَمِرُّ وَيُصِرُّ عَلَى كُفْرِهِ ؛ هُوَ الَّذِي يَلْفَى الْعَذَابَ ، يَعْلَمُ اللهُ تعالى فِيهِ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ .

ثم يذكر الحق بعد ذلك ما يمكن أن يُجادَكَ به الكافرون بمنطق أحوالهم ، ففي ذوات نفوس غير المؤمنين بالله توجد نزعة فطرية لفعل الخير ، وتوجيه غيرهم إليه ، وهو موجود حتى في الأم غير المؤمنة ، فكل قوم يُرجَّهون إلى الخير بحسب معتقداتهم ، فتجد بين الشعوب غير المؤمنة بالله حكماء وأطباء وعلماء ، وهؤلاء يوجهون الناس إلى بعض الخير الذي يرونه .

ونجد الطفل الصغير يكتسب المعتقدات والعادات والالتجارات من والديه ، وغما يسمعه من توجيهاتهم ، فتجده يبتعد عن النار مثلاً أو الكهرباء ؛ لأنه ترسخت في ذهنه توجيهات ونصائح غيره ؛ بل إنه يتعلم كيف يتعامل مع هذه الأشياء دون أن تصيبه بالضرر .

إِذَنْ : يوجد توجيه من الخلق إلى الخلق لجهات الخير ، ألا نجد في الدول غير المؤمنة بالله مَنْ يرشد الناس إلى الطرق التي يمكن أن يسيروا فيها

(١) في الآية إشارة إلى مجتمع النفاق ومجتمع النفاق يعيش بين مجتمعين : المجتمع الإيماني مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة] ، والمجتمع الكافر مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَانُهُمْ كَسَرَابٌ بِقِيَعٍ يُعْطَى الْعُقَاطُ مَاءً سَافٍ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَرَأَوْا اللَّهَ عَبْدَهُ فَوَقَّاهُ حَتَّىٰ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور] ، ومجتمع النفاق أخطر من مجتمع الكفر ، فالكفر معلن وأنا مستبطن له ، أما النفاق فهو خناع .

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٥٩١٧

بالتجاهين ، والطرق التي عليهم أن يسيروا فيها باتجاه واحد ؟

الأ يوجد مَنْ يدل الناس على المنحنيات الخطرة على الطرق ، وكذلك  
يوجههم إلى ضرورة خفض سرعة السيارات أمام مدارس الأطفال ؟

نعم ، يوجد في البلاد غير المؤمنة مَنْ يفعل ذلك .

إذن : قالتفكير في الخير لصالح الأمم أمر طبيعي غريزي موجود في كل  
المجتمعات ، وإذا كان التوجيه للخير يحدث من الإنسان المساري  
للإنسان ، ألا يكون الله سبحانه هو الأحق بالتوجيه إلى الخير ، وهو  
سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيم حياته على الأرض ،  
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ

اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنْتُمْ تَوَفَّكُونَ ﴾ (٣٤)

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يسألهم : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ  
يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ (٣٤) [يونس]

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بد أن تكون الإجابة كما  
أرادها هو سبحانه . وإن قال قائل : وكيف يأمنهم على مثل هذا  
الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله ؟

(١) الإفك : الكذب والإثم . أتى توفكون : كيف تكذبون ؟ [اللسان : سادة (أفك)] والإفك أخطر من  
الكذب ، حيث إن الإفك في افتراء متخيل ومبالغه باعته لها التأثير المفسر على المجتمعات والأفراد ؛  
ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْمِلُهُمْ شُراً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لَكُمْ لِكُلِّ أَصْحَابٍ  
مِنْهُمْ مَا كَتَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٤) [النور] . ولم يقل بالكذب مع أنه  
كذب ، ولكنه غير بالإفك ، لأن فيه افتراء على كرامات الناس وقيم المجتمع .

نقول: إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة ،  
فلن نجد السؤال إجابة إلا أن يقول: إن الذي يفعل ذلك هو الله سبحانه  
ولا يمكن أن يقولوا: إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين  
صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفاً: إن الله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على  
ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج والحق أبليج<sup>(١)</sup> ، وللحق صَوْلَة<sup>(٢)</sup> ؛  
فأنت ساعة تنطق بكلمة الحق في أمر ما ، تجدها قد فعلت فعلها فيمن هو  
على الباطل ، ويأخذ وقتاً طويلاً إلى أن يجد كلاماً يرد به ما قلته ، بل  
يحدث له انهيار واندهاش ، وتنقطع حجته<sup>(٣)</sup> .

ولذلك لم يقل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل: ﴿ فَيَقُولُونَ  
اللَّهُ ... ﴾ (٣٦) ﴿

[يونس]

بل قال: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... ﴾ (٤٤) ﴿

[يونس]

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم  
الحق وغلب ألسنتهم وخواطيرهم ؛ فلم يستطيعوا قول أى شيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - نجد وكيل النيابة بضيق الخناق على  
المتهم بأسئلة متعددة إلى أن يوجه له سؤالاً ينهر المتهم من قرط دقته وليس  
له إلا إجابة واحدة تتأبى طباعه ألا يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفاً .

(١) التجددة: اختلاط الأصوات. قال أبو زيد: يقال: (الحق أبليج، والباطل لجلج)؛ والأبليج: المضمي، المستقيم. أما التجلج فهو المخلط الممزج والشرود غير المستقر. [اللسان: مادة (لجج) - بتصرف].

(٢) الصَوْلَة: الوثبة والقوة على إزهاق الباطل .

(٣) وذلك مثلما حدث من إبراهيم عليه السلام مع النمرود، وقد قصَّه الله عز وجل في قرآنه: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ... ﴾ (٢٢٠) ﴿ [البقرة] ، فبهت ، أى: فوجىء بالخجة ومنطقها فتحير في جوابه ولم يجد رداً .



## سُورَةُ يُوسُفَ

٥٩١٩

والإنسان - كما خلقه الله تعالى - صالح لأن يؤمن ، وصالح لأن يكفر ، وإرادته هنا تتدخل ، لكن أبعاضه مؤمنة عابدة مسبحة ، فالإنسان الذي قد ينطق الكفر ، هو في الحقيقة مؤمن مُسَبِّحٌ ، حامد ، شاكِر ، لكن إرادة الإنسان التي شاءها الله - سبحانه - متميزة بالاختيار قد تختار الكفر - والعبادة بالله - فينطق اللسان بالكفر .

وقد تأتمر اليد بأمر صاحبها ؛ فتمتد لتسرق ، أو تسعى للأقدام - مثلاً - إلى محل احتساء الخمر ، ولكن هل هذه الفاعلات راضية عن تلك الأفعال ؟

لا ، إنها غير راضية <sup>(١)</sup> ، إنما هي خاضعة لإرادة الفاعل .

وحين يسأل السؤال : من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ فالإنسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ؛ لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيبين الحق سبحانه للنبي ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة ، فيقول سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ ﴾ (٢٤) وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفي أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبَلِّغاً عن ربه ، وينال هذا القول شرف العندية : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢٥) .

والإفك : هو الكذب المتعمد ، وهو الافتراء ، وهناك فارق بين الكذب غير المتعمد والكذب المتعمد ، فالكذب غير المتعمد هو من ينقل ما بلغه عن غيره حسياً فهم واعتقد ، وهو ليون من ألوان الكذب لا يصادف الحق ، ويتراجع عنه صاحبه إن عرف الحق .

أما الافتراء فهو الكذب المتعمد ، أي : أن يعلم الإنسان الحقيقة

(١) يدلل أنها منقاة من القيامة وتصبح من الشاهدة على الإنسان ، يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢١) [النور] .

سورة يونس

294

وَبَقِيَهَا<sup>(١)</sup> ؛ وَلِذَلِكَ نَجِدُ الْعُلَمَاءَ قَدْ وَقَعُوا هُنَا وَفَقَعُوا هُنَا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ :  
هَذَا صَدَقَ ، وَهَذَا كَذَبٌ ، لَكِنْ عُلَمَاءُ آخَرِينَ قَالُوا : لَا ، إِنْ هَذَا  
وَاسْطَةُ بَيْنَ الصَّدَقِ وَالْكَذِبِ .

ومثال ذلك : أن يدخل ابنٌ على أبيه ، بعد أن سمع هذا الابن من الناس أن هناك حريقاً في بيت فلان ، فيقول الابن لوالده : هناك حريق في بيت فلان ؛ فيذهب الأب ليعاين الأمر ، فإن وجد حريقاً فقول الابن صدق ، وإن لم يكن هناك حريق فالخبر كاذب ، ولكن ناقل الخبر نقله حسماً سمع .

إِذْ : فهناك فَرْقٌ بينَ صَدَقَ الخَيْرَ وَصَدَّقَ المُخْبِرَ ، فمرة يَصْدُقُ الخَيْرَ وَيَصْدُقُ المُخْبِرَ ، ومرة يَصْدُقُ الخَيْرَ وَلَا يَصْدُقُ المُخْبِرَ ، ومرة يَصْدُقُ المُخْبِرَ وَلَا يَصْدُقُ الخَيْرَ .

فهنا أربعة مواقف ، والذين قالوا إن هناك واسطة بين الصدق والكذب هم من قالوا: إن الصدق يقتضى مطابقة بين الواقع والخبر. أما الكذب فهو ألا يطابق الواقع الخبر.

لذلك يجب أن نفرّق بين صدق الخبر في ذاته ، وصدق المخبر ؛ بأنه يقول ما يعتقد. أما صدق الخبر فهو أن يكون هو الواقع .

وقول الحق سبحانه : ﴿فَأَنى تُؤفَكُونَ﴾ أى : فكيف تقبلون الحقائق ؟  
لأنكم تعرفون الواقع وتكذبونه كذباً متعمداً ؟

وَكَلَّمْنَا نَعْلَمَ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿٥٣﴾ ﴿[النجم]

(٦) ثَوْنُكَ : البُذرة التي انثقت بأهلها أي : انثقت ، والانثاق : الانقلاب . [اللسان : مادة (أثق)] .  
وقال ابن كثير : « والثَوْنُكَ هَرَمٌ (٥٧) » [النجم] : معنى مدائن قوم لوط قلبها الله - تعالى - عليهم ، فجعل عاليها سافلها . [تفسير ابن كثير : ٢٥٩/٤ - تنصرف] .

(٢) وهو الذي قصده رسول الله ﷺ في قوله: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً». أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٧) والبخاري في صحيحه (٦٠٩٤).



فالحق سبحانه وتعالى قد حدد الغاية من خلق الإنسان وحدّد قوانين صيانتة ، والشر الموجود حالياً بسبب الجهل بغاية الإنسان ، والعدول عن المنهج الذى يجب أن يسير عليه الإنسان ، فقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٢٥) .

أى : هل من هؤلاء الشركاء مَنْ يَهْدِي الإنسان إلى غايته ؟ هل قالت الشمس - مثلاً - غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتهم شيئاً غير مراد الله تعالى ؟ إنهم آلهة لا يعرفون الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصل إلى تلك الغاية .

ونذلك يأتى القول الفصل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. ﴾ (٢٥) .

فأله هداك أيها الإنسان إلى الحق فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مكتملاً على رسوله ﷺ من بدء « لا إله إلا الله » إلى إمطة الأذى عن الطريق <sup>(١)</sup> ، وهو منهج مستوعب مستوفٍ لكل حركات الإنسان .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ : لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ولم يوجد عند أى منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خلق الإنسان وغيره بوجزها قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٢) . [الذرايات]

والعبادة ليست أركان الإسلام فقط، بل هى عمارة الكون كبنيان حى

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥) .

للإسلام ، والذي حدد الغاية هو الخالق سبحانه ، وهو سبحانه الذي يحدد طريق الوصول إليها .

ونحن حين نرغب في الوصول إلى مكان في الصحراء مثلاً ، إنما نحدد أولاً المكان ، ونختار طريق الوصول ، فإن كان الطريق المستقيم مليئاً بالعقبات والجبال ، فإنك ستضطر للانحراف عن هذا الطريق وصولاً إلى غايتك ، فهذا الطريق المعوج هو الطريق المستقيم ؛ لأنه الطريق الذي يجنبنا العقبات .

ومثال ذلك : السيول التي تنزل على هضاب الجبشة ، فاختارت لنفسها المجرى السهل فكان نهر النيل ، فلا أحد قد حفر النيل مثلما حفرنا الرياحات أو قناة السويس ، بل نزل السيل واختار لنفسه الطريق السهل فسار فيه بين التعاريج والرمال والصخور .

ولذلك أنت تجد كل ما لا دخل للبشر به قد يتعرج لينفذ ، أما ما صنعه البشر فلا يستطيع ذلك .

وكل خلق لا بد له من غاية ؛ لذلك نجد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) [الشعراء]

فمن خلق هو الذي يحدد الغاية ؛ لأن هذه الغاية توجد عنده أولاً ليخلق ، وتتجلى الدقة في قول القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فلم يقل : الذي خلقني يهديني ، بل قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ مما يدل على أن هذه القضية ستخالف ، وبعد أن يخلق الإنسان سيقوم بعض الناس - حماية لمصالحهم - بوضع طريق أخرى تخالف الغاية ؛ فتوصل إلى الضلال .

أما الحق سبحانه فقد أنزل القرآن فيه الهداية الحقة ، فالذي خلق هو

الذى يقين ، ولذلك يذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام :  
﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) [الشعراء]

وبهذا القول وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى أن الذى رزق الآباء  
قدرة استنباط الرزق مطعماً ومشرباً هو الله سبحانه .

وذكر القرآن على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي﴾  
يَحِينِ (٨١) [الشعراء]

فالإماتة والإحياء هما من الحق سبحانه ، فلا أحد يسأل عمن يملك  
الإماتة والإحياء ، أما عن شفاء المرضى فقال : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ  
يَشْفِينِ﴾ (٨٢) [الشعراء]

فأنت قد تذهب إلى الطبيب وتظن أنه هو الذى يشفيك ؛ بل هو  
يعالج ، ولكن الله هو الذى يشفى .

وهكذا نعلم أن قول سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ  
يَهْدِينِ﴾ (٧٨) [الشعراء]

هو كلام منطقي ؛ لأن خالق الشيء هو الذى يهذى إلى الغاية من  
الشيء ؛ فالغاية أولاً ، ثم الخلق ، ثم توضيح الطريق الموصل إلى تلك  
الغاية ، فإذا خولف فى شيء من ذلك فلا صلاح لكون أبداً .

ونجد فى القرآن على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّنَا الَّذِي  
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠) [طه]

(١) عن أبي رثة رضى الله عنه قال : انطلقت مع أبي نجران إلى مكة ، فإذا هو ذو وفرة ، بهار دوع حناء وعليه  
ريودان أخضران فقال له أبى : أرى هذا الذى يظهر لك نأبى رجل طبيب . قال : والله الطيب ، بلى أنت  
رجل رفيع ، طيبها الذى خلقها .

## سُورَةُ الْاِنشَاءِ

٥٩٢٥

فما دام الحق سبحانه قد خلق فهو يهدي إلى السبيل الموصل إلى الغاية ، ويقول القرآن أيضاً : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهكذا يتأكد لنا أنه ما دامت هناك غاية ، فلا بد من وجود طريق يهديننا إليه من خَلَقْنَا .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. (٣٥) ﴾ لأنه سبحانه هو الذي خلق ؛ ولذلك فمن المنطقي أن يأتي بعد ذلك التساؤل : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى .. (٣٥) ﴾ ؟

وسبب وجود اللام في قوله : ﴿ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ هو النظرة إلى الغاية ، وسبب وجود : ﴿ إِلَى الْحَقِّ ﴾ هو لفت الانتباه إلى أن الوصول إلى الغاية يقتضى طريقاً ، فأراد الحق سبحانه في آية واحدة أن يجمع التعبيرين معاً .

ونحن نعلم أن هذه الآية قد نزلت في الذين اتخذوا لله شركاء ، فهم يعترفون بالله تعالى ولكنهم يشركون به غيره ، فالله سبحانه وتعالى تفرّد بالالوهية بربوبيته للخلق ؛ لأنه خلق من عَدَم ، ورزق من عَدَم ، وخلق لنا وسائل العلم ودبر لنا الأمر ، وأخرج الحي من الميت ، وأخرج الميت من الحي ، وهدى للحق .

فأين - إذن - هؤلاء الشركاء الذين اتخذتهم مع الله تعالى ؟ وهل صنع واحد منهم أو كلهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء ؟<sup>(١)</sup>

(١) ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى .. (٣٥) ﴾ [الأعلى] أي : خلق الخليقة وموَّى كل مخلوق في أحسن الهيئات . وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .. (٣٦) ﴾ [الأعلى] . قال مجاهد : هدى الإنسان للتقارة والسعادة وهدى الأنعام لمراتعها . [تفسير ابن كثير : ٥٠٠ / ٤] .

(٢) ويقول سبحانه في سورة الروم : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً سُبْحَانَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ .. ﴾ (٣٥) ﴿

[يونس]

إذن : فالذى يهذى هو الذى خَلَقَ ، وهؤلاء الذين أشركوا اعتبروا  
بأن الله خالقاً بشهاداتهم حين قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ  
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ (٨٧) ﴿

[الزخرف]

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إما أن  
يكونوا من الملائكة ، أو من الأنبياء والرسل الذين قُتِلَ بهم بعض الناس ،  
وهناك من اتخذ وسائل أخرى مثل : الشمس والقمر والنجوم ، وهذه  
أشياء علوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائل سفلية كالأشجار والأحجار ،  
فهل أى شيء من كل ذلك يهذى إلى الحق ؟ وما منهج أى منهم إذن ؟  
وكيف بلغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يهذى ، بل هو يَهْدَى  
من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم ؟ أو من أين جاء  
الذين قُتِلُوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كل كائن لا يهذى إلا بعد أن يَهْدَى من الله أولاً ، وإن كانت  
الأشياء - المتخذة شركاء - لا هداية لها ، ولا منهج ، ولا عقل ،  
ولا تفكير ، كالشمس والقمر والنجوم فى العلويات ، والأشجار والأحجار  
فى السفليات ، فماذا قالت هذه الأشياء ؟ إنها لم تقل شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاء مع الله ، حتى الملائكة ، فאלله  
هو الذى يختار منهم الملك الذى يُبَلِّغُ عن الله سبحانه ، وكذلك الرسل  
عليهم السلام : ﴿ أَقْمِنَ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ  
يَهْدَى .. ﴾ (٢٥) ﴿

[يونس]



﴿لَا يَهْدِي﴾ تقرأ هكذا ، ولغة فيها عملية تخفيف جرّس لسلامة نطقها واستقامة اللغة العربية ، فنحن نعرف أن ﴿يَهْدِي﴾ يعني : يهتدى . أصلها يهتدى . . . ويهتدى فيها هاء ساكنة وتاء وذال وياء . . . وفيها تقارب لمخارج الحروف ، وهذا التقارب يجعل المعنى غائماً ، والنطق ثقبلاً ، فتقوم اللغة بعملية إبدال وإدغام ، وتخلص من التثغاء الساكنين فتصل إلى مسامعنا كما أنزلها الله تعالى لسلامة النطق وجمال المعنى ؛ لأن القرآن أدب اللغة بكلام السماء ؛ لتكون خالدة اللفظ والمعنى . فإذا كنتم على طريق هداية ، فالأصل في الهداية هو الله تعالى .

وَيُنْهِى الْحَقَّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ يَقُولُهُ : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ .  
[يونس]

أى : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا بهذا الحكم ؛ فتشركوا بالله ما لا منهج له ، أو له منهج ولكنه موصول بالله تعالى جاء ليبلغه لهم ؟ وساعة تسمع ﴿كَيْفَ﴾ فهي للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان - فى عرف العاقل - أن تحدث . كأن تقول : « كيف ضربت أباك ؟ » أو « كيف سببت أمك ؟ » ، وهذا كله من الأمور التى تأباه الفطرة وبآباء الطبع والدين .

وقوله سبحانه : ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ كأنه أمر عجيب ما كان يصح أن يحدث ؛ لأن الحق سبحانه وحده هو الإله ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير غاية وطريقاً . والله سبحانه وحده هو الذى حدد لنا الغاية والطريق الموصول إليها ، وهو سبحانه القائل : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ .  
[يونس]

والمنهج هو الطريق الذى يوصل إلى دار السلام من أمة الأغبيار<sup>(١)</sup> ؛

(١) أى : أن أحوال الدنيا تتغير وتبدل ولا تثبت على حال واحدة .

لأن الدنيا كلها أغيار ، فأنت قد تكون قوياً ثم تضعف أو صحيحاً فيصيبك المرض ، أو غنياً فتفتقر ، أو مبصراً فيضيع منك بصرك ، أو تكون صحيح الأذن سميماً فتصير أصم بعد ذلك <sup>(١)</sup> .

إذن : فهي دنيا أغيار ، وهب أن إنساناً أخذ من دنياه كل نصيبه عافية وأمناً وسلامةً وغنى وكل شيء ؛ سنجده في قلق من جهتين : الجهة الأولى أنه يخاف أن يفارقه كل هذا النعيم ، أو يخاف أن يترك هو هذا النعيم ، هذا ما نراه في حياتنا .

إذن : فالدنيا بما فيها من أغيار لا أمان لها ؛ لنفهم أن كل عطاءات المخلوق إنما هي هبة من الخالق سبحانه وتعالى ؛ لأنها لو كانت من ذاتك لاستطعت الحفاظ عليها ، ولكنها هبات من الحق الأعلى سبحانه .  
والأمر الموهوب قد يصبح مسلوباً .

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ﴾ (٢٦) يفيد أن بعضهم كان يتبع يقيناً ؛ لأن مقابل الظن هو اليقين ، فالنسب التي تحدث

(١) ولأن الدنيا دنيا أغيار أو صي رسول الله ﷺ رجلاً وهو يعلو : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغللك ، وحياتك قبل موتك » أخرجه الحاكم في مستدركه (٤ / ٣٠٦) وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس ، وأقره الذهبي .

(٢) الظن كما أنه شك فإنه أيضاً يقين إلا أنه ليس يقين عيان ، إنما هو يقين تدبير ؛ فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم ، وهو يكون اسماً ومصبراً ، وجمع الظن : ظنون . قال تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّنَا ﴾ .

(٣) [الأحزاب] [اللسان العرب] : مادة «ظنن» .

بين الأشياء تربط بين الموضوع والمحمول ، أو المحكوم والمحكوم عليه ،  
وهي نسب ذكرناها من قبل ، ونذكر بها ، فهناك شيء أنت تجزم  
به ، وشيء لا تجزم به . وما تجزم به وتُدلل عليه هو علم يقين ، أما  
ما لا تستطيع التدليل عليه فليس علم يقين ، بل تقليد ، كأن يقول الطفل :  
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) [الإخلاص]

وهذا حق ، لكن الطفل لا يستطيع أن يدلل عليه أو أن يقال شيء ومن  
يقوله جازم به ، وهو غير واقع ؛ فذلك هو الجهل .

والعلم هو القضية المجزوم بها ، وهي واقعة وعليها دليل ، على عكس  
الجهل الذي هو قضية مجزوم بها وليس عليها دليل .

والظن هو تساوى نسبتين في الإيجاب والسلب ، بحيث لا تستطيع أن  
تجزم بأى منهما ؛ لأنه إن رجحت كفة كانت قضية مرجوحة ، والقضية  
المرجوحة هي شك أو ظن أو وهم . فالظن هو ترجيح النسب على  
بعضها . والشك هو تساوى الكفتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا .. ﴾ (٢١) ﴿ يبين لنا أن الذين  
كانوا يعارضون رسول الله ﷺ فعلوا ذلك إما عناداً - رغم علمهم بصدق  
ما يبلغ عنه ، وإما أنهم يعاندون عن غير علم ، مصداقاً لقول الحق  
سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ .. ﴾ (٢٢) [يونس]

وكان الواحد منهم إذا تمعن في البلاغ عن الله تعالى والأدلة عليه ، يعلن  
الإيمان ، لكن منهم من تمعن في الأدلة وظل على عناده ، والذين اتبعوا  
الظن إنما اتبعوا ما لا يغنى عن الحق شيئاً .

لذلك يبين لهم الحق سبحانه أنه عليهم بخفايا نفوسهم ، ويعلم إن كان

إنكارهم للإيمان نابعاً من العناد أو من العجز عن استيعاب قضية الإيمان ؛  
لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ... ﴾ (٢٦) [يونس]

إذن : فقد علم الله سبحانه أولاً أن بعضهم في خبايا نفوسهم يوقنون  
بقيمة الإيمان ، لكنهم يجحدونها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ  
بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٣) [الأنعام]

إذن : فالحق سبحانه وتعالى عليم ، ولا يخفى عليه أنهم كذبوا بما لم  
يحيطوا بعلمه ، وبعضهم لم يفهم قيمة الإيمان ، ومن علم منهم قيمة  
الإيمان جحدوا ، عناداً واستكباراً .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... ﴾  
(١٤) [التين]

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ  
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ  
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧)

وحين تستمع للقرآن وما فيه من سر الأعداد والإخبار بالمفاهيم التي  
لا تخضع لمنطق الزمان ، ولا لمنطق المكان ، فالفطرة السليمة توقن أن هذا  
القرآن لا يمكن أن يُفْتَرَى ، بل لا بد أن قائله ومُنزِّله عليم خبير ؛ لأن  
القرآن جاء مصداقاً لما بين يديه من الكتب السابقة .

أى : أن ما به دائماً هو أمام الناس ، أو مواجه لهم ، وهو كتاب مصدق  
للكتب السابقة من قبل تحريفها كالنوراة والإنجيل والزيور<sup>(١)</sup> ، وهى الكتب  
التي سبقت القرآن نزولاً ، لا واقعاً ، فجاء القرآن مصدقاً لها .

أى : هى تصدقه ، وهو يصدقها من قبل تحريفها ، وهى الكتب التى  
بشّرت بمحمد ﷺ رسولاً ، مثلما جاء فى القرآن عن تصديق عيسى عليه  
السلام بمجىء محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمِمَّا شَرَأَ رَسُولٌ يَأْتِى مِنْ  
بَعْدِ اسْمِهِ أَحْمَدُ .. (٦١) ﴾ [المف]

فلما جاء أحمد ( محمد ﷺ ) ونزل عليه القرآن صدق الإنجيل فى قوله  
هذا ، وما جاء فى القرآن من عقائد أصيلة هى عقائد جاءت بها كل الكتب  
السمائية ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى  
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ  
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٦٢) ﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ  
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (٦٣) ﴾ [الشورى]

إذن : فهناك أصول جاءت بها كل الكتب السماوية ، وهناك كذلك  
أخبار أخبرت عن حدوثها الكتب السماوية ، وأبلغنا رسول الله ﷺ بالقرآن  
وفيه تلك الأخبار ، فمن أين جاء محمد ﷺ بتلك العقائد الصحيحة ،

(١) الزبور : من كتاب داود عليه السلام . وأصله : كل كتاب مزبور أى : مكتوب . قال تعالى : ﴿ وَتَقَدْ

فَصَّلَا بَعْضُ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .. (٥٥) ﴾ [الإسراء] .

وتلك الأخبار الموجودة في الكتب السابقة ، وهو ﷺ لم يكن من أهل الكتاب ، ولا عَلِمَ منهم شيئاً<sup>(١)</sup> ؟

إذن : فعندما يقول محمد ﷺ ما جاء ذكره في الكتب السابقة على القرآن ، فهذه الكتب مصدقة لما جاء به محمد ﷺ ؛ لأن هذه الأخبار قد وقعت ، وهذا تأكيد لصدقه ؛ لأنه يشهادة أهل زمانه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ كتاباً ، وتاريخه وسيرته معروفة ؛ لأنه من أنفسكم ، ولم يُعلّم عنه أنه قد زاول كلاماً بليفاً ، أو خطب في قوم قبل الرسالة ، أو قال شعراً .

وبعد ذلك فوجيء هو - كما فوجئتم أنتم - بجيء هذا البيان الرائع ، فمن أين جاء به ؟

أنتم تقولون إنه هو الذي جاء به ، لكنه ﷺ ينسب الرفعة لصاحبها ، ريعلن أنه ﷺ مُبلّغ فقط ، فيقول ما أمره الله به أن يقوله : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧) [يونس]

ويحضّ القرآن الكريم النبي ﷺ أن يسألهم : هل لاحظوا على كلماته - من قبل - البلاغة والفصاحة أو الشعر ؟!

ولننظر في «ماكّنات»<sup>(٢)</sup> القرآن الكريم ، وهي الآيات التي يقول فيها الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ ﴾ مثل قوله سبحانه :

(١) وفي هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ أَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُ بِمِيقَاتِهَا وَإِذَا الْأَنْتَابُ الْمَبْتُلُونَ ﴾ [التكوير] .

(٢) «ماكّنات» القرآن هي الآيات التي وردت فيها لفظة : ﴿ مَا كُنْتُ ﴾ ، وهذا في إحدى عشرة آية هي : [آل عمران : ٤٤] ، [مائدة : ٤٩] ، [يوسف : ١٠٣] ، [التقصص : ٤٤] ، [٤٥] ، [٤٦] ، [٨٦] ، [التكوير : ٤٨] ، [الشورى : ٥٢] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ<sup>(١)</sup> إِلَيْهِمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. ﴾ (٤٤) [آل عمران]

وهذا أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبَىٰ إِذْ فَضَّيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) [التقصير]

والرحى إلى موسى - عليه السلام - والمكان الذي نزل فيه ذلك الرحي أمر ثابت في الأخبار .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ<sup>(٢)</sup> تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٤٥) [التقصير] وكثير من هذه الآيات تجعل محمداً ﷺ وكأنه يسأل المتعاصرين له : كيف أخبرت بوقائع وأخبار لم تكن موجودة في زمانها أو مكانها ؟

لا يد - إذن - أن الله الحق - سبحانه - هو الذي أخبرني بما وافق ما عندكم من أخبار .

وبعد ذلك جاء القرآن الكريم مصداقاً لما بين يديه : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .. ﴾ (٩٧) [البقرة]

أى : أنه الكتاب الذي يضم صدق كل حدث قادم ؛ لأن القرآن حرق حُجُبَ وَحُجُزَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ .

ونحن نعلم أن الأشياء الغيبية تحدث بسببين ؛ الأول : أن يتكلم عن

(١) الأنلام هنا : القداح ، وهي قداح يعملوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة ، [وما قيل للقدح : القلم لأنه يُقلم أى : يُبْرِى . [اللسان مادة : قلم ] .

(٢) ثاويًا : مقيماً ، ومدين : قرية شبيب عليه السلام .

شيء سبق الزمان الذي نزل فيه ، فهو يتكلم في الماضي الذي لم يكن رسول الله ﷺ من أهل الاطلاع والتعلم ليعرفه ويعلمه .

وكذلك خرق القرآن الكريم حجب الحاضر الذي عاصر نزوله ، هذا الحاضر الذي قد يكون محجوباً بالمكان .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فقد يحدث حادث في الإسكندرية في نفس الوقت الذي تكون أنت فيه موجوداً بالقاهرة ، وأنت لا تعلم هذا الحدث ؛ لأنه محجوب عنك بعيد المكان ، وحاجز المكان يتمثل - غالباً - في الأمور الحاضرة ، أما أمور المستقبل فهي محجوبة عنا بالزمان والمكان معاً .

وحين يخبرنا القرآن الكريم بحديث ماضٍ لم يشهده رسول الله ﷺ ، ولم يتعلمه ، ولم يقرأ عنه ؛ إذن : فالقرآن إنما يخرق أمانتنا حجاب الزمن الماضي . وإذا أخبر القرآن بحديث حاضر في غير مكان نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ ، فهذا خرق للحجاب المكان مثل قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴾ (٨) [المجادلة]

وحين سمع المنافقون والكفار هذا القول الكريم ، لم ينكروا أنهم قالوا في أنفسهم ما جاء به القرآن ، وهكذا خرق القرآن حاجز المكان في أنفسهم هم .

إذن : فأخبار الغيب في القرآن إما خرق لزمان ماضٍ أو خرق لزمان الحال ، وإما خرق لزمان ومكان الاستقبال .

ونحن نعلم أن القرآن كان ينزل والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا أحد يجير على أحد ، ويتجه النبي ﷺ إلى الطائف



ليعرض الإسلام على أهلها ، لعلّه يلتصق بهم مجيراً من أهل الطائفت ؛ ولكنه ﷺ لا يجد إلا الإيذاء والإعراض<sup>(١)</sup> ، ويرضى بعضاً من صحابته أن يهاجروا إلى الحبشة<sup>(٢)</sup> .

وفي ظل كل هذه الأزمات ، ينزل قول القرآن : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ (٩٥) [القمر]

حتى إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتساءل : أى جمع هذا الذى يهزم ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ ثم تأتى غزوة بدر ويشهد عمر هزيمة وفراز مقاتلى قریش ؛ فيرى رأى العين صدق ما جاء به الوحى من قبل<sup>(٣)</sup> .

وهكذا تأكد الجميع أن القرآن الكريم غير مُقتَرى ، فكيف يُتهم رسول الله ﷺ أنه افتراه ؟

(١) كان هذا بعد وفاة عمه أبي طالب ، الذى كان مدافعاً عنه ، حامياً له من أذى المشركين ، ولكن أهل الطائفت قعدوا له ﷺ صفين على طريقته ، وجعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا يضربوهما بالحجارة حتى أدموا رجله . [دلائل النبوة للبيهقى ٤١٥/٢] . عند ذلك قال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتى ، منحة الله الإسراء فوق العقل البشرى ، والمغراج فوق الفوق ؛ وذلك لحمايته له ورعايته لدينه .

(٢) عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ ، وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة فى دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله ﷺ فى منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شئ مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده ، فاحقروا ببلادكم حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » . حديث طويل أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٠١/٢) وأوردته ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٢١/١) .

(٣) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب فى السرع وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۖ ﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢٦٦/٤) وغزاه لابن أبي حاتم .

وإذا كان هذا القرآن مفترى ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ وفيكم الشعراء والبلغاء والخطباء ؟ ولم يقل محمد ﷺ أنه بليغ أو خطيب أو شاعر ، ولم يطلب القرآن الكريم منهم أن يأتوا بواحد مثل محمد ﷺ ، لا صلة له بالبلاغة أو الفصاحة ، بل يطلب منهم أن يأتوا بالفصحاء كلهم ، ويدعوهم أن يقولوا مثل آية واحدة من القرآن :

وإن قالوا : إن ما جاء به هو السحر ، وإن محمداً ساحر قد سخر العبيد والضعاف ، وأدخلهم في الإسلام ، فلماذا لم يسحركم محمد ؟ إن بقاءكم من غير سحر يدل على أن إطلاقكم كلمة السحر على ما جاء به دعوى كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. (٣٧) ﴾ [يونس]

فالقرآن قد جاء فيه تفصيل كل الأحكام الصالحة إلى قيام الساعة ، أما الكتب السابقة على القرآن فكانت تضم الأحكام المناسبة لزمانها ، ولأمكنة نزولها .

وهو كتاب ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ، يكشف الكفار ، ويفضح ارتيابهم وكذبهم ، فهم قد اعترفوا بعظمة القرآن وقالوا : ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ .. (٣٦) ﴾ [الزخرف]

إذن : فهم قد عرفوا أن القرآن لا عيب فيه ، ولا ريب ، حتى من الكافرين به .

ويأتى الرد على قولهم بالافتراء ، في قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا

مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

وقد سبق هذا المجيء بالتحدي أسباب عجزهم عن النجاح في التحدي ؛ لأن الآية السابقة تقرر أن الكتب السماوية السابقة تُصدق نزول القرآن الكريم ، وبينها وبين القرآن تصديق متبادل .  
فهم مهزومون فيه قبل أن ينزل .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ .. ﴾ (٣٨) ﴿ [يونس]

وقد جاء التحدي مرة بالكتاب في قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ

لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٨٨) ﴿ [الأمراء]

ولم يستطيعوا ، فزلت درجة التحدي ؛ وطالبهم أن يأتوا : ﴿ بَعْشَرِ سُوْرٍ

مِثْلِهِ مَفْتَراتٍ .. ﴾ (١٢٢) ﴿ [هود]

فلم يستطيعوا إلا تيان بعشر سور ، فطالبهم أن يأتوا بسورة تقترب -

ولو من بعيد - من أسلوب القرآن ، فلم يستطيعوا ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ

مِثْلِهِ .. ﴾ (١٢٢) ﴿ [البقرة]

فكيف - إذن - من بعد كل ذلك يدعون أن محمداً ﷺ قد افترى

القرآن ، وهو ﷺ لم تكن له صلة بالأساليب البلاغية أو الفصاحة ؟!

لقد دعاكم أن تأتوا بكل الفصحاء والبلغاء ليفتروا ، ولو بسورة من

مثله ، ووضع شرطاً فقال : ﴿ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٢٨) ﴿

[يونس]

لأن الله سبحانه وتعالى هو القادر الوحيد على أن يُنزل قرآنًا ؛ لذلك دعاهم رسول الله ﷺ أن يدعوا الشركاء ؛ وذلك حتى لا يقول الكفار وبعضهم من أهل اللجاجة <sup>(١)</sup> : سندعو الله ؛ ولذلك يأتي القرآن بالاستثناء ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) . . . وهم بطبيعة الحال غير صادقين في هذا التحدي .

والله - سبحانه وتعالى - حين يرسل رسولاً إلى قوم ؛ ليعلمهم منهجه في حركة الحياة ، إنما يريد سبحانه أن تؤدي حركة الحياة إلى الغاية المطلوبة من الإنسان الخليفة في الأرض ؛ ولذلك يأتي الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون أسوة لهم ؛ لأن الرسول إن جاء ملكاً لما صحت الأسوة ، بل لا بد أن يكون بشراً <sup>(٢)</sup> .

والحق سبحانه لا يرسل أي رسول إلا ومعه بيّنة ودليل صدق على أنه رسول يبلغ عن الله تعالى .

والبيّنة لا بد أن تكون من جنس نبوغ <sup>(٣)</sup> القوم ، فلا يأتي لهم بمعجزة في شيء لم يعرفوه ولم يألّفوه ؛ حتى لا يقولوا : لو تعلمنا هذا لجئنا بمثل ما جاء .

وقد جاء القرآن ليثبت عجزهم عما نبغوا فيه من صناعة الكلام ؛ شعراً ونثراً وخطابة .

وكان القرآن هو معجزة رسول الله ﷺ في قوم فصحاء يعقدون للشعر

(١) اللجاجة : السامد في الجدل والمراء .

(٢) لذلك قال رب العزة : ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَبْسُتُونَ نَقْمَتَيْنِ لَنُزِّلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ (٢٨) [الأنعام] فالرسول يكون من جنس من أرسل إليهم ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (٢٩) [الأنعام] .

(٣) النبوغ : الإجابة والبواعة في علم أو فن معين ، [المعجم الوسيط] .



أى : سورة من مثل محمد - ﷺ - فى أنه لم يجلس إلى معلّم ، ولم يقرأ ، ولا عُرِف عنه أنه تكلم بالبلاغة فى أى فترة من مراحل حياته قبل الرسالة<sup>(١)</sup> .

وقال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا قَلَّوَتْهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١١) [يونس]

إذن : ﴿ سُورَةٌ مِّن مِّثْلِهِ .. ﴾ (٢٢) [البقرة]

أى : مثل محمد ﷺ الذى لم يتعلم وكان أمياً ، ولكن لماذا يأتى هذا اللون من التحدى ؟

لأنهم قائلوا عن القرآن :

﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾<sup>(٣)</sup> فَبِهَا تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) [الفرقان]

[الفرقان]

بل واتهموه فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة ، فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل - الذى قائلوا إنه معلم للرسول ﷺ - كان أعجمياً غير عربى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ<sup>(٤)</sup> إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .. ﴾ (١٠٣) [النحل]

(١) وفى تفسير هذه الآية قول ثالث ذكره القرطبي فى تفسيره ، (٢٧٧/١) فقال : ﴿ مِنْ قَبْلِهِ .. ﴾ (٧٢) [البقرة] أى : من مثل التوراة والإنجيل . فالمنى : قائلوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدق ما فيه وكل من هذه الأقوال صواب ومحمّل .

(٢) الأساطير : جمع أسطورة . أى : عما سطره الأولون وكتبوه . والأساطير أيضاً : الأباطيل ، وأحاديث باطلة لا أصل لها قد سطرها وألفها الأولون . [ لسان العرب مادة : سطر ] .

(٣) اكتتبها : طلب من النساخ نسخها له .

(٤) يلحدون إليه : يملكون إليه . واختلف المفسرون فى تسمية هذا الرجل الذى قال المشركون أن محمداً ﷺ تعلم منه ، وليس المهم البحث عن اسمه . بل المهم أنه أعجمى فكيف يعلم محمداً ﷺ هذا القرآن العربى .

ويزيد الحق سبحانه أن يصنفهم ، فيقول بعد ذلك :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَذَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

وهذا الصنف من الناس الذين ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .. ﴾ (٣٦) ، وهم من أخذتهم المفاجأة حين حُدِّثُوا بشيء لا يعرفونه ، والناس أعداء ما جهلوا ؛ فكذبوا ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن قبل أن يتبينوا جمال الأداء فيه ، ونسق القيم العالية ، وإذا ما منحت لهم فرصة يتبينون فيها جمال الأداء ، ودقة الإعجاز فهم يتجهون إلى الإيمان .

ومثال ذلك : عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد كان كافراً ثم علم أن أخته وزوجها قد أسلما ؛ فذهب إليها في منزلها وضربها ، فأسكن دمها ، وسيل الدم من أخت بضربة أخيها مثير لعاطفة الحنان ، وهذا ما حدث مع عمر ؛ فهدأت موجة عناده ، فاستقبل القرآن بروح لا عناد فيها ؛ فذهب فأمن برسول الله ﷺ<sup>(١)</sup> ، وكان من قبل ذلك ممن : ﴿ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٦) أي : لم يعرفوا مراميهِ ، وبمجرد أن سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة ، اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنَّهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ۚ ﴾ (١٦) [محمد]

(١) حديث إسلام عمر بن الخطاب ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/٣٤٣ - ٣٤٦) .

(٢) آنفًا : من قبل ، وقد نزلت هذه الآية في المنافقين كانوا يستمعون كلام رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده سألوا أصحاب رسول الله ﷺ استهزاء وإعلاماً أنهم لم يلتفتوا إلى ما قال : ﴿ مَاذَا قَالَ آنفًا ۚ ﴾ (١٦) [محمد] أي : ماذا قال سلفاً وسابقاً ؟ [اللسان : مادة (أن ف) - بصرف] .

وهذا يدل على أنهم لم يفهموا ما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن ،  
وتأتى الإجابة من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ  
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ<sup>(١)</sup> وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴾ (٤٤) [فصلت]

إذن : فالقرآن هدى لمن تفتح قلوبهم للإيمان ، أما القلوب المليئة  
بالبغض لقاتله وللإسلام ؛ فهؤلاء لا يمكن أن يصح حكمهم .

وإن أراد أى منهم حكماً صحيحاً فليُخرج من قلبه ما يناقض ما يسمع ،  
ثم عليه أن يستقبل الأمرين ؛ ولسوف يدخل قلبه الأقوى حجة ،  
وهو الإسلام .

إذن : فمن امتلأ قلبه بعقيدة كاذبة ؛ لا يمكن له أن يهتدى .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٤٥) [يونس]

والتأويل<sup>(٢)</sup> هو ما يرجع الشيء إليه ، وهذا يوضح لنا أن هناك أفضية  
من القرآن لم يأت تفسيرها بعد ، ستفسرها الأحداث ، وقد يقول القرآن  
الكريم قضية غيبية ، ثم يأتى الزمن ليؤكد هذه القضية ، هنا نعرف أن  
تأويلها قد جاء .

وهؤلاء القوم قد كذبوا من قبل أن يأتى لهم التأويل ، وكان عدم مجيء  
التأويل هو السبب فى تأخير بيان الحق فى المسألة لتأخر زمنه .

وعلى سبيل المثال ، ها هو ذا عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ  
حين قامت المعركة بين معاوية بن أبى سفيان والإمام على - رضى الله  
عنه - وقاتل عمار فى صف على ، وقتل . هنا تنبه الصحابة إلى تأويل

(١) الوقْر : ضعف السمع - وقيل : الصمم - [اللسان : مادة (وقر)] .

(٢) التأويل والمعنى والتفسير واحد ، وأصله ما يؤول إليه الشيء ؛ ويقول تعالى : ﴿ هَلْ يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ  
يوم يأتى تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٤٥) [الأعراف] أى : أنهم ينتظرون تحقق العذاب ووقوعه .



حديث من رسول الله ﷺ حيث قال : « ويح عمار .. تقتله الفئة الباغية »<sup>(١)</sup>.

وهكذا جاء تأويل حديث رسول الله ﷺ عندما تحقق في الواقع ، وكان هذا سبباً في انصراف بعض الصحابة عن جيش معاوية .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]

أى : أن التأويل لم يظهر لهم بعد .

ومن أدوات النفي : « لم » مثل قولنا : « لم يَجِءْ فلان » ، ونقول أيضاً : « لما يَجِءْ فلان » ، والنفي في الأولى جزم غير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأت بالأمس .

أما النفي بـ « لما » فيعني أن المَجِءَ مُتَنَفٍّ إلى ساعة الكلام ، أى : الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك لأن « لما » تفيد النفي ، وتفيد تَوَقُّعَ الإثبات .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (١١) [الحجرات]

وهؤلاء القوم من الأعراب قالوا : ﴿ آمَنَّا ﴾ رغم أنهم راعوا المسلمين وقتلهم زيفاً ونفاقاً<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم بعد ، وحين سمعوا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. ﴾ (١٤) [الحجرات]

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٤٤٧) ومسلم في صحيحه (٢٩١٥) بشعره عن أبي سعيد الخدرى ، زعمه أنه عند بناء المسجد النبوى ، قال أبو سعيد : « كنا نحمل لينة لينة ، وعمار لبتين لبتين . فراه النبي ﷺ ، فيغض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » .

(٢) ذهب البخارى إلى أن هؤلاء الأعراب كانوا منافقين ، وقد استدرك بعض العلماء هذا عليه فقالوا : إنهم كانوا مسلمين ولكنهم أول ما دخلوا في دين الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يكن الإيمان قد تمكن في قلوبهم بعد . انظر تفسير ابن كثير (٢/٢١٨ ، ٢١٩) .

قَالُوا : اُحْمَدُ لِلّٰهِ ؛ لِأَن مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ سَوْفَ يَدْخُلُ قُلُوبِهِمْ .  
وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ  
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٤٢) [آل عمران]  
فَحِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ قَالُوا : إِذَنْ : وَثَقْنَا أَنَّهُ سَيَأْتِي عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِنَا  
كَمُجَاهِدِينَ وَصَابِرِينَ .

وَهَكَذَا نَعْرِفُ أَنَّ ﴿ لَمَّا ﴾ تَعْنِي أَنَّ الْمُنْفَى بِهَا مُتَوَقَّعُ الْخَبَرِ . وَالتَّأْوِيلُ  
كَمَا نَعْلَمُ هُوَ مُرْجِعُ الشَّيْءِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَخْبَارِ لَمْ تَكُنْ رَقَّتْ ذِكْرُهَا بِالْقُرْآنِ  
مُتَوَقَّعَةً ، أَوْ مَظَنَّةً أَنْ تَوْجِدَ . وَحِينَ وَجَدْتَ وَلَا دَخَلَ لِبُشْرٍ فِي وَجُودِهَا ،  
فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ قَائِلَ هَذَا الْكَلَامِ قَدْ أَخَذَهُ عَمَّنْ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَوْجِدَ ،  
مِثْلَمَا جَاءَ فِي خَبَرِ انْتِصَارِ الرُّومِ عَلَى الْفَرَسِ وَغَمِّ هَزِيمَةِ الرُّومِ .

قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ غَلِبَتِ الرُّومُ (١) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٢) فِي  
بَضْعِ (٣) سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ  
اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الرُّوم]

جَاءَ هَذَا الْخَبَرُ وَانْتَظَرَ الْمُسْلِمُونَ تَأْوِيلَهُ ، وَقَدْ جَاءَ تَأْوِيلُهُ طَبَقاً لِمَا أَخْبَرَ  
الْقُرْآنُ .

أَوْ أَنَّ التَّأْوِيلَ سَيَأْتِي فِي الْآخِرَةِ ، وَمَا يُؤْوِلُ الْأَمْرَ فِي التَّكْذِيبِ سَيَعْلَمُونَهُ  
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ .

(١) الْبَضْعُ : مَا دُونَ الْعَشْرِ ، وَأَدْنَى الْأَرْضِ : بَيْنَ أَفْرَاسَاتٍ وَبَصْرَى فِي الشَّامِ ، وَهِيَ أَقْرَبُ بِلَادِ الشَّامِ إِلَى  
الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ . [تفسير ابن كثير : ٤/٢٢٢ - ٤٢٤] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٢) هل ينظرون إلا تأويله .. ﴿ (٥٣) ﴾ [الأعراف]

هم ينتظرون ما يؤول إليه القرآن وما يؤولون إليه ، إن كان في الدنيا فنصر أهل القرآن ، وإن كان في الآخرة ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ لِيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .. ﴾ (٥٣) [الأعراف]

هذا هو التأويل الذي كذبه البعض من قبل .

إذن : فالتأويل إما أن يكون لمن بقي من الكفار فيرى ما أخبر به القرآن وقد جاء على وفق ما أخبر به نبي لا يملك أن يتحكم في مصائر الأشياء ، وتأتي على وفق ما قال .

فكان محمداً ﷺ كان يجازف بأن يقول كلاماً لا يتحقق ، فينصرف عنه الذين آمنوا به ، ولكنه ﷺ لم يقل إلا ما هو واثق ومطمئن من وقوعه ، لأن الخبر به جاء من لدن عليم خبير .

وإما أن التأويل - أيضاً - يأتي في الآخرة .

وهنا قال الحق سبحانه : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. ﴾ (٣٩) [يونس]

والحق سبحانه هنا يلفت رسوله ﷺ إلى أن ما حدث معه قد حدث مع رسل من قبله ، فقال سبحانه في نفس الآية : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩) [يونس]

أى : انظر لموكب الرسل كلهم من بدء إرسال الرسل ، هل أرسل الله رسولا ونصر الكافرين به عليه ؟ .. لا ، لقد كانت الغلبة دائما لرسل الحق عز وجل مصداقا لقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٢١) ﴿ [المجادلة]

وعرفنا ما حدث للظالمين ، فمنهم من أعرفه الله ، ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أخذه بالصيحة<sup>(١)</sup> .

إذن : فالتأويل واضح في كل مواكب الرسل التي سبقت رسالة محمد ﷺ ، وإذا كان كل قوم من الظالمين قد نالوا ما يناسب رسالة رسولهم ، فسينال القوم الظالمين الكافرين برسالة محمد ﷺ ما يناسب عمومية رسالته ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .. ﴾ (٣٩) ﴿ لا بد لنا أن نعرف معنى الظلم ، إنه نقل الحق لغير صاحبه ، والحقوق تختلف في مكانتها ، فهناك حق أعلى ، وحق أوسط ، وحق أدنى .

فإذا جئت للحق الأدنى في أن تنقل الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى فهذا قمة الظلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ (١٢) ﴿ [لقمان]

لأن في هذا نقل الألوهية من الله سبحانه إلى غيره ، وبإلبيت غيره كان

(١) قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَامِيًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢٥) ﴿ [التكوير] : والخاصية هي ربح شديدة البرد والهبوب تحمل حصيا الأرض فتثقلها على الناس وتقتلهم من الأرض وقد عذب الله بها قوم عاد . أما الصيحة فقد عوقب بها قوم ثمود ، وعوقب فاروق بالخسف ، أما فرعون وجنوده فقد عوقبوا بالغرق .

(٢) العظيمة للقيمة المنحرفة انحطاط ، والقيمة السوية رفعة .

صاحب دعوة بينه وبين الله تعالى ، لا ، فليس ذلك المتقول له الألوهية بصاحب دعوة ، بل تطوع الظالم من نفسه بذلك ، واتخذ من دون الله شريكاً لله ، وفي هذا تطوع بالظلم بغير مدع .

وهب أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، فلما أن القضية صحيحة ، وإما أنها غير ذلك ، فإن افترض أحد - معاذ الله - عدم صحتها ، فالإله الثاني كان يجب أن يعلن عن نفسه ، ولا يترك غيره يسمع له ويعلن عنه ، وإلا كان إلهاً أصمَّ غافلاً ، ولكن أحداً لم يعلن ألوهيته غير الله سبحانه ؛ لذلك ثبت الألوهية الواحدة للإله الحق سبحانه وتعالى .

وقد بين لنا الحق سبحانه : لا إله إلا أنا ، أنا الخالق ، أنا الرازق . ولم يصدر عن أحد آخر دعوى بأنه صاحب تلك الأعمال ، إذن : فقد صَحَّتْ الدعوى في أنه لا إله إلا الله .

والدرجة التالية في الظلم هي الظلم في الأحكام ، فإذا حكم أحد بحلِّ الربا فهذا ظلم في قضية كبيرة ، ولكن إن حكم قاض على مدين بأن يردَّ الدين فقط فهذا عدل ؛ وكذلك القاضي الذي يظلم في أحكامه إنما ينقل حقوق الناس إلى غيرهم .

إذن : فالظلم يأخذ درجات حسب الشيء الذي وقع فيه الظلم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِمْ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِمْ

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٥٩﴾

والكلام هنا في الذين كذبوا ، فكيف يقسم الله المكذبين - وهم

بتكذيبهم لا يؤمنون - إلى قسمين : قسم يؤمن ، وقسم لا يؤمن ؟

ونحن نعلم أن الإيمان عمل قلوب ، لا عمل حواس ، فنحن لا نطلع على القلوب ، واخفق سبحانه يعلم مَنْ مِنْ هؤلاء المكذبين يخفى إيمانه في قلبه .

إذن : فمن هؤلاء من يقول بالتكذيب بلسانه ويخفى الإيمان في قلبه ، ومنهم من يوافق تكذيبه بلسانه فراغ قلبه من الإيمان ، ومن الذين قالوا : إن هذا القرآن افتراء إنما يؤمن بقلبه أن محمداً رسول من الله ، وصادق في البلاغ عن الله ، ولكن العناد والمكابرة والحقد يدفعونه إلى أن يعلن عدم الإيمان .

وكذلك منهم قسم آخر لا يؤمن ويعلم ذلك .

إذن : فالمقسم ليس هو الإيمان الصادر عن القلب والمعبر عنه باللسان ، ولكن المُقسِّم هو إيمان بالقلب غير مُعبر عنه ، ولم يصل إلى مرتبة الإقرار باللسان .

والذي جعل إيمان بعضهم محصوراً في القلب غير مُعبر عنه باللسان هو الحقد والحسد والكراهية وعدم القدرة على حكم النفس على مطلوب المنهج .

وبعض العرب حين أعلن لهم رسول الله ﷺ أن يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فيضمن لهم السيادة على الدنيا كلها<sup>(١)</sup> . ورفضوا أن يقولوا الكلمة ؛ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تقال ، بل فهموا مضمون ومطلوب

(١) فقد قال له عنه أبو طالب : يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال : إني أريد منهم كلمة واحدة تدبر لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم العجم الجزية . قال : كلمة واحدة؟ قال : كلمة واحدة . قال : وما عم يقولون؟ لا إله إلا الله . أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧/١) والترمذي في سننه (٣٢٣٢) وقال : حديث حسن .

الكلمة، وعرفوا أن «لا إله إلا الله» تعنى: المساواة بين البشر، وهم بكرهون ألا تكون لهم السيادة والسيطرة في أقوامهم.

وهذا يدل أيضاً على أن الحق سبحانه قد شاء أن يبدأ الإسلام في مكة، حيث الأمة التي تعلن رأيها واضحاً؛ ولذلك نجد أن النفاق لم ينشأ إلا في «المدينة»، أما في مكة، فهم قوم منسجمون مع أنفسهم، فهم حين أعلنوا الكفر لم يعانون من تشتت الملكات، لكن المتناقضين في المدينة وغيرها هم الذين كانوا يعانون من تشتت الملكات، ومنهم من كان يلعب على الطرفين، فيقول بلسانه ما ليس في قلبه.

ولذلك يعزى الحق رسوله الكريم ﷺ ويسرى<sup>(١)</sup> عنه ويبين له: إياك أن تحزن لأنهم يكذبونك؛ لأنك محبوب عندهم وموقر، فيقول الحق سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ﴾ [الأنعام] أى: أنك يا محمد متزّه عن الكذب؟

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام] (٣٢).

أى: أنه سبحانه يحملها عن رسوله ﷺ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أن رسوله أمين عند قومه، وهم في أثناء معركتهم معه، نجد الواحد منهم يستأمنه على أشياءه النفيسة<sup>(٢)</sup>.

والذين آمنوا برسالته ﷺ ولم يعلنوا إيمانهم، والذين لم يؤمنوا، هؤلاء

(١) يسرى عنه: يكشف عنه الهم والحزن. [اللسان: مادة: (سرى)]

(٢) الجحود: نقيض الإقرار، قال الجوهري: الجحود الإنكار مع العلم. قال تعالى: ﴿وَجْحَدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَتِهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل] [اللسان: مادة: (جحد)].

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٤٨٥) نقلاً عن ابن إسحاق ثم قال: «وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ».

وأولئك أمرهم موكول إلى الله تعالى ؛ ليلقوا حسابهم عند الخالق سبحانه ؛  
لأنه سبحانه الأعلم بمن كذب عناداً، ومن كذب إنكاراً.

والحق سبحانه هو الذي يُعَذِّبُ ويُعَاقِبُ، وكل إنسان منهم سوف يأخذ  
على قدر منزلته من الفساد ؛ لذلك يُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ  
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ... ﴾ (٤١) ﴿ [يونس]

والفسد كما نعلم هو الذي يأتي إلى الشيء الصالح فيصيبه بالمعطب (١) ؛  
لأن العالم مخلوق قبل تدخل الإنسان - على هيئة صالحة، وصنعة الله  
سبحانه وتعالى - لم يدخل فيها الفساد إلا بفعل الإنسان المختار، وصنعة  
الله تؤدي مهمتها كما ينبغي لها .

وأنت أيها الإنسان إن أردت أن يستقيم لك كل أمر في الوجود، فانظر  
إلى الكون الأعلى الذي لا دخل لك فيه، وستجد كل ما فيه مستقيماً  
مصادقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا  
الْوِزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

أي : اتقنوا أداء مسئولية ما في أيديكم وأحسنوه كما أحسن الله سبحانه  
ما خلق لكم بعيداً عن أياديكم، والمطلوب من الإنسان - إذن - أن يترك  
الصالح على صلاحه، إن لم يستطع أن يزيده صلاحاً؛ حتى لا يدخل في  
دائرة المفسدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) المعطب : الفساد والهلاك .  
(٢) تطغوا : من الطغيان، بمعنى العظم، أي : اعتدلوا في جميع أموركم ووزنوا الأمور والأشياء بميزان  
العدل، ولا تظنم بعضكم بعضاً . والقسط : العدل . [اللسان : مادة (قسط) . . يتصرف] .



﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤١)

وهذه آية تضع الاطمئنان في قلب رسول الله ﷺ فلم يقل الله سبحانه : «إِذَا كَذَّبُوكَ» بل قال : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ...﴾ (٤١) و شاء الحق سبحانه أن يأتي بالتكذيب في مقام الشك، وأتبع ذلك بقوله للنبي ﷺ : ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ...﴾ (٤١) أي : أبلغهم : أنا لا أريد أن أحملكم على ما أعمل أنا، إنما أريد لكم الخير في أن تعملوا الخير، فإن لم تعملوا الخير ؛ فهذا لن يؤثر في حصيلتي من عملي .

وبذلك يتضح لنا أن الرسول ﷺ لا يُجازي على عدد المؤمنين به، بل بأداء البلاغ كما شاء الله سبحانه (١) .

وقد شاء الحق سبحانه أن يتقل محمد ﷺ الخير إلى أمته، فإن ظفروا على الشر ؛ فهذا الشر لن يناله لأن خبير البلاغ بالمنهج يعطيه ﷺ خيراً، لأنه يطبقه على نفسه، وشر الذين لا يتبعونه إنما يعود عليهم ؛ لأن الذين يتأبون على الاستجابة لأي داعٍ إنما يظنون أن الداعي سوف يستفيد (٢) .

والبلاغ عن الله ؛ إنما يطبقه الرسول ﷺ منهجاً وسلوكاً

(١) وما يدل على هذا أن نوحاً مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ورغم هذا قال عنه رب العزة : ﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ...﴾ (٢١: هود) واختلفوا في عدة من آمن معه بين عشرة أنفس، وثمانين نفساً من بينهم أبناؤه، انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥٥) .

(٢) ولذلك كان نوح يقول لقومه : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ (٢٩: هود) ، وعوده يقول لقومه عاد : ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٣٦: هود) ويمكننا أن نساله لقرمه ثمره : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٥: الشعراء) ، ولو لم يقرمه : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٥: الشعراء) ، وشعب لقومه أهل مدين : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٥: الشعراء) .

وَيَجَازِي عَلَيْهِ (٢٧)

فلا يجوز الخلط في تلك المسائل ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ (٤١) .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان رسوله ﷺ : ﴿أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) . [يوسف]

وكلمة ﴿بريء﴾ تفيد أن هناك ذنباً، وهذا القول الحق فيه مجازاة للخصوم، وشاء الحق سبحانه أن يعلم رسوله ﷺ والمؤمنين أدب الحوار والمناقشة، فيقول : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤١) . [سبا]

أى : أنسا - الرسول ومعه المؤمنون - وأنتم أيها الكافرون إما على هدى ، أو في ضلال ، والرسول ﷺ موقن أنه على هدى وأن الكافرين على الضلال، ولكنه يجاريهم ؛ عدالة منه ﷺ ومجازاة لهم .

كذلك يعلمه ربه سبحانه أن يقول : ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ..﴾ (٤٢) . [سبا]

أى : أنه يبين لهم : هبوا أنى أجرمنا فأنتم لن تسألوا عن إجرامى ، ومن أدب الرسول ﷺ شاء له الحق سبحانه أن يقول : ﴿وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤٥) . [سبا]

ولم يقل : ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تُجْرِمُونَ﴾ . وكذلك شاء الحق سبحانه أن تأتي هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها : ﴿أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) . [يوسف]

(١) فالرسول مكلف ببلاغ ما أرسل به ، لا يزيد فيه ولا ينقص ، ولذلك يقول رب العزة عن نبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ تَشَوَّلُوا عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٦) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا به الرق (٤٧) فما ينكم من أحد عنه حاجزين (٤٨) . [الحاقة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ  
وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ۖ ﴾ (١٢)

وكلمة « مَنْ » تطلق وقد يراد بها المفرد ، وقد يراد بها المفردة ، وقد يراد بها المثني ، وقد يراد بها الجمع ، ومرة يطابق اللفظ فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ (٢٥) [الأنعام]

ومرة يقصد المعنى فيقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْمَعُونَ ۖ ﴾ (١٢) [يونس]

لأن « مَنْ » صالحة للموقعين .

والسمع كما نعلم هو استقبال الأذن للصوت ، فإن كان صوتاً مَبْهُماً كأصوات الحيوانات أو أصوات الأغواد ، فهذه الأصوات لا تفيد إلا ما تفيدة النغمة في الجسم من هزة أو ارتجاج .

وإما أن يكون الصوت له معنى تواضعي ، كاللغات المختلفة التي يتخاطب بها الناس في البلدان المختلفة ، فإن تكلمت بالإنجليزية في بلد يتكلم أهله بهذه اللغة فهموك وفهمت عنهم . هذا هو معنى التواضع في اللغة ، أي : أن المتكلم والسامع على درجة واحدة من الاتفاق على اللغة .

والنبي ﷺ عرّبي يتحدث بلسان عربي مبين لقوم من العرب ، فما العائق عن السمع إذن ؟

إن العائق عن السمع نقض الأذن لما يأتي من جهة الخصم ، والسمع - كما نعلم - هو استشراق المخاطب إلى ما يفهم من المتكلم ، فإن لم يوجد عند المخاطب استشراق إلى أن يسمع ، فالكلام يُقال ولا يصل .

إذن : لا بد للسامع من حالة الاستشراف إلى فهم ما يقوله المتكلم .  
وكما يقول المثل : «أذن من طين وأخرى من عجيين» . أو كما تقول المرحمة  
أن واحداً مال على أذن صديق له وقال : «أريد أن أقول لك سرّاً» فاقترب  
الصديق مستشرفاً سماع السر ، فقال الرجل : «أريد مائة جنيه كقرض»  
فقال الصديق : «كأنى لم أسمع هذا السر» .

إذن : فالكلام ليس مسجود صوت يصل إلى الأذن ، لكن لا بد من  
استشراف نفسى للتلقى . وهم لا يملكون هذا الاستشراف ؛ لذلك قال الحق  
سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ .. ﴾ (٤٢) أى : كان سمعهم لا يسمع .

ومثال ذلك : أننا نجد المدرس الذى يشرح الدرس للتلاميذ ، وبين  
التلاميذ من يستشرف السمع ؛ ولذلك يفهم الدرس ، أما الذى  
لا يستشرف فكأنه لم يسمع الدرس .

وهم قد فاتوا الصَّمَّ ؛ لأن الأصم قد يفهم بالحركة أو الإشارة أو لغة  
العين ، ولكن هؤلاء لا يسمعون ولا يعقلون ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا  
لَا يَعْقِلُونَ .. ﴾ (٤٢) [يونس]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى  
وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣)

والرؤى أيضاً تحتاج إلى استشراف ، وأن يقبل المرء على ما يريد أن يراه ،  
وأحياناً لا يكون الرأى مستشرفاً ؛ لأن قلبه غير متجه للرؤية .

وسئل واحد: إنك تقول: من رأى فلاناً الصالح<sup>(١)</sup> يَهْدِه الله ، فردَّ عليه السامع متسائلاً: كيف تقول ذلك؟! فردَّ القائل: لقد رأى أبو جهل خيراً من هذا، ومع ذلك ظل كافراً. فردَّ السامع: إن أبا جهل لم يرَ محمداً رسول الله ﷺ ، ولكنه رأى يتيم أبي طالب<sup>(٢)</sup>.

وهكذا شرح الرجل أن أبا جهل لم ينظر إلى محمد ﷺ على أنه رسول؛ لأنه لو نظر إليه بهذا الإدراك لتسللت إليه سكينَةُ الإيمان وهيبَةُ الخشوع وجلال الورع.

ونحن قد تلقى رجلاً صالحاً في بشرته أذمة<sup>(٣)</sup> أو سواد ، وصلاحه يضيء حوله ، وله أسر<sup>(٤)</sup> من التقوى، وجاذبية الورع.

ولو أن أبا جهل رأى محمداً ﷺ على أنه رسول لتغير أمره.

وها هو «فضالة»<sup>(٥)</sup> يحكى عن لحظة أراد فيها أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما اقترب منه ؛ قال له رسول الله ﷺ: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء ، كنت أذكر الله . قال: فضحك النبي ﷺ ، ثم قال: استغفر الله ، ثم وضع يده على صدر فضالة.

وساعة سمع فضالة هذا، ورأى محمداً ﷺ وهو يقول ذلك القول، قال: ما كان أبغض إليَّ من وجهه، ولكني أقبلت عليه فما كان أحبَّ

(١) إن رؤية الصالحين فيها جذب إيماني ؛ لأن الرائي يرى نور الإيمان يتأديه ، فيلاقه ، ويلتقي به .

أما رؤية أبي جهل فهي رؤيا انقطاع إيماني ؛ لأن استقباله للإيمان مقطوع ؛ فلم ير نوراً ، ولم يحس به ، وإنما كانت رؤيته من خلال الحقد الذي جعله لا يرى في رسول الله ﷺ إلا يتيماً لابن أبي طالب ، وذلك بخلاف موقف فضالة الذي أحس بالنور فأجابه .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٢/٢٢٣٢) أن المشركين قالوا: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب .

(٣) الأذمة في الناس: السمرة الشديدة ، وقيل: من بين أذمة الأرض ، وهو لونها ، وبه يبرق داء أهر البشّر - عليه السلام - [اللسان: مادة (أذم)] .

(٤) الأسر: الثَمْتُ الذي يستولي على مشاعر المحيطين به .

(٥) هو: فضالة بن عذرة بن الملوخ النخعي .

إِلَىٰ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ وَجْهِهِ <sup>(١)</sup>.

هذا هو السماع ، وهذا هو البصر ، وكلاهما - السمع والبصر - أكرم المتعلقات وأشرفها ؛ لأن السمع هو وسيلة الاستماع لبلاغ الله عنه ، والإنسان قيل أن يقرأ لا يد له من أن يكون قد سمع .

والمقصود هنا بالعمى في قول الحق سبحانه : ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَقُلُوكَ أَنتَ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (٤٣) هو عمى البصيرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ

أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤)

كلمة «الله» هي اسم عَلَّم على واجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال التي عرفناها في أسماء الله الحسنى التسعة والتعيين ، وإن كان لله تعالى كمالات لا تنهى ؛ لأن الأسماء أو الصفات التي يحملها التسعة والتسعون اسماً لا تكفى كل كمالات الله سبحانه ، فكمالاته سبحانه لا تنهى .

ولذلك قال النبي ﷺ :

«أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» <sup>(١)</sup>.

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٧/٤) بلفظ : «والله ما رُفِعَ يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه» .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩١/١ ، ٤٥٢) والحاكم في مستدركه (٥٠٩/١) من حديث ابن مسعود وصححه على شرط مسلم إن سلم من الإرسال .

وإن سأل سائل : ولماذا يستأثر الله سبحانه ببعض من أسمائه في علم الغيب ؟

أقول : حتى يجعل لنا الله سبحانه في الآخرة مزيداً من الكمالات التي لم تكن نعرفها ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يفتح على رسوله ﷺ «من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله»<sup>(١)</sup>.

وهذا بعض من فيض لا ينفد من آفاق اسم علم علي واجب الوجود ، وصفات علم واجب الوجود ، والتسعة والتسعون اسماً التي نعلمها<sup>(٢)</sup> هي اللازمة لحياتنا الدنيا ، ولكننا سنجد في الآخرة صفات كمال أخرى ، وكلمة «الله» هي الجامعة لكل هذه الأسماء ، ما عرفناها ؛ وما لم نعرفها .

والإنسان منا حين يُقبل على عمل ، فهذا العمل يتطلب تكاثف صفات متعددة ، يحتاج إلى قدرة ، وعلم ، وحكمة ، ولطف ، ورحمة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن قلت : باسم القوى ؛ فأنت تحتاج إلى القوة ، وإن قلت : باسم القادر ؛ فأنت تحتاج إلى القدرة ، وإن قلت : باسم الخليم ؛ فأنت تحتاج إلى الخليم ، وإن قلت : باسم الحكيم ؛ فأنت تحتاج إلى الحكمة ، وإن قلت : باسم الله ؛ فهي تكفيك في كل هذا وغيره أيضاً ؛

(١) وذلك في يوم القيامة في مقام شفاعة رسول الله ﷺ بعد تأخر إخوانه من الأنبياء عنها ، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - « أن رسول الله ﷺ يأتي تحت العرش فيضع ساجداً ، ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ويقول : يا رب أمتي ، أمتي . من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٢) ، وسلم في صحيحه (١٩٤) .

(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة » أخرجه البخاري في صحيحه (٧٣٩٢) ومسلم (٢١٧٧) وقد ورد ذكر أسماء الله الحسنى بالتفصيل في رواية أخرى عن أبي هريرة أخرجهما الترمذي في سننه (٣٥٠٧) وابن ماجه (٢٨٦١) وطريق الترمذي أصح .

ولذلك يكون بدء الأعمال <sup>(١)</sup> بـ «بسم الله» ، فإذا احتجت إلى قدرة وجدها ، وإن احتجت إلى غنى وجدهته ، وإن احتجت إلى بسط <sup>(٢)</sup> وجدهته .

وكل صفات الكمال أوجزها الحق سبحانه لنا في أن نقول : «بسم الله» .  
وحين تبدأ عملك باسم الله ؛ فأنت تُقر بأن كل حول <sup>(٣)</sup> لك موهوب من الله ، والأشياء التي تنفعل لك ، إنما تنفعل باسم الله ، وكل شيء إنما يسخر لك باسم الله ، وهو الفائل :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولو لم يدلل الله لنا الأنعام والأشياء لتفعل لنا ما استطعنا أن نملكها ، بدليل أن الله تعالى قد ترك أشياء لم يدللها لنا حتى نتعلم أننا لا نستطيع ذلك ، لا بعلمنا ، ولا بقدرتنا ، إنما الحق سبحانه هو الذي يدلل .

فأنت ترى الطفل في الريف وهو يسحب الحمل ، ويأمره بالرقود ؛ فيسرق ، ويأمره بالقيام ؛ فيقوم . أما إن رأينا ثعباناً فالكثير منا يجرى ليهرب ، ولا يواجهه إلا من له دُرْبة على قتله . والبرغوث الصغير الضئيل قد يأتي ليلدغك ليلاً ، فلا تعرف كيف تصطاده ؛ لأن الله لم يدلله لك .

وكذلك الشجرة إذا قطفتها قبل نضجها تكون غير

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل كلام - أو أمر - ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبطر - أو قال : أقطع» .

(٢) أي : أن يسط في رزقك ، فهو سبحانه الباسط . يقول سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾ [الرعد] .

(٣) الحول : القوة ، والحيلة والغدرة على تسيير أمورك في الحياة .



مستساعة ، أما إن قطفتها بعد نضجها فأنت تستمتع بطعمها ، ثم تأخذ منها البذرة لتعيد زراعتها ، وتضمن بقاء النوع ، بل إن الشجرة تسقط من على الشجرة حين تنضج وكأنها تنادي من يأكلها .

وكذلك الإنسان حين يبلغ ، أى : يصبح قادراً على أن ينجب غيره ، فيكلفه الله بعد ذلك بالتكاليف الإيمانية ؛ لأنه لو كلفه قبل ذلك<sup>(١)</sup> ثم طرأت عليه مشاكل المراهقة ؛ فقد لا يستطيع أن يتحمل التكليف .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يخلق من عدم ، وأن يربى حتى يكتمل الإنسان ، ثم حدد التكليف من لحظة البلوغ ، ووضع شرط اكتمال العقل والرشد ، وألا توجد آفة أو جنون .

ولا أقوى من الله سبحانه يمكن أن يكلف لتفعل غير ما يريد الله ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يكتمل للإنسان الرشد ساعة التكليف ، أما المجنون فلم يكلفه الله سبحانه ، وكذلك يسقط التكليف عن المكروه ؛ لأن التكليف فى مضمونه هو اختيار بين البدائل ، وهذه تنتهى العدالة فى التشريع .

وأنت حين تستقبل التكليف عليك ألا تنظر إلى ما تأخذه منك العبادات ، لأنها لا تأخذ من حريتك ، بل تحترم أنت حرية الآخرين ، ويحترمون هم حريتك ، فإن حرم عليك أن تسرق ، فهو سبحانه قد حماك بأن حرم على جميع الخلق أن يسرقوا منك<sup>(٢)</sup> .

(١) لما استطاع القيام بما كلف به لأنه ليس بالغاً ؛ ولذلك كان التكليف مضاعفاً للبلوغ ؛ ليكون هناك توازن تربوي يروض النفس إلى مرادات الله ، ولوقام الصبي بالتكاليف فله ثواب .

(٢) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٧) فجعل رسول الله ﷺ السلامة من الإيذاء سواء باللسان أو اليد علامة على حسن إسلام العبد .

إِذْنِ : فَالْقَيْدُ قَدْ جَاءَ لَصَاحُكَ .

وَمَهَبٌ أَنْكَ أَطْلَقْتَ يَدَكَ فِي النَّاسِ ، فَمَاذَا تَصْنَعُ لَوْ أَطْلَقُوا هِمَّ أَيْدِيهِمْ  
فِيمَا نَمَلُكَ ؟

وَحِينَ حَرَّمَ عَلَيْكَ التَّكْلِيفَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مُحَارِمٍ غَيْرِكَ ، فَهُوَ قَدْ حَرَّمَ  
عَلَى الْغَيْرِ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى مُحَارِمِكَ .

وَحِينَ أَمَرَكَ أَنْ تَزَكِّيَ ، فَهُوَ قَدْ أَخَذَ مِنْكَ ؛ لِيُعْطَى الْفَقِيرُ مِنَ  
الْمَالِ الَّذِي اسْتَخْلَفَكَ اللَّهُ فِيهِ .

فَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَا أَخَذَ مِنْكَ ، بَلْ انْظُرْ إِلَى مَا قَدْ يَعُودُ عَلَيْكَ إِنْ أَصَابَكَ  
الْقَدَرُ بِالْفَقْرِ ، وَالشَّيْءَ الَّذِي نَسْتَشْعِرُ أَنَّهُ يُوْخَذُ مِنْكَ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَعْطِيكَ  
الشَّوَابَ أَضْعَافًا كَثِيرَةً<sup>(١)</sup> .

وَبَعْدَ ذَلِكَ انْظُرْ إِلَى حَرَكَةِ الْحَيَاةِ ، وَانْظُرْ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ  
مِنْ أَشْيَاءَ ، وَمَا حَلَّلَ لَكَ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ فَسَتَجِدُ الْمُبَاحَ لَكَ أَكْثَرَ مِمَّا مَنَعَكَ عَنْهُ .

إِذْنِ : فَالتَّكْلِيفُ لَصَاحُكَ .

ثُمَّ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ : أَيْعُودُ شَيْءٌ مِمَّا تَصْنَعُ مِنْ تَكَالِيفٍ عَلَى الْحَقِّ  
سَبْحَانَهُ ؟ لَا .

أَيُعْطِيهِ صِفَةٌ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ ؟

لَا ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَدْ خَلَقَنَا بِكُلِّ صِفَاتِ كَمَالِهِ ، وَلَيْسَ فِي عَمَلِنَا  
مَا يَزِيدُهُ شَيْئًا .

(١) يَقُولُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ : ﴿وَإِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً نِعْمَ عَظِيمًا وَيُؤْتِ مَنْ تَدَّعَى  
أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء] . وَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّحْمَةِ فَاعِلُونَ﴾ [٤٤] ﴿[الْمُؤْمِنُونَ]﴾ - ﴿يُوْخَذُ  
مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَدَقَّةً نَظِيرُهَا وَتُرْجَبُ بِهِمْ بِهَا تَوَصَّلَ عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَاتُكَ سَكُنَ لَهُمْ ...﴾ [التوبة] - ﴿وَالَّذِينَ فِي  
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَغْلُوبٌ﴾ [١٠٦] لِلنَّاسِ وَالْمَغْرُومِ﴾ [١٠٥] ﴿[الْمَعَارِجُ]﴾ .

إذن : فمن المصلحة أن تطبق التكاليف لأنها تعود عليك أنت بالخير .

وانظر - مثلاً - إلى الفلاح في الحقل ، إنه يحرق الأرض ، وينقل السماد ، ويسذر ، ويروى ويتعب ، وبعد ذلك يستريح في انتظار الثمار .

وأنت حين تنفذ تكاليف الحق <sup>(١)</sup> سبحانه فأنت تحصد العائد ، وأنت ترى في حياتك أن الفلاح الكسول يصاب بحسرة يوم الحصاد ، فما بالنا بحساب الآخرة .

والفلاح الذي يأخذ من مخزنه إردباً ؛ ليزرعه ، وهو في هذه الحالة لا ينقص مخزنه ؛ لأنه سيعود بعد فترة بخمسة عشر إردباً .

وهكذا من ينفذ التكاليف يعود عليه كل خير ؛ ولذلك أقول : انظر في استقبالات منهج الله تعالى فيما تعطيه ، لا فيما تأخذه .

وهكذا ترى أنه لا ظلم ؛ لأننا صنعة الله ، فهل رأيت صانعاً يفسد صنعه ؟

إذن : فالصانع الأعلى لا يظلم صنعه ولا يفسده أبداً ، بل يُحسِّنُها ويعطيها الجمال والرونق <sup>(٢)</sup> ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

(١) تكاليف الحق سبحانه هي أوامره ونواهيه ، يكلف بها الله من آمن به ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَلَا يَفْقَهُوا السَّوْءَ حِينَ ظَهَرَ مِنْهَا وَمَنْ يَفْعَلْ يَفْعَلْهُ الْفُسْ يُسْرِمْ وَالَّذِي إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَمَنْ كَانَ بِهِ لُغْلُكُمْ يُفْعَلُونَ (١٠١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُفْسِدُونَ فَضَالاً أَلَمْ تَسْمَعُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَسَّلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ قُلْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٠٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَايَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

(٢) وفي هذا يقول رب العزة : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٥) ﴾ [المجدة]

ويقول في آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ (٦١) ﴾ [غافر]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٤٤) [يونس]

أى : أن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ، ومن الظلم جحد الحق ، وهذا هو الظلم الأعلى ، ومن الظلم أن يعطى الإنسان نفسه شهوة عاجلة ؛ ليدوق من بعد ذلك عذاباً آجلاً ، وهو بذلك يحرم نفسه من النعيم المقيم ، وهو حين يظلم نفسه يكون قد افتقد القدرة على قياس عمره فى الدنيا ، فالعمر مهما طال قصير ، وما دام الشيء له نهاية فهو قصير .

والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب الناس ، فهو قد نصب لهم آيات باقية إلى أن تقوم الساعة ، وكلهم شركاء فيها ، وهى الآيات الكونية <sup>(١)</sup> ، وبعد ذلك خص كل رسول بأية ومعجزة ، وأنزل متهجاً به «افعل» و«لا تفعل» ، وبين فى آيات الكتاب ما المطلوب فعله ، وما المطلوب أن تمتنع عنه <sup>(٢)</sup> ، وترك لك بقية الأمور مباحة .

والمثال الذى أضربه دائماً : هو التلميذ الذى يرسب آخر العام ، هذا التلميذ لم تظلمه المدرسة ، بدليل أن غيره قد نجح ؛ لذلك لا يصح أن يقال : إن المدرسة أسقطت فلاناً ، ولكن الصحيح أن نقول : إن فلاناً قد أسقط نفسه ، وأن زميله قد أنجح نفسه ، ودور المدرسة فى ذلك هو إعلان النتيجة .

- (١) قد جعل الله فى الكون آيات يخاطب بها الله كل الناس ليتفكروا فيها وليصلوا بها إلى أن لهذا الكون خالقاً واحداً ، وقد جمعها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَمْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بُعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْتَفْرِيقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤) [البقرة]
- (٢) وذلك فى نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَأَصْحَابُكُمْ بِهِ يُعَذِّبُونَ ﴾ (٦٦) [الأنعام]

ومن الظلم أيضاً أن يستكثر الظالم نعمة عند المظلوم ، فيريد أن يأخذها منه ، ولا يمكن أن يكون الحق سبحانه وتعالى ظالماً يستكثر نعم عباده ؛ لأنه منزّه عن ذلك ؛ فضلاً عن أن خلقه ليس عندهم نعم يريدونها ، فهو الذي أعطاهم لهم ؛ ولذلك لا يأتي منه سبحانه أى ظلم ، وإن جاء الظلم فهو من الإنسان لنفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّزِبَ شِرَارٌ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ  
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿١٥﴾

فهذه الدنيا التي يثلف عليها الإنسان ، ويأخذ حظه فيها ، وقد يتسى الأخيرة ، فإذا ما قامت القيامة فأنت تشعر كأنك لم تمكث في الدنيا إلا ساعة ، والساعة هي الساعة الجامعة التي تقوم فيها القيامة ، ولكن الساعة في الدنيا هي جزء من الوقت ، ونحن نعلم أن اليوم مقسم لأربع وعشرين ساعة ، وأيضاً تُطلق الساعة على تلك الآلة التي تُعلّق على الحائط أو يضعها الإنسان على يده ، وهي تشير إلى التوقيت .

والتوقيت ثابت - بمقدار الساعة والدقيقة والثانية - منذ آدم عليه السلام وإلى من سوف يأتون بعدنا ، ولكن التوقيت يختلف من مكان إلى آخر ، فنشير الساعة في القاهرة - مثلاً - إلى الثانية ظهراً ، وتكون في نيويورك الساعة صباحاً ، وتشير في بلد آخر إلى الثالثة بعد منتصف الليل ، ولا تتوحد الساعة بالنسبة لكل الخلق إلا يوم القيامة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۖ ﴾ (٥٥)

[الروم]

وهم - إذن - يُفاجأون أن دنياهم الطويلة والعريضة كلها مرتت و كأنها مجرد ساعة<sup>(١)</sup> ، وهكذا يكتشفون قصر ما عاشوا من وقت ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إنهم لم يتفجعوا بها أيضاً فهي مدة من الزمن لم تكن لها قيمة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَعَلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢٥)

[الاحقاف]

أى : أن الدنيا تمر عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذوا الحياة بالجد اللاتق بها<sup>(٢)</sup> ؛ فصاعت منهم و كأنها ساعة .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ۖ ﴾ (٤٥)

[يونس]

ويوم الحشر ينقسم الناس قسمين : قسم من كانوا يتعارفون على الير ، وقسم من كانوا يتعارفون على الإثم ، فالذين تعارفوا فى الحياة الدنيا على

(١) الساعة : أصلها جزء من الزمن غير محدد يلاحظ فيه الفلة ، قال تعالى : ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۖ ﴾ [الروم] أى : مدة قليلة ، وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف] أى : لا يستأخرون لحظة ، والساعة بـم القىامة قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ۖ ﴾ [الروم] أى : القىامة .

(٢) ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَمِعَ لَهَا سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعِيَهُمْ مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء] ، فالسمى للآخرة لا بد أن يكون بالنسبة إلى عظم هذا اليوم الأخير .

البر يفرحون ببعضهم البعض ، وأما الذين تعارفوا في الحياة الدنيا على الإثم فهم يتنافرون بالعداء ، والحق سبحانه هو القائل : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) [الزخرف]

وكذلك قال في الذين تعارفوا على الإثم :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. ﴾ (١٦٦) [البقرة]

هم سيتعارفون على بعضهم البعض ، ولكن هذه المعرفة لا تدوم ، بل تنقلب إلى نكران ، فالواحد منهم لا يريد أن يرى مَنْ كَانَ سِبْباً فِي أَنْ يَزُولَ إلى هذا المصير ، وتعارفهم سيكون تعارف تعنيف ..

ويقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٤٥) [يونس]

وساعة تسمع كلمة «خسر» فاعرف أن الأمر يتعلق بتجارة ما ، والخسارة<sup>(١)</sup> تعنى : أن يفقد الإنسان المتاجر إما جزءاً من رأس المال ، أو رأس المال كله .

ومراحل التجارة - كما نعرف - إما كسب يزيد رأس المال المتاجر فيه ، وإما ألا يكسب التاجر ولا يخسر ؛ لكنه يشعر بأن ثمن عمله ووقته في هذه التجارة قد ضاع ، وكل ذلك يحدث في الصفقات .

(١) خسر : أى خسر الرجل في تجارته خسراً وخساراً وخسارة وخسراناً ، حين فيها ولم يربح وأصابه النقص . وخسر الرجل : ضل . فهو خاسر ، وهو خسير ، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ .. ﴾ (٢١) [الأنعام] . وخسر نفسه : أهلكها بالضلال ، وقوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .. ﴾ (٥٠) [الحج] .

ومن القليل اللازم قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مَبِينًا ﴾ (٥٥) [النساء] ، وقد بأتى متعدياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٥٢) [الزمر] [القاموس القويم] .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يصف العملية الإيمانية في الدنيا بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجْنِبُكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١)﴾

[الصف]

ويقول سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾

[فاطر]

والتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنك أن هذه الصفقة سوف تأتي لك بأكثر مما دفعت فيها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصفقات الخاسرة :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَاةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٥٦)﴾

[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١)﴾

[الجمعة]

(١) تاجر من باب نصر - تجرأ وتجارة : باع واشترى طلباً للربح ، ونطلق التجارة على المال الذي يتجر فيه التاجر - ونطلق التجارة مجازاً على العمل الذي يترتب عليه خير ، كأن الثوب ربح ، وكان الحرمان منه خسارة ، قال تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوتَهَا بَيْنَكُمْ .. (٢٤٦)﴾ [البقرة] ، التجارة هي المتجر فيه ، وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر] هي الأعمال الصالحة ، وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجْنِبُكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف] ، هي التجارة بالمعنى المجازي أي العمل الصالح ، [القاموس القويم]



وشاء الحق سبحانه أن يجعل معنى التجارة واضحاً ومعبراً عن كثير من المواقف ؛ لأن التجارة تمثل جماع كل حركة الحياة ؛ فهذا يتحرك في ميدان ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره ، وغيره يعمل في ميدان آخر ؛ لينفع نفسه ، وينفع غيره .

وبهذا يتحقق نفع الإنسان من حركة نفسه وحركة غيره ، وهو يستفيد من حركة غيره أكثر مما يستفيد من حركته هو ، ومن مصلحة أى إنسان أن يحسن كل إنسان حركته ؛ فيرتاح هو ؛ لأن ما سوف يصل إليه من حركة الناس سيكون جيد الإتقان .

والتجارة تحمل أيضاً الوساطة بين المنتج والمستهلك .

ولذلك حين أراد الله سبحانه أن يستجيب لأذان الجمعة قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٩) [الجمعة]

ولم يقل الله سبحانه : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة ، أو اتركوا التدريس ، بل اختار من كل حركات الحياة حركة البيع ؛ لأن فيه تجارة ، والتجارة هي الجامعة لكل حركات الحياة .

والتاجر وسيط بين منتج ومستهلك وتقتضى التجارة شراءً وبيعاً ، والشراء يدفع فيه التاجر ثمناً ، أما فى البيع فهو يأخذ الثمن ، والغاية من كل شيء أن يثموك الإنسان .

لذلك فالبيع أفضل عند التاجر من الشراء ، فأنت قد تشتري شيئاً وأنت كاره له ، لاحتياجك إليه ، ولكنك عند بيع البضاعة تشعر بالسعادة والإشراق ، ولأن الشراء فيه أخذ ، والبيع فيه عطاء ، والعطاء يرضى النفس دائماً ؛ لأن ثمرة الصفقة تأتيك فى لحظتها .

وإن كنت مزارعاً فأنت تُعدّ الأرض ، وتحراثها ، وتبذر البذور ، وترويتها ، وتشدّب النبات ، وتنتظر إلى أن ينضج الزرع ، وكذلك تقضى الكثير من الوقت فى إتقان الصنعة إن كنت صانعاً ، لكن البيع فى التجارة يأتى لك بالكسب سريعاً ، فكان ضَرْبَ المثل فى التجارة ، جاء من أصول التجارة بالبيع ولم يأت بالشراء .

إذن : لا بد أن تعتبر أن دخولك فى صفقة الإيمان تجارة ، تأخذ منها أكثر من رأس مالك ، وثريع ، أما إن تركت بعضاً من الدين ؟ فأنت تخسر بمقدار ما تركت ، يل وأضعاف ما تركت .

وأنت فى أية صفقة قد تعوّض ما خسرت فيما بعد ، وإن استمرت الخسارة فإن أثرها لا يتجاوز الدنيا ، ويمكن أن تربح بعدها ، وإذا لم تربح ، فسيضيع عليك تعبك فقط ؛ ولأن الدنيا محدودة الزمن ؛ فخسارتها محتملة ، أما الخسارة فى الزمان غير الموقوت - الزمن الدائم - فهي خسارة كبيرة ؛ لأن الأخرة ليس فيها أغيار كاللدينا ، وأنت فى الأخرة إما فى جنة ذات نعيم مقيم ، وفى هذا ربح وكسب كبير ، وإما إلى نار ، وهذه هى الخسارة الحقيقية .

والخسران الحقيقى أن يكذب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بقاء الله أيضاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . (٤٥) ﴾

[يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكن فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله - سبحانه وتعالى - أمامهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً...﴾ (٢٩)

[النور]

والسراب كما نعلم يراه السائر في الصحراء ، وهو عبارة عن انعكاس للضوء ؛ فيظن أن أمامه ماء ، ولكن إن سار إليه الإنسان لم يجده ماء ، وهكذا شبه الحق سبحانه عمل الكافر بمن يسير في صحراء شامعة ، ويرى السراب ؛ فيظنه ماء ، لكنه سراب ، ما إن يصل إليه حتى ينطبق عليه قول الحق سبحانه :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ...﴾ (٣٩)

[النور]

أي : أنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه وتعالى ، فيوفيه الله حسابه .

ولذلك فالذي يكفر بالله ويعمل ما يفيد البشر ، فإنه يأخذ حسابه من عمل له ، ولا يُحسب له ذلك في الآخرة ، وتجد الناس يُكرمونه ، ويُقيمون له الشمائل أو يمشحونه الجوائز وينطبق عليه قول الرسول ﷺ :

«فعلتَ ليقال ، وقد قيل»<sup>(١)</sup>

(١) السراب : ما يري في نصف النهار من اشتداد الحر كالماء في الصحراء يلتصق بالأرض ، وهو من خداع البصر . وقد سُمي السراب مراباً لأنه يسرب سروباً ، أي : يجري جرياً ، أي : يتحرك حركة خدع الرائي من بعيد ؛ فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئي وبصري ناتج من الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده في صحراء قاحلة ؛ فأى حركة من بعيد يظنها ماء ؛ ويجري إليها ؛ ليفاجأ بعدم وجود شيء . [اللسان : مادة (س ر ب) بتصرف] .

والقيعة : أرض واسعة مستوية لا تثبت الشجر . قال الفراء : القيعه جمع القاع ، والقاع : ما انسط من الأرض . قال تعالى : ﴿فَلْيَذَرُوا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠٩) [عنه] . [اللسان : مادة (ق و ع) بتصرف] .

(٢) عن ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال : إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكك فأتيت لأن يقال : جرى ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمته وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرّفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكك تعلمت العلم ليقال : عالِم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قاري . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . . الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) والبيهقي في سننه (٢٣/٦) طبعه دار الكتب العلمية - بيروت .

وهنا يقول الحق سبحانه عن الذين كذبوا بلفاء الله تعالى :

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥) [يونس]

أى : لم يَكُونُوا سائرين على المنهج الذى وضعه لهم خالقهم سبحانه ؛  
هذا المنهج الذى يمثل قانون الصيانة لصنعة الله تعالى ، وقد خلق الله  
سبحانه الإنسان لمهمة ، والله سبحانه يصون الإنسان بالمنهج من أجل أن  
يؤدى هذه المهمة .

والهداية هى الطريق الذى إن سار فيه الإنسان فهو يؤدى به إلى تحقيق  
المهمة المطلوبة منه ؛ لأن الحق سبحانه قد جعله الخليفة فى الأرض .

ومن لا يؤمن برب المنهج سبحانه وتعالى ولا يطبق المنهج فهو إلى  
الخسران المبين ، أى : الخسران المحيط .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَمَّا رَبُّكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْتَوْفِئَكَ فَأَلَيْسَ

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

وقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا﴾ مكونة من «إن» و«ما» مدغمتين ، وهنا  
يبين لنا الحق سبحانه أنه يعد الذين كذبوا رسوله ﷺ بالعذاب والهوان  
والعقاب والفضيحة .

أى : يا محمد ، إما أن ترى ما قلناه فيهم من خذلان وهوان ، وإما أن  
تسوفيتك قبل أن ترى هذا فى الدنيا ، ولكنك ستراه فى الآخرة حين  
تشاهدهم فى الهوان الأبدى الذى يصيبهم فى اليوم الآخر .

وفى هذا تسرية لرسول الله ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا نُزُيُّكَ .. (٤٦)﴾ أى : أن نريك ما وعدناهم من الخذلان والهوان فى هذه الحياة ، وإن لم تره فى الحياة الدنيا فلسوف ترى هوانهم فى الآخرة ، حيث المرجع إلى الله تعالى ؛ لأنه سبحانه سيصيبهم فى أنفسهم بأشياء فوق الهوان الذى يرى فى الناس ؛ كحسرة فى النفس ، وكبت للأسى حين يرون نصر المؤمنين .

أما الذى يُرى فهو الأمر الظاهر ، أى : الخذلان ، والهزيمة ، والأسى ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وسبى النساء والأولاد ، أو غير ذلك مما سوف تراه فيهم - بعد أن تفيض روحك إلى خالقها - فسوف ترى فيهم ما وعدك الله به .

وأنت لن تحتاج إلى شهادة من أحد عليهم ، لأنه سبحانه : ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧)﴾ .

وكذاك الله سبحانه شهيداً : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٤٨)﴾ [النساء]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٩)﴾

(١) قسط يقسط - كضرب - قسطاً وقسطاً ، وقسط يقسط قسطاً كضرب : ظلم أو عدل ، من الاعتدال ، وتفهم بالقرائن ، واستعمله القرآن بمعنى ظلم فى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (٥٥)﴾ [الجن] وأقسط : عدل وأزال الظلم ، واستعمله القرآن بمعنى العدل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. (٥٥)﴾ [الأعراف] . والقسطاس : الميزان والعدل . «القاموس القويم» .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ولا يعذب قوماً إلا بعد أن يكفروا  
بالرسول الذي أرسله إليهم ، وهو سبحانه القاتل :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا<sup>(١)</sup> فِيهَا نَذِيرٌ ۖ﴾ [فاطر]

وهو سبحانه القاتل أيضاً :

﴿لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۖ﴾ [الأنعام]

فلا تجريم ولا عقوبة إلا ينص وبيان لتجريم هذا الفعل أو ذلك ، بإرسال  
الرسول ؛ حتى لا يحتج أحد بأنه لم يصل إليه شيء يحاسب بمقتضاه .

والحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا يتعهدا بأمر المنهج .

وقد خلق الحق سبحانه كل الخلق ، وكانوا موحدين منذ ذرية آدم - عليه  
السلام - ثم اقتضت الأحداث أن يتباعدوا ، وانتشروا في الأرض ، وصارت  
الالتقاءات بعيدة ، وكذلك المواصلات ، وتعددت الآفات بتعدد البيئات .

ولكن إذا تقاربت الالتقاءات ، وصارت المواصلات سهلة ، فما يحدث  
في الشرق تراه في لحظتها وأنت في الغرب ، فهذا يعني توحّد الآفات  
أو تكاد تكون واحدة ؛ لذلك كان لا بد من الرسول الخاتم ﷺ ، أما في  
الأزمة القديمة ، فقد كانت أزمة انعزالية ، تحيا كل جماعة بعيدة عن  
الأخرى ؛ ولذلك كان لا بد من رسول لكل جماعة ؛ ليعالج داءات  
البيئة ، أما وقد التفت البيئات ، فالرسول الخاتم يعالج كل الداءات<sup>(٢)</sup> .

(١) خلا : مضى وسلف . ومنه قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْهُمَا بِمَا آسَفْتُم فِي الْأَيَّامِ الْغَابِيَةِ﴾ [الحاقة] أي : الماضية .

(٢) وذلك لأن رسالة الإسلام من جماع القيم لكل دين سابق ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿فَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبِيرٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَهَهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى] .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٧)

[يونس]

وقد حكى التاريخ لنا ذلك ، فكل رسول جاء آمن به البعض ، وكفر به البعض الآخر ، والذين آمنوا به انتصروا ، ومن كفروا به هُزموا .

أو أن الآية عامة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ﴾ أى : تُنادى كل أمة يوم القيامة باسم رسولها ، يا أمة محمد ﷺ ، يا أمة موسى ، يا أمة عيسى ... إلخ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (١٨)

[النساء]

إذن : فالحق سبحانه هنا يبين أن لكل أمة رسولا جاءها بالبلاغ عن الله ، وقد آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، وما دام الإيمان قد حدث - وكذلك الكفر - فلا بد من القضاء بين المؤمنين والكافرين .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ على » فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : « نعم » . فإني أحب أن أستمعه من غيري « فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (١٨) [النساء] فقال ﷺ : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٥٠) وأحمد في مسنده (٢٨٠ / ١) .

واللغة تقول : الشهيد صيغة مبالغة في الشاهد ، والشهيد من أسماء الله الحسنى : ﴿ إِنْ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (٢٣) [النساء] وقوله : ﴿ وَلَا يَحْزَنُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ (٢٤) [البقرة] أى شاهد . والشهيد من قتل في سبيل الله ، والشهادة : خبر قاطع ، والشاهد اسم فاعل وجمعه شهد وشهود . القلموس القرم .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

وما دام في الأمر قضاء ، فلا بد أن المؤمن يعتبر الكافر منازعاً له ، وأن الكافر يعتبر المؤمن منازعاً له ، وبصير الأمر قضية تتطلب الحكم ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

أى : يُقضى بينهم بالعدل ، فالمؤمنون يتقضى الحق سبحانه حسنتهم ويزيدها لهم ، أما الكافرون فلا توجد لهم حسنات ؛ لأنهم كفروا بالله الحق ؛ فيوردهم النار ، وهم قد أبلغهم رسول الله ﷺ أنه سيأتى يوم يُسألون فيه عن كل شيء ، فاستبعدوا ذلك وقالوا :

﴿ أَئِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٤٦) أَوْ أَبَارُزْنَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (٤٧)

[الصفات]

لقد تعجبوا من البعث وأنكروه ، لكنهم يجدونه حتماً وصدقاً.

وبشاء الحق سبحانه أن يُدخل عليهم هذه المسألة دخولاً إيمانياً ، فيقول :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ : (٤٨) ﴾ [ق]

فأنتم إذا متُّم وتحللتُم في التراب ، أيعجز الله سبحانه أن يخلقكم من جديد ؟ لا ؛ إنه سبحانه القائل :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴾ (٤٩) [ق]

أى : أنه سبحانه يأمر العناصر الخاصة بكل إنسان أن تتجمع كلها ، وليس هذا بعسير على الله الذى خلقهم أولاً ،



وهم قد كذبوا واستهزأوا واستهزأوا بحجىء يوم القيامة والبعث ، وبلغ استهزاؤهم أن استعجلوا<sup>(١)</sup> هذا اليوم ، وهذا دليل جهلهم ، وكان على الواحد منهم أن يقر من هول ذلك اليوم .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك على ألسنتهم :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨)

هذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين<sup>(٢)</sup> فى كل زمان ومكان ، وفى العصر القريب قاله الشيوعيون عندما قاموا بثورتهم الكاذبة ، وذبخوا الطبقة العليا فى المجتمع بدعوى رفع الظلم عن الفقراء .

وإذا ما كانوا قد آمنوا بضرورة الثواب والعقاب ، فمن الذى يحكم ذلك ؟ هل الظالم يحكم على ظالم ، فتكون النتيجة أن الظالم سيهلك بالظالم ، وقد حدث ، فأين الشيوعيون الآن ؟

لماذا لم يلتفتوا إلى أن لهذا الكون خالقاً يعاقب من ظلموا من قبل ، أو من يظلمون من بعد ؟

إنهم لم يلتفتوا ؛ لأنهم اتخذوا المادة إلهاً ، وقالوا : لا إله ، والحياة مادة ، فأين هم الآن ؟

وإن كنتم قد تملكتم فى المعاصرين لكم ، وادعيتم أنكم نستم العدل بينهم ، فماذا عن الذين سبقوا ، والذين لحقوا ؟

(١) وقد قال رب العزة عنهم : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (٤٧) [الحج] ، ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (٥٢) [التكوير] .  
(٢) الملحدين : جميع ملحد ، وهو الطاعن فى الدين ، المائل منه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فى آيَاتِنَا لَا يُخْفُونَ عَلَيْنَا ﴾ (٤٩) [فصلت] . [المعجم الرسيط : مادة (لحد)] .

هم - إذن - لم يلتفتوا إلى أن الله سبحانه وتعالى قد شاء ألا يموت ظالم إلا بعد أن ينتقم الله منه <sup>(١)</sup> .

وهم لم يلتفتوا إلى أن وراء هذه الدار داراً أخرى يجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

وكان المنطق يقتضي أن يؤمن هؤلاء بأن لهذا الكون إلهاً عادلاً ، ولا بد أن يجيء اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بما عمل ، ولكنهم سخروا مثل سخرية الذين كفروا من قبلهم ، وجاء خبرهم في قول الله سبحانه على ألسنتهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس] ولكن وعد الله حق ، ووعد الله قادم ، ومحمد ﷺ رسول من الله ، يبلغ ما جاء من عند الله تعالى ، فرسول الله ﷺ لا يملك لنفسه شيئاً .

ولذلك يقول القرآن بعد ذلك :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْرِخُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤٩)

والرسول ﷺ يبرئ نفسه من كل حَوْلٍ وطَوْلٍ <sup>(٢)</sup> ، ويعلن ما أمره الحق

(١) يقول الحق : ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٤٧) مهبطين نفسي رؤسهم لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْجَتْهُمْ أَهْوَاءُ ﴿ (٤٧) [إبراهيم] ، ويقول الرسول ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِنَظَالِمٍ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» .

(٢) الحَوْلُ : الخلق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور .  
والطَوْلُ : التفصيل والنسي واليسر . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. ﴾ (٢٥) [النساء] . [المعجم الرسيط] .

سبحانه أن يعلنه ، فهو ﷻ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ؛ لأن النفع أو الضرر بيد خالقه سبحانه ، وهو سبحانه وتعالى خالقكم ، وكل أمر هو بمشيئته سبحانه .

وهذه الآية جاءت ردّاً على سؤالهم الذي أورده الحق سبحانه في الآية السابقة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

لقد تساءلوا بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب ، وكانهم استبطأوا نزول العذاب تهكماً ، وهذا يدل على أن قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤٧) [يونس]

هذه الآية لم تنزل ليوم القيامة ، بل نزلت لتوضح موقف مَنْ كفروا برسول الله ﷺ والذين قالوا بعد ذلك :

﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) [يونس]

وهذا يعني أنهم قالوا هذا القول قبل أن تقوم القيامة ، والآية التي توضح أن لكل أمة رسولا تؤيدها آيات كثيرة ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (١٥) [الإسراء]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً... ﴾ (١٣٤) [طه]

وكل ذلك يؤيد أن الرسول المرسل إلى الأمة هو الرسول الذي جاء بمنهج الله تعالى ؛ فأمن به قوم ؛ وكذب به آخرون ، وقضى الله بين المؤمنين والكافرين بأن تحذل الكافرين ونصر المؤمنين .

وإن استسبطاً الكافرون الخذلان فلسوف يروته ؛ ولذلك أمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۖ ﴾ (٤٩)

[يونس]

أى : أنكم إن كنتم تسألون محمداً ﷺ عن الضر والنفع ، فهو ﷺ مبلغ عن الله تعالى ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن أن يملك لهم هم ضراً أو نفعاً ، وكل هذا الأمر بيد الله تعالى ، ولكل أمة أجل<sup>(١)</sup> ينزل بالذين كفروا فيها بالعذاب ، ويقع فيها القول الفصل .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ ﴾ (٤٩)

[يونس]

يفيد أن مشيئة الله هي الفاصلة ، ويدل على أن النبي والناس لا يملكون لأنفسهم الضر أو النفع ؛ لأن الإنسان خلق على هيئة القَسَر<sup>(٢)</sup> في أمور ، وعلى هيئة الاختيار في أمور أخرى ، والاختيار هو في الأمور التكليفية

(١) الأجل - مدة الشيء ، وغاية الوقت ووقت الحيلة ، أو وقت الدين أو وقت العمل . والأجل نفس الوقت الذي أجل له الأمر : ﴿ قُلْنَا قُتِلَ يَوْمَ الْاَجَلِ ۖ ﴾ [القصص] أى : أتم المدة المحددة له ، وأجل الشيء : حدد له أجلاً مستقبلاً : ﴿ لَا يَوْمَ اَجَلٍ ﴾ [المرسلات] أى : حدد الموت أو الهرم وقوته : ﴿ لَمْ يَفُتْ اَجَلًا وَاَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَ ۖ ﴾ [الأنعام] الأول : هو مدة البقاء في الدنيا ، والثاني : هو مدة البقاء في القبور إلى يوم القيامة ، أو مدة الحياة الآخرة ، وقوله : ﴿ فَاِذَا بَلَغَ اَجَلُنَّ ۖ ﴾ [البقرة] . أى : نهاية مدة المدة ، والأجل ضد العاجل ، والأجل ضد العاجلة . [القاموس القويم] .

(٢) القسر : القهر والإجبار .

## سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

○ ٥٩٧٩ ○

مصدداً لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ...﴾ (٢٩) [الكهف]

وأنت حُرٌّ في أن تطيع أو أن تعصي ، وكل ذلك داخل في نطاق اختيارك ، وإن صنع الإنسان طاعة ، فهو يصنع لنفسه نفعاً ، وإن صنع معصية ، صنع لنفسه ضرراً.

إذن: فهناك في الأمور الاختيارية ضرر ونفع .

ومثال ذلك: من يشجر بأن يشق نفسه ، فهو يأتي لنفسه بالضرر ، وقد ينقذه أقاربه ، وذلك بمشيئة الله سبحانه .

إذن: ففي الأمور الاختيارية يملك الإنسان - بمشيئة الله - الضرر أو النفع لنفسه ، والله سبحانه يبين لنا أن لكل أمة أجلاً ، فلا تحددوا أنتم آجال الأمم ؛ لأن آجالهم - استحصلاً ، أو عذاباً - هي من عند الله سبحانه وتعالى .

والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بمجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد سبحانه ، فالله تعالى مُتَرَهُ أن يكون موظفاً عند الخلق ، بل هو الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

وهو سبحانه القائل:

﴿سَأَرْيَكُم آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧) [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ (١١) [الإسراء]

[الإسراء]

(١) عَجُولاً: صيغة مبالغة تفيد التعجيل في الأمور. واستعجل الأمر طلبه عاجلاً سريعاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَهُمْ أَجَلَهُمْ﴾ (١١) [يونس] والعاجل: السريع ضد الأجل، والعاجلة الدنيا، والأجلة الآخرة، يقول الحق: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة] . أي: الدنيا، وتعجل الأمر طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة، وعجل الأمر ميقته. قال الحق سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْمَلْتُمْ أَمْرًا وَكُفَرْتُمْ﴾ [الأعراف] .

إذن : فالحق سبحانه يؤخر مراداته رحمة بالخلق ، وإذا جاء الأجل فهو لا يتأخر عن مياده ، ولا يتقدم عن مياده .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١٩) [يونس]

وقوله سبحانه : ﴿ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ليست من مدخلية جواب الشرط الذى جاء بعد ﴿ إِذَا <sup>(١)</sup> جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ (١٩) . [يونس]

لأن الجواب هو : ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴾ .

فهم لا يستقدمون قبل أن يحين الأجل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ هَارًا مَادَا

يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢٠)

وهذا ردٌ شاف على استعجالهم للعذاب ، فإن جاءكم العذاب قلنر ماذا سيكون موقفكم ؟

وهُم بامستعجالهم العذاب يبرهنون على غيائهم فى السؤال عن وقوع العذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ . أى : أخبرونى عما سوف يحدث لكم .

(١) إذا : تأتى لعينين شرطية وفجائية . إذا الشرطية : اسم شرط للزمن المستقبل ، تختص بالدخول على الجملة الفعلية ، وتعرب إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢٥) [الأنعام] ، وتدخل أحياناً على الأسماء المرفوعة ، فيكون المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف يفسره الفعل الذى بعده مثل : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (٢١) [الانشقاق] أى : إذا انشقت السماء ، وإذا تكون حراً للمفاجأة ، وتخفض بالجملة الاسمية ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّقَاهُمْ فَإِنَّهُمْ فِي حَبَّةِ تَسْعَى ﴾ (٢٢) [طه] « القاموس القويم » .

وشاء الحق سبحانه أن يأتي أمر العذاب هنا مبهماً من جهة الزمان فقال سبحانه :

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتًا أَوْ نَهَارًا ۖ﴾ (٥٠) [يونس]

والبيات مقصود به الليل ؛ لأن الليل محل البيوتة ، والنهار محل الظهور .  
والزمن اليومى مقسوم لقسمين : ليل ، ونهار .

وشاء الحق سبحانه إيهام اليوم والوقت ، فإن جاء ليلاً ، فالإنسان فى ذلك الوقت يكون غافلاً نائماً فى الغالب ، وإن جاء نهاراً ، فالإنسان فى النهار مشغول بحركة الحياة .

والحق سبحانه يقول فى موضع آخر :

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ۖ بَيَّاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) [الأعراف]

ويقول سبحانه :

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَنُونَ﴾ (٩٨) [الأعراف]

ولو نظرت إلى الواقع لوجدت أن العذاب يأتى فى الليل وفى النهار معاً ؛ لأن هناك بلاداً يكون الوقت فيها ليلاً ، وفى ذات الوقت يكون الزمن نهاراً فى بلاد أخرى .

وإذا جاء العذاب بغتة ، وحاولوا إعلان الإيمان ، فلن ينفعهم هذا

(١) بَأْسُنَا : عذابنا والبأس القوة ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ۖ﴾ (٢٥) [الحديد] ، أى : قوة وصلابة ، وقوله تعالى : ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ﴾ (٤٤) [النساء] شدتهم وقوتهم فيصددهم عنكم ، وقوله الحق : ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ ۖ﴾ (البقرة) ، أى : وقت الحرب الشديدة ، وقول الحق : ﴿وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُم بِأَسْكُمْ ۖ﴾ (النمل) ، أى : شدتكم وقوتكم فى الحرب ، فتحتفظكم الدروع من أخطار الحرب . والبأساء : الفقر والشدة ، ويقول الحق : ﴿وَالضَّالِّينَ فِي الْيَأْسِ وَالضَّرَاءِ ۖ﴾ (البقرة) فى وقت الفقر والحاجة .

الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يقول فيمن يتخذ هذا الموقف :

﴿الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٥١) [يونس]

فإن جاءكم العذاب الآن لما استغفرتكم منه ؛ لأنه لن ينفعكم إعلان الإيمان ، ولن يقبل الله منكم ، وبذلك يصيبكم عذاب في الدنيا ، بالإضافة إلى عذاب الآخرة ، وهذا الاستعجال منكم للعذاب بضاعف لكم العذاب مرتين ، في الدنيا ، ثم العذاب الممتد في الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَتُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ وَبَيْنَ مَنَازِلِهِمْ أَفَئِنَّكُمْ لَبِئْسَ الْأَعْيُنُ﴾

﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥١)

أى : إذا ما وقع العذاب فهل ستؤمنون؟

إن إعلان إيمانكم في هذا الوقت لن يفيدكم ، وسيكون عذابكم بلا مقابل .

إذن : فاستعجالكم للعذاب لن يفيدكم على أى وضع ؛ لأن الإيمان لحظة وقوع العذاب لا يفيد .

ومثال ذلك : فرعون<sup>(١)</sup> حين جاءه الغرق ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

(١) وذلك أن فرعون خرج في جيش كبير يقدر بمائة ألف وخلق موسى عند حافة البحر وقت شروق الشمس ، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر عصاه : ﴿فَأَرْجِفْنَا إِلَى مَوْسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالظُّورِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء] ، ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَمَقًا إِذَا أَذْرَكَ الْقُرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ يَا إِسْرَآئِيلُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : لما أغرق الله فرعون قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يا محمد فلو رأيته وأنا أخذ من حال البحر (أى : طين البحر) فأدبته في فيه (أى : فمه) مخافة أن يذركه أقر حنة ، أخرجه الترمذى في سننه وقال : حديث حسن . ونظر تفسيري ابن كثير (٤٣٠/٢) والقرطبي (٣٣٠/٤) .



[يونس]

آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ . . (٩٠) ﴿

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٩١﴾﴾

وهذا إخبار عن العذاب القادم لمن كفروا ويلقونه في اليوم الآخر ، فهم بكفرهم قد ظلموا أنفسهم في الدنيا ، وسيلقون العذاب في الآخرة ، وهو ﴿عَذَابُ الْخُلْدِ﴾ أى : عذاب لا ينتهى .

وينهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ .

أى : أن الحق سبحانه لم يظلمهم ، فقد بلغهم برسالة الإيمان عن طريق رسول ذى معجزة ، ومعهم منهج مفصل مؤيد ، وأمهلتهم مدة طويلة ، ولم يستفيدوا منها ؛ لأنهم لم يؤمنوا .

إذن : فسيلقون عذاب الخلد ، وقد جاء سبحانه هنا بخبر عذاب الخلد ؛ لأن عذاب الدنيا موقوت ، فيه خزي وهوان ، لكن محدوده في الحياة يجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

وجاء الحق سبحانه بأمر عذاب الخلد كأمر من كسبهم ، والكسب زيادة عن الأصل ، فمن يتاجر بعشرة جنهات ، قد يكسب خمسة جنهات .

وهنا سؤال : هل الذى يرتكب معصية يكسب زيادة عن الأصل ؟

نعم ؛ لأن الله سبحانه حرّم عليه أمراً ، وحلله هو لنفسه ، فهو يأخذ

(١) الخلد : الدوام ، والمراد أنه عذاب دائم . [اللسان : مادة (خ ل د)] .

زيادة في التحليل ، وينقص من التحريم وهو يظن أنه قد كسب<sup>(١)</sup> بمفهومه الوهمي الذي زين له مراد النفس الأماره ، وهذا يعني أنه ينظر إلى واقع اللذة في ذاتها ، ولا ينظر إلى تبعات<sup>(٢)</sup> تلك اللذة ، وهو يظن أنه قد كسب ، رغم أنه خاسر في حقيقة الأمر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقَّ إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنشُرْ بِمُعْجِزَيْكَ ۖ ﴾<sup>(١)</sup>

وهم قد قالوا من قبل : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ .. ﴾<sup>(٢)</sup> [يونس]

وهم هنا قد عادوا للتساؤل . ﴿ وَيَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أى : يطلبون منك النبأ . والنبأ هو الخبر المتعلق بشيء عظيم ، وهم يطلبون الخبر منك يا رسول الله ويتساءلون : أهو حق ؟

وكلمة «حق» هنا لها معطيات كثيرة ؛ لأن ﴿هُوَ﴾ يمكن أن تعود على أصل الدين قرآناً ؛ ونبوة ، وتشريعاً ، وهى كلمة تحمل التصديق بأن القرآن حق ، والتشريع حق ، والنبوة لمحمد ﷺ حق ، والقيامة والبعث حق ، والكلام عن العذاب فى الدنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم حق .

(١) قال الله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴾ [البقرة] فالذى يحلل الحرام وأدخله على نفسه عليه أن يتحمل التبعات المترتبة على هذا ، فله بعمله الصالح اكتسب ، وعليه بعمله السيئ جزاء ما اكتسبه .

(٢) تبعه الشيء : نتيجته وعاقبته وما يترتب عليه من أثر . [المعجم الوسيط : مادة (ت ب ع) ] .

(٣) إى : نعم . حرف جواب .

(٤) أى : أنكم لن تعجزوا الله عن أن يعيدكم بعد موتكم وأن يحشركم وأن يعذبكم بما كنتم تكبرون .

إذن : فقولهم : ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ﴾ <sup>(٥٣)</sup> "أحقُّ هو" ﴿لها أكثر من مرجع ،  
كانهم سألوا : هل القرآن الذي جئت به حق ؟  
وهل النبوة التي تدَّعيها حق ؟

وهل الشرائع - التي تقول : إن الله أنزلها كمنهج يحكم حركة  
الإنسان - حق ؟

وهل القيامة والبعث حق ؟

وهل العذاب في الدنيا حق ؟

إنها كلمة شاملة يمكن أن تؤول إلى أكثر من معنى .

ويأتى الجواب من الله تعالى :

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ <sup>(٥٣)</sup>

[يونس]

وأنت حين يستفهم منك أحد قائلًا : هل زيد موجود؟ فأنت تقول : نعم  
موجود . ولا تقول له : والله إن زيدا موجود ؛ لأنك لن تؤكد الكلام لمن  
يسألك ؛ لأنه لا ينكر وجود زيد .

إذن : فأنت لن تؤكد إجابة ما إلا إذا كان هناك في السؤال شبهة إنكار .

إذن : فأنت تستدل من قول الحق سبحانه :

(١) النيا : الخير ، أو الخير ذو الشأن ، قال تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عن النيا العظيم <sup>(٥٣)</sup> ﴿النيا﴾ وهذا النيا  
هو البعث ، وأنبأ بالشئ ونبأ به : أخبر به ، وأنبأ يتعدى للمفعول به واحد ، مثل قوله تعالى :  
﴿أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ <sup>(٥٣)</sup> ﴿البقرة﴾ ، ويتعدى للمفعولين مثل : ﴿قَالَتْ مِنْ أَتْبَاكُ هَذَا﴾ <sup>(٥٣)</sup> ﴿  
[التحریم] ، وقد يتعدى بحرف الجر (عن) كقوله : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ <sup>(٥٣)</sup> ﴿[الخبر] أى :  
حدثهم ، واستبناه : طلب أن يثبت كقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَعِزُّونَكَ أَحقُّ هو قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ <sup>(٥٣)</sup> ﴿  
[يونس] .

﴿وَيَسْتَبِشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ...﴾ (٥٣) على أن سألهم بحمل معاني الإنكار والاستهزاء؛ ولذلك جاء الجواب بـ «إي»<sup>(١)</sup> وهو حرف جواب يعنى: «نعم» ، وتأتى «إي» دائماً مع القسم.

ولكل حرف من حروف الجواب مقام ، فهناك «بلى» وهى تأتى فى جواب سؤال منفى ، فى مثل قوله تعالى:

﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ...﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وفى قوله سبحانه هنا: ﴿إِى وَرَبِّى...﴾ (٥٣) [يونس]

تعنى: نعم وأقسم بربى إنه الحق. وأنت لا تقسم على شىء إلا إذا كان السائل عنده شبهة إنكار ، وتأتى بـ «إن» لمزيد من هذا التأكيد.

ومثال ذلك فى قوله سبحانه:

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ<sup>(١)</sup> إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا<sup>(٢)</sup> بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾ [يس]

وماذا كان رد من بُعث إليهم الثلاثة؟

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

هكذا كان إنكار المكذبين للمرسل الثلاثة شديداً. فقال لهم الرسل:

(١) إي: حرف جواب ، مثل نعم . ويقع بعد القسم كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبِشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾ (٥٣) [يونس].

(٢) قِيلَ: هِىَ أَنْطَاكِيَّةٌ بَيْنَ سُورِيَا وَتُرْكِيَا وَفِيهَا تَكُونُ قَرْيَةٌ أُخْرَى . وَكَانَ مَلِكُهَا يَعْجِدُ الْأَصْنَامَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ ثَلَاثَةً مِنَ الرُّسُلِ فَكَذَّبَهُمْ . مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٥٦٨/٣) بِتَصْرِفٍ .

(٣) عَزَّزْنَا: أَثْبَتْنَا وَقَوَّيْنَا.

[يس]

﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

فكان قولهم هذا مناسباً لإنكار الكافرين الشديد.

إذن : فالتأكيد في أسلوب المستول إنما يأتي على مقدار الإنكار ؛ فإن لم يكن هناك إنكار ؛ فلا يحتاج الأمر إلى تأكيد .

أما إذا صادف الكلام إنكاراً قليلاً ، فالتأكيد يأتي مرة واحدة .

وإن صادف الكلام لاجحة في الإنكار جاء التأكيد مرتين .

أما إذا ما صادف الكلام تبعجاً في الإنكار فالتأكيد يأتي ثلاث مرات .

وقد علّم الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا أن يرد على استيائهم بأن يقول لهم : ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ﴾ (٥٣) .

وهنا يقسم الرسول ﷺ بالرب ؛ لأن الرب هو من كلّفه ، ثم يؤكد ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لأن سؤالهم تضمن الإنكار والاستهزاء .

وما دام قد قال : ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ فهم إن لم يؤمنوا فسوف يلقون العذاب ؛ لأنه ليس هناك منجى من الله تعالى ، ولن تعجزوا الله هرباً ، ولن تعجزوه شفاعاً من أحد ، ولن تعجزوه بيعاً ، ولن تعجزوه خلة تتقدم لتشفع لكم .

ثم يأتي قوله سبحانه في نهاية الآية :

[يونس]

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقد أراد الحق سبحانه أن يفسر لمحة من الإعجاز ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى من الممكن أن يقبل شفاعة الشافعين ، ومن الممكن أن يقبل

الفداء<sup>(١)</sup> ؛ ولذلك جاء الإيضاح في الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ .  
وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ  
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٥٤)

وساعة يأتي العذاب فالإنسان يرغب في الفرار منه ، ولو بالافتداء .

وانظر كيف يحاول الإنسان أن يتخلص من كل ما يملك افتداء لنفسه ،  
حتى ولو كان يملك كل ما في السموات وما في الأرض<sup>(٢)</sup> .

ولكن هل يتأتى لأحد - غير الله سبحانه - أن يملك السموات  
والأرض ؟

طبعاً لا .

إذن : فالشر لا يتأتى . وهب أنه تأتى ، فلن يصلح الافتداء بملك ما في  
السموات وما في الأرض ؛ لأن الإنسان المظالم في الدنيا قد أخذ حق  
الغير ، وهذا الغير قد كسب بطريق مشروع ما أخذه المظالم منه ، والمظالم  
إنما يأخذ ثمرة عمل غيره ، ولو صح ذلك لتحول البعض إلى مغتصبين  
لحقوق الغير ، ولأخذوا عرق وكدح غيرهم ، ولتعطلت حركة الحياة .

(١) الفداء : ما يقدم من مال ونحوه لتخليص القدي . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ بَيَّأْتُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴾ (٥٧) ﴿ [الصافات] .  
[المعجم الوسيط : مادة (ف د ي)] .

(٢) ندم علي ما فعل يندم ندماً ولدامة ، من باب فرح : أسف ونحسر ومعنى أنه لم يقعه ، قال تعالى :  
﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ (٥٤) ﴿ [يونس] ونادم باسم فاعل قال الحق : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (٥٥) ﴿ [المائدة] .

(٣) يقول سبحانه : ﴿ يَوْمَ الْمَجْرَمِ تُوَفَّقُ عِيْنُ الْمُجْرِمِ مِنْ عَذَابِ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ (٥٦) ﴿ وصاحبته وأخيه (٥٧) ﴿ وقصبيته التي تلوذ به  
(٥٨) ﴿ ومن في الأرض جميعاً لم ينج به (٥٩) ﴿ [المعارج] .



﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٢٢) [البقرة]

وقال بعض المشككين أن الآيتين متشابهتان ، ولم يلتفتوا إلى أن كل آية تختلف عن الأخرى في التقديم للعدل ، والتأخير للشفاعة .

والبلاغة الحقة تتجلى في الآيتين ؛ لأن القارئ لصدر كل آية منهما ، والفاهم للملكة اللغوية العربية يعرف أن عجز كل آية يناسب صدرها .

ومن يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (٤٨) [البقرة]

يرى أنه أمام نفسيين : النفس<sup>(١)</sup> الأولى هي التي تقدم الشفاعة ، والنفس الثانية هي المشفوع لها . والشفاعة هنا لا تُقيل من النفس الأولى الشافعة ، وكذلك لا يُقبل العدل .

وفي الآية الثانية لا تُقبل الشفاعة ولا العدل من النفس المشفوع لها ، فهي تحاول أن تقدم العدل أولاً ، ثم حين لا ينفعها تأتى بالشفيع .

وهكذا جاء التقديم والتأخير في الآيتين مناسباً للموقف في كل منهما .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ (٥٤) [يونس]

وفي هذا القول تعذر ملك النفس الواحدة لكل ما في الأرض ، ولو افترضنا أن هذه النفس ملكته فلن تستطيع الافتداء به ؛ وتكون النتيجة هي ما يقوله الحق سبحانه :

(١) فالآية الأولى تتحدث عن عدم قبول من النفس الشافعة ، والآية الثانية تتحدث عن عدم قبول العدل أولاً والشفاعة ثانياً من النفس المشفوع لها ، هذا ما يفهم من مراديات الشيخ رضى الله عنه .



﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ...﴾ (٥٩) [يونس]

أى: أخفوا الحسرة التى تأتى إلى النفس ، وليس لها ظاهر من انزعاج لفظى أو حركى .

إن كلاً منهم يكتم همّه فى قلبه ؛ لأنه ساعة يرى العذاب ينهر ويصعق ويُبْهَت " من هول العذاب ، فتجمد دماؤه ، ولا يستطيع حتى أن يصرخ ، وهو بذلك إنما يكبت ألمه فى نفسه ؛ لأن هول الموقف يجمد كل دم فى عروقهم ، ويخرس ألسنتهم ، ولا يستطيع أن ينطق ؛ لأنه يعجز عن التعبير الحركى من الصراخ أو الألم .

ونحن نعلم أن التعبير الحركى لون من التنفيس البدنى ، ونحن لا نستطيعه الإنسان ، فهو يتألم أكثر .

هم - إذن - يُسْرُونَ الندامة حين يرون العذاب المفزع المفجع ، والكلام هنا عن الظالمين ، وهم على الرغم من ظلمهم ، فالحق سبحانه يقول : ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ (٥٩) وهم لا يظلمون (٥٩) [يونس]

وهؤلاء رغم كفرهم واستحقاقهم للعذاب يلقون العدل من الله ، فهُبْ أن كافراً بالله بمنأى عن الدين ظلم كافراً آخر ، أيقف الله سبحانه من هذه المسألة موقفاً محايداً ؟

لا ؛ لأن حق خلق الله سبحانه - الكافر المظلوم - يقتضى أن يقتص الله سبحانه له من أخيه الكافر الظالم ؛ لأن الظالم الكافر ، إنما ظلم مخلوقاً لله ، حتى وإن كان هذا المظلوم كافراً .

ولذلك يقتضى الله بينهم بالحق ، أى : يخفف عن المظلوم بعضاً من

(١) يبهت : أى : يتملكه هول ما يحدث ، فيقطع عن الكلام أو غيره .

(٢) القسط : المراد به هنا العدل .

العذاب بقدر ما يتقلبه على الظالم .

هذا هو معنى ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها تتطلب قضاء ، أى : عدم تحيز ،  
وتتطلب الفصل بين خصومتين .

ويترتب على هذا القضاء حكم ؛ لذلك يبين لنا الحق سبحانه أنهم -  
وإن كانوا كافرين به - إلا أنه إن وقع من أحدهم ظلم على الآخر ، فالحق  
رب الجميع وخالق الجميع ، كما أعطاهم بقانون الربوبية كل خير مثلما  
أعطى المؤمنين ، فهو سبحانه الذى أعطى الشمس ، والماء ، والهواء ،  
وكل وسائل الرزق والنقوت لكل الناس - مؤمنهم ، وكافرهم - فإذا ما  
حدث ظلم بين متدينين بدين واحد ، أو غير متدينين ، فلا بد أن يقضى  
فيه الحق سبحانه بالفصل والحكم بالعدل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ  
حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>

و«ألا» فى اللغة يقال عنها «أداة تنبيه» وهى تنبه السامع أن المتكلم سيقول  
بعدها كلاماً فى غاية الأهمية ، والمتكلم - كما نعلم - يملك زمام لسانه ،  
بحكم وضعه كمتكلم ، لكن السامع يكون فى وضع المفاجأة .

وقد يتكلم متكلم بما دار فى ذهنه ليبرزه على لسانه للمخاطب ، ولكن  
المخاطب يفاجأ ، وإلى أن ينتبه قد تفوته كلمة أو اثنتان مما يقوله المتكلم .

(١) وعده شيئاً بعدة وعيداً وعدة : أخيره أنه سيحققه له أو سيعطيه إياه ، يتعدى لمفعولين ، وقد حذف أحد  
المفعولين للعلم به . قال الحق : ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْعَبْدَ .. (١٠٤)﴾ [النساء] كلا : مقول به أول مقدم ،  
واخسنى مفعول به ثان . أى : أخيرهم الله أنه سيعطيهم أحسن الدرجات ، والوعد يأتى لتخير كثيراً ،  
وللشر أحياناً كما فى قوله : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ .. (١٠٥)﴾ [البقرة] أى : يتذكركم ويخونكم بالشر ،  
والفعل متعدي لمفعولين «كم» مفعول أول ، والفقر مفعول ثان ، [القاموس القويم - تصريف] .

والله سبحانه وتعالى يريد ألا يفوت السامع لقوله أى كلمة ، فأتى بأداة تنبيه تنبهه إلى الخبر القادم بعدها ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

هكذا شاء الحق سبحانه أن تأتى أداة التنبيه سابقة للقضية الكلية ، وهى أنه سبحانه مالك كل شىء ، فهو الذى خلق الكون ، وخلق الإنسان الخليفة ، وسخر الكون للإنسان الخليفة ، وأمر الأسباب أن تخضع لمسيبات عمل العامل ؛ فكل من يجتهد ويأتى بالأسباب ؛ فهى تعطيه ، سواء أكان مؤمناً أو كافراً .

وإذا خدمت الأسباب الإنسان ، وكان هذا الإنسان غافلاً عن ربه أو عن الإيمان به ، ويظن أن الأسباب قد دانت له بقوته ، ويفتن بذلك الأسباب ، ويقول مثلما قال قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ<sup>(١)</sup> عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص]

فالذى نسى مسبب الأسباب ، وارتبط بالأسباب مباشرة ، فهو ينال العذاب ، إن لم يكن فى الدنيا وفى الآخرة ؛ فكان الحق سبحانه ينههم : تنبهوا أيها الجاهلون ، وافهموا هذه القضية الكبرى : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٥)﴾ [يونس]

فإياك أيها الإنسان أن تغتر بالأسباب ، أو أنك بأسيابك أخذت غير ما يريد الله لك ، فهو سبحانه الذى أعطاك وقدر لك ، وكل الأسباب

(١) وقد قال سبحانه : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَتَاهُ مِنَ الْكُوفَرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُورُ بِالْفَتْنَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٨)﴾ [القصص] . وقارون هو ابن عم موسى عليه السلام ، أعطاه الله من الأموال المودعة فى الخزائن حتى أن مفاتيحها لا تستطيع الجماعة من الناس حملها لكثرتها وثقلها ، فأهلكه الله ببغيه وفرجه بحاله وتعظمه على الناس ، وقوله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي .. (٧٨)﴾ [القصص] فكان جزاؤه : ﴿فَنَحْنُ قَدْ أَخَذْنَا مِنَ الْأَرْضِ قَسْماً كَانَ لَهُ مِنْ فَتْنَةٍ بَصُورَةٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُفْضَرِينَ (٨١)﴾ [القصص] .

تتفاعل لك بعباء وتقدير من الله عز وجل .

وفى أغيار الكون الدليل على ذلك ، ففكرك الذى تخطط به قد تصيبه آفة الجنون ، والجوارح مثل اليد أو القدم أو اللسان أو العين أو الأذن قد تُصاب أى منها بمرض ؛ فلا تعرف كيف تتصرف .

وكل ما تأتى فيه الاغيار ؛ فهو ليس من ذاتك ، وكل ما تملكه موهوب لك من مسبب الأسباب .

فإياك أن تنظر إلى الأسباب ، وتنسى المسبب ؛ لأن لله ملك الأشياء التى تحوزها والأدوات التى تحوز بها ؛ بدليل أنه سبحانه حين يشاء يسلبها منك ، فتنبه أيها الغافل ، وإياك أن تظن أن الأسباب هى الفاعلة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يخلق الأسباب ؛ ثم يشاء ألا تأتى بنتائجها ، كمن يضع بذور القطن - مثلاً - ويحرق الأرض ، ويروىها فى مواعيدها ، ثم تأتى دودة القطن لتأكل المحصول .

إذن : فمرد كل مملوك إلى الله تعالى .

واعلم أن هناك ملكاً ، وأن هناك ملكاً ، والملك<sup>(١)</sup> هو ما غلكه ؛

(١) الملك : فى الأعيان والمحمولات حقيقة ، وفى المعانى مجاز ، فمن الملك الحقيقى قال تعالى : ﴿ إِنِّى رَجَدْتُ أَسْرَةً تَمْلِكُهُمْ ۖ ۝ (١٠٢) ﴾ [النمل] ، ومن المجاز قوله : ﴿ أَعَزَّ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ۖ ۝ (١١٠) ﴾ [يونس] .

وما لك اسم فاعل ، وجمعه مملكون ، قال الحق : ﴿ لَهُمْ لَهَا مَا كُونُ ۖ ۝ (٩١) ﴾ [يس] ومملوك اسم مفعول كقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا ۖ ۝ (٧٢) ﴾ [النحل] والملك مصدر ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا ۖ ۝ (٨٧) ﴾ [طه] أى : بإرادتنا واختيارنا ، والملك مصدر بمعنى السلطان ، قال تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ۖ ۝ (١٢١) ﴾ [البقرة] أى : على عهد ملك سليمان . والملك : الحاكم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ الْهَرَسِ بِهِ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِى ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يوسف] هو فرعون ، وقرى : ملك يوم الدين ، ومالك يوم الدين . والمملك والمالك وأغليك من أسماء الله الحسنى ، والمملوك : المملك العظيم ، وهو لله خاصة ، قال الحق : ﴿ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ ۝ (٢٢) ﴾ [يس] والملك واحد المملاتكة ، والقاموس القويم - يتصرف - .

جلباباً ، أو بيتاً ، أو جماراً ، إلى غير ذلك ، أما المُلْكُ فهو أن تملك  
من له ملك ، وتسيطر عليه ، فالقمة - إذن - في المُلْك .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ  
تَشَاءُ ۚ ﴾ (٢٥)

[آل عمران]

إذن : فالمُلْكُ في الدنيا كله لله سبحانه .

وكلمة «ألا» جاءت في أول الآية - التي نحن بصدد خوضنا عنها -  
لتنبه الغافل عن الحق ؛ لأن الأسباب استجابت له وأعطته النتائج ، فاعتزَّ  
بها ، فيجعل الله سبحانه الأسباب تختلف في بعض الأشياء ؛ ليظل  
الإنسان مربوطاً بالسبب .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ ﴾ (٥٥)

[يونس]

والوعد إن كان في خير فهو إشارة بخير يقع ، وإن كان بشر فهو إنذار  
بشر يقع ؛ ويغلب عليه كلمة «الوعد» .

إذن : ففي غالب الأمر تأتي كلمة «وعد» للثنين : الخير والشر ،  
أما كلمة «وعيد» فلا تأتي إلا في الشر .

والوعد هو إخبار بشيء سيحدث من الذي يملك أن يحدث الشيء .

وإنفاذ الوعد له عناصر : أولها الفاعل ، وثانيها المفعول ، وثالثها  
الزمان ، ورابعها المكان ، ثم السبب .

والحدث يحتاج إلى قدرة ، فإن قلت : «أتيتك غداً في المكان الفلاني  
لا أكلمك في موضوع كذا» فماذا قيلك أنت من عناصر هذا الحدث ؛ إنك

لا تضمن حياتك إلى الغد ، ولا يملك سامعك حياته ، وكذلك المكان الذي تحدد فيه اللقاء قد يصيبه ما يدمر ، والموضوع الذي تريد أن تتحدث فيه ، قد يأتي لك خاطر ألا تتحدث فيه من قبل أن يتم اللقاء .

وهب أن كل العناصر اجتمعت ، فماذا تملك أنت أو غيرك من عناصر الوعد ؟ لا شيء أبداً .

ولذلك يعلم الله سبحانه خلقه الأدب في إعطاء الوعود ، التي لا يملكونها ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ <sup>(١)</sup> لِّشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا <sup>(٢)</sup> إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ . . . <sup>(٣)</sup> ﴾

[الكهف]

وحين تقدم المشيئة فإن حدث لك ما يمنع إنفاذ الوعد فلن تكون كذاباً .

وهكذا يعلمنا ربنا صيانة أخبارنا عن الكذب ، وجعلنا نتكلم في نطاق قدراتنا ، وقدراتنا لا يوجد فيها عنصر من عناصر الحدث ، لكن إذا قال الله سبحانه ، ووعد ، فلا راد لما وعده سبحانه ؛ لأنه متره عن أن يخلف الميعاد ؛ لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تنأى عليه <sup>(١)</sup> ، ووعدده حق وثابت .

أما أنت فتتحكم فيك الأغيار التي يجربها الحق سبحانه عليك .

(١) ذكر محمد بن إسحاق أنه كفار قريش بحثوا وفداً منهم إلى أخبار اليهود يسألونه عن صفة الرسول ﷺ فأتينهم : إنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فأوصى اليهود كفار قريش بسؤال محمد ﷺ عن ثلاثة أمور ، منها : « سلوه عن فتية في الدمر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب » فسألوه فقال رسول الله ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتكم عنه » ولم يستثن - أي : لم يقل : إن شاء الله - فملك رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يوحى إليه في ذلك شيء فنزلت هذه الآية . ذكره ابن كثير في تفسيره : (٢/٧١) .

(٢) الثابت : هو الامتناع وعدم الانصياع : والإياء : أشد الامتناع . [اللسان : مادة أي] .

وهَبْ أَنْكَ أَرَدْتَ أَنْ تَبْنِي بَيْتاً ، وَقُلْتَ لِلْمُهَنْدِسِ الْمَوَاصِفَاتِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَرِيدُهَا فِي هَذَا الْبَيْتِ ، لَكِنَّ الْمُهَنْدِسَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَشْتَرِي مِنَ الْأَسْوَاقِ بَعْضاً مِنَ الْمَوَادِّ الَّتِي حَدَدْتَهَا أَنْتَ ، فَأَنْتِ - إِذَنْ - قَدْ أَرَدْتَ مَا لَا يَمْلِكُ الْمُهَنْدِسُ تَصْرِفًا فِيهِ .

لكن الأمر يختلف بالنسبة للمخالف الأعلى سبحانه ؛ فهو الذي يملك كل شيء ، وهو حين يَعد بصير وعِده مُحِتمَّ النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك ؛ ولذلك قال الله سبحانه :

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (۵۵)

أى : أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة ، فقد سبق أن قالوا :

﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ﴾ (٤٨) ﴿يُرْسِ﴾

أو أن ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ تعنى : أن الإنسان يجب ألا يضع نفسه في موضع دون أن يقدم المشيئة ؛ لأنه لا يملك من عناصر أى وعد إلا ما يشاءه الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

هو يحيى ويحيى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

ونحن نعلم أن حركة الحياة ، والملِك والمَمْلُوك ، هي فروع من الأحياء ، وهو سبحانه خَيٌّ ؛ لأنه مالك الأَصْل ، وهو القادر على أن يميت ، وكل ما يُصَدَّر عن الحياة يسلبه <sup>(١)</sup> الله سبحانه بالموت ، فهو

(١) عليه الشيء وبسببه من باب نصر مصلباً : فرّعه منه قهراً أو اختلعه ، يقول الحق : ﴿ وَإِنْ يُلْقِهِمُ الذَّيْبُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج] أي : ينزع منهم شيئاً ، وهو فعل يتعدى لمفعولين «القاموس العزيز» .

مالك الأشياء ، والأسباب التي تُنتج الأشياء ، ولا يفوته شيء من وعد ولا وعيد ، ونحن نحيا بمشيئته سبحانه ، ونموت بمشيئته سبحانه ، فلن نفلت منه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَالْيَهُ تَرْجَعُونَ﴾ فمن لا يعتبر بأمر الأحياء ؛ عليه أن يرتدع بخوف الرجعة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧)

والخطاب هنا للناس جميعاً ؛ لأن الحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين بقوله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (١٠٤)

[البقرة]

فهذا خطاب لمن آمن بالمنهج .

والحق سبحانه وتعالى يخاطب الناس كافة بأصول العقائد ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾ (١)

[النساء]

أما المؤمنون فسبحانه يكلّفهم بخطابه إليهم ، من مثل قول الحق سبحانه :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ (١٨٣)

[البقرة]

ومثل قول الحق :





لأن الموعوظ قد يقول في نفسه : لقد رأيتني في محل دونك وتريد أن ترفعني ، وأنت أعلى مني ، فإذا قدر الواعظ هذا الطرف في الموعوظ فهو يستميل نفسه .

ولتذكر الحكمة التي تقول : «النصح ثقيل ، فلا تجعله جَدَلًا ، ولا ترسلوه جَبَلًا ، واستغيروا له خَفَّةَ البَيَان» ؛ وذلك لتستميل أذن السامع إليك فتأتي له بالأسلوب الجميل المقنع الممتع الذي يعجبه ، وتلمس في نفسه صميم ما ترغب أن يصل إليه .

والموعظة تختلف عن الوصية ؛ لأن الوصية عادة لا تتأتى إلا في خلاصة حكمة الأشياء ، وهب أن إنساناً مريضاً وله أولاد ، وحضرته الوفاة ، فيقوم بكتابة وصيته ، ويوصيهم بعيون<sup>(١)</sup> المسائل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ . . (٥٧) ﴾

[يونس]

والموعظة إما أن تسمعها أو ترفضها ، ولأنها موعظة قادمة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فلا بد من الالتفات والانتباه ، وملاحظة أن الحق سبحانه قد اختص الموعظة بأنها من الرب ، لا من الإله ؛ لأن الإله يريدك عابداً ، لكن الرب هو المربي والكفيل ، وإن كفرت به .

وهذه الموعظة قادمة من الرب ، أي : أنها من كمالات التربية ، ونحن نعلم أن متعلقات الربوبية تنوزع ما بين قسمين : القسم الأول هو مقومات الحياة التي يعطيها الحق سبحانه من قوت ورزق - وهذه المقومات للمؤمن ، وللكافر - والقسم الآخر هو مقومات القيم التي ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

(١) عيون المسائل : أي : أصولها ، والمهم منها ، وعين كل شيء ، : خياره ، [اللسان : مادة (عين)] .

إذن : فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذي خلق من عَدَمٍ وأَمَدَ من عَدَمٍ ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملت نعمته كل الخلق .

إذن : فالموعظة فحىء ممن يُعطي ولا ينتظر منك شيئاً ، فهو سبحانه مُنزَّه عن الغرض ؛ لأنه لن ينال شيئاً منك <sup>(١)</sup> فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظة القادمة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشدين ؛ لأن حركة العاقل الراشد تمر على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أما حركة المجنون فهي غير مرتبة ولا منسقة ، ولا تمر على عقله ؛ لأن عقله مختل الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يفسد العاقل الاختيار بين البدائل <sup>(٢)</sup> ؟

إن الذي يفسد حركة اختيار العاقل هو الهوى ، والهوى إنما ينشأ عما فى النفس والقلب ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ .. (٥٧) ﴾ [يونس]

(١) وقد أعطانا القرآن مثلاً لهذا عن الهدى الذى يذبحه الحجاج ، فيقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَنْالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَافُهَا وَلَكِنْ يَنْالُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُنِيرَ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾ [الحج] .

(٢) يدل الشئ غيره ، ويدل الكلام : غيره وحرفه ، قال تعالى : ﴿ قِيلَ الَّذِينَ ظَنَّمُوا قَوْلًا مِنْ رَبِّهِمْ فَأْتَتْهُمْ عَلَى الَّذِينَ ظَنَّمُوا وَجِزًا مِنَ النَّعْمِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥١) ﴾ [البقرة] أى : غيره بكلام آخر ، ويقول الحق : ﴿ لَا مِنْ ظَلَمٍ لَمْ يَدُلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ قَبْلِي غُفُورٌ وَرَحِيمٌ (٥٦) ﴾ [النمل] أى : عمل الخير والحسن بعد عمل السوء ، وأبدله الشئ من الشئ ، وأبدل الشئ بالشئ جعله بدلاً منه ، وتبدل الشئ بالشئ ومن الشئ جعله بدلاً منه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَجْعَلُ لَكَ الْبُغْيَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ يَبْدُلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَصْبَحَ بِكُ حَسَنًا (٥٦) ﴾ [الأعراب] .

أى : أنه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غلٍ يَؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسد ، ومكر ، ويُتقى باطن الإنسان ؛ لأن أى حركة من حركات الإنسان لها نبع وجدانى ، ولا بد أن يُشفى النبع الوجدانى ؛ ليصح ؛ حتى تخرج الحركات من الجوارح وهى تابعة من وجدان طاهر مُصفى وسليم ؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة<sup>(١)</sup> .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) [يونس]

وجاءت كلمة «الشفاء» أولاً ؛ لتبين أن الهداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أن تُخرج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم .

وإن سأل سائل عن الفارق بين الشفاء والرحمة ؟ نجيب : إن الشفاء هو إخراج لما يمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى ، وقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ وَتَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٢) [الاسراء]

وهكذا يتبين لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة ، إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجب أن يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو من لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عما خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

(١) عن الثعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ومسلم فى صحيحه (١٥٩٩) .

ومثال ذلك : طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بشوراً ؛ فهو يعالجها بما يظن أنها وبزيلها مؤقتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرب الفاهم فهو يعالج الأسباب التي تُنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعّال ؛ فيقضى على أسباب ظهورها .

وفي القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام ، فقد قال له الحق سبحانه :

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (٤٢) [ص]

أي : اضرب برجلك ذلك المكان يخرج لك منه ماء بارد ، تغتسل منه ؛ فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء .

إذن : فالموعظة وكأنها تجسّدت ، فجاءت من ربكم - المأمون عليكم - شفاءً حتى تعالج المواجه<sup>(١)</sup> التي تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلّل فيها ، وهدى إلى الطريق الموصّل إلى الغاية الحقّة ، ورحمة إن اتبعها الإنسان لا يُصاب بأيّ داء ، وهذه الموعظة تؤدي إلى العمل المقبول عند الله سبحانه .

ولكن إن صحّت لك الأربعة النابعة من الموعظة : الشفاء ، والهدى ،

(١) ابتلى الله سبحانه عبده نبيه أيوب - عليه السلام - بالمرض في جسده وفقد ماله وأولاده . واستمر هذا البلاء مدة ثمانى عشرة سنة عاشها صابراً على قضاء الله ، ولم يبق معه إلا زوجته التي اضطرت للعمل في خدمة الناس حتى توفر لنفسها ولزوجها الطعام ، ولما دعا أيوب ربه : ﴿ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الضَّرَّ وَرَأَيْتُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢١) [ الأنبياء ] استجاب الله له وأزال عنه الضر إذ قال له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص] لقد أمره الله أن يقوم ويركض الأرض برجله ففعل ، فأبغ الله في الأرض عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان في يده من الأذى ، ثم أمره أن يضرب الأرض في مكان آخر ففعل فأبغ الله له عيناً أخرى وأمره أن يشرب منها ؛ فأذهب جميع ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت له العافية ظاهراً وباطناً . [ ذكرها ابن كثير في تفسيره ٣٩/٤ ، ٤٠ : ٤١ ] وقال عنه سبحانه : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْمُقْبِلُ إِنَّهُ تَوَّابٌ ﴾ [ص] .

(٢) المواجه : المقصود بها أعمال القلب التي إن استقامت استقامت الجوارح .

والرحمة ، والعمل الصالح ، فيأياك أن تفرح بذلك ؛ ففوق كل ذلك فضل الله عليك ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ

مِمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨ ﴾

وأنت وكل المؤمنين مهما عملوا في تطبيق منهج الله ، فكلنا بعبادتنا لن نؤدي حقَّ النعم الموجودة عندنا قبل أن نُكَلَّف ، وعلينا أن نتدبر قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته <sup>(١)</sup> » .

إذن : فإن افتخر إنسان بطاعته لله ، فهذه الطاعة تعود على العبد في دنياه ، وهو لن يؤدي بطاعته حق كل النعم التي أسبغها الله عليه .

ومثال ذلك : إن العبد لا يُكَلَّف إلا عند البلوغ ، أى : فى سن الخامسة عشرة تقريباً ، فإن نظر إلى النعم التي أسبغها الله تعالى عليه حتى وصل إلى هذه السن ، فهو لن يحصيها <sup>(٢)</sup> ، فما بالنا بالنعم التي تغمرنا فى كل العمر ، وحين يجازينا الحق فى الآخرة ، فهو لا يجازينا بالعدل ، بل يعاملنا بالفضل .

إذن : إياك أن تقول : أنا تصدَّقتُ بكذا ، أو صليتُ كذا ؛ حتى لا تورثك استجابتك لمنهج الله غروراً بعملك التعبدي ، وتذكر القول

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله يتغمدني : يلبسني ويتغشاني ويسترنى . [لسان العرب : مادة غ م د] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) . ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة ..

(٣) وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . ﴾ [النحل] وقد أفرد سبحانه النعمة هنا ؛ لأن كل نعمة من نعم الله عليك وإن اعتبرناها واحدة فى نظرك فهي مشتملة على نعم لا تحصى ولا تُعدُّ ، فما بالك بالنعم مجتمعة .

المأثور : « رَبِّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثْتُ ذُلًّا وَانْكَسَارًا ، خَيْرٌ مِنْ طَاعَةِ أَوْرَثْتُ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا » .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آدَبَ لَكُمْ أَنْتُمْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ﴾

إن تمتع الإنسان في الحياة بالملك والمالك ، فكل ذلك يحتاج إلى استبقاء الحياة بالرزق الذي يهبنا الحق سبحانه إيّاه ، وكذلك استبقاء النوع بالتزاوج بين الذكر والأنثى .

ولكن الرزق الذي يستبقى الحياة لا بُدَّ أن يكون خللاً ؛ لذلك حدّد لنا الحق سبحانه وتعالى المحرّمات فلا تقربها ، وأنت عليك بالالتزام بما حدّده الله ، فلا تدخل أنت على ما حلّل الله لتحريمه<sup>(١)</sup> ؛ لأن الحق سبحانه حدّد لك من الطعام ما يستبقى حياتك ويعطيك وقوداً لحركة الحياة ، فعامل نفسك كما تعامل الآلة التي تصنعها ، فأنت تعطى كل آلة الوقود المناسب لها لتؤدي مهمتها ، كذلك جعل الله سبحانه لك المواصفات التي تنفعك وتستفيد منها وتؤدي حركات الحياة بالطاقة التي يملك بها ما حلّله الله لك .

وكذلك حرّم الله عليك ما يضرُّك .

وإياك أن تقول : ما دامت هذه الأشياء تضرّني فلماذا خلقها الله ؛ لأن عليك أن تعرف أن هناك فارقاً بين رزق مباشر ، ورزق غير مباشر ، وكل

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَازِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ ﴾ [النحل : ١٥٥] .

ما في الكون هو رزق ، ولكنه ينقسم إلى رزق مباشر تستفيد منه فوراً ،  
وهناك رزق غير مباشر .

ومثال ذلك : النار ، فأنت لا تأكل النار ، لكنها تُنضح لك الطعام .

إذن : فهناك شيء مخلوق لمهمة تساعد في إنتاج ما يفيدك .

والحق سبحانه قد حلل لك - على سبيل المثال - لحم الضأن والماعز ،  
والإبل والبقر وغيرها ، وحرّم عليك لحم الخنزير<sup>(١)</sup> ، فلا تسأل : لماذا خلق  
الله الخنزير ؟ لأنه خلقه لمهمة أخرى ، فهو يلملم قاذورات الوجود  
ويأكلها ، فهذا رزق غير مباشر ، فاتركه للمهمة التي أرادها الله لها .

وبعض الناس قد حرّم على نفسه أشياء حلّها الله تعالى<sup>(٢)</sup> ، وهم بذلك  
يُضيقون على أنفسهم ، ويظن البعض أنه حين يحلل ما حرّم الله أنه يوسع  
على نفسه ، فيأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يقول :

﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ .. (٥٩) ﴾ [يونس]

أى : أخبروني ما أنزل الله لكم من رزق ، وهو كل ما تنتفعون به ، إما  
مباشرة<sup>(٣)</sup> ، وإما بالوسائط ، فكيف تتدخلون بالحسب والتحرّيم ، رغم  
أن الذي أنزل الرزق قد بيّن لكم الحلال والحرام ؟

وكلمة ﴿ أَنْزَلَ ﴾ تفيد أن الرزق كله قادم من أعلى<sup>(٤)</sup> ، وكل ما ترونها

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا حَبَآئِثَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
الْمُعْتَدِينَ (١٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٢٥) ﴾ [المائدة] .

(٢) يقول الحق سبحانه عن يعقوب عليه السلام : ﴿ كُلِ الطَّعَامَ كَانَ حَلَالًا لِي فِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى  
نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِاتَّوْرَاتِهِ فَأَتَوْهَا أَنْ كُتِبَ صَادِقِينَ (١٢) ﴾ [آل عمران] .

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ رَفَعْنَا فِيكَ دَرَجَاتٍ وَمَا تَرْجُو مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَحْكُمَ الْأَمْرَ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِمَا نُهُتُمْ عَنْهُ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحِيمُ (١١٠) ﴾ [الذاريات] فتزول المطر من السماء هو رزق  
يتزله الله سبحانه ، فتجيبا به الأرض المينة فتنبث الزرع فيأكل منه كل كائن حي على الأرض من إنسان  
أو حيوان ، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ..  
(٢٣) ﴾ [يونس] .



حولكم هو رزق ، تستفعون به مباشرة ، أو بشكل غير مباشر ، فالمال الذي تشتري به أغلب الأرزاق لا يأكله الإنسان ، بل يشتري به ما يأكله .

وكلمة ﴿ أنزل ﴾ تعني : أوجد ، وخلق من أعلى ، وما دام كل شيء قد وُجد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كل الوجود ، فكل شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة ﴿ أنزل ﴾ من جهة العلو الحسية ، بل خُدها من جهة العلو المعنوية ، فالمطر - مثلاً - ينزل من أعلى حسيّاً ، ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّرٌ مَنْ تَخَلَّى ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ [٢٥٠] [الحديد]

نعم ، فقد أنزل الحق سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام ليصلح حياة الناس ، وأنزل الحديد أيضاً ، هذا الذي نستخرجه من الجبال ومن الأرض .

إذن : فالمراد هنا بالإنزال ، أي : الإيجاد من أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

وما دام الحق سبحانه هو الذي أنزل الرزق ، وبين الحلال والحرام ، فلماذا تُدخلون أنوفكم في الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ،

(١) البَيِّنَات : الآيات الواضحة ، والقسط هنا : العدل ، والبأس : القوة ، [لسان العرب] .

وبعض الحرام أو كُلُّ الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تشركون الجعل لمن خَلَقَ وهو سبحانه أدرى بمصلحتكم ؟

﴿ قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ ۖ ﴾ (٥٩) [يونس]

أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْلِ الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٩) ﴿ أى : على الله تتعمدون الكذب .

وقد جاء الحق سبحانه بالحلال والحرام ليبين لنا مدى قُبُحِ السلوك فى تحريم ما أحلَّ الله ، وتحليل ما حرَّم الله .

ويشير الحق سبحانه - فى إجمال هذه الآية - إلى آيات أخرى فَصَّلَتْ الحرام ، وسبق أن تناولناها بخواطرنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٠) [المائدة]

والبحيرة - كما ذكرنا - هى الناقة التى ألحقت خمس بطن آخرها ذكر ، وكانوا يشقون أذننها ، ويعلمون أنها قامت بواجبها ويتركونها سائمة<sup>(١)</sup> غير مملوكة ، لا يركبها أحد ، ولا يحمل عليها أحد أى حمل ، ولا يحلبها أحد ، ولا يجر صوفها أحد ، ثم يذبحها خدام الآلهة التى كانوا يعبدونها ، وسموها «بحيرة»<sup>(٢)</sup> ؛ لأنهم كانوا يشقون أذانها علامة على أنها أدت مهمتها .

(١) السائمة : الثمن والماشية تزعى حيث شاءت . والسائم : الذئب على وجهه حيث يشاء . [اللسان مادة سزم] .

(٢) وسبب التسمية بالبحيرة هو أن شق أذننها يكون شقاً واسعاً فأشبهه البحر فى سعة . (بصرف من أحكام القرآن للجصاص ٢/٦٠٨) ؛ وفى تحديد المفضوء بالبحيرة - هل هى الناقة التى ولدت خمسة أبطن أم بنتها اثنتى ولدت فى آخر بطن ؟ - اختلاف . انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٢/٦٠٧ ، ٦٠٨) وكذا أحكام القرآن للجصاص ، ولذلك قيل فى بعض الأقوال أن السائمة هى أم البحيرة .

أما السائبة فهي غير المربوطة ؛ لأن الربط يفيد الملكية ، وكان الواحد منهم إذا شفى من مرض أو أراد شيئاً<sup>(١)</sup> وهب أن يجعل ناقةً لخدماء الأصنام ، واسمها سائبة ، وهي أيضاً لا تُركب ، ولا تُحلب ، ولا يُحمل عليها ، ولا أحد يتعرض لها .

والوصيلة : هي الأنثى تلدها الناقة في بطن واحدة مع ذكر ، فيقولون : «وصلت أخاها» ؛ فلا يذبحونه للأصنام من أجل اخته .

﴿ولا حام﴾ والحام : هو الفحل الذي يحمى ظهر نفسه بإحجاب عشرة أبطن ، فلا يركبه أحد بعد ذلك ، ولا يُحمل عليه ، ويترك لخدماء الأصنام .

هذه هي الأنعام المَحَلَّة التي حُرِّمَها على أنفسهم ، بينما يأكلها خدام الأصنام ، وفي ذكر عدم تحريم تلك الأنعام رافة بهم .  
وهناك أيضاً قول الحق سبحانه :

﴿ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكورين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبشركم بما كنتم صَادِقِينَ (١١٤) ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكورين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١١٤)﴾

[الأنعام]

إذن : فقد حُرِّموا بعضاً مما أحلَّ الله لهم ، وقالوا ما أوردته القرآن :

(١) كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر بعيد ، أو برى من غلة ، أو نجته دابة من مشقة أو حرب قال : ناقتي سائبة أي : تسبب فلا يتفجع بظهرها ، ولا تُحلب من ماء ، ولا تمنع من كلاً ، ولا تُركب . [ذكره ابن منظور في اللسان مادة (سبب)] .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ <sup>(١)</sup> مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ <sup>(٢)</sup> وَهَذَا لَشُرْكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ <sup>(٣)</sup> ﴾ [الأنعام]

وأجمل الحق سبحانه كل ذلك في قوله الحق :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلِ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ <sup>(٤)</sup> ﴾ [يونس]

وهكذا تدخّلوا في تحريم بعض الحلال وحلّلوا بعضاً من الحرام ، وفي هذا تعدّ ما كان يجب أن يقتضيه <sup>(٥)</sup> ؛ لأن الحق سبحانه هو خالقهم ، وهو خالق أرزاقهم ، وفي هذا كذب متعمّد على الله سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ <sup>(٦)</sup> ﴾

وهذه الآية توضح أن كل أمر بحساب ، فالذين يفترون على الله الكذب سيجدون حسابهم يوم القيامة عسيراً ، فالحق سبحانه منزّه عن الغفلة ، ولو ظنوا أنه لا توجد آخرة ولن يوجد حساب ؛ فهم يخطئون الظن .

(١) ذرأ : خلق . والحراث : هو الزرع والثمار .

(٢) برعهم : أى : يقولهم الكذب ، [استأن العرب] .

(٣) وقد أجمل الحق سبحانه التحريمات من الأطعمة في قوله : ﴿ قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُنْعَماً عَلَى طَائِعٍ يُطِيعُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهْلَ بِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلْيَأْكُلْ مِنْهُ غَيْرَ رِجْسٍ <sup>(١)</sup> ﴾ [الأنعام] .

ولو استحضروا ما أعدّه الله لهم من العذاب والشكال <sup>(١)</sup> يوم القيامة لما فعلوا ذلك ، ولكنهم كالظّان بأن الله - سبحانه وتعالى - غافل عن أفعالهم ، وكأنّها أفعال لا حساب عليها ، ولا كتابة لها ، ولا رقيب يحسبها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦٠) [يونس]

إن الله سبحانه متفضل على كل خلقه - وأنتم <sup>(٢)</sup> منهم - بأشياء كثيرة ، فلم تحرمون أنفسكم من هذا الفضل ؟! ولو شكرتم الله تعالى على هذا التفضل لزد من عطائكم ، لكنكم تنسون الشكر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾



(١) الشكال : إيقاع العقوبة والعذاب على وجه يجعل من يفعل هذا الفعل عبرة للغير . وهذا نحو قول تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٤) ﴿ [المائدة] .

(٢) المقصود بهم أهل مكة ، يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا لَنَا حِمْلًا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّبُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ فَلْيَبْتَاطِلْ يُرْمَوْنَ فِيهِمْ وَبِحِمَّةِ اللَّهِ يُكَفَّرُونَ ﴾ (١٧) ﴿ [العنكبوت] ، وقال أيضاً : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَكُنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْنَى إِلَيْهِ ثِمَرَاتُهُ كُلُّ شَيْءٍ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٥) ﴿ [القصص] .

(٣) يفيضون فيه : أي : تدفعون فيه وتبسطون في ذكره . ما يعزب : لا يبعد ، ولا يغيب عن علمه سبحانه . [لسان العرب] .

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ، أى : ما تكون يا محمد فى شأن .  
والشأن : هو الحال العظيم المتميز الذى يطرأ على الأمر .

ونحن فى حياتنا اليومية نقول : ما شأنك اليوم أو ما حالك؟ وهنا يجيب  
السامع بالشىء الهام الذى حدث له أو فعله ، ويتناسى الشافه من الأمور .  
ولذلك يصف الله تعالى نفسه فيقول :

﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٦٩)

[الرحمن]

أى : لا تظنوا أن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق النواميس والقوانين ،  
وقال لها : اعملى أنت ، لا فهو سبحانه كل يوم فى شأن .

ولذلك حين سئل أحد العلماء<sup>(١)</sup> : ما شأن ربك الآن ، وقد صحَّ أن  
القلم قد جفَّ ؟ فقال : «أمور يديها ولا يتديها» .

أى : أنه سبحانه قد رسم كل شىء ، وجعل له زماناً ليظهر ، فهو  
سبحانه قيوم ، أى : مُبَالِغٌ فى القيام على مصالحكم ؛ ولذلك بطمئنتنا  
سبحانه - وقد جعل الليل لنومنا وراحتنا - بأنه سبحانه قيوم لا تأخذه سنة  
ولا نوم ، وهو يراعينا .

فالحديث فى الآية التى نحن بصددتها موجه لرسول الله ﷺ :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ (٦١)

[يونس]

وشأن رسول الله ﷺ الذى يهتم به ليس المأكَل ولا المشرب ، إنما المهم  
بالنسبة له هو بلاغ الرسالة بالمتهج بـ «افعل و» «لا تفعل» .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ (٦١)

[يونس]

(١) هو : الحسين بن الفضل ، وذلك أن عبد الله بن طاهر دعاه ليُفسر له ثلاث آيات أشككت عليه ، منها هذه  
الآية ، فقال : إنها شئون يديها لا شئون يتديها . ذكره القرطبي فى تفسيره (٩/٦٥٦٧) .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٥٦. ١٣

و«منه» هنا بمعنى اللام ، أى : ما تتلو له <sup>(١)</sup> ، وتعنى تأييداً لآيات القرآن .

وهناك فى موضع آخر من القرآن يقول الحق سبحانه :

﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ <sup>(٢)</sup> أَغْرَقُوا .. (٢٥)﴾ [نوح]

أى : أغرقوا لأجل خطيئاتهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرها عنها نفهم ما تكون فى شأن وما تتلو لأجل هذا الشأن من قرآن ، فالنبي ﷺ فى شأن هام هو الرسالة ، ويتلو من القرآن تأييداً لهذا الشأن وهو البلاغ بالمنهج .

وَيَدْخُلُ فى هذا الشأن ما قُوِّضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فيه حسب قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا آتَاكُمْ <sup>(٣)</sup> الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

ومثال ذلك : تحديد كيفية الصلاة وعدد ركعات كل صلاة ، وكذلك نصاب <sup>(٤)</sup> الزكاة ، وهذه أمور لم يأت بها القرآن تفصيلاً ، ولكن جاءت بها الأحاديث النبوية .

إذن : فهناك تفويض من الحق للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله ، بنصوص القرآن ، وبتفويض الله تعالى له أن يشرع .

(١) ما تتلو له : أى : لهذا الشأن . وهذا يتوافق مع ما ذكره الفراء والزجاج أن الهماء فى «منه» تعود على الشأن ، أى : تحدث شيئاً ، فيتلو من أجله القرآن ، فيعلم كيف حكمه . ذكره القرطبي فى تفسيره (٣٢٨٢/٤) .

(٢) هم قوم نوح عليه السلام .

(٣) آتاكم : أمركم .

(٤) نصاب الزكاة : هو المقدار الذى إذا بلغه مال المسلم أو ماشيته أو تجارته وجبت فيه الزكاة ، بالمقادير التى تحددها السنة .

إذن: فكل شأن رسول الله ﷺ إما بلاغ عن الله بالنص القرآني ، وإما تطبيق فعلي للنص القرآني بالحديث النبوي ، وبالأسوة التي تركها لنا ﷺ في سنته .

والحُجَّةُ على الحكم - أي حكم - يأتي بها القرآن ، فإن كانت الأحكام غير صادرة من الله مباشرة ، فيكفي فيها أنها صدرت عن رسول الله ﷺ بتفويض من الله تعالى ليشرع .

وبذلك نردُّ على المنافقين الذين إذا حدثوا بشيء من حديث رسول الله ﷺ قالوا: «بيننا وبينكم كتاب الله» <sup>(١)</sup> ، وهدفهم أن يردُّوا حديث رسول الله ﷺ - فعلاً ، أو قولاً ، أو إقراراً .

ثم ينقل الحق سبحانه الخطاب من المفرد إلى الجماعة فيقول جلَّ شأنه :

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ..﴾ (٦٦) [يونس]

وفي هذا انتقال للسامعين للقرآن ، الميَّع إليهم هذا المنهج ، فكل عمل إنما يشهده الحق سبحانه .

والعمل هو مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان ، فكل حدث يصدر من الإنسان - وتوَّيئة القلب - يسمَّى عملاً ؛ لأن عمل القلوب هو النية . ولكن إذا صدر الحدث من اللسان كان قولاً ، وإذا صدر الحدث من بقية الجوارح كان فعلاً .

وهكذا ينقسم العمل إلى قسمين: قول ، وفعل .

(١) عن المقدم بن سعد يكره أن يروي عن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الرجل يتكلم على أريكته يحدث بحديثي فيقول: بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه خلافاً استحللناه ، وما كان فيه حراماً حرَّمناه ، وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » . أخرجه أحمد في مسنده (١٢٢/٤) والترمذي (٢٦٦٤) وابن ماجه (١٢) والدارقطني (٢٨٦/٤) في سننهم ، واللفظ للدارقطني .



وقد اختصَّ حديث اللسان باسم القول ؛ لأن أصل مستندات التكليف كلها قولية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي : تسرعون إلى العمل بنشاط وحيوية وإقبال مما يدل على حسن الاستجابة للمنهج فور أن يبلغه الرسول ﷺ .

والإقبال على العمل التكليفي بهذا الشوق ، وتلك الלהفة ، وحسن الاستقبال ، وإخلاص الأداء ، كل هذه المعاني يؤول إليها قول الحق سبحانه : ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ كما يفيض ماء الإناء إذا امتلأ لينزل . أي : أن تقبلوا على أعمال التكليف بسرعة وانصباب وانسكاب .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿فَإِذَا أَقْتَمْتُمْ<sup>(١)</sup> مِنْ عُرْفَاتٍ﴾ [البقرة] أي : شرعتم<sup>(٢)</sup> في الذهاب مسرعين ؛ لأنكم أدبتم تسكاً أخذتم منه طاقة ، وتقبلون بها على تسك ثان .

إذن : فالحق سبحانه يشهد كل عمل منكم ، لكن ماذا عن النيات وما بُيئت فيها من خواطر ؟

ها هو الحق سبحانه يخبرنا أن كل شيء مهما صغر واختفى فهو معلوم ومحسوب .

### يقول الحق سبحانه :

(١) يسن الإفاضة من معرفة بعد غروب الشمس ، ولكن بالسكينة وفقاً بالناس ؛ لأن هذا اليوم يتزاحم فيه الناس ويدفع بعضهم بعضاً ؛ ولذلك سميت إفاضة . انظر فقه السنة (٥١٨/١) وقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقسم إلى زمام ناقة حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة ؛ أخرجه مسلم في صحيحه (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله .

(٢) شرعت في الأمر : بدأته ودخلت فيه .

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

أى : أن كل أمورك ، وأمور الخلق ، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى ، ومكتوبة في كتاب مبين وإضح ، فلا أحد بقادر على أن يختلس حركة قلب ، أو يختلس حركة ضمير ، وكلمة «يعزب» تعنى : يغيب ويختفى .

والحق سبحانه يخبرنا أنه لا يضع عتده جزاء أى عمل أو نية مهما بلغ العمل أو النية أدنى درجة من القلّة .

ولم يوجد عند العرب ما يضرب به المثل على الوزن القليل إلا الذرّة ، وهى النملة الدقيقة الصغيرة جداً ، ثم أطلقت الذرة على الهباء الشائع فى الجو ، ويمكنك أن ترى هذا الهباء إن جلست فى حجرة مظلمة مغلقة ، ثم دخلها شعاع من ضوء ، هنا ترى هذا الضوء وهو يمر من الثقب وكأنه سهم ، وترى مكونات هذا السهم من ذرات الهباء المتحركة الموجودة فى الجو ، تلك الذرات التى لا تراها وأنت فى الضوء فقط أو فى الظلام فقط ، ولكن التناقض بين الضوء والظلام يبرزها .

وأنت لا تدرك الشيء ولا تحسه لأمرين : إما لتناهيه فى الصغر ، وإما لتناهيه فى الكبر ؛ فلا تحيط به ، وحين تقدم العلم التطبيقى اخترعوا المجاهر التى تُكَبِّرُ الشيء المتناهى فى الصغر آلاف ، أو ملايين المرات .

وأنت لو وضعت جلدك تحت عدسة المجهر فسترى فجوات وكأنها آبار لم تكن تراها أو تحسها من قبل ؛ لأنها بلغت من الدقة والصغر بحيث

لا تستطيع عينك أن تدركها ، فإن رأيتها بالمجهر كُبرت فُتْرى  
فجوات وتغاريج وعُلُوتٌ وانخفاضاً - مهما كان الجلد الذي تراه  
تحت المجهر ناعماً .

وكذلك أنت لا تقدر على إدراك الشيء الضخم ، وقد تفضل بينك وبين  
الشيء الكبير مسافة ؛ فتراه أصغر من حجمه ، وكلما ابتعدت صَغُرَ ، فأنت  
إذا رأيت - مثلاً - رجلاً طويلاً على مسافة كبيرة ، فأنت تراه وكأنه طفل  
صغير ، وكلما اقتربت منه زاد طوله في عينك .

إذن : لا الضخامة ولا البُعد ، ولا القِلَّة تمنع من علم الحق سبحانه لآى  
شيء .

وقد خاطب الحق سبحانه العرب بأصغر ما عرفوه ، وهو الذرة ، أى :  
النملة الصغيرة .

وأنت إذا وطأت غملة في أرض رملية فهي لا تموت ، بل تدخل في  
فجوات الرمل ، ونجد لنفسها طريقاً إلى سطح الأرض مرة أخرى .

قد بين الحق سبحانه هذه المسألة حين تحدث عن سليمان - عليه  
السلام - في وادى النمل ، فقال تعالى :

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَبُكُمْ سُلَيْمَانُ  
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾

[النمل]

لأنهم لا يرونهم ؛ لحجمهم المتناهي فى الصغر .

وهكذا يعطينا الحق سبحانه بياناً عن كل أمة فى الحياة ، وأن من بينهم  
جنوداً يحرسون نقطة ، فالنملة قامت بإتذار قومها من سليمان وجنوده ،

لأنهم لن يروا النمل الصغير<sup>(١)</sup>.

إذن : الذرُّ إما أن يكون النمل الصغير ، وإما أن يكون الدُّرَّات الهبائية .

وأراد الله سبحانه أن يضرب لنا مثلاً بأحاطة علمه في أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة .

ويعزب ، أى : يغيب ، ويقال : « هذا البئر مأوئ عازب » ، أى : قادم من عمق بعيد ، ويحتاج استخراجَه إلى دَلْوٍ وحبائل طويلة .

ونسَمِّي الرجل الذى يبعد عن أهله «عزَب» .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْزِبُكَ ﴾ . أى : لا يبعد ولا يغيب عنه أصغر شيء ولا أكبر شيء .

يقول سبحانه ذلك ؛ ليطمئننا أن كل خاطرة من خواطر الإنسان إنما يشهدها الله ، ويعلمها ، وهو المُجَازِي عليها .

وإن استطاع إنسان أن يُعمى على قضاء الأرض ، فلن يستطيع أن يُعمى على قضاء السماء<sup>(٢)</sup> .

ومسألة الذرة والنصر يقول عنها الحق سبحانه :

(١) قال تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : ٢٥] وسار سليمان بمركبه العظيم هذا : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ ... ﴾ [النمل : ١٨] . أى : مرُّوا على وادى النمل فقبَّات غلة لإخوانها : ﴿ إِذْ خَلَوْا تُسَافِكُكُمْ لَا تُبْغِضُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : ٢٥] . فتهيَّأت خفاقت على النمل أن تحط بها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان : ﴿ فَبِئْسَ مَا جَاءَكُمْ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَالَّذِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ٢٥] . أى : اللهم اني أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والديّ بالإسلام لك : (ابن كثير : ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٩) .

(٢) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطع له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به نقطة من النار » أخرجه تليخارى في صحيحه (٢٦٨٠) ومسلم (١٧١٣) .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزُّلْفَةُ]

هذا للمتساوى فى الثقل والوزن ، أما إن كان أصغر من الذرة ، فقد ذكره الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها فقال :

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ (٩) [يونس]

وعلى زمن نزول القرآن الكريم لم يكن أحد يعرف أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وكنا جميعاً حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى لا نعلم أن هناك شيئاً أصغر من الذرة ، وكان العلماء يعتقدون أن الذرة هى الجزء الذى لا يتجزأ ، لأنها أصغر ما يقع عليه البصر ، فضرب الله مثلاً بالآقل فى زمن نزول القرآن .

ولما تقدم العلم بعد الحرب العالمية الأولى واخترعت ألمانيا آلة لتحطيم الذرة قبل عنها : إنها آلة تحطيم الجوهر الفرد أى : الشيء الذى لا ينقسم ، وهذه الآلة مكونة من اسطوانتين مثل اسطوانتى عَصَّارة القصب ، والمسافة بين الاسطوانتين لا تكاد تُرى ، وحين حطمت ألمانيا ما قبل عنه «الجوهر الفرد» تحول إلى ما هو أقل منه ، وتفتتت الذرة .

وقد جعل الحق سبحانه المقياس فى الصغر هو الذرة .

وحين اخترعت ألمانيا تلك الآلة توجس المتصلون بالدين وخافوا أن يقال : إن الحق سبحانه لم يذكر ما هو أقل من الذرة ، ولكنهم التفتوا إلى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها ، فقرأوا قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١١) [يونس]

﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أى : لا يبعد أو يغيب ﴿عَنْ رَبِّكَ﴾ أى : عن علمه  
﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أى : وزن ذرة .

وقديماً قلنا : إن البعض يقول : إن «من» قد تكون حرفاً زائداً في  
اللغة ، كقولنا : «ما جاءنى من رجل» وتعرب كلمة «من» : حرف جر  
زائد ، و«رجل» : فاعل مرفوع بالضممة الظاهرة التى منع من ظهورها  
اشتغال المحل وهو «اللام» بحركة حرف الجر الزائد .

ولكن فى كلام الله لا يوجد حرف زائد<sup>(١)</sup> ، ف«من» فى قوله :  
﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ . أى : من بداية ما يقال له «مثقال» .

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ  
لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .. (٣)﴾ [نبا]

وكلمة ﴿وَرَبِّى﴾ مُقَسَّمٌ به ، وحرف «الواو» هو حرف الجر ، ولم يأت  
هنا بالشهادة ، وجاء بالغيب ، ولم يأت بعلم الغيب فى الآية التى نحن  
بصددها خوطينا عنها .

وعالم الشهادة ، نعنى : أنه عالمٌ بكل ما يشهد ، ويظن البشر أنها غير  
مُحَاطٍ بها لعظمتها ؛ أو لأن الله غيب فلا يرى إلا الغيب ، لكن الحق  
سبحانه يرى ويعلم الغيب والشهادة .

(١) «حرف الجر الزائد» مصطلح نحوى يقصد به النحاة الزيادة اللفظية فى الكلام . ولحق أن حروف الجر  
«الزائدة» تلك ليست بزائدة لأن لها وظيفة بلاغية . فكلمة «من» فى جملة «ما جاءنى من رجل» تفيد  
تأكيد معنى النفى . وهناك مثال آخر كثيراً ما يذكره فضيلة الشيخ فى مقولاته ، يضرب هذه الأمثلة ؛  
لأن الحرف ما دام موظفاً فلا يكون زائداً . فيقول : «ما معنى مال ؟ وما معنى من مال ؟» . فكلمة «من»  
فى الجملة الأخيرة تفيد تأكيد نفى وجود أى مال مع التكلم ، وهذا التأكيد ليس موجوداً فى جملة «ما  
معنى مال ؟» .

## سُورَةُ الْيُونُسَ

٦٠٢١

لقد قال الحق كلمة «مثقال ذرة» ثلاث مرات :

مرة حين قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ... ﴾ (٧) [الزلزلة]

ومرة حين قال هنا :

﴿ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ... ﴾ (٦١) [يونس]

وجاء بـ «من» هنا ليبين أنه لا يغيب عن الله تعالى من بداية ما يقال له «مثقال» .

وقال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ لَا يَغُزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ... ﴾ (٣٠) [سبا]

وجاء بالسموات أولاً ، وجاء في الآية - التي نحن بصدد خوارطها عنها - بالأرض أولاً ، وهو في الآيتين يتكلم عن علمه للغيب " ، فيأتي بمِثْقَالِ الذرة ويقدم السماء ويأتي بها مفردة ، ثم يأتي بما هو أقل من الذرة ويقدم الأرض .

وهذا كله من إعجاز أساليب القرآن التي أراد البعض من المستشرقين أن يعترضوا عليها ، وكانت جميع اعتراضاتهم نتيجة لعجزهم عن امتلاك ملكة الأداء البياني .

وإن عرضنا الرد على تساؤلاتهم نجد أن الحق سبحانه قدّم الأرض في الآية التي نحن بصدد خوارطها عنها ؛ لأنه سبحانه يتكلم عن أهل الأرض :

(١) غاب الشيء يغيب غيباً ، استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي . والغيب : اسم مرة من غابه ، أي : ذكره في غيبته بالسوء كاختبائه ، قال الحق : ﴿ وَلَا يَغْنَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا... ﴾ (١٧) [الحجرات] والغيب : اسم هيئة تـ . والغيب مصدر ويسمى به من غاب واستتر ، يقول الحق : ﴿ الَّذِينَ يُزَيِّنُونَ بِالْغَيْبِ... ﴾ (٢٢) [البقرة] كالجنة والنار والملائكة والجن ، وتجمعة غيوب . يقول الحق : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٦٣) [المائدة] .

## سُورَةُ الْيُونُسَ

٦٠٢٢

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ﴾ [يونس]

وجاء أيضاً بالسما ، وهي السماء الدنيا التي يراها أهل الأرض .

أما الآية الأخرى فهو سبحانه يقول :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ [سبا]

والكلام هنا عن الساعة ، وعلمها عند الله تعالى ، ولم تنزل من السموات إلى السماء الدنيا حتى نقول للمكلفين في الأرض : قوموا ها هي الساعة .

ولذلك جاء الحديث هنا عن السموات أولاً ؛ لأن علم الساعة عند ربّي ، ولن ينزل إلا بمشيئته سبحانه .

وهكذا جاء كل أسلوب لا بإجمال المعنى ، ولكن بدقة جزئياته ، فتكلم في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، وآية سبأ عن العلم بالذرة ، والسماء والأرض ، وكل آية جاءت الكلمات فيها بتقديم أو تأخير يتناسب مجالها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>(١)</sup> [يونس]

ولنا أن نلتفت إلى أن الاستثناء هنا لا يُخرج ما قبله ، بل كل شيء

(١) بأن الشيء بين بياناً ظهرياً واتضح ، فهو بين وهي بينة . أي : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة .

يقول الحق سبحانه : ﴿كُمُ آيَاتُهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۖ﴾ [البقرة] والبينة تستعمل بمعنى الحجة والبرهان ، وقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام] أي : موضح للحق اسم فاعل من أبان المتعدي ، وقوله : ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الرّحرف] أي : غير مظهر [حرف ب من :

«وَمِنْ آيَاتِهِ» .



## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦٠ ٢٢

مكتوب في الكتاب المبين ، ونحن في الدنيا نحمد الإنسان إن كان له دين عند آخر فهو يحتفظ بالوثائق المكتوبة التي تُسجّل ما له وما عليه . ولكن ، أيجتهد الحق سبحانه بأعمالنا ونيّاتنا مكتوبة كحجة له ، أم حجة لنا ؟

إنه سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا ، ولكنه يُسجّل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات ؛ لنعلم عن أنفسنا ماذا فعلنا ؛ لتقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿الْآيَاتُ أَوْلَىٰ أَلَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾

وجاءت هذه الآية بعد كلامه الحق عن نفسه سبحانه بأنه عالم الغيب ، ولا يخفى عليه شيء ، وشاء الله سبحانه بذلك أن يعلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قدر رياضات المرتاضين ، فهب أن الله قد امتن عليك بنفحة ، فإياك أن تقول إنها من عندك ، بل هي من عند عالم الغيب سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

وعلى ذلك فلا يقال : إن فلاناً قد علم غيباً لأنه وليُّ الله ، بل لنقل : «إن فلاناً مُعَلِّمٌ غَيْبٍ» ؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس ، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيباً مطلقاً .

ومثال ذلك : الرجل الذي سُرِق منه شيء ، هو لا يعرف أين يوجد الشيء الذي سُرِق منه ، ولكن اللص يعرف ، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له الميسروعات ، كل هؤلاء يعلمون ، وأيضاً الجحش الذين كانوا في نفس مكان السرقة يعلمون ، وهذا ليس غيباً مطلقاً .

وأيضاً أسرار الكون التي كانت غيباً موقوتاً ، مثل جاذبية الأرض ،  
والسالب والموجب في الكهرباء ، وثلقيح الرياح للسحاب<sup>(١)</sup> لينزل الماء ،  
كل ذلك كان غيباً في زمن ما ، ثم شاء الحق سبحانه فحدد لكل أمر منها  
ميعاداً كشف ، فصارت أموراً مشهورة .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليعمل الإنسان ويجتهد ليكشف أسرار  
الكون .

ومن العجيب أن الباحث قد يعمل من أجل كشف معين ، فيصادف  
كشفاً آخر ؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذي كان غيباً أن يولد ،  
وإن لم يبحث عنه أهل الأرض .

ومن اكتشف «البنسلين» رأى العين الأخضر حول بعض المواد العضوية  
فيبحث عن أسرار ذلك ، واكتشف «البنسلين» .

و«أرشميدس» الذي اكتشف قانون الطفو ، واستفادت منه صناعات  
السفن والغواصات ، وكل ما يسير في البحر ، وقد تم اكتشاف قانون الطفو  
صدفة .

إذن : ففي الكون غيب قد يصير مشهداً ، إما بمقدمات يتابعها خلق الله  
بالبحث ، وإما أن تأتي صدفة في أثناء أي بحث عن شيء آخر .

ومثال ذلك : عصر البخار الذي بدأ من رجل رأى إناء مغطى يغلي فيه  
الماء ، فظل غطاء الإناء يرتفع ليُخرج بعضاً من البخار ، وانتبه الرجل إلى

(١) يقول سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ لَنَا مِنِ السَّمَاءِ مَاءً فَاصْبُغْنَا بِهِ خَلْقَهُ وَمَا تَمَيزُ بِهِ بَارِئِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر]  
والرياح لوافح أي : أنها تحمل حبوب اللقاح التي تلقح بها النبات والشجر ، أو أنها تستندر السحب  
لينزل منها الماء . [ينصرف من السحاب] .

أن البخار يمكن أن يتحول إلى طاقة تحرك العربات التي تسير على عجل ، وهكذا جاء عصر البخار .

إذن : فميلاد بعض من أسرار الكون كان تشبيهاً من الله تعالى لأحد عبادہ لكي يتأمل ؛ ليكتشف سرّاً من تلك الأسرار<sup>(١)</sup> .

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة ، لنفهم أن عطاء الله غيلادها - دون مقدمات من الخلق - أكثر مما وُصِّل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق .

ولذلك تجد التعابير الأداتية في القرآن عن لوتى الغيب ، تعبيراً دقيقاً لنفهم أن هناك غيباً عن الخلق جميعاً وليست له مقدمات ، ولا يشاء الله سبحانه له ميلاداً ، واستأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلمه إلا هو سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ ۝٢٥٥﴾ [البقرة]

هذا هو الغيب الذي يكشفه الله سبحانه لهم ، إيماناً بالمقدمات ، أو بالصدفة ، وقد نسب المشيئة له سبحانه ، والإحاطة من البشر ؛ وهذا هو غيب الابتكارات .

أما الغيب الآخر الذي لا يعلمه أحد إلا هو سبحانه ولا يُجَلِّيه إلا الرسول ﷺ ، فيقول الحق عنه :

(١) من الغيب ما يعتبر مشاهداً عند الإذن بميلاده بأمر الله سبحانه ، إما بمقدمات أو بغير مقدمات رحمة للبشرية ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْرِضُكَ فَلَا تَسْتَعْمِلُونَ ۚ ۝١٠﴾ [التحل] ، وهناك غيب لله لا يظهره لأحد إلا من ارتضى من رسول .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ<sup>(١)</sup> عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۚ (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ ۖ رَسُولٌ.. (٢٧)﴾ [الجن]

إذن : فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خلقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ ، وتحفقت الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خلقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات وحدد من يعطيه بعضاً من الغيب :  
﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ.. (٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر ؛ لأن الرسول ﷺ أسوة<sup>(٢)</sup> ، وقال فيه الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ (٢١)﴾ [الأحزاب]

ومن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به ؛ يهبه الله تعالى هبة يراها الناس فيعرفون أن من يتبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية ، ولكن هذه الهبة ليست وظيفة ، وليست (دُكاناً) للغيب ، بل هى من عطاءات الله تعالى .

(١) ظهر الشيء يظهر ظهوراً من باب فتح بمعنى نيين ، ويرز بعد الحفاء ، قال الحق : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ (٢٤)﴾ [الأعراف] وظهر على خصمه غلبه ، يقول الحق : ﴿وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بِرَجْمَتِكُمْ ۖ (٢٥)﴾ [الكهف] أى : إن يتصروا عليكم يقتلوكم رمياً بالحجارة ، وأظهر الرجل على عدوه نصرته عليه حتى تمكث منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿يُظْهِرُ عَلَى الذُّبُورِ كُلِّ ۖ (٢٦)﴾ [الشورى] أى : لينصره على جميع الأديان (حرف الظاء - الفاموس القويم) .

(٢) الأسوة : القدوة . [لسان العرب : مادة (أ س ي)] ، أى : الاقتداء بفعل الغير واتخاذهُ مثلاً يحتذى ، سواء أكان فى الخير أو فى الشر ، وشاع استخدامها فى الخير .

وإنظر إلى دقة القرآن حين يقول :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۖ﴾ (٥٩) [الأنعام]

أى : أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده .

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) [يونس]

نجد أن كلمة «ولى» من وليه ، أى : قريب منه ، وهو أول مَفَزَع يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره ، وخيره يفيض على من والاه .

ومن يقرب عالماً يأخذ بعضاً من العلم ، ومن يقرب قوياً يأخذ بعضاً من القوة ، ومن يقرب غنياً ، إن احتاج ، فالغنى يعطيه ولو قرضاً .

إذن : فالوكى هو القريب الناصر المعين الموالى .

وتطلق «الولى» مرة لله سبحانه ، وقد قال القرآن :

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ۖ﴾ (٩) [الشورى]

(١) قال الزجاج : جاء في التفسير أنه على قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أُمَمٍ مَّتَّوَتٌ ۖ﴾ (٩) [لقمان] . قال : فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه قد خالفه . [لسان العرب : مادة (ف ت ج) ] .

(٢) تقول اللغة : الولى : هو القريب بالنسب أو بالمحبة أو بالطاعة ، أو الولى الصديق ، وهو ضد العير ، والولى : المطر بعد المطر والولى من بلى أمر إنسان ، ويقوم على شئونه ، كالوكيل ، ويجمع على أولياء . وأولياء الله هم المؤمنون المنتقون ، يقول الحق : ﴿إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون (٦٢) . [يونس] والولى : من تولاها الله بالرعاية ، وتولى هو منحه الله بالملوك للهداية ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ كَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٦) [يونس] (حرف الواو - القاموس المفهرس) .

لأنه سبحانه القريب من كل خلقه ، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولي المطلق ، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق ، ولا يشغله شيء عن شيء ، فهو الولي الحق ، وهو سبحانه يقول :

﴿ هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۖ .. ﴾ (٤٩)

[الكهف]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقّة فليجأ إلى الله ، وهو سبحانه يفيض على الأرفياء منهجه من الولاية .

ونجد التعبير القرآني الدقيق :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ۖ .. ﴾ (٢٥٧)

[البقرة]

فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين ، والمؤمنون يقربون من الله تعالى في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ۖ .. ﴾ (٦١)

[يونس]

إذن : فالولاية المطلقة لله ، وإن قيّدت بشيء مضاف ومضاف إليه ، فهي مرة تكون من المؤمنين لله ، ومرة تكون من الله للمؤمنين .

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين ؛ فبطاقة قدرته سبحانه إذا رأى في إنسان ما خصّلة من خير ، فيكرمه أولاً ، فيصير هذا العبد طائعاً من بعد ذلك .

وتسمع من يقول : إن فلاناً قد خطف من المعصية أي : أنه كان عاصياً ، ثم أحب الله تعالى خصّلة خير فيه ، فهداه .

ومثال ذلك : الرجل الذي سقى كلباً ، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خفه

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٥٦٠٢٩

بالماء من البشر ليروي ظمأ الكلب ؛ فقفر الله - سبحانه وتعالى - له  
سيئاته<sup>(١)</sup>.

هذا الرجل لم يكن ليروي الكلب تفاقاً للكلب ، ولكن لأن الرجل شعر  
بالعطف على كائن ذي كبد رطبة .

إذن : فليست المسائل عند الله تعالى آلية أو ميكانيكية ، بل طلاقة قدرته  
سبحانه تقدر كل موقف كما قدرّت اختلاف الخلق ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ <sup>(٢)</sup>   
وَأَلْوَانِكُمْ .. ﴾ (٢٢) [الروم]

فليس عند الله تعالى قالب يضع فيه الخلق ، بل سبحانه يخلق الطويل  
والقصير والسمين والرفيع والأشقر والزنجي ، وهذا بعض من طلاقة  
قدرته سبحانه ، وبرحمته سبحانه قرب من خلقه الذين آمنوا أولاً ،  
وقربه سبحانه منهم : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ﴾ (٢٥٧) [البقرة]  
فمن يتبع المنهج يأخذ النور ، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو  
سبحانه يقربه قريباً أكثر فيعطيه هبة اصطفاوية يراها الذين حولهم وقد  
يقتدون به .

والحق سبحانه يريد من المؤمن الأدب مع خلق الله ، فإذا علم سيئة عن  
إنسان فعليه أن يسترها ؛ لأن الحق سبحانه يحب السِّرَّ ويحب من يستر .

(١) وذلك أن أبا هريرة روى أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد  
بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا  
الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر ، فملاً خفاه ، ثم أمسكه بفيه (بضمه) فسقى  
الكلب ، فشكر الله له ، ففقر له » قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : « في كل  
ذات كبد رطبة أجر » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٤٤) .

(٢) اختلاف الألسنة : اختلاف اللغات .

وأنت قد تكره إنساناً تعلم عنه سيئة ما ، وقد تكره كل حسنة من حسناته ، فيريد الله ألا يحرمك من حسنات مَنْ له سيئة فيسترها عنك لتأخذ بعضاً من حسناته ، ويأمرك الحق ألا تحتقر هذا النسيء ؛ لأنه قد يتمتع بخصلة خير واحدة ، فيكرمه الله سبحانه من أجلها أولاً ، ثم يطيعه هذا العبد ثانياً .

والحق سبحانه يقول في الحديث القدسي :

« يا ابن آدم أنا لك محبٌ فبحقّي عليك كن لي مُحِبّاً » .

ويقول الله سبحانه في حديث قدسي :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وهي هذا القول يضع مسئولية القرب من الله في يد الخلق ، ويضيف الحق سبحانه :

« وَإِنْ تَقَرَّبْ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »<sup>(١)</sup> .

ومن يريد أن يأتيه الله هرولة فليذهب إلى الله ماشياً .

إذن : فالإيمان بالله يسلم المؤمن مفتاح القرب من الله .

ومن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يُقرّبه الله منه أكثر وأكثر .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة . والذراع من الإنسان من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والذراع من القاييس ، ومن أشهر أنواعه الذراع الهندسية وهي ٣٢ أصبعا أو ٦٤ شبراً . [المعجم الوسيط : ذراع] . والباع : مسافة ما بين الكتفين إذا انبسطت الذراعان ميمناً وشمالاً ، والمراد : البالغة في الاتساع [المعجم الوسيط : باع] . والهرولة : الإسراع .



إِذَنْ : فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَصِلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ إِلَى كِرَامَةِ اللَّهِ ، وَيَدُقُّ عَلَى بَابِ الْحَقِّ ، فَيَنْفَتِحُ لَهُ الْبَابُ ، وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَصِلُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ أَوَّلًا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ثَانِيًا .

ولله المثل الأعلى : أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحتاج إلى لقمة أو صدقة فتعطيه ، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه ، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه ، فما بالنا بعتطاء الحق لعباده ؟

إِذَنْ : فَمَنْهُمْ مَنْ يَصِلُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَصِلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ إِلَى كِرَامَةِ اللَّهِ ، وَحِينَ يَصِلُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ ، وَيَقْرُبُ اللَّهُ مِنَ الْعَبْدِ ، هَذَا يَكُونُ الْعَبْدُ فِي مَعِيَةِ اللَّهِ ، وَتَقْبِضُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَعِيَةُ كَثِيرًا .

وقد قال أبو العلاء المعري<sup>(١)</sup> لمحبوبته :

أنت الحبيبُ ولكني أعوذُ بهِ من أن أكون حبيباً غير محبوبٍ

أى : أنه يستعبدُ باللهِ من أن يكون محبوباً لمن يرفضُ حبه ، ولكن محبة الله تختلفُ عن محبة البشر ، وسبحانه لا يعاملُ محبيه كذلك ، فانت حين تحبُ الله يقرّبك أكثر وأكثر ، ويسئى ذلك « المصافاة » ، فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خلقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله ، وألا يتبجحوا واحد منهم متفاخراً بعتطاء الله سبحانه له .

فالمباهاة بالكرامات تضيغها ، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجح بها

(١) أبو العلاء المعري : شاعر فيلسوف ، ولد ٣٦٣ هـ ومات في معركة النعمان (٤٤٩ هـ) عن

٨٤ سنة في الرابع من جمادى الأولى سنة ٤٤٩ هـ وهو ابن إحدى عشرة سنة . ولما مات وقف على

قبره ٨٤ شاعر يرثونه . [الأعلام للزركلي (١/١٥٧) ] .

ويتفاخر ويتباهى ، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة .

إذن : فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائماً في معيته ، وهو سبحانه الذى بدأ وبين بالآية الواضحة أنه سبحانه ولى المؤمنين ؛ ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور<sup>(١)</sup> . فقال :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ . (٢٥٧) ﴿[البقرة]﴾

ونحن نعلم أنه سبحانه يأتى بالمحسّنات ليبين المعنويات ؛ لأن الإنسان أولاً بالمحسّنات ، وهى أقرب إلى تقريب المراد ، فحين يضرب الحق سبحانه لنا المثل بالكفر والإيمان ، يصف الكفر بالظلمة ، والإيمان بالنور ، إنما يريد الحق أن يجعل لك المراد واضحاً موصولاً بفهمك .

وإذا كنا نتجنب معاطب الظلمات الخسية ، أليس الأجدر بنا - أيضاً - أن نتجنب معاطب الظلمات المعنوية ، إن الظلمة الخسية تستر الأشياء فلا ترى الأشياء ، وقد ترتطم بأضعف شيء فنحطمه أو نصطدم بأقوى شيء فيحطمنا .

إذن : فحجب المرائى بسبب الكوارث ، أما حين يأتى النور ؛ فهو يبين ملامح الأشياء فسير على هدى وأنت مطمئن .

وهب أنك فى مكان مظلم ويوجد شيء آخر فى مكان منير ، فأنت فى الظلمة ترى من يوجد فى النور ، وهذه مسألة لم يفتن لتفسيرها علماء

(١) يقول الحق : ﴿مَن يَسْأَلْهَا لِيُذْهِبْ عَنْكَ غِظَاهُ أَذْكَرَ الْكَافِرِ﴾ (٢٥٧) ﴿[البقرة]﴾ . وهذا هو الذى يأتى عليك وملائكته ليخرجك من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رجياً (٢٥٨) ﴿[الأحزاب]﴾ فقد عبر القرآن بالظلمات ، والمراد بها الكفر ، والنور والمراد به الإيمان ، وهذه هى بلاغة الإعجاز فى كتاب الله .

ما قبل الإسلام ، حيث كانوا يظنون أن الرؤية إنما تحدث من انتقال شعاع من عين الرائي إلى المرئي ، حتى جاء «الحسن بن الهيثم» العالم الإسلامي واكتشف قوانين الضوء ، وكشف خطأ ما سبقه من نظريات ، وحدد أن المرئي هو الذي يصدر منه شعاع إلى الرائي ، وإذا ما كان المرئي في ظلمة فلن يراه أحد ، ولو كان هناك شعاع يخرج من الرائي ؛ لرأى الإنسان في الظلام.

إذن : أول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوي أقوى من النور الحسي ، فعالم القيم قد يكون أقوى من عالم الحس ؛ لأن الجبر في عالم الحس يمكن أن يحدث ، أما في عالم القيم فهو أمر شاق ؛ ولذلك قال الشاعر :

جراحاتُ السنان <sup>(١)</sup> لها التامُّ ولا يلتامُّ ما جرحَ اللسانُ

ويقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصدد خراطرتها عنها :

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٢) [يونس]

و«ألا» كما أوضحنا من قبل أداة تنبيه من المتكلم للمخاطب حتى لا تفوته كلمة واحدة مما يتجىء في الخطاب.

وقوله سبحانه : ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ..﴾ (٢٢) . أى : لا خوف عليهم من غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٢) . أى : أن الحزن لن يأتي منهم ، والخوف يكون من توقع شيء ضار لم يقع حتى الآن ، ولكنه قد

(١) السنان : السهام والرماح . وجراحاتها : آثار الجروح نتيجة الإصابة بها . والالتام : هو اندمال قديم الجروح : [ انظر لسان العرب ] .

يحدث في المستقبل .

وفي حياتنا اليومية نجد الأب يمسك بيد ابنه في الزحام خوفاً عليه ، وقد ترى ولياً من أولياء الله وقد أصيب ابنه في حادث أو مات الابن ، تجد الولي في ثبات لأنه يعلم حكمة الله في قضائه ، فلا تتطوع أنت بالخوف عليه .

إذن : فالخوف يأتي من المستقبل ، وهو أمر مرتقب ، أما الحزن فهو إحساس يحدث على شيء قات .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ۖ ﴾ (٢٣) [الحديد]

والحزن على ما فات عبث ؛ لأن ما فات لا يعود .

وأولياء الله تعالى لا خوف عليهم ؛ لأنهم دائماً يصدد معرفة حكمة الله ، ومن لا يعرف حكمة الله تعالى في الأشياء قد يقول : «إن فلاناً هذا مسكين» ؛ لأنك لا تعرف ماذا جرى له .

وأما الحزن فهو مشاعر قلبية يريد الله من المؤمن أن تمر على باله .

وقد قال ﷺ حين افتقد ابنه : «إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» ولكنه حزن الورع الذي يتجلى في قوله ﷺ :

«إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا» (١) .

(١) أنس : الحزن الشديد . ونظام الآية : ﴿وَلَا تَقْرَءُوا بِمَا أَنفَكُمْ...﴾ [الحديد] بل عليه أن يكون متوازناً ، فلا يحزن على شيء فانه ، ولا يفرح بشيء جاءه قد يذهب بعد حين .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك .

وَيبين الله سبحانه لنا شروط الولاية فيقول :

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٦٣)

والإيمان هو الأمر الاعتقادي الأول الذي يُبنى عليه كل عمل ، ويفتضى تنفيذ منهج الله ، الأمر في الأمر ، والنهي في النهي ، والإباحة في الإباحة .

والتقوى - كما علمنا - هي اتقاء صفات الجلال في الله تعالى ، وأيضاً اتقاء النار ، وزاد رسول الله ﷺ في صفات من تصدر عنه التقوى ؛ لأنها مراحل ، فقال ﷺ يصف المتقين :

«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلئ نور»<sup>(١)</sup> .

وقد مثل عمر - رضى الله عنه - عن المتقين فقال : « الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من الله » . وكأنه - رضى الله عنه - يشرح لنا قول الحق سبحانه :

﴿ سِيَمَاهُمْ<sup>(٢)</sup> فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. ﴾ (٢٩) [الفتح]

وساعة ترى المتقى لله تسر وتفرح به ، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك : إنه ملتزم بتقوى الله ، وهذا السرور يلقئك إلى أن تقلده ؛ لأن رؤياه تذكرك بالخشوع<sup>(٣)</sup> ، والخضوع<sup>(٤)</sup> ، والسكينة ، ورقّة

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب ، وقامه : « إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلئ نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » رقرأ هذه الآية : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦١) [يونس] .

(٢) سيماهم : علامات التقوى والإيمان ، وهو ذلك النور في وجوههم .

(٣) خشع (خشوعاً) إذا خضع ، وخشع في صلاته ودعائه . وقيل : بقلبه على ذلك ، وهو مأخوذ من (خشعت) الأرض إذا سكنت واطمأنت [المصباح المنير] .

(٤) وخضع لغيره (بخضع) خضعاً : ذل واستكان فهو خاضع وأخضعه الفقير : أهله . والخضوع قريب من الخشوع إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل في الصوت ومنه : ﴿ وخضعت الأصوات للرحمن .. ﴾ (١٥) [طه] والخضوع في الاعتناق ومنه قول الفرزدق : خضع الرقاب نواكس الأبصار . [المصباح المنير]

اُسْمُتْ ، وانيساط الأسارى .

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد في هذا الكون أى خَلْكل ، بل يرى كل شيء فى موضعه تماماً ، ولا يرى أى قُبْح فى الوجود ، وحتى حين يصادف القبح ، فهو يقول : إن هذا القبح بيّن لنا الحُسْن ، ولولا وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناس الحق ، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق .

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير ؛ ولذلك يقال : كُنْ جميلاً فى دينك ترَ الوجود جميلاً ؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها ، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى ، وكلما تقربت إلى الله زاد اقترباب الله سبحانه مشك ، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق<sup>(١)</sup> .

ومثال ذلك : العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة وعلمه من لدنه علماً ، هذا العبد يعلم موسى عليه السلام<sup>(٢)</sup> ، فحين فارق بين خرق العبد الصالح لسفينة سليمة ، ولم يكن يعلم أن هناك حاكماً ظالماً يأخذ كل سفينة غصباً ؛ ولذلك ناقش موسى العبد الصالح ، وتساءل : كيف تخرق سفينة سليمة ؟ وهنا بيّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة قلن يأخذها ، وهى سفينة يملكها مساكين<sup>(٣)</sup> .

وحين قتل العبد الصالح غلاماً ، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى

(١) ويقول رسول الله ﷺ : ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦) عن أبي هريرة .

(٢) قال سبحانه عن موسى وفاته فى ثنائهما بالخضر عليه السلام : لم نوجد عبداً من عبادنا أثناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً (٢٥) قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً (٢٦) قال إنك لئن تستطيع معي حسراً (٢٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً (٢٨) قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً (٢٩) قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذمراً (٣٠) [الكهف] .

(٣) وذلك أن موسى استنكر عليه فعله هذا فقال : عِمْ أَخْرَقْتَهَا لَعَرَفَى أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا (٣١) [الكهف] فكان ردّه عليه فيما بعد : هَـ أَنَا السَّفِينَةُ لَكَانَتْ يُسَاكِينُ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ رَأْيُهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٣٢) [الكهف] .

جريمة ، ولم يعلم سيدنا موسى ما علمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسقى إلى أهله ، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله<sup>(١)</sup> ، وسوف يدخل هذا الولد الجنة ويصير من دعاмиض<sup>(٢)</sup> الجنة.

ويقال : إن من يموت من قبل البلوغ ليس له مسكن محدد في الجنة ، بل يذهب حيث يشاء ؛ فهو كالطفل الصغير الذي يدخل قصراً ، ولا يطيق البقاء في مكان واحد ، بل يذهب هنا وهناك ، وقد يذهب إلى حيث سيدنا محمد ﷺ أو أبو بكر الصديق ، أو عند أي صحابي جليل .

وأيضاً حين دخل سيدنا موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما - وطلب الطعام . - هو أصدق ألوان السؤال - فأبى أهل القرية أن يطعموهما ، وهذا دليل الحسنة واللوم ؛ فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط في تلك القرية .

ولم يكن سيدنا موسى - عليه السلام - قد علم ما علمه العبدُ الصالح من أن رجلاً صالحاً قد مات وترك لأولاده كثرًا تحت هذا الجدار ، وبناءً بناية موقوتة يزمن بلوغ الأبناء لسن الرشيد ؛ فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدمهم من كثر ، ولا يجرق أهل القرية اللثام على السطور عليه <sup>(٢٦)</sup> .

(١) قَالَ مُوسَى : ﴿ مَا أَفْعَلْتُ نَفْسًا وَرَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا تُكْفَرُ ﴾ [الكهف: ٦٨] فَيَأْتِي الْحَفَظُ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ يَسْتَطِيعَ فَعَمَلُهُ : ﴿ وَأَمَّا الْعَلَامُ فَكَانَ أَمْرًا مَوْجِبِينَ لِحُجَّتِهِمَا أَنْ يُؤْمِنَهُمَا طَعْنَانَا وَكُفْرَانَا ﴾ فَأَرَادْنَا أَنْ يَدْنِيَهُمَا وَهَيْمَا غَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا [الكهف: ٨٨] .

(٦) دعايمص: هم صغار الأطفال، فسر بالدوية التي تكون في مستنقع الماء، قال: والدغمرص: الدخخال في الأمور، أي: أنهم سيأخرون في الجنة دخالون في منازلها، لا يُمنعون من مرضع، كما أن الصبيان في الدنيا لا يُمنعون من الدخول على الحرم، ولا يختجب منهم أحد. [لسان العرب: مادة (دع م ص)].

(٣) وهذا أمر ذكره رب العزة في كتابه فقال عن موسى والخضر : ﴿ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَعْلِيهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّرُوهُمَا فَوَجَدَاهُمْ جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ لَالِ لَوْ شِئْتَ لِاتَّخَذْت عَلَيْهِمْ جَنًّا (٧٠) ﴾ [الكهف] .  
نقال له الخضر فيما بعد : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِلغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَاهُمَا وَسِعْرًا فَجَاءَنَا كُنْزُهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا نَعْلَمُ عَنْ أَمْرِ ... ﴾ (٨٦) [الكهف] .

إذن ؛ هذه هباتٌ من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين ، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصواري المنصوبة التي تهدي الناس ، أو كالقنار الذي يهدي السفن في الظلمة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٤﴾



والبُشْرَى<sup>(١)</sup> : من البشْر والبشارة والتبشير ، وكلها مأخوذة من البشرة ، وهي الجلد ؛ لأن أي أنفعال في باطن النفس الإنسانية إنما ينضج على البشرة ، فإذا جئت للإنسان بأمر سار<sup>٢</sup> تجدد أثر هذا السرور على أساريره ، وإن جئت للإنسان بخبر سيئ<sup>٣</sup> تجدد الكدر وقد ظهر على بشرته ، فالبشرة هي أول متفعل بالأحداث السارة أو المؤلمة .

وحين يقال ؛ « بشري » فهذا يعني كلاماً إذا سمعه السامع بظهر على بشرته إشراق وسرور ؛ لأنه كلام مبشر بخير .

وحسين مسئل رسول الله ﷺ عن البشري ، قال : « إنها الرؤية الصالحة تُرى للمؤمن أو يراها » ، وقال ﷺ : « إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة<sup>(٢)</sup> » .

(١) بشر بكذا ، وبشر ، مثل : فرج ، وزناً ومعنى ، وهو الاستبشار ، والمصدر : البشور واسم الفاعل من الخفيف : بشير ، وهو التبشير في الخير أكثر من الشر ، والبشر : والبشري : فعلى من ذلك ، والبشارة إذا أطلقت اختصت بالخير . والبشر : طلاقة الوجه ، والبشرة : ظاهر الجلد ، وبين البشري بمعنى السرور ، والبشرة ظاهر الجلد فتفاعل يظهر مرتين في السرور وغيره . [الصباح الخير - بصرف] .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٨٣) ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس بن مالك أنه ﷺ قال : النبوة الخمسة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .



وقد أوحى للنبي ﷺ بالرؤيا ستة أشهر ، وأوحى إليه في البقعة ثلاثة وعشرين عاماً ، فإذا نسبت الستة أشهر إلى الثلاثة والعشرين عاماً ، تجد أن الستة أشهر تمثل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً.

والرؤيا ليست هي الحلم ؛ لأن الرؤيا هي شيء لم يشغل عقلك نهاراً ، وليس للشيطان فيه دخل .

والمثل العامي يقول : «الجوعمان يحلم بسوق العيش» فإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم له علاقة بأمر يشغله ، فهذا هو الحلم ، وليس الرؤيا ، وإن كان ما يراه الإنسان في أثناء النوم شيئاً يخالف منهج الله ، فهذه قذقة من الشيطان<sup>(١)</sup> .

إذن : فهناك فارق بين الرؤيا والحلم ، وأصناف الأحلام<sup>(٢)</sup> .

البشرى - إذن - هي الرؤيا الصالحة ، أو هي المقدمات التي تُشعر بخلق الله بهم فتفتح قلوب الناس إلى هؤلاء الأولياء ، وقد عبدوا واحداً أحبه الله تعالى في السماء ، فيقول الله سبحانه وتعالى لجبريل عليه السلام : «إني أحب فلاناً فأحبه» . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبهوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول في الأرض<sup>(٣)</sup> .

(١) ونحو ذلك رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال لأعرابي جاءه فقال : إني حلمت إن رأسي قطع فأنا أتبعه ، فزجره النبي ﷺ وقال : «لا تُخبر بتلعب الشيطان بك في المنام» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٦٨) .

(٢) أصناف الأحلام : الرؤيا التي لا يمكن تأويلها لاختلاطها والتماسها ، والصف : الحلم الذي لا تأويل له ولا خبر فيه ، وفي التزويل العزيز : «قالوا أصناف أحلام» (٢١) [يوسف] أي : رؤياك اختلاط ليست برؤيا بيّنة ، «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» (٢٢) [يوسف] أي : ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل . [لسان العرب : مادة (ض غ ث)] . وهم قالوا هذا المعجز من تأويلها ، ولكن يوسف فسرها للملك ، فلا تكون أصناف أحلام

(٣) تنفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة . واللفظ لمسلم . وقامه عنده «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه» . قال : فيبغضه جبريل . ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه . قال : فيبغضونه . ثم يوضع له البغضاء في الأرض .

وساعة تراه مكتوباً له القبول ، فالكمل يُجمعون على أن في رؤيتهم لهذا المحبوب من السماء سَمْتاً طيباً ، وهذه هي البشرى .

أو أن البشرى تأتي لحظة أن يأتي ملك الموت ، فيُلْقَى عليه السلام ، ويشعر أن الموت مسألة طبيعية ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ تَرَفَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣١) ﴿[اشمل]

أو ساعة يبيضُ الوجه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه ، وهذه بشرى في الدنيا وفي الآخرة .

والحق سبحانه يقول :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا . (٣١) ﴿[فصلت]

إذن : فهؤلاء الأولياء<sup>(١)</sup> يتلقون من فيوضات<sup>(٢)</sup> الله عليهم بواسطة الملائكة ويتميزون عن غيرهم ؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض ؛ لأن الفروض هي أقل القليل في التكليف .

وقد يرى واحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله تعالى ؛

(١) هؤلاء الأولياء الذين تخلوا عن المعاصي وتحلوا بالطاعات فتجلى سبحانه عليهم بالفيضات ومن هذا الفيض القبول والمرويا الصالحة .

(٢) من عطاءات القبول باقي الآيات في قوله تعالى ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تنتهي أنفسكم فيها ما تدعون﴾ (٣٠) ﴿ولاً من عبود رحيم﴾ (٣١) ﴿[فصلت] وهناك عطاءات وإمدادات لا تعلمها ، الله يعلمها ، وهو علام الغيوب .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٥٦٠٤١

فيُزِيدُ مِنْ جَنَسِهَا عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ ، وَيُصَلِّي - بَدَلًا مِنْ خَمْسَةِ فُرُوضٍ -  
عَشْرَةَ أُخْرَى تَوَافُلَ ، أَوْ يَصُومُ مَعَ رَمَضَانَ شَهْرًا أَوْ اثْنَيْنِ ، أَوْ يَصُومُ  
يَوْمَيِ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ مِنْ كُلِّ اسْبُوعٍ .

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله  
تعالى ، وأن الله تعالى يستحق أكثر من ذلك ، وهذا معناه أن مثل هذا  
العبد قد دخل في مقام الرد " مع الله تعالى ، وهنا يفيض الله  
سبحانه وتعالى عليه بما يشاء ، وينال من رضوان الله ما جاء في  
الحديث القدسي :

«من عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ  
أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى  
أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ،  
وِيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ،  
وَلَوْ أَنَّ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ  
الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» .

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدي فوق ما عليه ،  
وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها .

ويُنْهِى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْآيَةَ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ خَوَاطِرُنَا عَنْهَا بِقَوْلِهِ :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٦٤) [يونس]

(١) وَدَّ : أَحَبَّ . وَالْأَسْمُ : الْمَوَدَّةُ ، وَوَدَّوْدٌ ، أَيْ : مُحِبٌّ ، يَسْتَوِي فِيهِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى . [المصباح المنير] .

(٢) الْمَسَاءَةُ : نَقِيضُ الْمَسْرَةِ ، وَأَصْلُهَا : مَسَاوَةٌ ، عَلَى مِثْلَةِ ، وَلِهَذَا تَرَدَّدَ الْوَاوُ فِي الْجَمْعِ فَيُقَالُ : هِيَ  
(الْمَسَاوِي) لَكِنْ اسْتَعْمِلَ الْجَمْعُ مَحَقَّقًا ، وَبَدَّلَتْ مَسَاوِيَةً أَيْ : تَقَائُصُهُ ، وَالسَّوَاءُ : الْعَوْرَةُ ، وَالْجَمْعُ :  
سَوَاءَاتٌ ، وَسَمِيَتْ سَوَاءً لِأَنَّهَا بَانْكَشَافُهَا تَسَوَّى صَاحِبُهَا . [المصباح المنير] .

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد في مسنده (٢٥٦/٦) عن ابن هزيرة .

وما دام الحق سبحانه قد قال : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ﴾ فلن نجد أحداً قادراً على ذلك ، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة ؛ ومن كان يبيع له الله تعالى أن يملك شيئاً في الدنيا لم يعد مالكا لشيء ، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه :

﴿ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد بيشري الدنيا وبشرى الآخرة ، فلا تبديل لما حكم به الله ، فلا شيء يتأبى على حكم الله تعالى ، والوعد بالبشرى في الدنيا وفي الآخرة فوز عظيم مؤكد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) ﴾

تجيء هذه الآية بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار ، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه ، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألا يفعل لما قالوه انفعال الحزين ، فقد قالوا : ساحر ، وكاذب ، ومُفْتَرٍ ، ومجنون ، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه ، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ !

إذن : كَذَّبَ قَوْلُهُمْ فِي أَنَّهُ ﷺ سحر عبيدهم وأولادهم .

وقالوا : مجنون ، ولم يكن في سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون ، وفند أقوالهم هذه بقوله سبحانه :



ولسائل أن يقول :

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبني على الوصل ؛ وآخر حرف في كل سورة تجده مُنَوَّنًا ، وليس في القرآن ما يلزم الوقف للقاريء ؟

وأقول ردًّا على هذا التساؤل : إن العلماء حين لاحظوا ضعف ملكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القاريء - الذي لا علم له بالبيان العربي - كيف يقرأ هذه الآية ، فهب أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿ .. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (١٥) إلى ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (١٥) ويخطيء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هي أمر يحزن النبي ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لتدقق القراءة وتُحسِّن الفهم .

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿ .. وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ .. ﴾ (١٥) ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. ﴾ (١٥) ؛ وبهذا نفهم المعنى ؛ يجب ألا نحزن يا محمد ؛ لأن أقوالهم لن تغير في مجرى حتمية انتصارك عليهم . ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ في أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هي البلاغ فقط ، وليس عليه أن يلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبين له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن عما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حجة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا<sup>(١)</sup> أَنْفُسُهُمْ .. ﴾ (١٦) [التمل]

(١) الجحود : الإنكار رغم العلم . واستيقن الأمر : علمه على سبيل اليقين . [لسان العرب : مادة (ي ق ن)] .

وأقول لهم لن تقف في سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجِير ولا يُجَار عليه .

وإذا كانت العزة هي القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجَّة ، وقد تكون عزة حُلف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة في كل محيط وفي كل مجال ، شاملة لكل شيء وأى شيء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القصر<sup>(١)</sup> في هذه الآية ؟

أى : أن تأتي الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيد مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلان ليس له كذا .

وإن قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلان كذا» ، ولفلان كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمنعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شيء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . ﴾ (٦٥) وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائي يخبر به الله سبحانه خيراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر باخر بطريق مخصوص ، وهو إنبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ، وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٤/٣٩٩] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتي قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة. وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُزِل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم <sup>(١)</sup> العزة لنفسه وقالوا :

﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ (٨) ﴿ [المتفقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن : فالعزة قد ادّعت ، وما دامت قد ادّعت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر ؟

نقول : لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) ﴿ [المتفقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ إِنْ عِزَّةٌ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ،

إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإن كانت عزة القبض على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبى راس التفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى النضير فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال : « قد نأفرونا وكأفرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش إلا كما قال الأول : سَمْنٌ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير ذلهم » . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .



## سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦٠﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٧٠﴾

العزیز ، وإن كانت عزة الخُلم فهو الخليم ، وإن كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى :

﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦٥) [يونس]

وما دامت العزة هي الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يحيى بالسمع ، وإن كان فيه فعل ، فهو يأتي بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل .

ونحن نعلم أن المنهى عنه هنا هو : ﴿ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ (٦٥) [يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ .. أولاً .

ويريد الحق سبحانه أن يدلل على هذه القضية دلالة كونية في آيات الله تعالى في الكون ، وليس في الوجود أو الكون من يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلاحظ أن قانون «العزة لله جميعاً» محكوم بأن الله تعالى ما في السموات وما في الأرض .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۚ

وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

شُرَكَاءَ إِلَّا يَسْتَعِينُونَ ۚ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ

إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يخرج كائن من كان عن ملكه .

ومسألة توحيد الحق سبحانه يبين الشيء وضده ، فهو يأتي بالقانون والإطار

(١) يخرصون : يتعون ظنونهم وكذبهم [تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٤)] .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ (٢٨٩) [البقرة]

ومثال ذلك : حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى : ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١) [الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبين لهم أن البحر لن يعرق مشيئته سبحانه ؛ ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلت البحر ، فكان كل فرق كالطود العظيم<sup>(١)</sup> .

فلا شيء يخرج عن ملكه سبحانه تعالى ؛ ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فرق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ دَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٦٤) [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبين الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً .

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٩١) قال كلا إن معي ربي سيهدين (٩٢) فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم (٩٣) وألقا ثم الآخرين (٩٤) وأنجينا موسى ومن معه أجمعين (٩٥) ثم أغرقنا الآخرين (٩٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (٩٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴿[١٠٠ : ١٠١] .

والفرق : انفلق أو الجزء منه : والطود : الجبل الكبير - [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٦)] ، و[السان العرب : مادة (ف ر ق)] .

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه :  
﴿ يَا بَنِيَّ ارْكَب مَعَنَا ۖ ۝ (٤٢) ﴾ [هود]

فَيُرَدُّ الْإِيْنُ قَائِلًا:

﴿مَأْوَى إِلَى جِبَلٍ يُخَصِّمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (٤٣) [معد]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه ،  
ولكن ابن نوح نسي أن الله تعالى جندياً آخر هو الموج ؛ فكان من المغرقين .  
صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على  
«الجودي»<sup>(١٣)</sup> ، وأن من يركبها لن يغرق ، وكذلك من يأوي إلى الجبل  
العالي ، لكنه لم يفطن إلى الموج الذي حال بينه وبين الجبل ؛ فكان من  
المغرقين .

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى ، وما دامت العزة لله جميعاً فمصدقها أن لله تعالى ما في السموات وما في الأرض ، وليس هناك كائن في الوجود يتأبى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه ، فيكون جندياً للإهلاك ، وجندياً للنجاة في نفس الوقت <sup>(٧)</sup> .

وقول الحق سبحانه هنا: (أَلَا) نعلم منه أن (أَلَا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرّة ، ولا تقوته حكمة من حكم الكلام ، وينتبه إلى أن

(١) يقول رب العزة سبحانه: **وَقَالَ سَاقَىٰ إِلَىٰ جَهَنَّمَ بِقِصَصِي مِنَ الْمَاءِ قَالُوا لَا جَاسِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ زَجَرَ**  
**وَحَالٍ بَيْنَهُمَا السَّمُوحُ فَلَمَّا مِنَ الْمُتَفَرِّقِينَ (٦٢) ٦٣ [هُود]** لقد اعتقد ابن توم بجبهه أن الطوفان لا يبلغ إلى  
 رؤوس الجبال، وأنه لو تعلّق في رأس جبل لنجاة ذلك من الغرق. (تفسير ابن كثير ٤/٤٤٦).

(٢) الجردى: قال ساجد: هو جبل بالجزيرة، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام. [تفسير ابن كثير ٤/٤٤٦]. وقيل: إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول.

(٢) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٥٤) ﴿الفتح﴾ ويقول أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٥٥) ﴿المائدة﴾.

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما في هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

ولقائل أن يقول : هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَنْ﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرد على هذا القائل :

وهل هناك أي شيء في الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (١) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ نَهَا ﴾ (٥) [الزلزلة]

إذن : فكل الكائنات في عرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «مَنْ» أو بـ «مَا» ، وكل من في الوجود يفهم عن الله .

ونلاحظ أن الحق سبحانه يأتي مرة بالقسول : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴾ (٨٦) [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٦٦) [يونس]

كما جاء في هذه الآية التي نحن بصددتها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً في الوجود يوجد في السماء

ويوجد في الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات "أمراء" هؤلاء هم

المقصودون بأن لله ما في السموات والأرض .

١٦٦ المدبرَات أمراء هي الملائكة تُدبِّرُ الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل -

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس في السموات لا يوجد في الأرض وهم  
الملائكة المهيمون<sup>(١)</sup> العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن  
لله تعالى جنوداً في الأرض ليس لهم وجود في السماء ، فإن لاحظنا  
الملائكة المديرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ .. (٢٨٥)﴾

[البقرة]

مناسب لها .

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين في السماء ، وجنوداً في  
الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ .. (٦٦)﴾

[يونس]

وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده  
سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر  
على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو  
تعالى يعمى بصر من يرقب الغار<sup>(٢)</sup> .

إذن : قلن يجبر<sup>(٣)</sup> شيء على الله تعالى ، ويستظل له صفة العزة

(١) المهيمون : الذين يهيمنون في عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم  
القائمين فلا يركعون ، والزكع فلا يستجدون ، والسجود فلا يرفقون : هناك الملائكة الكروبيون ، وهم  
أقرب الملائكة لحمة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ  
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٢٤)﴾ [غافر] .

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فاصرة حتى يسمع كلام الله ..  
(٢١)﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿... وهو يجير ولا يجار عليه .. (٥٥)﴾ [المؤمن]  
أي : أنه يتكفل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجبر من يريد الله عقابه : [القاموس القويم -  
بتصرف] .

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث في هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار  
وأبى الله على بابه شجرة وأوجد حمايتين ترقدان على البيض ، وهنكيتاً كبيراً قد سد باب الغار  
بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين ،

لا يخذلونها خادش من وجود الله في الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ...﴾ (٦٦) [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء ، رغم أن الأصل والحقيقة  
ألا شركاء له سبحانه .

إذن : فهم يتبعون غير شيء ، والدليل على ذلك موجود في طي  
القضية ، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى ، ومعنى العبادة أن بطاع أمر  
وينهى نهى ، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهي ، فليس هناك  
منهج جاءوا به .

إذن : فلا ألوهية لهم .

إذن : فالأصل ألا شركاء لله تعالى ، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً  
ولأوجدوا أوامر ، وكان لهم نواه ، لأن الذي يقول : «اعبدني» إنما يحدد  
طريقة وأسلوب العبادة . وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم  
يكون له منهج ، ولن يستطيعوا ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُتْفِرُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ  
مَبِيلًا﴾ (١٦) [الإسراء]

أى : أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التي تضيء  
والقمر الذي يتيّر ، والمطر الذي ينزل من السماء ، والملائكة التي تدبر  
الأمر ، لو صدقنا أن كل هؤلاء آلهة ، فهم سيبحثون عن الإله الواحد  
الأحد ؛ ليأخذوا منه القوة التي ظنتم أنها لهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٦١)﴾ [الزمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ . (٥٧)﴾ [الأنعام]

وهم قالوا إنهم يعبدون الملائكة ، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى ، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم ، إذن : فأنتم تتبعون الظن .

لذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ (١) وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢)﴾ [يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يوجدوا في القرآن ظاهراً تعارضاً لشككوا فيه ، قالوا : إن هذه الآية مثال على ذلك ؛ فيقولون : في بداية الآية يقول : ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ . (٦٦)﴾ [يونس] فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله ، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتبعون الظن والخرض ، ففي أولها ينفي الاتباع ، وفي آخرها يشبه .

(١) الظن : ما يحصل في النفس عن أمانه ، فهو شك واجح وفعله من أفعال الزحمان ، من باب نصنر . والظن مصدر ، والظن : اسم لهذا الحاطر الذي يحصل في النفس . قال تعالى : ﴿وَمَا تَعْلَمُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون ، ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى : ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ (٣٦)﴾ [الحاقة] بمعنى ثقنت . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٢) الخرض : الكذب والقول بغير علم . وقال تعالى : ﴿فَقُتِلَ الْغَوَاصُّونَ (٤٥)﴾ [الذاريات] قال الزجاج : أي : الكذابون . [لسان العرب : مادة (خ ر ص) - بتصرف] .

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً في الآية ، فالله سبحانه ينفي أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله في ملكه ، فإِنَّهُ من في السموات ومن في الأرض ، ولكنه ثبت أنهم يتَّبِعُونَ الظن والخرص والتخمين .

ونقول : ما هو الظن ؟ وما هو الخرص ؟

إن الظن حكم بالراجع كما أوضحنا من قبل في النسب من أن هناك نسبة إن لم تكن موجودة فهي مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإن كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك . وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً .

الظن - إذن - حكم بالراجع . والخرص : هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦) [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتي بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتَّبِعُونَ الظن والخرص .

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان : قسم يُعلم حقيقة الشيء ، ولكنه يغير الحقيقة إلى إفك<sup>(١)</sup> وإلى خرص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشيء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

(١) أفك ، يأفك ويأفك - من باب «فرج» و«ضرب» : كذب واغتري باطلاً والإفك بكسر الهمزة :

الكذب : وأفك صيغة مبالغة أي : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿وَيَسِّرْ لَكَ أَفْكَائِهِمْ﴾ [الحانية] .

[القاهر من القويم] يتصرف .



إذن : فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبِع - بفتح الباء -  
المُتَّبِع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملئ ، يشوه الحقيقة  
ويزينها ، أما المُتَّبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أماء فأخذ  
كلامهم بتضديق .

إذن : فالمُتَّبِع ( بكسر الباء ) يكون الظن من ناحيته ، أما المُتَّبِع ( بفتح الباء )  
فيكون الخَرَص والكذب والافتراء من ناحيته ؛ ولذلك يقول لنا الحق  
سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)  
[البقرة]

وهؤلاء - إذن - يصدقون ما يقال لهم ؛ لأنهم أميون ، والكلام الذي  
يقال لهم راجح ، وهم لو فكروا بحقولهم لما انتهروا إلى أنه كلام راجح .  
أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (٧٩)  
[البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتي منهم الخَرَص والإفك وقول الزور والبهتان .  
إذن : فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن ، وينطبق عليهم  
قول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ (٨٠) .

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق  
سبحانه : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٨١) .

(٧٨) البهتان : الافتراء والكذب - قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِتَانٍ بِفَوْتَةٍ ﴾ (٧٩) [المنحة] [لسان العرب : مادة (ب ه ت) ] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ  
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ  
يَسْمَعُونَ﴾

وثناء الحق سبحانه بعد أن بيّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدعيه الكافرون في نبي الرسالة ، وبعد أن بيّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتي بالكلام عن آياته سبحانه في الكون تأييداً للمطلوب بالموجود .

فالمطلوب أن تؤمن برسول يبلغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعا لنا ، وإن أراد أحد دليلاً على ذلك فليتنظر إلى الآيات التي وجدت للإنسان من قبل أن يكلف ، أهي في مصلحته أم في غير مصلحته ؟

ومادامت الآيات الموجودة في الكون - والمسخرة للإنسان - تفيد الإنسان في حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وقور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلفاً .

إذن : فآله سبحانه لم يكلف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع .

فإذا ما جاء لك التكليف ، فقس ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونية التي سبقت التكليف نافعة لك قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فخذ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلب منك تكليفاً ، فكما نفعل في الأولى ، فالحق سبحانه

سيضعك باتِّباعك التكليف ، واستقبال حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد<sup>(١)</sup> .

ونحن نعلم أن الأصل في الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكليف قد جاء على نفس المثال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وثمنت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت في مراداتك ، ثم تحبىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يصلح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمني للراحة ، وأنت في حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذي تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة :

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبين لنا أنه كما قسم الوجود الإنساني إلى مرحلتين :

الأولى : هي ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هي ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ..

[يونس]

﴿ ٦٧ ﴾

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْسَحُوا لِعِبَادَتِهِ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْبَشُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٢٠) نَحْنُ أَوْلَا بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْتَرُونَ (٢١) ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة في الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يرد فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله<sup>(١)</sup> .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك في أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تنوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سليك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها<sup>(٢)</sup> ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقاً فى الراحة .

وكذلك عُمّر الإنسان ، لم يكلف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذب» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمنهيات والمشجعات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ . وذلك فى الجرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللدجام ، وضرب فاعابه . كى تفف ولا تجرى . (اللسان العرب : مادة (ك ب ح) ) .

ويبين لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين»<sup>(١)</sup>.

والذي يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذي يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذي يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة.

وحين يكلف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذي يقضي حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهي من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول في النفس.

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والشواب والعقاب منه سبحانه.

إذن : فالأمر والنهي قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهي من ربه ورب أبيه.

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضي حركة في «افعل» و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبين لنا الله سبحانه أنه جعل في «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكل مهمة ، فلربك أن تضع مهمة شيء مكان شيء آخر ؛ حتى لا تربك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل في المخازن ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه في آية ثانية :

(١) أخرجه أحمد في مستدركه (١٨٧/٢) وأبو داود في سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، واللفظ لأحمد.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ..﴾ (٤٣) [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم ألا أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام<sup>(١)</sup> بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكون والراحة .  
ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطى القدرى ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ..﴾ (٦٧) [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخلق» ، و«الجعل» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خلق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً<sup>(٢)</sup> .

إذن : فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنَزَّه عن أى تشبيه أو مثل :

نجيد صانع الفخار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

(١) نام فلان نوماً : اضطجع أو نكس أو لبس وسكن وأطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوم فلان : أرقده ، والتأوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام وأطمأن . وانتوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكون تعطى قوة الحركة والثبات في التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف]

(٢) يقول سبحانه : ﴿قُلْ تَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِكُمْ بِضياءٍ أَفلا تَشْكُرُونَ﴾ (٦٥) قُلْ تَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِكُمْ بِظُلُمٍ تَكُونُونَ فِيهِ أَفلا تنصرون﴾ (٦٦) ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه وتبتغوا من فضله وأعطاكم تذكرياً (٦٧) [القصص] .

إبريقاً أو أصص زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحول مخلوقاً إلى شيء له مهمة .

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجه جزءاً منه ؛ ليجعله مستعياً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رثة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه .

أى : أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدي مهمة للمخلوق .

وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً .

إذن : فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة . والخلق قد يترتب عليه ملك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملك ؛ فمن عمل قدراً من الطين هو مالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه .

وهكذا نجد الخلق والجعل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تتفجع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ الشَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ..﴾ (٢١)

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، ودللها لنا ، وملكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه : «ملك» فملكته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا : إن نقل الأعضاء هو تحكم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى .

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ..﴾ (٦٧) ﴿[يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتي هنا بالأداء القرآني المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذي يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصر أم مُبصر فيه؟

وقديماً لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التي وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء<sup>(١)</sup> يخرج من العين إلى المرئي فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربي المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئي إلى العين ، بدليل أن المرئي إن كان في النور وأنت في الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه ..

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبين لنا أن النهار إنما يأتي بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو الميصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائي إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

(١) الضوء - بفتح الضاد والضم - بضمها والضمياء ، والضوء : النور الذي ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يخص الضوء لما كان صادراً من شيء مفسد بنفسه كضوء الشمس ، وقد يخصص بالنور لما كان مستمداً من غيره ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ۚ ..﴾ (٣٥) ﴿[يونس] . [الفاموس القويم] بتصرف .



[فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.. (٣٧)﴾

ويقول :

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوِرَاتٍ آيَةُ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ

[الإسراء]

مُبْصِرَةً.. (١٦)﴾

وهي مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت في ظاهر الأمر مُبْصِرَةً فيها .

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك في قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَمْشُرُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلَئِي فِيهَا مَأْرَبٌ آخَرُ (١٨) قَالَ أَتَقَهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠)﴾

[طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفرغ ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿.. خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١)﴾

[طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هي تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجرع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمرر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون .

(١) جعل الله لليل آية وهي القمر، وجعل للنهار آية وهي الشمس، وجعل آية النهار مبصرة أى : ميرة تير الكون كله ، أما القمر فقد سحا آيته وهو سواد القمر الذى فيه ، يتصرف من تفسير ابن كثير (٢٧/٢) .

(٢) أى : سعيها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ۖ...﴾ (١٦) [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (الثبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصدري) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُميَ الجيب الذى نضع فيه النقود جيِباً ، لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة .

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ...﴾ (١٧) [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (١٨) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ۖ...﴾ (١٩) [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة <sup>(١)</sup> وكأنها تقول للعين : أبصري .

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿وَالْبَصِيرَ يَنْتَرِهْنَ عَلَىٰ خِيَابِهِنَّ ۖ...﴾ (١٩) [النمل] .

(٢) بَصْرَتُهُ : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصْرٌ بالامر : علمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿فَلَبِصْرَتْ بِهِ مِنْ جَيْبِ﴾ (١٩) [القصص] أى : رآته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿وَأَبْصَرَ فَتَرَفَ يَبْصُرُونَ﴾ (٢٠) [الصافات] أى : انظر وثرب . وأبصره : جعله يبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿وَأَبْصَرَهُمْ فَتَرَفَ يَبْصُرُونَ﴾ (٢١) [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : من له عينان يبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ...﴾ (٢٢) [الأنعام] والبصرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضيء . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۖ...﴾ (٢٣) [يونس] ، وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ۖ...﴾ (٢٤) [الإسراء] وقوله : ﴿وَأَنبَأْنَا شُعْرَةَ الْوَاقِعِ مُبْصِرَةً ۖ...﴾ (٢٥) [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿إِذَا مِنْهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢٦) [الأعراف] أى : عارفون الحق . [الفاموس القويم - ينصرف] .

وهنا في الآية - التي نحن بصدد تحواطرها عنها - يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ (٦٧) ﴿يُورِثُ﴾

ولم يقل : لتتجركوا فيه ، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة ، فقال سبحانه : ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذي يتعكس على الأشياء هو الذي يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس في زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء في الإسراف في السهر ، وحين يأتي الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو في غير ذلك من أمور الترفية ، ثم ينامون في النهار ، وينسون أن الليل للرقود ، والنهار للعمل . وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام ، فالضوء يؤثر في الكائن الحي ، وقد سبق النبي ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال :

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»<sup>(١)</sup> ، وذلك حتى لا يشغل الجسم بإشعاعات الضوء التي تسبب في تفاعلات كيميائية في الجسم .

لذلك أقول دائماً : خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها ؛ لأننا يجب أن نتيج للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه ؛ لأن السهر ضار ؛ وإذا ادعى الإنسان أنه هو الذي تحضر ، فليحترم قيمة العمل الذي يصنع الحضارة ؛ لأن الآلة التي يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هي إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة ، واحترام قيمة العمل في النهار ، وقيمة الترفيه في الوقت المخصص .

نحن نساء استخدام أدوات الحضارة ، فالزمن الذي وفرته السلاجة للزوجة ؛ حتى لا تقف في المطبخ نصف النهار لتعبد الطعام ، وصارت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد في مسنده (٣٨٨/٣) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخاري .

تظهر وجبات ثلاثة أيام وتحفظها في الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنتهي الغسيل في ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام ( التليفزيون ) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء .

وهكذا نسيء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفي هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التخضر .

وعلى سبيل المثال : أقول لمن يركب سيارة : إياك أن تسرع بها في طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملا صدور الناس بالحساسية .

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان في الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزرع ويفسد الهواء .

ويجب ألا نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضراً منه .

إذن : فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا .

ولذلك قلنا في تفسير قول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (٦) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٧) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل ( أى : تغطيته للمرئيات ) وتجلّي النهار ( أى : كشف المرئيات ) فهذا ليس تعارضاً ، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار .

ثم يقول الحق سبحانه :

[الليل]

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣)﴾

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بتوعين :

الأول : هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني : هو الإنسان ذكراً وأنثى .

[الليل]

ويقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾

أى : أن حركتكم هي الموصلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعيشتنا بأنظمة الحياة : فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن نتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطي البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أستمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المشجعة فى النهار .

(١) شت الجميع يشت شتاً ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شت متفرق وجميعه أشتات . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهُمَا شَيْئاً﴾ .. (٥١) ﴿[التور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿وَأَنْ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾ [الليل] أى : متنوع من الحسب ومنه السيء وقوله : ﴿.. أَزْوَاجًا مِنْ نَحْتٍ شَتَّى (٥٧)﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿فَتَجْنِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى .. (٦٢)﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاسم من القوم - بتصرف] .

إذن : فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان في الزمان أو في الإنسان ، وقرأ جيداً قول الحق سبحانه :

﴿إِنْ سَأَلْتُمْ نَفْسِي (٤)﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين .  
وهنا في الآية - التي نحن بصدد خواطرنّا عنها - يُنهي الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول : لم يقل «إن في ذلك لآيات لقوم يبصرون» .  
ونقول : لتنبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبين في هذا الزمان مهمته ، وهو القائل في صدر الآية ووسطها :

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. (٦٧)﴾ [يونس]

فالعلة في هذه الآية هي سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين في الليل لا تؤدي مهمتها ، بل السمع هو الذي يؤدي مهمته .  
والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا (١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [الفصم]

أى : أن أحداً لن يستطيع الحركة في مثل هذا الليل السرمدي ولا أحد سيتبين شيئاً .

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . ولين سرمداً : طويل . قال الزجاج : السرمد الدائم . [لسان العرب : مادة (س ر م د) ، ٤] .

## سُورَةُ تَوْبَةٍ

والحق سبحانه هو القائل :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ  
اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ لَيْلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) [الفصص]

إذن : فقد جاء الحق سبحانه في آية الليل بالسمع<sup>(١)</sup> ، وجاء في آية النهار  
بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة في  
الليل ، يأتي الكلام عن اليأس الذي يجب أن تصدر عنه الحركة  
أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك  
بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول .

وكما تتحرك في النهار ، وترتاح في الليل لا بد أن تكون حركتك  
صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الأمر الواحد ، وهو الله  
تعالى الذي تعبد به بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يريك حركة الحياة .

والله سبحانه يقول :

﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ (٩١) [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك :

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ  
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ  
سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

(١) وهنا يلتفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآني في أسرارها ، حيث وضع الحاشية في مكان وظيفتها التي  
تستطيع الأداء فيه ، فجعل الأبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدي  
مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار في كتاب الله بلاغة بيان ،  
ومعنى برقى .

ونفس نص الآية الكريمة يكذبهم فيما يدعون .

ومثال ذلك : أنك حين تقول : « اتخذ فلان بيتاً » أى : أن فلاناً له ذاتية سابقة على اتخاذه للبيت ، وبها اتخذ البيت ، فإذا قيل : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً ۖ ﴾ (٦٥) .

[يونس]

فهذا اعتراف منهم بكمال الله تعالى وذاتيته قبل أن يتخذ الولد .

وهم قد اختلفوا فى أمر هذا الولد ، فمنهم من قال : إن الملائكة هن بنات الله وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك ، ومنهم من قال : عزيز ابن الله وهم اليهود<sup>(١)</sup> وقد كذبهم الله سبحانه فى ذلك ، وطائفة من المسيحيين قالوا : إن المسيح ابن الله<sup>(٢)</sup> ، وكذبهم الحق سبحانه فى ذلك<sup>(٣)</sup> .

ثم ما الداعى أن يتخذ الله الولد؟

هل استنفذ قوته حتى يساعده الولد ؟!

وهل يمكن أن يضعف سبحانه - معاذ الله - فيمتد بقوة الولد أو يعتمد عليه؟!

مثلاً يقال حين يواجه شيخٌ شاباً ، ويعتدى الشاب على الشيخ ، فيقال للشاب : احذر ؛ إن لهذا الشيخ ولداً أقوى منك ؛ فيرتدع الشاب ، أو أن يقول الشيخ للشاب : إن أبناى يفوقونك فى القوة ، وفى هذا اعتداد بالأولاد .

ويريد الحق سبحانه أن يغفل كل هذه الدعاوى ولتكون حركة الحياة متماسكة متلازمة ، لا متعارضة ولا متناقضة ؛ لذلك ينبغى أن يكون

(١) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّوْا ابْنَ اللَّهِ ۖ ﴾ (٦٥) . [التوبة] .

(٢) يقول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ الْنَصَارَى الْمَسِيْحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ﴾ (٢٤) . [التوبة] .

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِإِفْرَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ إِنَّهُ يُوَفُّكَوْنُ ﴾ (٦٥) . [التوبة] .



المحرك إليها واحداً تصدر منه كل الأوامر ، فلا تعارض في تلك الأوامر ؛  
لأن الأوامر إن صدرت عن متعدد فحركة الحياة تتصادم بما يبند الطاقة  
ويفسد الصالح .

ولذلك لا بد أن يكون الأمر صادراً من أمر واحد يُسَلَّم له كل أمر ،  
وهذا الإله منزّه عن كل ما تعرفه من الأغيار ، فله تنزيه في ذاته ؛  
فلا ذات تشبه ذاته ، ومنزّه في صفاته ؛ فلا صفة تشبه صفته ،  
ومنزّه في أفعاله ؛ فلا فعل يشبه فعله <sup>(١)</sup> .

وحتى نضمن هذه المسألة لا بد أن يكون الإله واحداً ، ولكن بعضاً من  
القوم جعلوا لله شركاء ، ومن لم يجعل له شريكاً ، توهم أن له ابناً  
وولداً ،

ونقول لهم :

إن كلمتكم : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ... (٦٨) ﴿ ترد عليكم ؛ لأن معنى اتخاذ  
الولد أن الألوهية وُجِدَتْ أولاً مستقلة ، وبهذه الألوهية اتخذ الولد .  
ومن المشركين من قال : إن الملائكة بنات الله .

فردّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢٦) تِلْكَ إِذَا قَسَمَ خَبَرٌ <sup>(٢)</sup> (٢٦) ﴾ [النجم]

والكمال كله لله سبحانه فهو كمال ذاتي ؛ ولذلك يأتي في وسط الآية

ويقول تعالى :

(١) وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢١) ﴾ [الشورى] ، فهو سبحانه  
لا مثل له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

(٢) خبار في الحكم : أي : جار . وقسمة خبري وخبري أي : جائزة ليس فيها حق ولا عدل . [الشان  
العرب : مادة (ض ي ز) - بصرف] .

[برنس]

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ .. (٦٨)

وسبحانه تعنى : التنزيه ، وهو الغنى أى : المستغنى عن معين  
كما تستعينون أنتم بأبنائكم ، وهو دائم الوجود ؛ فلا يحتاج إلى ابن مثل  
البشر ، وهم أحداث تبدأ وتنتهى ؛ لذلك يحبون أن يكون لهم أبناء  
كما يقول الشاعر :

❖ ابنى يا أنا بعد ما أقضى ❖

ويقال : «من لا ولد له لا ذكر له» ، كأن الإنسان لما علم أنه يموت  
لا محالة أراد أن يشمر فى الحياة فى ولده .

ولذلك حين يأتى الولد للإنسان يشعر الإنسان بالسرور والسعادة ،  
والجاهل هو من يحزن حين تلد له زوجته بنتاً ؛ لأن البنت لن تحمل الاسم  
لبن بعدها ، أما الولد والحفيد فيحملان اسم الجد ، فيشعر الجد أنه ضمن  
الذكر فى جيلين .

إذن : فاتخاذ الولد إما استعانة وإما اعتداد ، والحق سبحانه غنى عن  
الاستعانة ، وغنى عن الاعتداد ؛ لأنك تعتد بمن هو أقوى منك ، وليس  
هناك أقوى من الله تعالى ، وهو سبحانه لا يحتاج لامداد ؛ لأنه هو الأول  
وهو الآخر ، وعلى ذلك ففكرة اتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا تصح على  
أى لون من ألوانها .

ولذلك يقول الحق سبحانه مرادفاً لتلك الفكرة : ﴿سُبْحَانَهُ﴾<sup>(١)</sup>  
لأنها تقطع كل احتمالات ما سبقها ، ويُسبغ ذلك بقوله : ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لأنه

(١) سُبْحٌ يُسَبَّحُ مِنْ بَابِ نَحَّ : سَبَّحاً ، ومِباحة : عام ومر فى الماء . ومن المجاز سبَّح الجواد : أى جرى  
كأنه يسبح فى الماء ، ومن المجاز سبَّحت النجوم : أى : سارت فى أفلakها . قال تعالى : ﴿... كُلُّ فِى  
فَلَكَ يَسْجُودُ﴾ [الأنبياء : ٢٢] وعوملت معاملة العفلاء لانتظامها فى سبَّحها . وسُبَّح اسم ربك : بَرُّه  
اسمه عن كل نقص وصفه بكل كمال أو قل : سبحانه الله ومعناها أنزه الله تنزيهاً عن النقص وأصفه  
بالكمال ، وهو منصوب على المصدرية ، ومصدر نائب عن فعله . [القائوس القوم - بصرف]

## سورة النور

﴿٦٠٧٣﴾

غنى عن اتخاذ الولد ، وغنى عن كل شيء ، وقوله : ﴿سبحانه﴾ تنزيه له ، والتنزيه : ارتفاع بالمُنزَه عن مشاركة شيء له - فى الذات أو الأفعال .  
وإذا ورد شيء هو لله وصفٌ ولخلقهِ وصفٌ ، فإياك أن تأخذ هذه الصفة مثل تلك الصفة .

فإن قابلت غنياً من البشر ، فالغنى فى البشر عَرَضٌ ، أما غنى الله تعالى ففى ذاته سبحانه .

وأنت حى<sup>(١)</sup> والله سبحانه حى ، ولكن أحياتك كحياته؟ لا ؛ لأن حياته سبحانه لم يسبقها عدم ، وحياتك سبقها عدم ، وحياته سبحانه لا يلحقها عدم ، وأنت يلحق حياتك العدم .

والله موجود وأنت موجود ، لكن وجوده سبحانه وجود ذاتى ، ووجودك وجود عَرَضى .

وإذا قال الحق سبحانه :

إن له - سبحانه وتعالى - يداً ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ . (١١) ﴿ (الفتح)

فلا يمكن أن تكون يد الله سبحانه مثل يدك ؛ لأن ذاته سبحانه ليست كذاتك ، وصفاته سبحانه ليست كصفاتك ، وهو سبحانه القادر الأعلى ، ولا يمكن أن يكون مقدوراً لأحد .

ولذلك حين يتجلى الله سبحانه لخلقهِ ، فسوف يتجلى بالصورة التى

(١) حى يحيى ، كرمى يرضى وحى بالإدغام يحيى حياة وحيواناً ضد مات فهو حى ، وهو خاص بكل ذى روح ، ويطلق مجازاً على الأرض . قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ . (٢١) ﴿ [فاطر] ويستعار أيضاً معنى الصلاح والإيمان ، قال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ . (٧٧) ﴿ [الأنعام] والذى من أسماء الله الحسنى ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ ﴾ . (٢٥٥) ﴿ [البقرة] والحياة الدنيا تقابلها الحياة الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُغَاةٌ مَّغْرُورَةٌ ﴾ . (١٨٥) ﴿ [آل عمران] والحياء : مصدر مبني بمعنى الحياة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْكَيْتُ وَنَسِيتُ وَمَنِّيتُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . (١٠٦) ﴿ [الأنعام] أى : حياتى وموتى .

تختلف عن كل خيال العبد ، وهذه الصورة تختلف من عبد إلى آخر ، ولو كانت الصورة التي يتجلى بها الله سبحانه مقدوراً عليها لكان معنى ذلك أن هناك ذهنًا بشرياً قد قدر على الإحاطة بها . وما خطر ببالك فإلله سبحانه بخلاف ذلك ؛ لأن ما خطر بالبال مقدور عليه لأنه خاطر ، والله سبحانه لا ينقلب أبداً إلى مقدور عليه .

وأنت حين تأتي بمسألة في الحساب أو الهندسة - مثلاً - وتعطيها لتلميذ ويقوم بحلها ، فمعنى ذلك أن عقله قد قدر عليها ، أما إن جئت لتلميذ في المرحلة الإعدادية - مثلاً - بمسألة هندسية مقررّة على طلبة كلية الهندسة ؛ فعقله لن يقدر عليها .

إذن : لو أن الإنسان قد أدرك شيئاً عن الله غير ما قاله الله لأنقلب الإله إلى مقدور عليه ، وخلق سبحانه مُتَرَةً عن ذلك ؛ لأنه القادر الأعلى الذي لا ينقلب أبداً إلى مقدور .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أن نقول تنزيهاً لله تعالى كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، وهو التنزيه الواجب عن كل شيء يخطر ببال الإنسان عن الله تعالى ؛ وهذه السبحانية أو هذا التنزيه هو صفة ذاتية في الله تعالى ، قبل أن يوجد شيء ، وبعد أن خلق الخلق ، فعلى كل المخلوقات تنزيهه ، وبدأ الخلق في التسبيح .

والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضي ؛ لذلك تجد استدلالات القرآن في السور التنزيهية<sup>(١)</sup> تؤكد ذلك ، فيقول الحق سبحانه :

(١) فتجد التسبيح في الماضي : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿[الحديد] وفي المضارع : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) ﴿[التغابن] وفي الأمر : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) ﴿[الأعلى] وفي المصدر سبحاته ، وبهذا نلاحظ أن الماضي بسبحه ، والمستقبل يسبحه والحال يذكره ، والكون مع الزمن في تسبيح مستمر : ﴿... وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسَبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ جَلِيماً غَفُوراً﴾ (٢) ﴿[الإسراء] .

﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا  
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...﴾ (١) [الإمراء]

وإياك أن تظن أن محمداً ﷺ قد سرى بقرار من نفسه ، بل الذي أسرى به هو الحق سبحانه ، فلا تظن أن المسافة يمكن أن تمنع مشيئة الحق المطلقة ، ولا المكان ، ولا الزمن ؛ لأن الفعل منسوب لله تعالى ، ولا يمكن أن نقيس فعلاً منسوباً لله تعالى بقياس الزمان أو المكان ، أو حسب قانون الحركة النسبية ؛ لأن الحق سبحانه له طلاقة القدرة ، وأنت بشر مجرد حادث محدود الزمان والمكان .

وأنت إذا سرت من هنا إلى الإسكندرية - مثلاً - على قدميك فستقطع المسافة في أسابيع ، وإن امتطيت دابة فقد تأخذ في الوصول إلى الإسكندرية أياماً ، وإن ركبت سيارة فتوف تقطع المسافة في ساعتين ، وإن ركبت صاروخاً ، فيستصل خلال دقائق .

أى : أنك كلما زادت قوة أداة الوصول قلَّ زمن الوصول ، وهذا مرجز نظرية الحركة ، وإذا كان الذي أسرى هو الله سبحانه ، وهو قوة القوى ؛ لذلك لا يمكن أن يقاس بالنسبة لمشيئة قوة أخرى ، أو أن يقاس الأمر ببعد أو قرب المكان أو كيفية الزمان الذي تعرفه .

وإياك أن تفهم أن إسماء الله تعالى مثل إسراذك ؛ لأن الفعل إنما يأخذ قوته من الفاعل ، وما دام الفاعل هو الله سبحانه فلا أحد بقادر أن يحد أفعاله بزمن .

وقد استهل الحق سبحانه سورة الإسراء بالسبحانية وآياتها الأولى تتكلم في أدق شيء تكلم فيه رسول الله ﷺ عن ذاته بأنه قد أسرى به ، وبذلك

أثبت بحادث الإسراء حقيقة المعراج ، وأن الناموس<sup>(١)</sup> قد خُرق له ،  
وحدثنا عما نعلم لنصدق حديثه عما لا نعلم ، وحتى نقيس بما لا نعلم  
على ما نعلم ، فيؤكد لنا صدقه ﷺ في حديثه عما لا نعلم .

كلمة «سبحانه» - إذن - هي للتنزيه ، وهي لله تعالى أولاً قبل أن يخلق  
الخلق ، فقد شهد سبحانه لذاته أنه إله واحد ، ثم شهد الملائكة ،  
ويتكرر التسبيح من كل المخلوقات التي أوجدها الله سبحانه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التي جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه  
مُنَزَّه ، وله التسبيح من قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ؛ ليسبحوا ،  
ففي سورة الحديد يقول سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الحديد]

ويقول سبحانه في سورة الحشر :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الحشر]

فهل سُبِّح كل من في السموات ومن في الأرض مرة واحدة وانتهى  
الأمر؟ لا ؛ لأن الله سبحانه يقول :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ...﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن]

(١) لواميس الكون : الأسرار التي أودعها الله سبحانه وتعالى - في الكون ، من قوانين تنظم حركة أجزائه  
ومكوناته .

## سُورَةُ تَوْبَتِهَا

○ ٦٠٧٧ ○

إِذْ قَالَ السَّبْحَانِيَّةُ لِلَّهِ أَزْلاً ، وَسَبَّحَ وَيَسَبَّحُ الْخَلْقُ وَكُلُّ الْوُجُودِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، سَمَوَاتٍ وَأَرْضٍ وَمَا فِيهِمَا وَمِنْ فِيهِمَا ، وَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى .

وفي الآية التي نحن بصدد خوارطنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۖ ۞ (٦٨) ﴾ [يونس]

وعلة التسبيح والتثنية عن أن يكون له ولد تأتي في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ؛ لأن اتخاذ الولد إنما يكون عن حاجة ، إما استعانة ، وإما اعتماداً ، وإما اعتداداً ، وإما امتداداً ، وكل هذه أمور باطلة بالنسبة له سبحانه ، وهو الحق الأعلى ، وهو سبحانه القاتل في أية أخرى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ ۞ (٦٦) ﴾

[البقرة]

والقنوت<sup>(١)</sup> معناه : الإقرار بالعبودية لله تعالى والخضوع له وإطاعته .

ويقول سبحانه في الآية التي نحن بصدد خوارطنا عنها :

﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ (٦٨) ﴾ [يونس]

و«إن» قد تأتي للنفي في مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ أَمَّاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۖ ۞ (٢) ﴾ [المجادلة]

وفي قول الحق سبحانه هنا :

(١) قنوت يقتصر - ذل وخضوع ليد ، وقت المزمع بالله : أطاعه وأقر له بالعبودية ، وقنوت في صلاته خضع وإطعان ، وقنوت دعا وأطال الدعاء ، والقنوت الطاعة والدعاء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مَكُنْ لِلَّهِ وَبِوَسِيلِهِ يُعْمَلْ مَالُهَا يُؤْتِيهَا أَجْرًا مَرْغُوبًا ۖ ۞ (٥) ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُهُ قَانُونٌ ۞ (٦٦) ﴾ [البقرة] أي : خاضعون معترفون بالوحيته مطيعون - [القاموس المقوم - بتصريف]

[يونس]

﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا .﴾ (٦٨)

أى : ليس عندكم حُجَّةٌ تدل على أن الله تعالى اتخذ ولداً .

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

[يونس]

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨)

أى : أنكم لا تكونون إعلماً من الله تعالى بذلك ، فلا إعلام عن الله إلا من الله ، وليس لأحد أن يُعلم عن ربه ، فهو سبحانه من يُعلم عن نفسه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قُلْ إِنِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن الإيمان وثمرته ونهايته يأتى بالفلاح كنتيجة لذلك الإيمان ، فهو سبحانه القائل :

[الشمس]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١)

وهو سبحانه القائل :

[المؤمنون]

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)

ويقول أيضاً :

[الأعراف]

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧)

وكلها من مادة «الفلاح» وهى مأخوذة من الأمر الحسى المتصل بحياة الكائن الحى ، فمقومات وجود الكائن الحى : نَفْسٌ ، وماءٌ ، وطعامٌ ،

(١) زكَّاهَا : طهرها وبرأها من أقدار البدن والنفس .





إذن : فالفلاح مادة مأخوذة من فلاح الأرض وشفها وزرعها لتأخذ الثمرة .  
وكما أنك تأخذ حظك من الثمار على قدر حظك من الشعب ومن  
العمل ، فذلك أمر الآخرة وأمر الدنيا .

ومثال ذلك : الفلاح الذى يحرق الأرض ، ويحمل للأرض السماد  
على المطية <sup>(١)</sup> ، ثم يستيقظ مبكراً فى مواعيد الري ، تجد هذا الفلاح فى  
حالة من الانشراح والفرح فى يوم الحصاد ، وأمره يختلف عما يهمل  
الأرض ويقضى الوقت على الفقى ، ويسهر الليل أمام التليفزيون ،  
ويأتى يوم الحصاد ليحزن على محصوله الذى لم يحسن زراعته .  
وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> [يونس]  
أى : هؤلاء الذين يقولون عن الله تعالى أو فى الله تعالى بغير علم من  
الله ، هم الذين لا يفلحون .

وأوضحت من قبل أن كل ما يتعلق بالله تعالى لا يُعلم عنه إلا عن  
طريق الله . لكن ما الذى يحملهم على الافتراء ؟

نعم ، إن كل حركة فى الحياة لا بد أن يكون الدافع إليها نفعاً ،  
وتختلف النظرة إلى النفع وما يترتب عليه ، فالطالب الكسول المتسكع فى  
الشوارع ، الرافض للتعليم ، لجده راسباً غير موفق فى مستقبله ، أما التلميذ  
الحريص على علمه ، فهو من يحصل على المكافأة اللاتقة به فى المجتمع ،  
والتلميذ الأول كان محدود الأفق ولم ير امتداد النفع وضحائمه ، بل قصر  
النفع على لذة عاجلة مُضحياً بخير أجل .

(١) المطية : الدابة ، وهى الناقة التى يُركب عليها أى : ظهرها . وجمعها : مطايا . [لسان العرب : مادة  
(م ط ي) ] .

(٢) يفترون الكذب : يكذبون ، أو يقولون بغير علم . لا يفلحون : لا يفوزون ولا يتصورون . قال تعالى :  
﴿ وَقَدْ جَاءَ مِنَ الْقُرَى ﴾ [طه] .

والذي جعل هؤلاء يفتشرون على الله الكذب هو انهيار الذات ، فكل ذات لها وجود ولها مكانة ، فإذا ما انهارت المكانة ، أحس الإنسان أنه بلا قيمة في مجتمعه .

والمثل الذي ضربته من قبل بحلاق الصحة في القرية ، وكان يعالج الجميع ، ثم تخرج أحد شباب القرية في كلية الطب وافتتح بها عيادة ، فإن كان حلاق الصحة عاقلاً ، فهو يذهب إلى الطبيب ليعمل في عيادته ممرضاً ، أو (مترجياً) ، أما إن أخذته العزة بالإثم ، فهو يعاند ويكابر ، ولكنه لن يقدر على دفع علم الطبيب .

وكذلك عصاة الكفر ورؤساء الضلال حينما يُفاجأون بمقدم رسول من الله ، فهم يظنون أنه سوف يأخذ السيادة<sup>(١)</sup> لنفسه ، رغم أن أي رسول من رسل الله تعالى - عليه السلام - إنما يعطي السيادة لصاحبها ، ألا وهو الحق الأعلى سبحانه .

وحين يأخذ منهم السيادة التي كانت تضمن لهم المكانة والوجاهة والشأن والمعظمة ، فهم يصابون بالانهيار العصبي ، ويحاولون مقاومة الرسول دفاعاً عن السلطة الزمنية .

ومثال ذلك : هو مقدمُ النبي ﷺ إلى المدينة ، وكان البعض يعمل على تنصيب عبد الله بن أبي ليكون ملكاً<sup>(٢)</sup> ، ولذلك قاوم الرجل الإسلام ،

(١) وهذا مخالف لنتق الرسول ﷺ ومفهوم الدعوة ، حيث يرضى عليه الكفار المال والملك والسلطان والجاه ، فاختار رب الكل ، وقال فركته التي سجلها الزمن وحفظتها العقول الواعية : « والله ولو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أوأعلنك فيه ما تركته » أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/١) .

(٢) أورده ابن إسحاق في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا قد نظموا له الخرز لينتجوه ثم يملكونه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلب ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مُضراً على اتفاق وضغن . سيرة ابن هشام (٢/٢) .

وحين لم يستطع أمن نفاقاً ، وظل على عدائه للإسلام ، رغم أنه لو أحسن الإسلام واقترب من رسول الله ﷺ لنال أضعاف ما كان سيأخذه لو صار ملكاً .

وهكذا قادة الضلال وأئمة الكفر ، هم مشفقون على أنفسهم وخائفون على السلطة الزمنية ؛ لأن الرسول حينما يجيء إنما يسوي بين الناس ؛ لذلك يقومون ضد الدعوة حفاظاً على السلطة الزمنية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن سبب افتراءهم الكذب :

﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَاتِهِمُ الْيَنَامَ رَجَعَهُمْ ثُمَّ نَذَرَهُمْ  
الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠)

ويعزُّ - إذن - على قادة الكفر وأئمة الضلال أن يسلبهم الرياسة والسيادة داع جديد إلى الله سبحانه وتعالى ، ويخافون أن يأخذ الداعي الجديد لله الأمر منهم جميعاً ، لا إلى ذاته ، ولكن إلى مراد ربه .

ولو كان الداعي إلى الله تعالى يأخذ السلطة الزمنية لذاته ؛ لقلنا : ذاتُ أمم ذات ، ولكنه ﷺ أوضح أنه يعود - حتى فيما يخصه - إلى الله سبحانه وتعالى .

ويكشف لنا الحق سبحانه الكسب القليل الذي يدافعون عنه أنه :

(١) المتاع : وهو كل ما يتفجع به ويرغب في اقتنائه ، كالطعام ، وأثاث البيت ، والسلعة ، والأداة ، والمال [المعجم الرسيط] والمراد أن الله سبحانه وتعالى يترك الكفار يتمتعون بمتاع الدنيا الزائل - لأن الدنيا كلها لا تسوي عند الله سبحانه جناح بعوضة - ولكنه سبحانه على كفرهم بالعذاب الشديد في الآخرة ويحرمهم من نعيم الجنة . ويقصد بالمتاع أيضاً الزوجة الصالحة مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «الدنيا متاع ، وغير متاع الدنيا المرأة الصالحة» .

أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الرضاع - باب غير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، حديث (٥٩) عن عبد الله بن عمرو ، وعند أبي نعيم في حلية الأولياء (٣/٣١٠) زيادة : إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته .

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا...﴾ (٧٠) ؛ لَأَن كُلًّا مِنْهُمْ يُحِبُّ أَنْ يَقْنَعَ تَقْسَمَهُ ، بِحُصْنِ تَقْدِيرِ الْمُنْفَعَةِ ، وَكَلِمَةُ «الدُّنْيَا» لَا بَدَّ أَنْ مِنْهَا حَقِيقَةُ الشَّيْءِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ .

وَالْأَسْمَاءُ - كَمَا نَعْلَمُ - هِيَ سَمَاتٌ مُسَمَّيَاتٌ ؛ فَحِينَ تَقُولُ : إِنْ فَلَانًا طَوِيلٌ ، فَأَنْتَ تُعْطِيهِ سَمَةَ الطَّوِيلِ .

وَحِينَ تَقُولُ : «دُنْيَا» فَهِيَ مِنَ «الدُّنْيَا» أَوْ «الدَّيَّانَةِ» .

وَإِنْ اُعْتَبِرْتَ الدُّنْيَا هُوَ طَرِيقٌ مُوَصِّلٌ إِلَى الْقِمَّةِ ، فَهَذَا أَمْرٌ مُقْبُولٌ ؛ لِأَنَّ الدَّرَجَةَ الْأُولَى فِي الْوُصُولِ إِلَى الْأَعْلَى هِيَ الدُّنْيَا ، وَتَلْتَزِمُ بِمَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى فَتَصْعَدُ عُلُوًّا وَارْتِفَاعًا إِلَى الْآخِرَةِ .

إِذَنْ : فَمَنْ يَصِفُ الدُّنْيَا بِالدَّيَّانَةِ عَلَى إِطْلَاقِهَا تَقُولُ لَهُ : لَا ، بَلْ هِيَ دُنْيَا بِشَرْطِ أَنْ تَأْخُذَهَا طَرِيقًا إِلَى الْأَعْلَى ، وَلَكِنْ مَنْ لَا يَتَّخِذُهَا كَذَلِكَ فَهُوَ مَنْ يَجْعَلُ مَكَانَتَهُ هِيَ الدَّيَّانَةُ ، أَمَّا مَنْ يَتَّخِذُهَا طَرِيقًا إِلَى الْعُلُوِّ فَهُوَ الَّذِي أَفْلَحَ بِاتِّبَاعِ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى .

إِذَنْ : فَالدُّنْيَا لَيْسَتْ مِنَ الدَّيَّانَةِ ؛ لِأَنَّ الدِّينَ لَيْسَ مَوْضُوعَهُ الْآخِرَةُ ، بَلْ مَوْضُوعُهُ هُوَ الدُّنْيَا ، وَمَنْهَجُ الدِّينِ يُلْزِمُكَ بِـ «افْعَلْ» وَ «لَا تَفْعَلْ» فِي الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْجَزَاءِ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الشَّيْءِ لَيْسَ عَيْنَ مَوْضُوعِهِ ، وَأَنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَ الدُّنْيَا مُفِيدَةً لَكَ إِنْ جَعَلْتَهَا مَزْرَعَةً لِلْآخِرَةِ .

وَإِسَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ الدُّنْيَا <sup>(١)</sup> عَمْرُهَا مِلايين السنين ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْنِيكَ كِبَائِشُ فِي الدُّنْيَا إِنْ طَالَ عَمْرُهَا أَمْ قَصُرَ ، بَلْ يَعْنِيكَ فِي الدُّنْيَا مَقْدَارُ مَكْنُوكِكَ فِيهَا ، وَعَمْرُكَ فِيهَا مَظُنُونٌ ، بَلْ وَزَمَنُ الدُّنْيَا كُلِّهِ

(١) وَقَدْ وَصَفَ لِنَارِبِ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ الدُّنْيَا فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَتَاعٌ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١٠٠) [النساء] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَرْسَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاسْقَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ففَجَعَلْنَاهَا حَقِيقًا كَانَتْ لَمْ تَقْنِ إِلَّا نُفُوسٌ كَذَلِكَ نَفْعِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ (١٠١) [يونس]

مظنون ، وهناك من يموت وعمره ستة أشهر ، وهناك من يموت وعمره مائة سنة ، وكلّ يتمتع بقدر ما يعيش ، ثم يرجع إلى الله سبحانه وتعالى . وهؤلاء الذين ضلُّوا وقالوا على الله سبحانه اقتراء ، هؤلاء لن يفلتوا من الله ؛ لأن مرجعهم إليه سبحانه ككل خلقه ، وهؤلاء المُضِلُّون لم يفتتوا إلى عاقبة الأمر ، ولا إلى من بيده عاقبة الأمر ، ولم يرددعوا .

ولكن من نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن في الدنيا فمرجعه إلى حسن الثواب والجنة ، ومن ثم ينظر إلى عاقبة الأمر وافترى على الله - سبحانه وتعالى - الكذب فالناب والمال<sup>(١)</sup> إلى العذاب مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ تَذِيْقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧)

ودرجة العذاب تختلف باختلاف المعذَّب ، فإن كان المعذَّب ضعيفاً ، فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإن كان المعذَّب متوسط القوة ؛ فتعذيبه يكون متوسطاً ، أما إن كان المعذَّب هو قوة القوى فلا بد أن يكون عذابه شديداً ، وهو سبحانه الحق القاتل :

﴿ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١٢)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن مبدأ تنزيه الألوهية عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه الغنى الذي له ما في السموات والأرض ، وبين لنا سبحانه أننا يجب أن نأخذ المنهج من مصدر واحد وهو الرسل المبلَّغون عن الله تعالى ، شاء الحق سبحانه أن يكلمنا عن موكب الرسالات ؛ لأن الكلام حين يكون كلاماً نظرياً ليس له واقع يستند ، فقد تنسحب النظرية عليه .

أما إن كان للكلام واقع في الكون يؤيد الكلام النظري ، فهذا دليل على صحة الكلام النظري ؛ ولذلك فتحن حين نحب أن نضخم مسألة من

(١) المال والمال : المرجع والمصير .

(٢) أليم : صيغة مبالغة من الألم ، وشديد : صيغة مبالغة من الشدة ، أي : شديد الألم .

المسائل في داء اجتماعي ، نحاول أن نصنع منه رواية ، أي : أمراً لم يحدث حقيقة ، ولكننا نتخيل أنه حقيقة ؛ لنبين الأمر النظري في واقع متخيل .

ويقص علينا الحق سبحانه في القرآن قصصاً من الموكب الرسالي ؛ ليعين للكفار : أنكم لن تستطيعوا الوقوف أمام هذه الدعوة ، وأمامكم سجل التاريخ ، وأحداث الرسل مع أممهم ؛ المزيدين بالمؤمنين ؛ والكفار المعاندين والمعارضين ، فإن كان قوم من السابقين قد انتصروا على رسولهم ، فللكفار الحق في أن يكون لهم أمل في الانتصار على رسول الله ﷺ .<sup>(١)</sup>

ولا بد أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى أناس لهم علم ببعض أحداث الموكب الرسالي . ولكن قد يكون علم هذا قد بهت ؛ لأن الزمان قد طال عليه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُوا بِقَوْمٍ إِنْ كَانُ كِبَرُكُمْ عَلَيْهِمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِشَايَأْتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحت الكافرين وغيرهم على النظر في عاقبة المكذبين والمجرمين ، نحو قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾<sup>(١)</sup> [الأنعام] . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> [التعليل] .

(٢) كبر : عظم وشق عليكم . مقامي : إقامتي بينكم . تذكيري بآيات الله : دعوتي إليكم إلى الإيمان بالله تعالى . فعزمت على قتالي وطردي ، فبالله أمنت ، وبه وثقت ، وعليه اعتمدت وتوكلت . فأجمعوا أمركم : اعزوا على ما تمزنون عليه وادعوا شركاءكم . غمة : ملتبساً بينهما ، أي : كونوا جميعاً يداً واحدة ضدّي ، واقضوا إليّ : أي : امضوا إلي ما في أنفسكم وافرقوا منه . ولا تُنظرون : لا تؤخرون ولا تمهلون . وشدة إيمان نوح - عليه السلام - بالله تعالى وثقته في نصرته إياه هي التي دعته لأن يتحدث قومه الكافرين هذا التحدي ؛ فكان نصرته له ، والفرق والهلاك لأعدائه بالظوفان . [مختصر تفسير الطبري - بتصرف] .

ولفائل أن يقول: ولماذا جاء الله سبحانه هنا بخبر نوح - عليه السلام - ولم يأت بخبر آدم - عليه السلام - أو إدريس - عليه السلام - وهما من الرسل السابقين على نوح عليه السلام ؟

ومن هنا جاءت الشبهة في أن آدم لم يكن رسولا ؛ لأن البعض قد ظن أن الرسول يجب أن يحمل رسالته إلى جماعة موجودة من البشر ، ولم يقطن هؤلاء البعض إلى أن الرسول إنما يرسل لنفسه أولاً .

وإذا كان آدم - عليه السلام - أول الخلق فهو مرسَل لنفسه ، ثم يبلغ من سوف يأتي بعده من أبنائه .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى التجربة لآدم - عليه السلام - في الجنة ، فكان هناك أمر ، وكان هناك نهى هو ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ۖ ۞ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحذّره من الشيطان <sup>(١)</sup> ، ثم وقع آدم عليه السلام في إغواء الشيطان ، وأنزله الله تعالى إلى الأرض واجتباؤه <sup>(٢)</sup> ، وقاب عليه ، ومعه تجربته ، فإن خالف أمر ربه فسوف يقع عليه العقاب ، وحذره من اتباع الشيطان حتى لا يخرج عن طاعة الله تعالى .

(١) الشيطان : كفى عاد مشرود من الإنس والجن ، والشيطان من الجن مخلوق حيث خلق من النار ، وهو عدو للإنسان يغريه بالشرك إلا من حفظه الله بإيمانه بقول الحق : ﴿ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۞ (٧٧) ﴾ [الحجر] أي : حفظ السماء من عبث الشياطين وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا ۖ ۞ (٣٥) ﴾ [فاطر] وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ۖ ۞ (٣٦) ﴾ [الأنعام] [الغاموس القويم - بتصرف]

(٢) اجتباؤه : اصطفاؤه واختاره ، ومصداقه قوله تعالى عن آدم : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ قَتَابًا عَلَيْهِ وَهْدًى ۖ ۞ (١٢٢) ﴾ [طه] .



إذن : فقد أعطاه الحق سبحانه المنهج ، وأمره أن يباشر مهمته في الأرض ؛ في نفسه أولاً ، ثم يبلغه لمن بعده .

وكما علمه الحق سبحانه الأسماء كلها ، علم آدم الأسماء لأبنائه فتكلموا : وكما نقل إليهم آدم الأسماء نقل لهم المنهج ، وقد علمه الحق سبحانه الأسماء ؛ ليعمر الدنيا ، وعلمه المنهج ؛ ليحسن العمل في الدنيا ؛ ليصل إلى حسن جزاء الآخرة .

واقراً قول الحق سبحانه وتعالى :

[طه]

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١)﴾

ويتبعها الحق سبحانه بقوله تعالى :

[طه]

﴿ثُمَّ اجْتَنَاهُ .. (١٢٢)﴾

ومعنى الاجتناء : هو الاصطفاء بالرسالة لنفسه أولاً ، ثم لمن بعده بعد ذلك ، والحق سبحانه هو القائل :

[البقرة]

﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ مِنِّي هُدًى ... (٢٨)﴾

والهدى : هو المنهج المثزل على آدم عليه السلام ، والرسالة ليست إلا بلاغ منهج وهدى من الله سبحانه للخلق .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

[الإسراء]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾

فالسابقون لنوح - عليه السلام - هم من أبلغهم آدم عليه السلام ، والدليل هو ما جاء من خبر ابنى آدم في قول الحق سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا <sup>(١)</sup>﴾ . (٢٧) ﴿

[المائدة]

وهما قد قدما القربان إلى الله تعالى .

إذن : فخير الألوهية موجود عند ابني آدم بدليل قول الحق سبحانه :

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ  
إِنَّمَا يُتَقَبَلُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)﴾

[المائدة]

إذن : فهم قد أقرروا بوجود الله تعالى ، وأيضاً عرفوا النهي ؛ لأنه في إحدى الآيتين قال :

﴿لَنْ يَسُطَ <sup>(٢)</sup> إِلَى يَدِكَ لَتُفَنَّيَ مَا أَنَا بِسَاطِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي  
أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾

[المائدة]

إذن : فالذين جاءوا بعد آدم - عليه السلام - عرفوا الإله الواحد ، وعلموا المنهج .

إذن : فالذين يقولون : إن آدم - عليه السلام - لم يكن رسولاً ، نقول لهم : افهموا عن الله جيداً ، كان يجب أن تقولوا : هذه مسألة لا تفهم فيها ، وكان عليهم أن يسألوا أهل الذِّكْرِ ليفهموا عنهم أن آدم - عليه السلام - رسول ، وأن من أولاده قابيل وهابيل ، وقد تكلمنا في التفوى .

أما ماذا جاء الحق سبحانه هنا بالحديث عن نوح ، عليه السلام ، فلنا أن نعلم أن آدم عليه السلام هو الإنسان الأول ، وأنه قد نقل لأولاده المنهج

(١) القربان : هو ما يتقرب به العبد إلى الله أو إلى الآلهة الزعمية ، وقد كان أحد أبناء آدم صاحب غنم ، فقرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه ، أما الآخر فكان صاحب حرث فقرب فقرّب أشتر حرثه غير طيبة بها نفسه ، فتقبل الله قربان صاحب الغنم الذي قدم أفضل ما عنده طيبة بها نفسه ، انظر تفسير ابن كثير (١٢/٢) .

(٢) بسطت : مددت .

المُبَلَّغَ لَهُ ، ودلَّهم على ما ينفعهم ، ثم طال الزمن ونشأت الغفلة ، فجاء إدريس عليه السلام ، ثم تبعته الغفلة ، إلى أن جاء نوح عليه السلام .

وهنا يأتي لنا الحق سبحانه بخبر نوح - عليه السلام - في قوله :

﴿وَإِذْ قَالَ نُوحٌ لِّقَوْمِهِ .. (٧٧)﴾ [يونس]

والنبا : هو الخير الهام الذي يلفت الذهن ، وهو الأمر الظاهر الواضح .

والحق سبحانه يقول :

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

[النبا]

إذن : فالنبا هو الخير الهام المُلَفَّت ، وقد جاء هنا خبر نوح - عليه السلام - الذي يُبلِّغ قومه أي : يخاطبهم ، وهو قد شهد لنفسه أنه رسول يبلغ منهمجاً .

وكلمة «قوم» لا تطلق في اللغة إلا على الرجال<sup>(١)</sup> ، يوضح القرآن ذلك في قول الحق سبحانه :

﴿لَا يَسْخِرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ .. (١١)﴾ [الحجرات]

إذن : فالقوم هم الرجال ، والمرأة إنما يُبنى أمرها على السر ، والحركة في الدنيا للرجل ، وقد شرحنا ذلك في حديث الحق سبحانه لآدم - عليه السلام - عن إبليس ، فقال تعالى :

(١) القوم : جماعة من الرجال ليس معهم نساء ، ويستعمل لفظ القوم فيشمل الأمة كلها رجالاً ونساءً ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . قال ابن منظور في اللسان (مادة قوم) : «ربما دخل النساء فيه على سبيل التبعية ؛ لأن قوم كل نبي رجال ونساء» .

﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿

[طه]

ولأن الخطاب لآدم فقد قال الحق سبحانه : ﴿فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿ [طه]

ولم يقل : فتشقى ؛ مما يدل على أن المرأة لا شأن لها بالأعمال التي خارج البيت والتي تتطلب مشقة ، فالمرأة تقرر<sup>(١)</sup> في البيت ؛ لتحتضن الأبناء ، وتُهيئ السكن للرجل بما فيها من حنان وعاطفة وقرار واستقرار ،

أما القيام والحركة فللرجل .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (١١٧) ﴿ [طه]

إذن : فالكدح للرجل ومتطلبه القيام لا القعود .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان نوح - عليه السلام :

﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانِ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي . .﴾ (٧١) ﴿ [يونس]

وهنا يُحسِّن نوح قومه بإضافات التحنن ، أي : جاء بالإضافة التي تُشعر المخاطبين بأنه منهم وهم منه ، وأنه لا يمكن أن يغشهم فهم أهل ، مثل قول النائب الذي يخطب في أهل دائرته الانتخابية : «أهلي وعشيرتي وناخبي» وكلها اسمها إضافة تحنن .

وكذلك مثل قول لقمان لابنه :

﴿يَا بُنَيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) ﴿ [لقمان]

(١) القر في البيت : الاستقرار فيه ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَرْجِعْ الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَى﴾ (٢٢) ﴿ [الأحزاب] .

وقوله:

﴿يَا بَنِي إِدْرَاكَ إِنَّكَ مُثْقَلٌ حَبًّا مِنْ حَرْدَلٍ﴾ "فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾" [البقره]

وقوله:

﴿يَا بَنِي إِدْرِيسَ أَقِمِ الصَّلَاةَ.. (١٧)﴾ [لقمان]

وهذه إضافات التحنن وفيها إيناس للسامع أن يقرب ويستجيب للحق..

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي...﴾ (٧١) ﴿يُونُس﴾

والكاف والياء والزاء تأتي لمعنيين:

الأول: كبر السن ، وهى: كبريكبر .

**والثاني: العظمة والتعظيم ، إلا أن التعظيم يأتي ليبين أنه أمر صعب**

على النفس ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿...كَبُرَتْ <sup>(١١)</sup> كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

[الکھف]

أي: أن هذه الكلمة التي خرجت من أفواههم أمر صعب وشاق ، وهي

قولہ:

(١) مثقال حبة من خردل: زنة حبة من خردل. والمخردل: نبات عشبى ينبت فى الخفول وعلى حواشى الطرق، تستعمل يؤثرة فى الطب، ومنه يؤخذ يتمل بها الطعام. الواحدة خردلة. ويضرب به المثل فى الصغر، فيقال: ما عندي خردلة من كذا. [المعجم الوسيط: مادة (خ ر د ل)].

(٢) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ (٢٠) ﴿[الكهف] أَيْ: أَنْ يَقُولَ الْكَافِرُونَ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ - وَلَدًا، قَوْلٌ فِيهِ خَطَأٌ كَبِيرٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ مَنْزُوعٌ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْأَوْلَادِ، وَعَنِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٢١) ﴿[مريم]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢) ﴿[يونس] مِنْ إِثْبَاتِ الْوِلْدَانِ، وَالْوِلْدَانُ يَقْتَضِي لِلْجَانِسَةِ وَالْمِثْلِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَجَانِسُ شَيْئًا، وَلَا يُمِثِّلُهُ شَيْئًا.

﴿.. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [١٤] ﴿[الكهف]

وهذه الكلمة إنما تعظم على المؤمن ، وهي مسألة ضعية لا يمكن قبولها فلا يوجد مؤمن قادر على أن يقبل ادعاء خلق من خلق الله تعالى أن له سبحانه ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..﴾ [١٥] ﴿[الشورى]

أى : عَظُمَ على المشركين ، وصُعِبَ على أنفسهم ، وشَقُّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهكذا ، إن كانت الكلمة مناقضة للإيمان فهي تكبر عند المؤمنين ، وإن كانت الكلمة تدعو الكافرين إلى الإيمان فهي تشق عليهم .

وهنا يأتى على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي<sup>(١)</sup> ..﴾ [٧١] ﴿[يونس]

ونحن نعلم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) المقام : مصدر ميمي بمعنى القيام واسم مكان القيام الخسى ، ويعطى مجازاً على المكانة والمنزلة الأدبية ،

وقوله : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..﴾ [١٦٠] ﴿[البقرة] أى : مكان قيامه المسجد الحرام . وقوله :

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [٢٨٥] ﴿[الشعراء] أى : موطن فيه خيرات . وقوله : ﴿وَمَا مَثَا إِلَّا لَهْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾

[١٦١] ﴿[الصافات] أى : منزلة معلومة . وقوله : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِ بِآيَاتِ اللَّهِ ..﴾

[٧٢] ﴿[يونس] أى : قيامى بالدعوة إلى الله وتذكيركم بآياته ، ومقام هنا مصدر ميمي .

والمقام (بالضم) مصدر ميمي من أقام الرباعى للزيد بالهمزة بمعنى الإقامة . واسم مكان واسم زمان .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ

بَيْنَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [١٧٢] ﴿[الأحزاب] أى : لا إقامة لكم فى أمن مع المجاهدين

فارجعوا إلى بيوتكم . . . [القاموس الثوم - بتصرف] .

أى : أن حياته طالت كثيراً بين قومه ، كما أن تفريره للكافرين جعله ثقيلاً عليهم .

أو أن : ﴿ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ۖ ﴾ (٧١) [يونس]

تعنى : أنه حملهم ما لا يطيقون ؛ لأن نوحاً - عليه السلام - أراد أن يُخرجهم عما ألفوا من عبادة الأصنام ، فشقَّ عليهم ذلك .  
إذن : فمبدأ عبادة الإله الواحد يصعب عليهم .

أو أن الأصل فى الواقع أو المبلغ أن يكون على مستوى القيام وهم قعود ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يتكلم مع الخواريين وهو واقف ، والوقوف إشعار بأن مجهود الهدى يقع على سيدنا عيسى - عليه السلام - بينما يقعد الخواريون ليستمعوا له فى راحة .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي ۖ ﴾ (٧١) [يونس]

أى : إنَّ صعب عليكم ما أدعوكم اليه .

ويصح أن نأخذها من ناحية طول الوعظ والتكرار فى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، أو أن مقامى كبر عليكم ، بمعنى : أننا انقسمنا إلى قسمين ؛ لأن المنهج الذى أدعو إليه لا يعجبكم ، وكنت أحب أن نكون قسماً واحداً .

وما هو ذا سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه ، وأرضاه - حين أحس أن الخلافه تقتضى أن يسمي من يخلقه من بعده ، قال له بعض الناس : لماذا لا تولي علينا عبد الله بن عمر ، فقال ابن الخطاب : بحسب

أَنَّ خُطَابَ أَنْ يُسْأَلَ مِنْهُمْ عَنْ أَمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ رَجُلٍ وَاحِدٍ . ثُمَّ أَضَافَ : أَعْلَمُ  
أَنْكُمْ مَلَلْتُمْ حُكْمِي ؟ لِأَنِّي شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ .

إِذَنْ : فَقَدْ أَحْسَنَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ انْقَسَمَ هُوَ وَقَوْمُهُ إِلَى قِسْمَيْنِ :  
هُوَ قَدْ أَخَذَ جَانِبَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ ، وَهُمْ أَخَذُوا جَانِبَ  
الْأَصْنَامِ الَّتِي أَلْفَوْا عِبَادَتَهَا .

لِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى لِسَانِ نُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٧٩) [يونس]

أَيُّ : أَنَّنِي لَنْ أَتَنَازَلَ عَنْ دَعْوَتِي ، وَنَلْحَظُ أَنَّكَ إِنْ قُلْتَ : «تَوَكَّلْتُ عَلَى  
اللَّهِ» فَقَدْ يَعْنِي هَذَا أَنَّكَ قَدْ تَقُولُ : وَعَلَى فُلَانٍ ، وَفُلَانٍ ، وَفُلَانٍ ، لَكِنَّكَ  
إِنْ قُلْتَ : ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٧٩) [يونس]

فَأَنْتَ قَدْ قَصَرْتَ تَوَكُّلَكَ عَلَى اللَّهِ فَقَطْ .

وَهَكَذَا وَاجَهَ نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَوْمَهُ ، وَرَصِيدَهُ فِي ذَلِكَ هُوَ  
الاعتماد والتوكل على من أَرْسَلَهُ سُبْحَانَهُ ، وَبِحَاوِلِ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ  
يَسْتَجِيبُوا ، وَقَالَ لَهُمْ :

﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .. ﴾ (٧٩) [يونس]

وَمَعْنَى جَمْعِ الْأَمْرِ : (أَيُّ : جَمْعُ شَتَاتِ الْأَرَءِ كُلِّهَا فِي رَأْيٍ وَاحِدٍ) ،  
أَيُّ : اتَّفَقُوا يَا قَوْمُ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ ، وَأَنْتُمْ لَنْ تَضُرُّوَنِي . وَجَمْعُ أَمْرِ  
الْأَجْيَالِ الَّتِي ظَلَّ سَيِّدُنَا نُوحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَحَاوِلُ هِدَايَتَهَا تَحْتَاجُ إِلَى  
جَهْدٍ ، لِأَنَّ الْجِيلَ الْعَقْلِيَّ يَنْقَسِمُ إِلَى عَشْرِينَ سَنَةً .

(١) سَيِّدُنَا عَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَرِدْهُمَا مُلْكًا وَإِنَّمَا أَرَادَهُمَا لِلرَّأْيِ وَالشُّورَى لِيَضْرِبَ الْمَثَلَ لِلْأَجْيَالِ  
أَنَّ الْأَمْرَ فِي حَيَاةِ الْإِسْتِقْرَارِ لِلشُّورَى مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ .. ﴾ (٢٤) [الشورى]  
وَلَكِنَّهُ أَجَابَ جَوَابًا ذَكِيًّا يَحْمِلُ مَا يَرِيدُهُ ، وَمَا يَرَادُ مِنْهُ .



وقد ظل سيدنا نوح - عليه السلام - يدعو القوم بعدد ما عاش فيهم ،  
أى : ألف سنة إلى خمسين ، فكم جيل - إذن - ظل نوح يعالجه ؟

إنها أجيال متعددة ، ومع ذلك لم يظفر إلا بقدر قليل من المؤمنين<sup>(١)</sup>  
بحمل سفينة واحدة ، ومعهم الحيوانات أيضاً ، فضلاً عن أن ابنه خرج -  
أيضاً - مع القوم الكافرين ، ونداه نوح - عليه السلام - ليركب معه وأن  
يؤمن ، فرفض ، وأثر أن يظل في جانب الكفر ، بما فيه من فناء للقوم  
الكافرين ، وظن أنه قادر على أن يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان ،  
ولم ينظر ابن نوح إلى جندي آخر من جنود الله سبحانه يقف عقبة في سبيل  
الوصول إلى الجبل ، وهو الموج .

إذن : فقول نوح عليه السلام :

﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .. ﴾ (٧١) [يونس]

له رصيد إيماني ضمني ، فلا يوجد مجير على الله من خلق الله ؛ لأن  
الخلق كله - جمادة ونباتة وحيوانه - إنما يتصاع لأمر الله تعالى في نصرته  
نوح - عليه السلام - ولن يتخلف شيء .

هكذا كان توكل نوح - عليه السلام - على الله تعالى بما في هذا التوكل  
من الرصيد الإيماني المتمثل في :

﴿ لِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ (١٢٠) [المائدة]

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢٨٤) [البقرة]

(١) ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ اثْنَيْنِ وَأَمْلَكِ الْأَنْسَ عَلَى الْقَوْمِ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [مرد] فمن ابن عباس : كانوا اثني عشر نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب  
الأخبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل غير ذلك . وأيا كان عددهم فهو قليل  
جداً بالنسبة للذة فكث نوح فيهم .

ولن يخرج شيء عن ملكه سبحانه .

ومن العجيب أنه لم يخرج عن مراد الله في «كن» إلا الإنسان المختار ،  
لم يخرج بطبيعة تكوينه ، ولكن الحق سبحانه وهبه من عنده أن يكون  
مختاراً ، ولو لم يهبه الله تعالى أن يكون مختاراً لما استطاع أن يقف ،  
ولكان كل البشر من جنود الحق .

وقد قال نوح - عليه السلام :

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> ... (٧١) ﴿

[يونس]

والإنسان حين يهمله أمر من الأمور يظل متردداً بين خواطر شتى ،  
ويحاول أن يرى ميزات كل خاطر ، ويختار أفضلها ، وإذا ما جمع الإنسان  
خواطره كلها في خاطر واحد ، فهذا يعنى استقراره على رأى واحد ،  
وجمع أمره عليه .

أما إذا كان الأمر متعدد الناس ، فكل واحد منهم له رأى ، فإن اجتمعوا  
وقرروا الاتفاق على رأى واحد ، فهذا جميع للأمر .

والاتفاق على رأى واحد إنما يختلف باختلاف هوية المجتمعين ، فإن  
كانوا أهل خير فهم يتزولون بالشر ، وإن كانوا أهل شر فهم يصعدون بالشر .

ومثال ذلك : أبناء يعقوب - عليه السلام - حينما حدث بينهم وبين  
أخيهم من الحسد لمكانة يوسف - عليه السلام - فقالوا :

(١) كلمة «شركاءكم» هنا منصوبة على أنها :

١- مفعول به لفعل مضمر تقديره : وإدعوا شركاءكم .

٢- مفعول معه ، أى : أجمعوا أمركم مع شركائكم .

٣- معطوف على أمركم ، فتكون أجمعوا بمعنى ألزم على فعل الشئ . وكذلك جمع الشركاء .

وفى ضبط «شركاءكم» تفصيل انظره فى تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٩٠) .

## سُورَةُ يُوسُفَ

٦٠١٧

﴿اَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ<sup>(١)</sup> لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ﴾ (٩٠) ﴿[يوسف]

أى : أن الاقتراح بقتل يوسف هدفه ألا يلتفت وجه يعقوب وقلبه إلى أحد سواهم ، وأتبعوا اقتراحهم بقتل يوسف باقتراح التوبة ، فقالوا لبعضهم البعض :

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ<sup>(٢)</sup>﴾ [يوسف]

وهم قد ظنوا أن التوبة إن نفذوا القتل ستصبح مقبولة .

وهذا الشر البادى فى حديثهم لم يقبله بعضهم فى بادىء الأمر ؛ لأنهم أبناء نبوة ، وما يزالون هم الأسباط<sup>(٣)</sup> ، لا يصعد فيهم الشر ، بل ينزل ، فقال واحد منهم : لا تقتلوه بل ﴿اطْرَحُوهُ أَرْضًا...﴾ (٩٠) ﴿[يوسف]

أى : أنه خفف المسألة من القتل إلى الطرح أرضاً ، وهذه أول درجة فى نزول الاختيار عن الشر الأول ، وأيضاً تنازلوا عن الشر الثانى ، وهو طرحه أرضاً ؛ حتى لا يأكله حيوان مفترس ، وجاء اقتراح : ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ<sup>(٤)</sup>﴾ "إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٩١) ﴿[يوسف]

ثم أجمعوا أمرهم أخيراً حتى نزل الشر مرة أخرى لاحتتمال ورود النجاة .

(١) يخل : فعل مجزوم لأنه جواب الأمر ، معناه : يخلص ويصفو . [تفسير القرطبي : (٣٤٥٢ / ٤) .  
(٢) قوماً صالحين : أى : ناطقين . وقيل : ﴿صالحين﴾ أى : يصلح شأنكم عند أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل . [تفسير القرطبي : (٣٤٥٢ / ٤) .  
(٣) الأسباط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبائل فى بنى إسماعيل ، فالأسباط هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً . ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسوا الأسباط . انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٨٧) .  
(٤) غيابة ، أى : مكان مظلم من الجب . والجب : البئر . أى : القنوة فى موضع مظلم من الجب ؛ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل : هو بئر بيت المقدس ، وقيل : هو بالأردن ، قاله وهب بن منبه . وسميت البئر جباً لأنها قطعت فى الأرض قطعاً . والسيارة : الجمع الذين يسرون فى الطريق للسفر ، وإنما قال القائل هذا حتى لا يحتاج إلى حمله إلى موضع بعيد ، ويحصل المقصود ، فإن من يلتقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد ، وكان هذا رجلاً فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ؛ فربما لا يأذن لهم أبوه ، وربما يطلع على قصدهم . [تفسير القرطبي : (٣٤٥٣ / ٤ ، ٣٤٥٤) .

إذن : فالأخبار حين يجتمعون على شر لا بد أن ينزل .

ومثال ذلك : رجل طيب رأى ابنه وهو يُضرب من آخر ، فيفكر للحظة في أن يضرب غريم ابنه بطلقة من (مسدس) ، ثم يستبدل هذه الفكرة بفكرة الاكتفاء بضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، ثم يتنازل عن ذلك بأن يفكر في صفعة صفتين ، ثم يتنازل عن فكرة الصفع ويفكر في توبيخه ، ثم يتنازل عن فكرة التوبيخ ويكتفى بالشكوى لوالده ، وهكذا ينزل الشر عند أهل الخير .

أما إن كان الرجل من أهل الشر ، فهو يبدأ بفكرة الشكوى لوالده من ضرب ابنه ، ثم يرفضها ليصعد شبره إلى فكرة أن يصفعه هو ، ثم لا ترضيه فكرة الصفع ، فيفكر في أن يضربه ضرباً شديداً ، ولا ترضيه هذه الفكرة ، فيقول لنفسه : « سأطلق عليه الرصاص » . وهكذا يتصاعد الشر من أهل الشر .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عليه السلام :

﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ۖ ﴾ (٧١) [توبه]

أي : اجتمعوا والزموا رأياً واحداً تحرضون على تنفيذه أنتم وشركاؤكم ، وهو ينصحهم رغم أنهم أعداؤه ، وكان عليه أن يحرض على اختلافهم ، ولكن لأنه واثق من توكله على ربه ، فهو يعلم أنهم مهما فعلوا فلن يقدروا عليه ، ولن يتصرفوا على دعوته إلا بالإقدام على إهلاك أنفسهم .

أو أنه مثلما يقول الغامة : « أعلى ما في خيولكم اركبوه » أي : أنه يهددهم ، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان له رصيد من قوة التوكل على الله تعالى .

ولا يكتفى بذلك بل يضيف :

﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾<sup>(۱)</sup> ... ﴿ ۷۶ ﴾ [یونس]

والغمة : منها الغمام ، ومنها الإغماء ، أى : فقد الوعي وسُتر العقل ،  
أى : أنه قال لهم : لا تتبعوا أنفسكم بتبادل الهمسات فيما بينكم ، بل  
افعلوا ما يخلو لكم ، ولا تحاولوا ستر ما سوف تفعلون .

إِنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تَجْتَمِعُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْبُدُونَهُمْ ، أَوْ شُرَكَاءُكُمْ فِي الْكُفْرِ ، وَلَمْ يَأْتِ نُوْحٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِتَقْوِيَةِ الْعَصِيَّةِ الْمُضَادَّةِ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ مُتَوَكِّلٌ عَلَى اللَّهِ فَقَطْ .

لذلك يقول: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١) [يونس]

أَيُّ أَنَّهُ يُحَقِّزُهُمْ عَلَى الْجَمَاعَةِ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ وَمَعَهُمْ شُرَكَائُهُمْ -  
سِوَاءَ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي عَبَدُوهَا أَوْ مِنْ أَقْرَانِهِمْ فِي الْكُفْرِ - وَأَنْ يَصْطَمُوا  
عَلَى الْمَضْيِ فِي تَفْهِدٍ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ .

و«قضى» أى : حكم حكماً ، لكن الحكم على شيء لا يعنى الاستمرار بحيث ينفذ ، فقد يُقضى على إنسان بحكم ؛ ويوقف التنفيذ .

لكن قوله: ﴿اقضوا إلى﴾ يعني: أصدروا حكمكم وسيروا إلى تنفيذ ما قضيتهم به.

ثم يقول: ﴿وَلَا تُظْهَرُونَ﴾ أي: لا تمهلوني في تنفيذ ما حكمتم به عليّ.

والتأمل للآية الكريمة يجد فيها تحدياً كبيراً ، فهو أولاً يطلب أن يجتمعوا على أمر واحد ، هم وشركاؤهم ، ثم لا يكون على هذا الأمر

(١) غُمَّةٌ وَغَمٌ سَوَاءٌ، ومعناه: الشَّغْطِيَّةُ، من قولهم: غَمَّ الْهَالِلُ إِذَا اسْتَرَى، أي: لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ ظَاهِراً مُتَكَشِّفَافاً تَمُكِّنُونَ فِيهِ مَا شِئْتُمْ، ليس كَمَنْ يَخْفَى أَمْرُهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى مَا يَرِيدُ. وهذا دليل على ثقة نوح عليه السلام من ربه سبحانه، ونصرة إِيَّاهُ عَلَى قَوْمِهِ الْكَافِرِينَ. [تفسير القرطبي: ٢/ ٣٢٩٠].

غُمَّة<sup>(١)</sup> ، ثم اقضوا إليّ ما اتفقتم عليه من حكم ونفذوه ولا تؤجلوه ،  
فهل هناك تحذراً للخصم أكثر من ذلك ؟

لقد كانوا خصوماً معاندين ، ظل نوح - عليه السلام - يترفق إليهم  
ويتحنن لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وصبر عليهم كل هذا الوقت ،  
ولا بد - إذن - من حدوث فاصل قوى ، ولهذا كان الترقى في التحدى ،  
فدعاهم إلى جمع الأمر ومعهم الشركاء ، ثم بإصدار حكمهم عليه وعدم  
الإبطاء في تنفيذه ، كان هذا هو التحدى الذى أخذ يترقى إلى أن وصل إلى  
قبول تنفيذ الحكم .

والنفسية العربية - على سبيل المثال - حين سامحت ، وصبرت ،  
وصفحت فى أمر لا علاقة له بمنهج الله ، بل بأمر يخص خلافاً على  
الأرض ، تجدهم الشاعر العربى يقول عن «بنى ذهل» الذين أتعبوا قوم الشاعر  
كثيراً ، ولكن قومه صفحوا عنهم ؛ يقول الشاعر<sup>(٢)</sup> :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهَلٍ	وَقُلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	بَنُ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ	فَأَمْسَى وَهُوَ عَرِيَانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعَدُوِّ	نَ دَنَاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشَيْنَا مَشْيَةَ الذَّنِيثِ	عَذًا وَالذَّنِيثُ غَضِيَانُ

(١) غم الشيء يغمه - كنصر - غمماً : أخفاء وغطاء ومستره وغمه الأمر : كثره وأحزنه ، قال تعالى :  
﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٨) ﴿ [الأنبياء] وَالْغَمَّةُ : النِّبَاسُ الأمر وعدم  
وضوحه ، قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَمْرٌ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ ﴾ (٧١) ﴿ [يونس] وقال : ﴿ وَخَلَقْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ  
(٧٢) ﴾ [الأعراف]

(٢) هو سهل بن شيبان ويلقب بالفنّد الزَّمانى ، نولى نحو ٧٠ ق هـ ، من بنى بكر بن وائل . شاعر جاهلى  
سمى الفنّد لعظم خلقة تشبهاً بالقطعة من الجبل ومضى الفنّد . (الأعلام للزركلى ٣/ ١٧٩) .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦١٠

يَضْرِبُ فِيهِ تَوْهِينٌ<sup>(١)</sup> وَتَخَضُّعٌ<sup>(٢)</sup> وَإِقْرَانٌ  
وَطَعْنٌ كَقَمِ الزُّقِّ<sup>(٣)</sup> غَدَا وَالزُّقُّ مَلَانٌ  
وَفِي الشَّرِّ نَجَاءٌ حَيْدٌ جَنَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانٌ  
وَبَعْضُ الْحَلِمِ عِنْدَ الْجَهْدِ سِلٌّ لِلذَّلَّةِ إِذْعَانٌ<sup>(٤)</sup>

إِذْنٌ : فَاَلْمَاجِزَةُ بَيْنَ نُوْحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَوْمِهِ اقْتَضَتْ التَّشْدِيدَ ، لَعَلَّ  
بُشْرِيَتَهُمْ تَلِينُ ، وَلَعَلَّ جَبَرَوْتَهُمْ يَلِينُ ، وَلَعَلَّهُمْ يَظْهَرُونَ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ  
تَعَالَى ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا .

لِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ عَلَى لِسَانِ نُوْحٍ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى  
اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾<sup>(٥)</sup>

أَيُّ : إِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ دَعْوَتِي لِعِبَادَةِ إِلَهِ الْحَقِّ ، فَأَنَا لَا أَدْعُوَكُمْ إِلَى مِثْلِ  
لَكُمْ هُوَ أَنَا ، بَلْ أَدْعُوَكُمْ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي وَفَوْقَكُمْ ، فَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ  
أَسْتَوْلِيَ عَلَى السُّلْطَةِ الزَّمْنِيَّةِ مِنْكُمْ ، وَلَا أَبْحَثَ عَنْ جَاةٍ ، فَالْجَاهُ كُلُّهُ لِلَّهِ  
تَعَالَى .

(١) التَّخَضُّعُ : تَغَطُّيْعُ اللَّحْمِ .

(٢) الزُّقُّ : الْإِنَاءُ .

(٣) أورد هذه الآيات أبو علي الفاي في الأمان (١/٣٩٩ ، ٣١٠) ، وهي من بحر الهرج .

(٤) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ : أَعْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتُمْ بِهِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيُّ : فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنِّي سَأَلْتُكُمْ أَجْرًا ؛ فَيُحْتَمَلُ  
عَلَيْكُمْ مَكَافَأَتِي . [تفسير القرطبي (٤/٣٢٩١)] .

(٥) إِنْ - هُنَا - نَافِيَةٌ بِمَعْنَى (مَا) أَيُّ : مَا أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ - سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى .

(٦) ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيُّ : الْمُرْجَعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى . [تفسير القرطبي (٤/٣٢٩١)] .

والله لا يحتاج إلى جاء منكم لأن جاءه سبحانه ذاتي فيه ، ولكن لنمنع جبروتكم ونجبركم ؛ لتعيشوا على ضوء المنهج الحق ؛ لتكون حياتكم صالحة ، وكل ذلك ليصلحتكم .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ۖ ۞ (٧٢) ۝ فَهَلْ يَمَالِيءُ <sup>(١)</sup> نوح - عليه السلام - أعداءه .

إن الإنسان يَمَالِيءُ العدو ؛ لأنه يخاف أن يوقع به شراً ، ونوح عليه السلام لا يخافهم ؛ لأنه يعتمد على الله تعالى وحده ، بل هو يدلهم على مواطن القوة فيهم ، وهو يعلم أن قوتهم محدودة ، وأن شرهم مهما بلغ فهو غير نافذ ، وقد لا يكون منهم شر على الإطلاق ، فهل هناك نفع سيعود على نوح - عليه السلام - ويمنع عنه ؟

لا ؛ لأنه يعلن أنه لا يأخذ أجراً على دعوته .

هم - إذن - لا يقصدرون على ضرره ، ولا يقصدرون على نفعه ، وهو لا يريد منهم نفعاً ؛ لأن مركزه بإيمانه بالله الذي أرسله مركز قوياً .

وهو لا يسألهم أجراً ، وكلمة «أجر» <sup>(٢)</sup> تعني : ثمن المنفعة ، والأثمان تكون عادة في المعاملات ، إما أن تكون ثمناً للأعيان والذوات ، وإما أن تكون ثمناً للمنفعة .

ومثال ذلك : أن إنساناً يرغب في شراء «شقة» في بيت فيذهب إلى رجل يملك بيتاً ، ويطلب منه أن يبيع له عدداً من الأسهم بقيمة الشقة .

(١) يمالىء : يعاون ويساعد . قال أبو عبيد : يقال للقوم إذا تبايعوا برأيهم على أمر : قد قالوا عليه . [لسان العرب : مادة (م ل أ)] .

(٢) الأجر : الجزاء على العمل ، والجمع : أجور . والأجر : الثواب ؛ وقد أجره الله بالجره وأجره أجرأ وأجره ، أي : أعطاه الثواب . [لسان العرب : مادة (أ ج ر)] .



وهناك آخر يريد أن يستأجر شقة فيذهب إلى صاحب البيت ؛ ليدفع له قيمة إيجار شقة في البيت ، أى : يدفع له قيمة الانتفاع بالشقة ، والأجر لا يُدفع إلا لطلب منفعة ملحّة .

وكان على نوح - عليه السلام - أن يطلب منهم أجراً ؛ لأنه يهديهم إلى الحق ، هذا في أصول التقييم للأشياء ؛ لأنه يقدم لهم نفعاً أساسياً ، لكنه يعلن أنه لا يطلب أجراً وكأنه يقول : إن عملي كان يجب أن يكون له أجر ؛ لأن منفعته تعود عليكم ، وكان من الواجب أن أخذ أجراً عليه .

ولكن نوحاً - عليه السلام - تنازل عن الأجر منهم ؛ لأنه أراد الأجر الأعلى ، فلو أخذ منهم ؛ فلسوف يأخذ على قدر إمكاناتهم ، ولكن الأجر من الله تعالى هو على قدر إمكانات الله سبحانه وتعالى ، وفارق بين إمكانات المحدود العطاء وهو البشر ، ومن له قدرة عطاء لا نهاية لها وهو الله سبحانه وتعالى .

وهنا يقول : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. ﴾ (٧٢) [يونس]

فهذا التولّى والإعراض لا يضرّنى ولا ينفعنى ؛ لأنكم لا تملكون لى ضرراً ولا تملكون لى نفعاً ؛ لأنى لن أخذ منكم أجراً .

ومن العجيب أن كل مواكب الرسل - عليهم السلام - حين يخاطبون أقوامهم يخاطبونهم بهذه العبارة :

﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. ﴾ (٨٦) [ص]

إلا في قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقصة موسى عليه السلام ؛ فعن قصة سيدنا إبراهيم يأتي قول الحق سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا بَكَافِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾  
[الشعراء]

ولم يأت الحق سبحانه فيها بشيء عن عدم السؤال عن الأجر.

وأيضاً في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - قال الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢١) وَيَصِيقَ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٢٢) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَآخَافٌ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٢٣) قَالَ كَلَّا فَادْخُلَا بَابَنَا إِنَّا نَمُكِّمُ مُسْتَمِعُونَ (١٢٤) فَأَتَا فِرْعَوْنُ فَقُلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٥) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ (١٢٦)﴾  
[الشعراء]

وهنا أيضاً لا نجد قولاً لموسى - عليه السلام - في عدم السؤال عن الأجر.

أما هنا في قصة نوح - عليه السلام - فنجد قول الحق سبحانه :

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأْمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾  
[يونس]

وكذلك جاء نفس المعنى في قصة هود عليه السلام ، حيث يقول الحق سبحانه :

(١) المكوف على الشيء هو الإقامة والاستمرار عليه، أي: أنهم مقيمون مستمرّون على عبادة الأصنام [تفسير ابن كثير (٣/٣٢٧)].

## سُورَةُ يُوسُفَ

٥٦١٠

﴿ كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٢) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٣) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٤) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٥) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٦) ﴾ [الشعراء]

وجاء نفس المعنى أيضاً في قوم ثمود ، إذ قال الحق سبحانه :

﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ [الشعراء]

وكذلك جاء نفس القول على لسان لوط عليه السلام ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾ [الشعراء]

ونفس القول جاء على لسان شعيب عليه السلام في قول الحق سبحانه :

﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (١٧٦) الْمُرْسَلِينَ (١٧٧) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٨) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٨٠) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨١) ﴾ [الشعراء]

إذن : فعالية الموكب الرسالي يأتي على ألسنتهم الكلام عن الأجر :

(١) أصحاب الأيكة : هم أهل مدين - على الصحيح - وكان نبي الله شعيب ، عليه السلام ، من أنفسهم ، وإنما لم يقل سبحانه هنا : أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة كانوا يعبدونها ؛ (ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٥)).

[الشعراء]

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾ (١٦٤)

فكان الرسل عليهم السلام يقولون للبشر الذين أرسلوا إليهم: لو أنكم فطنتم إلى حقيقة الأمر لكان من الواجب أن يكون لنا أجر على ما نقدمه لكم من منفعة ، لكننا لا نريد منكم أنتم أجراً ، إنما ستأخذ أجراً من رب العالمين ؛ لأن المنفعة التي نقدمها لكم لا يستطيع بشر أن يقوم بها ، وإنما القادر على تقييمها هو واضع المنهج - سبحانه - ومُنزله على رسله .

وها هو القرآن الكريم يأتي على لسان رسول الله محمد ﷺ ، ويقول:

[الشورى]

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ (١٢٣)

أما لماذا لم تأت مسألة الأجر على لسان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فنحن نعلم أن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا ؛ دعا عمه ، وكان للعمم حظ تربية إبراهيم ، وله على سيدنا إبراهيم حق الأبوة .

وكذلك سيدنا موسى عليه السلام ، فقد دعا فرعون ، وفرعون هو الذي قام بتربية موسى ، وكانت زوجة فرعون تريده قرة عين لها ولزوجها ، حتى إن فرعون فيما بعد قد ذكره بذلك ، وقال :

[الشعراء]

﴿أَلَمْ نَرْبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ<sup>(١)</sup> فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٢٨)

أما هنا في دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - فيأتي قول القرآن على لسان نوح بما يوضح الأمر لقوم نوح :

فإن توليتم فلا حزن لي ، ولا جزع ؛ لأنكم لن تضيقوني بضراً ، ولن تمنعوا عني منفعة ؛ لأنكم لم تسألوني أن آتي لكم بالهدى لأخذ أجرى منكم ، ولكن الحق سبحانه هو الذي بعثني ، وهو الذي سيعطيني أجرى ،

(١) لبث: عشت ومكثت بيتاً .

وقد أمرني سبحانه أن أكون من المسلمين له حقاً وصدقاً.

وفي حياتنا نجد أن صديقاً يرسل إلى صديقه عاملاً من عنده ليصلح شيئاً ، فهو يأخذ الأجر من المرسل ، لا من المرسل إليه ، وهذا أمر منطقي وطبيعي .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴾ (٧٢)

وكان الأمر الذي وقع من الحق سبحانه نتيجة عدائهم للإيمان كان من الممكن أن يشملهم ، لأنه لا يقال : نجيتك من كذا إلا إذا كان الأمر الذي نجيتك منه ، توشك أن تقع فيه ، وكان هذا بالفعل هو الحال مع الطوفان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا . . ﴾ (١٢)

[القمر]

(١) الفلك : السفينة .

(٢) خلقه بخلق من باب نصر : جاء بئذ ففسار مكانه - خلفاً وخلافة وخلفه خلفاً : صار خلقه قال تعالى : ﴿ قَالَ نَسُوا خَلْقَهُمْ مَنْ مَعَهُ ﴾ (١٠٠) [الأعراف] والخلف : القرن من الناس بعد القرن ، أي الجيل بعد الجيل ، والخلف الولد الصالح أو غير الصالح . قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ . . ﴾ (٩٩) [الأعراف] والخلف بالفتح : البعض والبدل والولد الصالح أو الولد غير الصالح : والخليفة من يخلف غيره ، أو يتوب عنه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . ﴾ (٩٨) [البقرة] ، وخليفة جنتها خلفاء وخلافة يقول تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِ قَوْمِ نُوحٍ . . ﴾ (٩٥) [الأعراف] وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ . . ﴾ (٩٤) [الأنعام] . (الفاموس القويم - بتصرف) .

(٣) ماء منهمر : مطر غزير .

ومن المتوقع أن تشرب الأرض ماء المطر ، لكن الذى حدث أن المطر  
انهمر من السماء والأرض أيضاً تفجرت بالماء ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه  
وتعالى يقول :

﴿ فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (١٤)

[انهمر]

أى : أن ذلك الأمر كان مقدراً ؛ حتى لا يقولن أحد : إن هذه المسألة  
ظاهرة طبيعية .

لا إنه أمر مُقدّر ، وقد كانت السفينة موجودة بصناعة من نوح عليه  
السلام ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بذلك فى قوله تعالى فى سورة هود :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. ﴾ (٣٧)

[هود]

ويقول الحق سبحانه فى الآية التى بعدها :

﴿ وَيَصْنَعِ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ<sup>(١)</sup> مِنْ قَرْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ  
تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (٣٨)

[هود]

ويركب نوح - عليه السلام - السفينة ، ويركب معه من آمن بالله  
تعالى ، وما حملوا معهم من الطير والحيوان من كل نوع اثنين ذكراً وأنثى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَجِيَّاهُ وَمَنْ مَعَهُ .. ﴾ (٧٣)

[يونس]

يوحى أن الذى صعد إلى السفينة هم العقلاء من البشر ، فكيف نفهم  
مسألة صعود الحيوانات والطيور إلى السفينة ؟

نقول : إن الأصل في وجود هذه الحيوانات وتلك الطيور أنها مُسَخَّرَةٌ لخدمة الإنسان ، وكان لا بد أن توجد في السفينة ؛ لأنها ككائنات مسخرة تسبح الله<sup>(١)</sup> ، وتعبد الحق سبحانه ، فكيف يكون علمها فوق علم العقلاء الذين كفر بعضهم ، ثم أليس من الكائنات المسخرة ذلك الغراب الذي علم «قابيل» كيف يوارى سواة أخيه<sup>(٢)</sup> ؟! إنه طائر ، لكنه علم ما لم يعلمه الإنسان !

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيَرِيهَ كَيْفَ يُوَارِي سُوَءَ أَخِيهِ ۖ ﴾ (٣٩) [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه في الآية التي نحن بصددناها الآن :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَعْرَفْنَاهُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (٧٢) [يونس]

وكلمة «الْفُلِّكَ» من الألفاظ التي تطلق على المفرد، وتطلق على الجماعة.

وقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ ﴾ نعلم منه أن الفعل من الله تعالى ، وهو سبحانه حين يتحدث عن أى فعل له ، فالكلام عن الفعل يأتي مثل قوله سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ<sup>(٣)</sup> وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ (٩) ﴾ [الحجر]

(١) يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِذْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝ (٥٥) ﴾ [الإشراء].

(٢) يوارى سواة أخيه : يخفى جسد أخيه «هابيل» الذي قتله أخوه بغير حق . أى : يدفنه .

(٣) الذِّكْرُ : القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ (٤٤) ﴾ [التحل].

ولكنه حين يتحدث عن ذاته ، فهو يأتي بكلمة تؤكد الوجدانية وتكون بضمير الإفراد مثل : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴾ (٦٤) [طه]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَجِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ ﴾ (٧٢) [يونس]

كلمة «أنجى» للتعددية ، وكلمة «سجى» تدل على أن هناك معالجة شديدة للإنجاء ، وعلى أن الفعل يتكرر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ (٧٣) [يونس]

تعنى : أن الخليفة هو من يجىء بعد سابق ، وكلمة «الخليفة» تأتي مرة للأعلى ، مثل الحال هنا حيث جعل الصالح خليفة للصالح ، فبعد أن أنجى الله سبحانه العناصر المؤمنة فى السفينة ، أغرق الباقين .

إذن : فالصالحون على ظهر السفينة أنجبوا الصالحين من بعدهم .

ومرة تأتي كلمة «الخليفة» للأقل ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ .. ﴾ (٥٩) [مريم]

فهنا تكون كلمة الخليفة موحية بالمكاثرة الأقل ، وهناك معيار وضعه الحق سبحانه لتقييم الخليفة ، هو قول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤)

[يونس]

(١) خلائف : جمع خليفة وهو الذى يخلف من سبقه ، وتجمع أيضاً على «خلفاء» . قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .. ﴾ (١٠١) [الأعراف] .



ولأن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فسوف يلقى مكانته على ضوء ما يختار .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ  
كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ  
وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا . (٥٥) ﴾ [التور]

إذن : فالخليفة إما أن يكون خليفة لصالِح ، وإما أن يكون صالحاً يخلفُ قاسداً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا . . (٧٣) ﴾ [يونس]

والآيات - كما قلنا من قبل - إما آيات الاعتبار التي تهدي إلى الإيمان بالقوة الخالقة ، وهي آيات الكون كلها ، فكل شيء في الكون يدلُّك على أن هذا الكون مخلوق على هيئة ولغاية ، بدليل أن الأشياء في هذا الكون تنظم انتظاماً حكيماً .

وإذا أردت أن تعرف دقة هذا الخلق ، فانظر إلى ما لديك فيه دخلٌ ، وما ليس لديك فيه دخلٌ ؛ ستجد كل ما ليس لديك فيه دخل على درجة هائلة من الاستقامة ، والحق سبحانه يقول :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَصْرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يسر]

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوي . والجمع : أفلاك . [المعجم الوسيط : مادة (ف ل ك)] .

أما ما لديك فيه دخل ، فاختيارنا حين يتدخل فهو قد يفسد الأشياء .  
وهكذا رأينا أن الآيات الكونية تلفت إلى وجود الخالق سبحانه وهي  
مناط الاستدلال العقلي على وجود الإله ، أو أن الآيات هي الأمور  
العجيبة التي جاءت على أيدي الرسل - عليهم السلام - لتقنع الناس بأنهم  
صادقون في البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .

ثم هناك آيات القرآن الكريم التي يقول فيها الحق سبحانه :  
﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ  
الْكِتَابِ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهي الآيات التي تحمل المنهج .  
وحين يقول الحق سبحانه :  
﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٧٣) ﴾ [يونس]

فهو يعلمنا أنه أغرق من كذبوا بالآيات الكونية ولم يلتفتوا إلى يدع  
صنعه سبحانه ، وحكمة تكوين هذه الآيات ، وترتيبها ورتابتها<sup>(١)</sup> ، وهم  
أيضاً كذبوا الآيات المعجزات ، وكذلك كذبوا بآيات الأحكام التي جاءت  
بها رسلهم .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله :  
﴿ فَإِنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> [يونس]

والخطاب هنا لكل من يتأتى منه النظر ، وأولهم سيدنا محمد ﷺ ،

(١) رتابتها : أي : سيرها على نظام واحد لا يتخلف ، يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَلْزَمُ يَمِينُهَا أَنْ تُدْرِكَ  
الْقَمَرَ وَلَا تَقْبَلُ سَائِلُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكَ يُسْتَعْوَدُ ﴾ [يس] .

(٢) عاقبة : عقاب وجزاء ونهاية . المنذرين : اسم مفعول يشير إلى من وقع عليهم الإنذار ، وهم قوم نوح  
الذين أنذرهم نبيهم ، فلم يؤمنوا فاستحقوا العقاب والعذاب .

وهو أول مخاطب بالقرآن.

وأنت حين تقول: «انظر» ، فأنت تُلْقِيت إلى أمر حسنى ، إن وجَّهْتَ نظرك نحوه جاء الإشباع من المنظور إليه ، ليرسم أبعاد الشيء ؛ فتراه .

والكلام هنا عن أمور غائبة ، فهى أحداث حسية وقعت مرة واحدة ثم صارت خبراً ، فإن أخبرك بها مخبر فيكون تصديقك بها على مقدار الثقة فيه .

فمن رأى عصا موسى - عليه السلام - وهى تلقف الحبال التى ألقاها السحرة ؛ آمن بها ، مثلما آمن من شاهد النار عاجزة عن إحراق إبراهيم عليه السلام ، ومن رأى عيسى عليه السلام وهو يُشْفَى الأَكْمَةَ والأَبْرَصَ<sup>(١)</sup> ويُحْيى الموتى بإذن الله تعالى ، فقد آمن بما رأى ، أما من لم ير تلك المعجزات فإيمانه يتوقف على قدر توثيقه لمن أخبر ، فإن كان المخبر بذلك هو الله سبحانه وفى القرآن الكريم فإيماننا بتلك المعجزات هو أمر حتمى ؛ لأننا آمنة بصدق المبلِّغ عن الله تعالى .

ونحن نفهم أن الرسالات السابقة على رسالة محمد ﷺ ، كانت رسالات موقوتة زماناً ومكاناً ، لكن الإسلام جاء ليشظم الناس الموجه إليهم منذ أن أرسل الله رسوله محمداً ﷺ إلى أن تقوم الساعة .

لذلك جاء القرآن آيات باقيات إلى أن تقوم الساعة ، وهذا هو السبب فى أن القرآن قد جاء معجزة عقلية دائمة يستطيع كل من يدعو إلى منهج رسول الله ﷺ أن يقول : محمد رسول من عند الله تعالى ، وتلك هى معجزته .

وساعة يقول الحق سبحانه : ﴿فَانظُرْ﴾ فمثلها مثل قول الحق سبحانه

(١) الكمة : العَمَى الذى يولد به الإنسان . أما البرص فهو مرض جلدى عبارة عن بقع بيضاء تكون فى الجسد . انظر اللسان .

وتعالى لرسوله ﷺ :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ <sup>(١)</sup>﴾ (١)

[الفيل]

وحادثة الفيل قد حدثت في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، وبطبيعة الحال فسيدينا رسول الله ﷺ لم ير حادثة الفيل ، ولكن الذين رأوها هم الذين كانوا يعيشون وقتها ، وهذا ما يلفتنا إلى فارق الأداء ، فعبيونك قد ترى أمراً ، وأذنك قد تسمع خبراً ، ولكن من الجائز أن تتخذك حواسك ، أما الخبر القادم من الله تعالى ، وإن كان غائباً عنك الآن وغير مسموع لك فخذ على أنه أقوى من رؤية العين .

ولقائل أن يقول : لماذا لم يقل الحق : «ألم تعلم» وجاء بالقول :

﴿أَلَمْ تَرَ . . (١)﴾ ؟

[الفيل]

وأقول : ليدلنا الله سبحانه على أن العلم المأخوذ من الله تعالى عن أمر غيبي عليك أن تتلقاه بالقبول أكثر من تلقيك لرأى العين .

إذن : ﴿فَانظُرْ﴾ تعني : اعلم الأمر وكأنته مجسم أمامك ؛ لأنك مؤمن بالله تعالى وكأنك تراه ، ومبلغك عن الله سبحانه هو رسول تؤمن برسائله ، وكل خبر قادم من الله تعالى ورسوله ﷺ لا يمكن أن يتسرب إليه الشك ، ولكن الشك لا يمكن أن يتسرب إلى المخبر الصادق أبداً .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يقل الحق : «فانظر كيف كان عاقبة الكافرين» بدلاً من قول الحق سبحانه :

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ <sup>(٢)</sup>﴾ (٢)

[يونس]

(١) أصحاب الفيل ، هم جيش «أبرهة» الحبشي حين قدموا لهدم الكعبة ، فمزقهم الله شر ممزق وأرسل عليهم طيوراً من السماء ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم الله كعصف نأكل . ووافق ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمسة وخمسين ليلة ، فهو لم ير الحادثة بعينه ، ولكن إخبار الله له أمر لا يحتمل إلا الصدق ، فكانه قد رآه بعينه فعلاً .

وہما نقرول :

إِنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ أَنَّهُ لَنْ يَحْذُبَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَلْزَمَ ،  
فَهُوَ قَدْ أُنْذِرَ أَوَّلًا ، وَلَمْ يَأْخُذِ الْقَوْمَ عَلَى جَهْلِهِمْ .

فانظر - كما نعلم - هي خطاب لرسول الله ﷺ ، وخطاب رسول الله ﷺ يشمل أمته أيضاً ، وجاء هذا الخير تسلياً لرسول الله ﷺ ، فإن صادف من قومك يا محمد ما صادف قوم نوح - عليه السلام - فاعلم أن عاقبتهم ستكون كعاقبة قوم نوح .

وفي هذا تحذير وتخويف للمناوئين لرسول الله ﷺ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
فَمَا كَانُوا إِلَّا مُؤْمِنِينَ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ  
الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَن مِّن لَّمَّةٍ إِلَّا جَاءَهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر] ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الأنعام] النذير والإنذار وجمعه نذرة قال تعالى: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة]:

والنذير هنا : هو الرسول المنذر بالعذاب . والنذر اسم مصدر بمعنى الإنذار كقوله تعالى : ﴿ فالتقيت  
فخراً ﴾ (٢٠) عذراً أو نذراً (٢١) ﴿ [المرسلات] وقوله : ﴿ .. وما نفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (٢٢) ﴿  
[يونس] يحصل أنها الإنذارات . أو المنذرون من الرسل جمع نذير ، وقوله : ﴿ وقد خلقت النذر من بين  
يديه ومن خلفه .. ﴾ (٢٣) ﴿ [الأحقاف] ، والمراد بالنذر هم الرسل المنذرون .

(٢) بالينات: أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صديق ما جاء وهم به. [ذكره ابن كثير في تفسيره: (٤٢٦/٢)].

(٣) الطبع : هو الختم على القلب ، ولكنه لا يُحصى ولا يُفك أبداً . أما الختم فقد يفك ، وقد تكون له مدة معلومة ، وقد يقبل مع الثوبة الخاصة . وبكلا الأمرين ورد القرآن : ﴿ أَوْفِكَ الَّذِينَ طبع الله على قلوبهم ومنهم ﴾ وأنصارهم ﴿ ١٨٥ ﴾ [التحليل] . وقال سبحانه : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ ﴿ ٧ ﴾ [البقرة] .

وكلمة «بعث» هنا تستحق التأمل ، فالبعث إنما يكون لشيء كان موجوداً ثم انتهى ، فيبعثه الله تعالى .

وكلمة ﴿بَعَثْنَا﴾ هذه تلفتنا إلى أن الحق سبحانه أول ما خلق الخلق أعطى المنهج لآدم عليه السلام ، وأبلغه آدم لأبنائه ، وكل طمس أو تغيير من البشر للمنهج<sup>(١)</sup> هو إمانة للمنهج .

وحين يرسل الحق سبحانه رسولاً ، فهو لا ينشئ منهجاً ، بل يبعث ما كان موجوداً ، ليذكر الفطرة السليمة .

وهذا هو الفرق بين أثر كلمة «البعث» عن كلمة «الإرسال» ، فكلمة البعث تشعرك بوجود شيء ، ثم انتهاء الشيء ، ثم بعث ذلك الشيء من جديد ، ومثله مثل البعث في يوم القيامة ، فالإنسان كانوا يعيشون وسيظلون في تناسل وحياة وموت إلى يوم البعث ، ثم يموت كل الخلق ليعبثوا للحساب .

ولم يكن من المعقول أن يخلق الله سبحانه البشر ، ويجعل لهم الخلافة في الأرض ، ثم يتركهم دون منهج ؛ وما دامت الغفلة قد طرأت عليهم من بعد آدم - عليه السلام - جاء البعث للمنهج على السنة الرسل<sup>(٢)</sup> المبلغين عن الله تعالى .

(١) نهج الطريق من باب فتح ، نهجاً : سلكه . ونهج الطريق له : أوضحه ، والنهج والمنهج والمنهاج : الطريق الواضح والمذهب حسياً ومحتوياً ، قال تعالى : ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْقَةً وَمِنْهَاجًا ..﴾ (١٥٥) [المائدة] أي : مذعباً أو طريقة أو ديناً ، فهو هنا معنوي .

(٢) الرسالة : اسم فاعل يرسل منقولة عن المصدر ، ورسالة الرسول ما أمر بتبليغه عن الله للناس ، ودعوته الناس إلى ما أوحى إليه . والرسول : المرسل ، والرسول مصدر بمعنى الرسالة ، وإذا وصف بالمصدر فلا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع . قال الزمخشري : الرسول يكون بمعنى المرسل ، وبمعنى الرسالة فجعله القرآن في سورة طه بمعنى المرسل ، فلم يكن يؤنث . يقول الحق : ﴿إِنَّا رُسُلًا وَبَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [طه] أما في آية الشعراء فبمعنى الرسالة ، فجازت التورية فيه إذا وصف به بين الفرد والمثنى ، ولهذا قال : ﴿إِنَّا رُسُلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٥٦) [الشعراء] وأرسل تأتي لمجرد البعث والإطلاق مثل : ﴿فَأَرْسِلْ فَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ..﴾ (١٥٧) [الأعراف] (الزمخشري - بنصرف) .

## سُورَةُ نُوحٍ

٥٦١٧

وبعد نوح - عليه السلام - بعث الحق سبحانه رسلاً ، وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

أى : من بعد نوح ، فمساءلة نوح - عليه السلام - هنا تعنى مقدمة الرّحّب الرّسالى ؛ لأن نوحاً عليه السلام قد قالوا عنه إنه رسول عامّ للناس جميعاً أيضاً ، مثله مثل محمد ﷺ ، وهو لم يُبعث رسولاً عامّاً للناس جميعاً ، بل كان صعبوده إلى السفينة هو الذى جعله رسولاً لكل الناس ؛ لأن سكان الأرض أيامها كانوا قلة .

والحق سبحانه قد أخذ الكافرين بذنبيهم وأنجى المؤمنين من الطوفان ، وكان الناس قسمين : مؤمنين ، وكافرين ، وقد صعد المؤمنون إلى السفينة ، وأغرق الحق سبحانه الكافرين .

وهكذا صار نوح - عليه السلام - رسولاً عامّاً بخصوصية من بقوا وهم المرسل إليهم بخصوصية الزمان والمكان .<sup>(١)</sup>

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [يونس]

فهل قصّ الله تعالى كل أخبار الرسل عليهم السلام ؟ لا ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو القاتل :

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَتَلْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (٧٨) ﴾ [غافر]

(١) أما رسالة محمد ﷺ فهي لعامة الزمان والمكان ، وهذا لما خصّ به الله رسوله ﷺ وأمه ، ويبدل عليه حديث رسول الله ﷺ : « أعطيت نبياً ثم يعطون أحداً قبلى : نصرت بالزعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فإما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل ، وأجبت لى الخاتم ولم تحل لأحد قبلى » وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٥) ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله .

## سُورَةُ يُوسُفَ

٦١١٨

وجاء الحق عز وجل بقصص أولي العزم منهم <sup>(١)</sup> ، مثلما قال سبحانه :

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ <sup>(٢)</sup>﴾ (١٤٧)

[المصافات]

فمن أرسله الله تعالى إلى من هم أقل من مائة ألف ، فقد لا يأتي ذكره ، ونحن نعلم أن الرسول إنما كان يأتي للأمم المنعزلة ؛ لأن العالم كان على طريقة الانعزال ، فنحن مثلاً منذ ألف عام لم نكن نعلم بوجود قارة أمريكا ، بل ولم نعلم كل القارات والبلاد إلا بعد المسح الجوي في العصر الحديث ، وقد توجد مناطق في العالم نعرفها كصورة ولا نعرفها كواقع .

ونحن نعلم أن ذرية آدم - عليه السلام - كانت تعيش على الأرض ، ثم اتساحت <sup>(٣)</sup> في الأرض ؛ لأن الأفوات التي كانت تكفي ذرية آدم على عهده ، لم تعد تكفي بعدما اتسعت الذرية ، فضاقت الرزق في رقعة الأرض التي كانوا عليها ، واتساح بعضهم إلى بقية الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً <sup>(٤)</sup>﴾

.. (١٠٠)

[النساء]

(١) أولو العزم من الرسل هم : محمد ﷺ ، إبراهيم ، نوح ، موسى ، وعيسى عليهم السلام . قال تعالى : ﴿فَأَخْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ..﴾ (١٠٠) [الأحقاف] .

(٢) هو يونس - عليه السلام - أجهأه الله سبحانه وتعالى من بطن الحوت ثم أرسله إلى قومه وهم أهل نينوى . بجهة الموصل ، وكان عددهم مائة ألف أو يزيد على المائة ألف - على اختلاف بين المفسرين . [تفسير الجلالين ص ٣٩٦] و [تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٢)] ، و [صفوة التفاسير للصابوني (٣/ ٢٤)] . . . بتصرف .

(٣) اتساح : من السباحة وهي الذهاب في الأرض ، أو الهجرة من مكان إلى مكان . (لسان العرب : مادة س ي ح) .

(٤) مرافعاً كثيراً : المرافعة الهجران والتباعد . والمزاد : أنه يجد أماكن كثيرة تصلح لأن يهاجر إليها ليعيش فيها . [اللسان - بتصرف] .

وسعة : أي : بعداً عن تضيق المشركين ، وقبل : سعة ، أي : كثرة في الرزق . [مختصر تفسير الطبري] . بتصرف .



وهكذا انتقل بعض من ذرية آدم - عليه السلام - إلى مواقع الغيث<sup>(١)</sup> ،  
فألهجرة تكون إلى مواقع المياه ؛ لأنها أصل الحياة .

ويلاحظ مؤرخو الحضارات أن بعض الحضارات نشأت على جوانب  
الأنهار والوديان ، أما البداوة فكانت تتفرق في الصحارى ، مثلهم مثل  
العرب ، وكانوا في الأصل يسكنون عند سد مأرب ، وبعد أن تهدم السد  
وأغرق الأرض ، خاف الناس من الفيضان ؛ لأن العدوئين اللذنين لم يفتر  
عليهما البشر هما النار والماء .

وحين رأى الناس اندفاع الماء ذهبوا إلى الصحارى ، وحفروا الآبار التي  
أخذوا منها الماء على قدر حاجتهم ؛ لأنهم عرفوا أنهم ليسوا في قوة  
المواجهة مع الماء .

وهكذا صارت الانعزالات بين القبائل العربية ، ومثلها كانت في بقية  
الأرض ؛ ولذلك اختلفت الديارات باختلاف الأمم ؛ ولذلك بعث الحق  
سبحانه إلى كل أمة نذيراً ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤ ﴾ [فاطر]

وقص علينا الله سبحانه قصص بعضهم ، ولم يقصص قصص البعض  
الأخر .

يقول الحق سبحانه :

(١) الغيث : المطر .

(٢) إن : تأكيد بمعنى ( ما ) . أي : ما من أمة إلا أرسل الله إليهم من ينذريهم . خلا : مضى وسبق . قال  
تعالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ٢٤ ﴾ [الرعد] .

نذير : صيغة مبالغة من الإنذار ، أي : كثير الإنذار لهم بعذاب الله إذا لم يؤمنوا به . قال تعالى : ﴿ قَدْ  
جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قُرَّةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ٢٥ ﴾ [المائدة] .

﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ  
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . (٧٨) ﴾ [غافر]

وهنا بقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ . (٧٩) ﴾ [يونس]

فهل هؤلاء هم الرسل الذين لم يذكرهم الله ؟

لا ؛ لأن الحق سبحانه أرسل بعد ذلك هوداً إلى قوم عاد ، وصالحاً إلى  
ثمود ، وشعيباً إلى مدين ، ولم يأت يذكر هؤلاء هنا ، بل جاء بعد نوح -  
عليه السلام - بخير موسى عليه السلام ، وكأنه شاء سبحانه هنا أن يأتى لنا  
بخبر عيون الرسالات <sup>(١)</sup> .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل رسلاً إلى قوم ، فكل قوم كان لهم  
رسول ، وكل رسول بعثه الله تعالى إلى قومه .

وكلمة «قوم» <sup>(٢)</sup> فى الآية جمع مضاف ، والرسل جمع ، ومقابلة الجمع  
بالجمع تقتضى القسمه آحاداً ، مثلما نقول : هياً اركبوا سياراتكم ،  
والخطاب لكم جميعاً ، ويعنى : أن يركب كل واحد منكم سيارته .

وجاء كل رسول إلى قومه بالبينات ، أى : بالآيات الواضحات الدالة  
على صدق بلاغهم عن الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) عيون الرسالات : أكبرها وأهمها ذكرها تفصيلاً ، وذكر غيرها إجمالاً .  
(٢) القوم : جماعة الرجال ليس معهم نساء . قال تعالى : ﴿ لَا يَخْفَى مِنْ قَوْمٍ . (١١) ﴾ [الحجرات] ، ثم  
قال : ﴿ وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نَسَاءٍ . (١٢) ﴾ [الحجرات] فدل على أن المقصود بالقوم هنا الرجال فقط ،  
ويستعمل لفظ القوم يشمل الأمة كلها رجالاً ونساء ، مثل قوم نوح وقوم إبراهيم . [القاموس القويم]  
وانظر [لسان العرب مادة : قوم] .

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ  
الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧١) [يونس]

أى: أن الناس جميعهم لو آمنوا لانقطع الموكب الرمالى ، فمركب  
إيمان كل البشر لم يستمر ، بل جاءت الغفلة<sup>(١)</sup> ، وطبع الله تعالى على  
قلوب المعتدين ، والطبع - كما نعلم - هو الختم .

ومعنى ذلك أن القلب المختوم لا يُخرج ما بداخله ، ولا يُدخل إليه  
ما هو خارجه ؛ فما دام البعض قد عشق الكفر فقد طبع الله سبحانه على  
هذه القلوب ألا يدخلها إيمان ، ولا يخرج منها الكفر ، والطبع هنا  
منسوب لله تعالى .

وبعض الذين يتلمسون ثغرات فى منهج الله تعالى يقولون: إن سبب  
كفرهم هو أن الله هو الذى طبع على قلوبهم .

ونقول: التفتوا إلى أنه سبحانه يئن أنه قد طبع على قلوب المعتدين ،  
فالاعتداء قد وقع منهم أولاً ، ومعنى الاعتداء أنهم لم ينظروا فى آيات الله  
تعالى ، وكفروا بما نزل إليهم من منهج ، فهم أصحاب السبب فى الطبع  
على القلوب بالاعتداء والإعراض .

وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه ، والحق سبحانه وتعالى  
هو القاتل فى الحديث القدسى :

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»<sup>(٢)</sup> .

ولله المثل الأعلى ، فأنت تقول لمن يسدر<sup>(٣)</sup> فى غيئه: ما دمت تعشق  
ذلك الأمر فاشبع به .

(١) الغفلة: سهو يمتري الإنسان من قلة التحفظ وعدم اليقظة ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا...﴾

(٢) [ق] ، أى: غافلاً عن إدراك القيامة وغافلاً عن أحداث ما بعد الموت . [القاموس القويم]

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٥) وابن ماجه فى سننه (٤٢٠٢) عن ابن هريزة رضى الله عنه .

(٣) السادر فى غيئه: المغمى فى ضلاله المستمر عليه لا يهتم بشيء ولا يبالى ما صنع . [اللسان مادة: سدر] .

ومثل هؤلاء الذين طبع الله سبحانه وتعالى على قلوبهم ، مثل الذين كذبوا من قبل وكانوا معتدين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

وكل من موسى وهارون - عليهما السلام - رسول ، وقد أخذ البعث لهما مراحل ، والأصل فيها أن الله تعالى قال لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ (١٢) [طه]

وقال الحق سبحانه وتعالى لموسى - عليه السلام :

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (١٣) [طه]

ثم سأل موسى - عليه السلام - ربه سبحانه وتعالى أن يشدّ عضدّه بأخيه ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٣٦) [طه]

لأن موسى - عليه السلام - أراد أن يفقه قوله ، وقد رجاى موسى ربه سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَاحْطُلْ عَقْدَةً <sup>(١)</sup> مِنْ لِسَانِي <sup>(٢)</sup> يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٢٨) [طه]

(١) ملته : قومه . وقيل : هم أشرف القوم ورجوهم ورؤسائهم الذين يرجع إلى فرائضهم . [اللسان ، مادة : فلأ] .

(٢) العقدة : نطق على رنة اللسان وصعوبة النطق ، قال تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ وَاحْطُلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾ (٢٨) يَفْقَهُوا قَوْلِي [طه] .

وبعد ذلك جاء تكليف هارون بالرسالة مع موسى عليه السلام .

وقال الحق سبحانه : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ <sup>(٢٤)</sup> ﴾ [طه]

فالأصل - إذن - كانت رسالة موسى - عليه السلام - ثم ضم الله سبحانه هارون إلى موسى إجابة لسؤال موسى ، والدليل على ذلك أن الآيات كلها المبعوثه في تلك الرسالة كانت بيد موسى ، وحين يكون موسى هو الرسول ، وينضم إليه هارون ، لا بد - إذن - أن يصبح هارون رسولاً .

ولذلك نجد القرآن معبراً عن هذا : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ... ﴾ (٤٧) [طه]

أى : أنهما رسولان من الله .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) [الشعراء]

فهما الاثنان مبعوثان في مهمة واحدة ، وليس لكل منهما رسالة منفصلة ، بل رسالتهما واحدة لم تعدد ، وإن تعدد المرسل فكانا موسى وهارون .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يوفد ملك أو رئيس وفداً إلى ملك آخر ، فيقولون : نحن رسل الملك فلان .

وفي رسالة موسى وهارون نجد الأمر البارز في إلقاء الآيات كان لموسى . ولكن هارون له أيضاً أصالة رسالية ؛ لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا رَسُولَا ... ﴾ (٤٧) [طه]

(١) طس : تجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ طَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر] أى : ظلموا وتجاوزوا الحد في العصيان . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَاءَ الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة] .

ذلك أن فرعون كان متعاليًا سَمَجًا<sup>(١)</sup> رَذُلًا<sup>(٢)</sup> الخُلُق ، فإن تكلم هارون  
ليشد أزر<sup>(٣)</sup> أخيه ، فقد يقول الفرعون : وما دخلك أنت ؟

ولكن حين يدخل عليه الاثنان ، ويعلنان أنهما رسولان ، فإن رد فرعون  
هارون ، فكأنه يرد موسى أيضاً .

أقول ذلك حتى تغلق الباب على من يريد أن يتورك<sup>(٤)</sup> القرآن متسائلاً :  
ما معنى أن يقول القرآن مرة «رسول» ومرة «رسولاً» ؟  
وفى هذا رد كافٍ على هؤلاء المتوركين .

ويقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا  
فَاسْتَكْبَرُوا .. (٧٥) ﴾ [يونس]

والملا : هم أشرف القوم ، ووجوهه وأعيانه والمقربون من صاحب  
السيادة العليا ، ويقال لهم : «ملا» ؛ لأنهم هم الذين يملأون العيون ؛  
أى : لا ترى العيون غيرهم .

وفرعون - كما نعلم - لم يصبح فرعوناً إلا بالملا ؛ لأنهم هم الذين  
نصبوه عليهم ، وكان «هامان» مثلاً يدعم فكرة الفرعون ، وكان الكهنة  
يؤكدون أن الفرعون إله .

(١) سَمَجٌ الشئ : قَبِيحٌ - وَالسَّمَجُ وَالسَّمِيجُ : الذي لا خير فيه [لسان العرب : مادة (س م ج) - بتصرف] .  
(٢) الرَذُلُ والرَذِيلُ : الدون من الناس ، زَقِيلٌ : هو الخسيس ، وقِيلٌ : هو الرديء من كل شيء . [لسان  
العرب : مادة (ر ذ ل)] .

(٣) الْأَزْرُ : القُرَّةُ والسَّدةُ ، وَأَزْرَةٌ وَأُزْرَةٌ : أعانه ومناعه . [لسان العرب : مادة (أ ز ر)] .

(٤) التوريك : إضافة الذنب أو النقص إلى الشيء ، وحمله عليه على غير الحقيقة ، ونحمل معنى إسقاط  
عنه على غيره [انظر : لسان العرب - مادة : ورك] والمراد أنهم يحملون القرآن تناقضاً بهم .

## سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦١٢﴾

ولكل فرعون ملاً يصنعونه ، والمثل الشعبي في مصر يقول : «قالوا لفرعون من فرعونك ، قال : لم أجد أحداً يردني» .  
 أى : أنه لم يجد أحداً يقول له : تحقّل . ولو وجد من يقول له ذلك لما تفرعن .

والآيات <sup>(١)</sup> التي بعث بها الله سبحانه إلى فرعون وملئه مع موسى وهارون من المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، وفيها ما يُلفت إلى صدق البلاغ عن الله .

أو أن الآيات هي المنهج الذي يثبت وجود الخالق الأعلى ، لكن فرعون وملأه استكبروا . والاستكبار : هو طلب الكبير ، مثلها مثل «استخرج» أى : طلب الإخراج ، ومثل «استفهم» أى : طلب الفهم . ومن يطلب الكبير إنما يفتقل ذلك ؛ لأنه يعلم أن مقوماته لا تعطيه هذا الكبير .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥)

[يونس]

وشرُّ الإجرام هو ما يتعدى إلى النفس ، فقد يكون من المقبول أن يتعدى إجرام الإنسان إلى أعدائه ، أما أن يتعدى الإجرام إلى النفس فهذا أمر لا مندوحة <sup>(٢)</sup> له ، وإجرام فرعون وملئه أودى بهم إلى جهنم خالدين مخلدين فيها ملعونين ؛ وفي عذاب عظيم ومهين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا مَوْسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاذْكُرْ بِمَا كَانَ فَرْعَوْنُ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُوهُ لَأُطْعِمَنَّكَ يَا مُوسَىٰ خُبْرًا ﴾ (١٠١) [الأنعام] والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي : العصا ، وإخراج يده بيضاء من غير سوء ، وسحق الجذب ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .  
 (٢) المندوحة : انتساع الأمر . والمراد : أن فعلهم هذا لا تسبب منعقول له ، ولا مبرر . [لسان العرب : مادة (ن وح) بتصرف] .

## ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧٦)

وقد جاءهم الحق على لسان الرسل - عليهم السلام - وعلى كل إنسان أن يفهم أنه حين يستقبل من الرسول رسالة الحق ، فليفهم أنها رسالة ليست ذاتية الفكر من الرسول ، بل قد أرسله بها الله الخالق الأعلى سبحانه وتعالى .

ولذلك فالتأبى<sup>(١)</sup> على الرسول ، لا يتأبى على مسأوله ؛ لأن الرسول هو مُبلِّغ عن الله تعالى ، والله سبحانه هو الذى بعثه ، ويجب على الإنسان أن يعرف قدر البلاغ القادم من الله الحق ؛ لأنه سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كل شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجري بالحق ، ومطر يتزل بالحق ، وكل شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ولو سيطر الإنسان - دون منهج - على فوائين الكائنات لأفسدها ؛ لأن الفساد إنما يتأتى مما للإنسان دخل فيه ، ويدخل إليه بدون منهج الله .

والفساد إنما يجىء من ناحية اختيار الإنسان للبدايل التى لا يخضع فيها لمنهج الله تعالى .

ولذلك إن أردتم أن تستقيم حياتكم استقامة الكائنات العليا التى لا دخل لكم فيها ، فامثلوا لمنهج الحق وميزانه ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

(١) اللام فى كلمة «سحراً» للتوكيد . والمعنى : أن ما جئت به ما هو إلا سحر قوى ظاهر ، والسحر هو كل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته بالتمويه والخداع ، قال تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا بَلْ أَتَيْنَا بِكَ إِذَا جِئْتَهُمْ بِآيَاتِنَا وَمَعْصِيَتِهِمْ بِخُلُقٍ إِلَيْنَا مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ نَسُوا ﴾ [طه] .

(٢) التأبى : الرفض والكراهية . [اللسان : مادة (أ ب ي)] .



﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨)﴾

[الرحمن]

أى : إن كنتم تريدون أن تعادل أموركم ، وتنضبط انضباط الكائنات الأخرى فلتكن إرادة الاختيار المخلوقة لكم خاضعة لمنهج الله تعالى ، وتسير في إطار هذا المنهج الرباني .  
وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا .. (٧٦) ﴾ [يونس]

نجد في هذا القول توجيهاً إلى أن الحق لم يأت من ذوات الرسل ؛ فهذه الذوات لا تدخل لها في الموضوع ، وإياك أن تهاجم رسالة حق جاءتك من إنسان لا تحبه ، بل ناقش الحق في ذاته ، ولا تدخل في متاهة البحث عن جاء بهذا الحق ، وانظر إلى من كفروا بحمد رسول الله ﷺ ، فهم من قالوا :  
﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣٦) ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد أدخلوا النازل عليه القرآن في الحكم ، مع أن العقل كان يقتضى أن ينظروا إلى القرآن (٣٦) في ذاته ، وأن يأخذوا الحكمة من أى وعاء خرجت .

وعليك أنت أن تستفيد من هذا الأمر ، وتُحَذِّد الحكمة من أى قائل لها ،

(١) لأن اختلاف الموازين ثبات للحق ، وإثبات الحق وأخذ طريقه استقامت موازين الحياة ، وعند استقامتها لا نجد محروماً ولا مظلوماً .

(٢) القرينان هما : مكة والطائف . واختلفت الأقوال في تحديد هذين الرجلين ، ف قيل : إنهما الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . وقيل : إنهما عمير بن عمرو بن مسعود ، وعتبة بن ربيعة ، وقيل : ابن عبد ياليل . والمقصود أنه رجل كبير من أى البلدتين كان . انظر ابن كثير (١٢٧/٤) .

(٣) وقد نقلت لنا كتب السيرة أن الوليد بن المغيرة قال في وصف القرآن : والله إن لقوله خلوة ، وإن أصله لخلق ، وإن فرعه لجنة ، وإن أقرب القول فيه لأن يقولوا ساحر ، جاء يقول هو ساحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . سيرة ابن هشام (١/٢٧٠) فرغم قوله في القرآن ومدحه فيه ، إلا أنه مسايرة لقومه ، وحفاظاً على مكانته بينهم جند القرآن وإيهم محمداً ﷺ بالسحر .

ولا تنظر إلى من جاءت الحكمة منه ، فإن كنت تكرهه فأنت ترفض أن تأخذ الحكمة منه ، وإن كنت تحبه أخذتها . لا ، إن عليك أن تأخذ الحكمة ما دامت قد جاءت بالحق ؛ لأنك إن لم تأخذها أضعت نفسك <sup>(١)</sup> .

والحق هو الشيء الثابت ، وإن ظهر في بعض الأحيان أن هناك من طمس الحق ، وأن الباطل تغلب عليه ، فهذا يعنى ظهور المفسد ؛ فيصرخ الناس طالبين الحق .

وانتشار المفسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحق ، وتنحس له ؛ لأن الباطل حين يَعْصُ الناس ، تجدهم يتجهون إلى الحق ليمسكوا به .  
والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا <sup>(١)</sup> رَابِيًا <sup>(٢)</sup> وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً <sup>(٣)</sup> وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ <sup>(٤)</sup> ﴾ [١٧]

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها » . أخرجه الترمذى في سننه (٢٦٨٧) وابن ماجه في سننه (٤١٦٩) . قال الترمذى : حديث غريب لا يعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم بن الفضل ، يُصَحِّفُ في الحديث من قبل حفظه .

(٢) الزبد : هو ما يعلو ماء البحر إذا هاج موجه . وبحر مُزِيد ، أى : مانع يثقف بأكثريته . وزبد الماء : خفافته وقذاه . والجَمْع : أزياد . [لسان العرب : مادة (ز ب د)] .

(٣) رابياً : مرتفعاً لأنه يكون أعلى سطح الماء . [اللسان : مادة (ر ب ي)] .

(٤) جفاء السيل : هو ما يقلقه من الزبد والوسخ ونحوهما . [اللسان : مادة (ج ف ي)] .

(٥) ائْتَل : ائْتَل : الصفة المحببة يشبه بها غيرها . فالأمثال تصور المعانى بصورة الأشخاص ، لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس . وأمثال القرآن قسمان :

- قسم ظاهر مبصر به ، مثل قوله تعالى : ﴿ مَظْلُومٌ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَتَاهَا مَا هُوَ إِلَّا كَذِبٌ اللَّهُ يَنْوِيهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ [البقرة]

- قسم كامن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان] وهو يؤدى معنى مثل « خير الأمور أوسطها » . [انظر : الإنفاق في علوم القرآن ٤ / ٤١] .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

٦١٢٩

والحق سبحانه هنا يضرب المثل النازل كسيل من السماء على الجبال ،  
فيأخذ كل واد أسفل الجبال على قدر احتماله ، ويرتوى الناس ، وترتوى  
الأرض ، لكن السيل في أثناء نزوله على الجبال إنما يحمل بعضاً من  
الطين ، والقش ، ويستقر الطين في أرض الأودية ؛ لتستفيد منه ،  
أما القش والقاذورات فتطفو على سطح الماء ، وتسمى تلك الأشياء الطافية  
زَبْداً ، وساعة تضعها في النار ، فهي تصدر أصواتاً تسمى (الطشطشة) .

ومثال ذلك : حين نوقد النار ؛ لنصهر الحديد ، نجد الخبث هو الذي  
يطفو ، ويبقى الحديد النقي في القاع .

هذا الزبد الذي يوجد فوق الماء يتراح على الجوانب ، ومثال ذلك : ما  
نراه على شواطئ البحر حين يقذف الموج بقاذورات على الشاطئ ، هذه  
القاذورات التي ألقتها البواخر ، فيلقظها البحر بالموج ، وهذا الزبد يذهب  
جُفاءً ، أما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. (١٧)﴾ [الرعد]

إذن : قاله سبحانه يترك للباطل مجالاً ، ولكن لا يسلم له الحق ، بل  
يترك الباطل ؛ ليحفر غيره الناس على الحق ، فإن لم يغاروا على الحق غار  
هو عليه<sup>(١)</sup> .

وهنا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿قَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦)﴾ [يونس]

ولأنهم كانوا مشهورين بالسحر ؛ ظنوا أن الآيات التي جاءت مع  
موسى - عليه السلام - هي السحر المبين ، أي : السحر الظاهر الواضح .

(١) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك  
مدح نفسه ، وليس أحد أعز من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش » أخرجه مسلم في صحيحه .  
(٢٧٦٠) ، والبخاري في صحيحه (٤٦٣٤) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا  
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

وفى هذه الآية ما يوضح رد سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا .. ﴾ (٧٧) [يونس]

والذين يتوركون على القرآن يقولون : كيف يأتي القرآن ليؤكد أنهم قالوا  
إن هذا لسحر مبين ، ثم يأتي في الآية التي بعدها ليقول إنهم قالوا  
متسائلين : أسحر هذا ؟

وقهـم هؤلاء الذين يتوركون على القرآن أن كلمة ﴿أَسِحْرُ هَذَا﴾ من  
كلماتهم ، ولكن هذا هو قول موسى عليه السلام ، وكأن موسى عليه  
السلام قد تساءل ؛ ليعيدوا النظر في حكمهم : هل ما جاء به سحر ؟ وهذا  
استفهام استنكاري ، وأريد به أن يؤكد أن هذا ليس بسحر ، ولكن جاء  
بصيغة التساؤل ؛ لأنه واثق أن الإجابة الأمينة ستقول : إن ما جاء به ليس  
سحراً.

ولو جاء كلام موسى - عليه السلام - كمجرد خبر لكان يحتمل  
الصدق ، ويحتمل الكذب ، لكنه جاء بصيغة الاستفسار ؛ لأن المكذـب له  
سيحيب بلجلجة<sup>(١)</sup> .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أنت حين تذهب لشراء قماش ،  
فيقول لك البائع : إنه صوف خالص ونقى ، فتمسك بعود كبريت وتشعل

(١) اللجلجة والتلجلج : التردد في الكلام ، والاختلاط والاضطراب فيه . ولذلك قيل : « الحق أبليج ،  
والباطل خلج » . أي : أن الحق واضح قوى ظاهر ، أما الباطل فهو ضعيف مضطرب لا ثبات  
له . [لسان العرب : مادة (ل ج ج) - بتصرف] .

النار في خيط من القماش ، فإن احترق الصوف كما ي احترق البلاستيك  
أو القماش الصناعي ، فأنت تقول للبائع : وهل هذا صوف نقي يا رجل ؟  
وهنا لن يجيب البائع إلا بالموافقة ، أو بضمت العاجز عن حجب الحقيقة .  
إذن : أنت إن طرحت الأمر باستفهام إنكارى فهذا أبلغ من أن تقوله  
كخبر مجرد ؛ لأن السامع لك لا بد أن يجيب .

وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام :

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ .. ﴾ (٧٧)

[يونس]

يفيد ضرورة النظر إلى الحق مجرداً عما جاء به .

ولذلك لم يقل موسى عليه السلام : أتقولون للحق لما جئناكم به : إنه  
سحر مبین ؟

إن القول الحكيم الوارد في الآية الكريمة هو تأكيد على ضرورة النظر  
إلى الحق مجرداً عما جاء به .

وينهى الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ .. أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧)

[يونس]

إذن : فسيدنا موسى - عليه السلام - قد أصدر الحكم بأن السحر  
لا ينفع ، ولكن الآيات التي جاء بها من الحق سبحانه قد أفلحت ، فقد  
ابتليت عصاه - التي صارت حية - كل ما ألقوه من حبالهم ؛ وكل  
ما صنعوه من سحر<sup>(١)</sup>

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (١٧٧) فوق العنق وتعل  
ما كانوا يفعلون (١٧٨) ﴿ [الأعراف] :

وأراد الحق سبحانه لعصا موسى أن تكون آية معجزة<sup>(١)</sup> من جنس ما نبغ فيه القوم .

فأله سبحانه حين يرسل معجزة إلى قوم ؛ يجعلها من جنس ما نبغوا فيه ؛ لتكون المعجزة تحدياً في المجال الذي لهم به خبرة ودربة<sup>(٢)</sup> ودراية ؛ فأنت لن تتحدى رجلاً لا علم له بالهندسة ؛ ليسنى لك عمارة ، ولكنك تتحدى مهندساً أن ينسج لك هرماء ؛ لأن العلوم المعاصرة لم تتوصل إلى بعض ما اكتشفه القدماء ولم يسجلوه في أوراقهم ، أو لم يعثر على كشف يوضح كيف فرغوا الهواء بين كل حجر وآخر فتماسكت الحجارة .

وقول الحق سبحانه وتعالى هنا :

﴿ .. وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧) [يونس]

يبين لنا أن الفلاح مأخوذ من العملية الحسية التي يقوم بها الفلاح من جهد في حرث الأرض ووضع البذور ، وري الأرض وانتظار الثمرة بعد بذل كل ذلك الجهد .

والفلاح أيضاً مأخوذ من فتلح الحديد ، أي : شق الحديد ، ككتل أو كقطع ، ولا يصلح إلا إذا أخذ الحديد الشكل المناسب للاستعمال .

وقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٧) [يونس]

هو لفتنا أن السحر نوع من التخيل ، وليس حقيقة واقعة .

ولذلك قال الحق سبحانه في موضع آخر من القرآن :

(١) المعجزة هي : الأمر الخارق للعادة يُجريها الله على يد النبي أو الرسول تأييداً له وتصديقاً لرسالاته ، كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام انقلاب العصا حية وانفلاق البحر وإبراء الأكمه والأبرص ، وخضرة<sup>(١)</sup> بمعجزة القرآن الخالدة ، وله<sup>(٢)</sup> معجزات حسية كتبوع الماء من بين يديه<sup>(٣)</sup> .

(٢) دربة : عادة وخبرة أو تدريب .

﴿ سَجَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ (١١٦) [الأعراف]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ .. فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٦٦) [طه]

إذن : فالسحر هو تخيل فقط <sup>(١)</sup> وليس تغييراً للحقيقة .

ولأن معجزة موسى - عليه السلام - تحدثت كل القدرات <sup>(٢)</sup> ؛ لذلك أعلن فرعون التعيسة العاتية بين كل من له علاقة بالسحر ، الذي هم مثوقون فيه ، أو حتى من لهم شبهة معرفة بالسحر <sup>(٣)</sup> .

ولأن السحر مجرد تخيل ؛ وجدنا السحرة حين اجتمعوا وألقوا بحبالهم وعصيتهم ؛ ثم ألقى موسى عصاه ، فإذا بعصاه قد تحولت إلى حية تلقف <sup>(٤)</sup> ما صنعوا ، وهنا ماذا فعل السحرة ؟

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة طه :

﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (٧٠) [طه]

لأن الساحر يرى ما يفعله على حقيقته ، وهم خيّلوا لأعين الناس ، لكنهم يزرون حبالهم مجرد حبال أو عصيتهم مجرد عصى .

(١) سحر قوم فرعون هو من نوع سحر التخيل والأخذ بالعيون ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويستغل بالشئ المعين دون غيره ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ سَجَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ (١١٦) [الأعراف] . وقال تعالى : ﴿ .. يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٦٦) [طه] .

(٢) السحر : هو التأثير الشديد ، فإن كان من المخلوق فهو تخيل وحيل ، وإن كان من الخالق فهو إعجاز وتغيير ماهية الشئ بقدرته سبحانه ؛ ولذلك انتصر موسى - عليه السلام - على السحرة ؛ لأن الله سبحانه أعانه عليهم بقدرته التي لا راد لها .

(٣) وذلك أن فرعون من مكر ، جعل الملا من حوله هم الذين يصعدون المواجهة مع موسى بأن قال لهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا قامرون ؟ [الشعراء] . فكان ردّهم عليه أن قالوا له : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَهُ وَابِعَتْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ ﴾ (٣٦) بأنزل بكّل شعارهم [الشعراء] .

(٤) اللقف : سرعة الأخذ والتناول : [اللسان : مادة ( ل ق ف ) ] .

أما عصا موسى - عليه السلام - فلم تكن تخييلاً ، بل وجدها  
السحرة حبة حقيقية ، ولققت بالفعل ما صنعوا ؛ ولذلك خروا<sup>(١)</sup>  
ساجدين ، وأعلنوا الإيمان برب موسى وهارون .

هم - إذن - لم يعلنوا الإيمان بموسى وهارون ، بل أعلنوا الإيمان :

﴿ رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ . (٧٠) [طه]

لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً ، بل هو من فعل خالق  
أعلى .

وكان ثبات موسى - عليه السلام - في تلك اللحظة نابعاً من التدريب  
الذي تلقاه من ربه ، فقد سأله الحق سبحانه :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ<sup>(٢)</sup> عَلَيْهَا وَأَهشُّ<sup>(٣)</sup>

بِهَا عَلَى غَنَمِي . (١٨) [طه]

وقد أجمل موسى وفصل في الرد على الحق سبحانه ؛ إنساناً وإطالة  
للأنس بالله تعالى ، وحين رأى أنه أطال الإيناس أوجز وقال بأدب :

﴿ . . وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ<sup>(٤)</sup> أُخْرَى ﴾ (١٨) [طه]

إذن : فقد أدركته أولاً شهوة الأنس بالله تعالى ، وأدرك ثانياً أدب  
التخاطب مع الله تعالى ، ودرّبه الحق سبحانه على مسألة العصا حين أمره

(١) خر : سقط ووقع . والمراد أنهم أشرعوا بالسجود لله رب العالمين .

(٢) أتوكأ عليها : اتكأ وأعتد وأستند عليها . [اللسان : مادة (وكأ)] - بتصرف .

(٣) ﴿ وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي . ﴾ [طه] أي : أهرز بها الشجر لتساقط أوراقه لترعاه غنمي . نقله ابن كثير  
في تفسيره (١٤٥ / ٣) .

(٤) مآرب أخرى : أي : مصالح وحاجات ومنافع أخرى غير ذلك .



أرلاً أن يلقبها ، فصارت أمامه حية تسعى ، ولو كانت من جنس السحرة لما أوجس<sup>(١)</sup> منها خيفة ولرأها مجرد عصا .

إذن : فالفرق بين معجزة موسى وسحرة فرعون ، أن سحرة فرعون سحروا أعين الناس وخيّل إلى الناس من سحرهم أن عصيهم وحبالهم تسعى ، لكن معجزة موسى - عليه السلام - في إلقاء العصا ، عرفوا هم بالتجربة أن تلك العصا قد تغيرت حقيقتها .

والعصا - كما نعلم - أصلها فرع من شجرة ، وكان باستطاعة الحق سبحانه وتعالى أن يجعلها تتحول إلى شجرة مثمرة ، لكنها كانت ستظل نباتاً .  
وشاء الحق سبحانه أن ينقلها إلى المرتبة الأعلى من النبات ، وهي المرحلة الحيوانية ، فصارت حية تلتف كل ما ألقاه السحرة .

ونقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨)

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِرْيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨)

(١) أوجس : أى : وقع في نفسه وقلبه الخوف والفرع ، ( انظر اللسان مادة وجس ) وقد وقع هذا الخوف لاثني من الأنبياء ذكرهما القرآن : الأول إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة في صورة بشر ليشرّوه بإسحاق ويعقوب ، وقد ذكر هذا في القرآن مرتين : الأولى في سورة هود : ﴿ وَتَقَدَّ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِمُجَلِّ حَبِيبٍ (٢٨) فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ إِلَهُ لَهُمْ نَكَرَ لَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٢٩) ﴾ [هود] . أما الثانية ففي سورة الذاريات آية ٢٨ .

أما الذي الثاني فهو موسى عليه السلام : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٣٢) قَالَ بَلْ أَتَوْا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٣٣) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٣٤) فَلَمَّا لَا تَخَفْ بَلَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى (٣٥) ﴾ [طه] .

(٢) لالفنا : لثبنا وتبعنا عن آلهة الآباء والأجداد .

(٣) لكما : أى : لموسى وهارون عليهما السلام .

(٤) الكرياء : العظمة والرياسة . ( ابن كثير ٤/٢٦٦ ) .

وهنا نجد سحرة فرعون ينسبون مجيء معجزة تحول العصا إلى حية، ينسبونها لموسى - عليه السلام - رغم أن موسى عليه السلام قد نسب مجيء المعجزة إلى الله تعالى .

وكان واجب المرسل إليه - فرعون وملئه - أن ينظر إلى ما جاء به الرسول ، لا إلى شخصية الرسول <sup>(١)</sup> .

ولو قال فرعون لموسى : « جئ بك » لكان معنى ذلك أن فرعون يعلن الإيمان بأن هناك إلهاً أعلى ، ولكن فرعون لم يؤمن لحظتها ؛ لذلك جاء قوله : ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ فنسب المجيء على لسان فرعون لموسى عليه السلام .

ولماذا المجيء ؟

يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٧٨) [يونس]

والالفتات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له ، وما دام الإنسان يصدد شيء ؛ فكل نظره واتجاهه يكون إليه ، وكان قوم فرعون على فساد وضلال ، وليس أمامهم إلا ذلك الفساد وذلك الضلال .

وجاء موسى عليه السلام ؛ ليصرف وجوههم عن ذلك الفساد والضلال ، فقالوا :

﴿ أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ (٧٨) [يونس]

(١) فيما قاله فرعون عن موسى يطمئن في شخصيته ما يحكماء رب العزة في قوله تعالى : ﴿ وَتَادَى فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تَتَصَرَّوْنَ ﴾ (٢٤) أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (٢٥) ﴿ [الزخرف] وذلك أن موسى كان لسانه لا يتطرق بالكلام ، وقد عبر عن ذلك في دعائه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ (٢٦) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ (٢٧) وَأَحِلِّ غَشْدَةً مِن لِّسَانِي ﴾ (٢٨) بِفَقْهٍ قَوْلِي ﴾ (٢٩) [طه] .

وهكذا يكشفون حقيقة موقفهم ، فقد كانوا يقلدون آبائهم ، والتقليد يريح المقلد ، فلا يُعْمَلُ عقله أو فكره في شيء ليقتنع به ، ويبنى عليه سلوكه <sup>(١)</sup> .

والمثل العامي يصور هذا الموقف بعمق شديد حين يقول : « مثل الأطرش في الزفة » أي : أن فاقد السمع لا يسمع ما يقال من أي جمهرة ، بل يسير مع الناس حيث تسير ، ولا يعرف له انجهاً .

والمقلد إنما يعطل فكره ، ولا يختار بين البدائل ، ولا يميز الصواب ليفعله ، ولا يعرف الخطأ فيتجنبه .

وفرغون وملؤه كانوا على ضلال ، هو نفس ضلال الآباء ، والضلال لا يكلف الإنسان تعب التفكير ومشقة الاختيار ، بل قد يحقق شهوات عاجلة .

أما تمييز الصواب من الخطأ واتباع منهج السماء ، فهو يحجب الشهوة ، ويلزم الإنسان بعدم الانقلاط عكس الضلال الذي يطيل أمد <sup>(٢)</sup> الشهوة .

إذن : فالمقلد بين حالتين :

الحالة الأولى : أنه لا يُعْمَلُ عقله ، بل يفعل مثل من سبقوه ، أو مثل من يحيا بينهم .

(١) وهذا التقليد نهى عنه رسول الله ﷺ في حديثه ، فمن خليفته بن السمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن أحسن الناس أحسناً ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تدينوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا » أخرجه الترمذي في سننه (٢٠١٧) وقال : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) أمد الشهوة : غايته . والأمد : منتهى الأجل . وقد وردت هذه اللفظة ثلاث مرات في القرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَذْرَى أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ يَمِينٌ أَمْناً ﴾ [الحج] أي : زماناً بعيداً . وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ غَيْرِ مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْناً مُبْعَدًا ﴾ [آل عمران] أي : في غاية البعد . وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَخْتِئِمُ لِلْغَازِيَةِ أَحْمَسَ لِمَا أَفْعَوْا أَمْدًا ﴾ [الكهف] أي : مدة وزماناً .

والحالة الثانية: أنه رأى أن ما يفعله الناس لا يلزمه بتكليف ، ولكن الرسول الذي يأتي إنما يلزمه بمنهج ، فلا يكسب - على سبيل المثال - إلا من حلال ، ولا يفعل منكراً ، ولا يذم أحداً ، وهكذا يقيد المنهج حركته ، لكن إن اتبع حركة آيائه الضالين ، فالحركة تتسع ناحية الشهوات .

ولذلك أقول دائماً: إن مسألة التقليد هذه يجب أن تلفت إلى قانون التربية ، فالنشء ما دام لم يصل إلى البلوغ فأنت تلاحظ أنه بلا ذاتية ويقلد الآباء ، لكن فور أن تتكون له ذاتية يبدأ في التمرد ، وقد يقول للآباء: أنتم لكم تقاليد قديمة لا تصلح لهذا الزمان ، لكن إن تشرب النشء القيم الدينية الصحيحة ؛ فسيمثل لقانون الحق ، ويحجز نفسه عن الشهوات .

ونحن نجد أبناء الأسر التي لا تتبع منهج الله في تربية الأبناء وهم يعانون من أبنائهم حين يتسلط عليهم أقران<sup>(١)</sup> السوء ، فيتجهون إلى ما يوسع دائرة الشهوات من إدمان وغير ذلك من المفاسد .

لكن أبناء الأسر الملتزمة يراعون منهج الله تعالى ؛ فلا يقلدون أحداً من أهل السوء ؛ لأن ضمير الواحد منهم قد عرف التمييز بين الخطأ والصواب .

ثم إن تقليد الآباء قد يجعل الأبناء مجرد نسخ مكررة من آباءهم ، أما تدريب وتربية الأبناء على أعمال العقل في كل الأمور ، فهذه هي التنشئة التي تتطور بها المجتمعات إلى الأفضل إن اتبع الآباء منهج الله تعالى ، وتتكون ذاتية الابن على ضوء منهج الحق سبحانه ، فلا يتمرد الابن متجهاً إلى الشر ، بل قد يتمرد إلى تطوير الصالح ليزيده صلاحاً .

التقليد - إذن - يحتاج إلى بحث دقيق ؛ لأن الإنسان الذي سوف تقلده ، لن يكون مثولاً عنك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

(١) أقران : جمع قرين ( بكسر القاف وتسكين الراء ) وهو النظير والمثيل . والمراد بأقران السوء : أصدقاء السوء ورفقاء الشر والردائل . [ لسان العرب : مادة ( ق ر ن ) - بصرف ] .

﴿يُنَادِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا..﴾ (٣٣) [الفصان]

إذن : فأمر الابن يجب أن يكون تابعاً من ذاته ، وكذلك أمر الأب ، وعلى كل إنسان أن يعمل عقله بين البدائل<sup>(١)</sup> .

ولذلك نجد القرآن الكريم يقول على السنة من قلّدوا الآباء :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا<sup>(٢)</sup> عَلَيْهِ آبَاءَنَا..﴾ (١٧) [البقرة]

ثم يرد عليهم الحق سبحانه :

﴿..أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧) [البقرة]

فإذا كانت المسألة مسألة تقليد ، فلماذا يتعلم الابن ؟ ولماذا لا يتام الآباء على الأرض ولا يشتررون أسيرة ؟ ولماذا ينجذبون إلى التطور في الأشياء والأدوات التي تسهل الحياة ؟

فالتقليد هو إلغاء العقل والفكر ، وفي إلغائهما إلغاء التطور والتقدم نحو الأفضل .

إذن : فالقرآن يحثنا على أن نستخدم العقل ؛ لنختار بين البدائل ، وإذا كان المنهج قد جاء من السماء ، فلتنتد بما جاء لك ممن هو فوقك ، وهذا الاختداء المختار هو السمو نحو الحياة القاضية .

(١) البدائل : ما يصلح لأن يختار منه الإنسان ، فهن مواضع الاختيار في التكليف ، فله أن يختار بين الإيمان والكفر ، الطاعة والعصية ، قال تعالى : ﴿وَنَقُصُّ رِيسَاتِهَا﴾ (٢٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٢٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٢٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (٣٠) [الشعر] .

(٢) أَفْقَيْنَا : وجدنا . ألفى الشيء وجدته . قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَفْقَوْا أَبَاءَهُمْ حَالِينَ﴾ (١٧) [الصافات] ، وقال : ﴿وَأَلْقَى مِيدَانَهَا لَهَا الْيَابِ﴾ (١٥) [يوسف] أي : وجدناه .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۖ﴾ (١٠٤) ﴿[المائدة]

أى : أنهم أعلنوا أنهم فى غير حاجة للمنهج السماوى فَرَدَّ عليهم القرآن :

﴿... أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٤) ﴿[المائدة]

وهكذا نجد أن القرآن قد جاء بموقفين فى آيتين مختلفتين عن المقلدين :

الآية الأولى : هى التى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى :

﴿... بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٢٠) ﴿[البقرة]

والآية الثانية : هى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿... حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٤) ﴿[المائدة]

وهم فى هذه الآية أعلنوا الاكتفاء بما كان عليه آبائهم .

وهناك فارق بين الآيتين ، فالعاقل غير من لا يعلم ؛ لأن العاقل قادر على الاستنباط ، ولكن من لا يعلم فهو يأخذ من استنباط غيره .

(١) حسبنا : بكفيها . وهناك فارق بين قولة الكافرين المقلدين لأبائهم هنا ، وبين قول المؤمنين لهذه الكلمة : ﴿حَسْبُنَا﴾ ، فالمؤمنون قالوا : ﴿... حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٢٧) ﴿ [ آل عمران ] ، وقالوا : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرِزْقَهُ﴾ (٢٥) ﴿ [التوبة] ، فالمؤمنون اكتفوا بما جاءهم عن الله وأوكلوا الأمر إلى الله رغم معاداة الآباء لهم ورغم أن موقفهم هذا سيضرهم فى دنياهم وقد يقطع أرواقهم ، فهم قد نظروا إلى الآخرة ، أما الكافرون فإنهم يعيشون دنياهم بكل ما فيها من ملذات وشهوات .

[المائدة]

هؤلاء هم الذين غالوا في الاعتزاز بما كان عند آبائهم ؛ لذلك جاء في آياتهم القول بأنهم لا يعلمون .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسان فرعون وقومه:

[يونس]

أى: هل جئت لتصرفنا ، وتحوّل وجوهنا أو وجهتنا أو طريقنا وتأخذنا  
عن وجهه آياتنا الذين نقلدهم؛ لتأخذ أنت وأخوك الكبرياء في الأرض؟

**الأولى: هي ترك ما وجدوا عليه الآباء.**

والثانية: هي الكبرياء<sup>(١)</sup> والعظمة في الأرض.

(١) الكبرياء : العظمة والملك . وهي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ، ولا يوصف بها إلا الله تعالى . قال صاحب « القاموس القويم » : هي العظمة والتعظيم والسلطان والبطرة ، وهي في حق الله سبحانه العظمة الحق ، والسلطان القوى ، والبطرة الكاملة . يتصرف .

وهم هنا وجدوا في دعوة موسى عليه السلام مصيبة مركبة .

الأولى : هي ترك عقيدة الآباء .

والثانية : هي سلب الكبرياء ، أي : السلطة الزمنية والجاه والسيادة والعظمة والائتمار<sup>(١)</sup> ، والمصالح المقضية ، فكل واحد من بطانة<sup>(٢)</sup> الفرعون يأخذ حظه حسب اقترابه من الفرعون .

ولذلك أعلنوا عدم الإيمان ، وقالوا ما يُنهى به الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصددتها :

﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٨)

[يونس]

أي : أن قوم فرعون والملا أقروا بما حرصوا عليه من مكاسب الدنيا والكبرياء فيها ، ورفضوا الإيمان بما جاء به موسى وهارون- عليهما السلام .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْفِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٧٩)

وكان فرعون يعلم تقدم السحرة في دولته ، ويكفى أنه شخصياً خيّل للناس أنه إله ، وجاء أمره أن يأتي أعوانه بالسحرة ، وفور أن قال الأمر جيء بالسحرة .

وأورد الحق سبحانه في الآية التي بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقَوْمَ آتَئِكُمْ مُلْقُوتٌ ﴾ (٨٠)

(١) الائتمار : التشاور في الأمر والقواصي به . ويسمى التشاور ائتماراً لأن المتشاورين يقبل بعضهم أمر بعض . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْبَا الْمَدْيَنَةِ يُسَمَّى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ... ﴾ [القصص] ، [القاموس القويم] . وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٣ .

(٢) بطانة الرجل : خاصته . [لسان العرب : مادة ( ب ط ن )] .



وكان المسافة بين نطق فرعون بالأمر وبين تنفيذ الأمر هي أضيق مسافة  
وقتية ، وذلك حتى نفهم أن أمر صاحب السلطان لا يحتمل من الناس  
التأجيل أو التباطؤ في التنفيذ .

والقرآن حينما يعالج أمراً من الأمور فهو يعطى صورة دقيقة للواقع ،  
ولا يأتي بأشياء تفسد الصورة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَتَقْرَأُونَ (٨٠) ﴾ [يونس]

وفي هذه الآية تلخيص للموقف كله ، فحين علم السحرة أن فرعون  
يحتاجهم في ورطة <sup>(١)</sup> تتعلق بالحكم ، فهذه مسألة صعبة وقاسية ، وعليهم  
أن يسرعوا إليه .

ولم يأت الحق سبحانه هنا بالتفصيل الكامل لذلك الموقف ؛ لأن القصة  
تأتي بنقاطها المختلفة في مواضع أخرى من القرآن ، وكل آية توضح النقطة  
التي تأتي بذكرها <sup>(٢)</sup> .

لذلك لم نقل الحق سبحانه هنا : إن أعوان فرعون نادوا في المدائن <sup>(٣)</sup>  
ليأتى السحرة ، مثلما جاء في مواضع أخرى من القرآن <sup>(٤)</sup> .

(١) الورطة : الرجل تقع فيه الغنم فلا تقدر على التخلص منه . يقال : تورطت الغنم إذا وقعت في  
ورطة ، ثم صار مثلاً لكل شدة وقع فيها الإنسان . وتورط فلان في الأمر ، واستورط فيه : إذا ارتبك  
فيه ، فلم يسهل له للخروج منه . [ لسان العرب : مادة ( ورط ) ] .

(٢) وهذه ميزة القصص القرآني في الإشارة إلى قصصه عند قصة يوسف عليه السلام .

(٣) المدائن : جميع مدينة ، وهي القرى الكبيرة . وقد ورد هذا الجمع في القرآن خاصة بقصة موسى ثلاث  
مرات ، أما المفرد منه فقد جاء ١٤ مرة منها ٤ مرات خاصة بمدينة الرسول ﷺ [ التوبة : ١٠١ ، ١٢٠ ]  
[ الأحزاب : ٦٠ ] [ المنافقون : ٨ ] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن سحرة فرعون : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥١) ﴾  
[ الأعراف ] ، وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٧) ﴾ [ الشعراء ] .

ولم يقل لنا إن السحرة أرادوا أن يستفيدوا من هذه المسألة ، وقالوا للفرعون <sup>(١)</sup> :

﴿ .. إِنْ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف]

ووضَّع مثل هذا الشرط بوضوح لنا طبيعة العلاقات في ذلك المجتمع ، فطلبهم للأجر ، يعني أن عملهم مع الفرعون من قبل ذلك كان تسخييراً وبدون أجر ، ولما جاءتهم الفرصة ورأوا الفرعون في أزمة ؛ طالبوا بالأجر ، ووعدهم فرعون بالأجر ، وكذلك وعدهم أن يكونوا مقرَّبين <sup>(٢)</sup> ؛ لأنهم لو انتصروا بالسحر على معجزة موسى ؛ ففي ذلك العمل محافظة وصيانة للملك ، ولا بد أن يصبحوا من البطانة المستفيدة ، ووعدهم الفرعون بذلك شجداً لهمتهم ليجادروا بإبطال معجزة موسى ؛ ليستقر عرش الفرعون .

وشاء الحق سبحانه الإجمال هنا في هذه الآية - التي نحن بصدد خواطرنا عنها - وجاء ببقية اللمقات في المواضع الأخرى من القرآن .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ (٨٠) [يونس]

(١) فرعون : الفرعون الكبير والتعجيز ، وفرعون الذي ذكر في كتاب الله ترك صرَّفه في قول بعضهم ؛ لأنه لا سبى له وكليئس فيمن أخذه من أبيه . وقال ابن سيد : إن فرعون علَّم أعجمي . ولذلك لم يصرف . الجوهري : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ، وكل عات فرعون ، والعنة الفراعنة ، وقد تفرعن ، وهو ذو فرعون أي دهاء وتكبراً . وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح ( لسان العرب ) وقيل في القاموس القويم : فرعون لقب يسمى به كل ملك في مصر في الزمن القديم ، وفرعون موسى هو متفتاح ، وقيل رمسيس الثاني . والعبرة بالأحداث لا بذاة فرعون ، قال تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (٢٦) [طه] والله أعلم .

(٢) وذلك أن السحرة عندما طلبوا الأجر بقولهم : ﴿ .. إِنْ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ (١١٣) [الأعراف] قال فرعون : ﴿ .. نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١١٤) [الأعراف] فزادهم القرب منه فوق الأجر ؛ لذلك جاء عقابه لهم شديداً بعدما اتبعوا موسى ؛ لأن ما وعدهم به كان عظيماً ، فجاء العقاب على قدره .

وَألقى السحرة عصيهم وحبالهم .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٨١)

ونحن نعلم أن الحق سبحانه هنا شاء الإجمال ، ولكنه يبين بالتفصيل ما حدث ، في آية أخرى ، قال فيها سبحانه عن السحرة :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكُ (١١٥) ﴾ [الأعراف]

ونحن نعلم أن المواجهة تقتضي من كل خصم أن يدخل بالرعب على خصمه ؛ ليضعف معنوياته .

وهنا أوضح لهم موسى - عليه السلام - أن ما أتوا به هو سحر ومجرد تخيل .

وقد أعلم الحق سبحانه نبيه موسى - عليه السلام - أن أعضاء مستصير حية حقيقية ، بينما ستكون عصيهم وحبالهم مجرد تخيل <sup>(١)</sup> للعيون .

وقال لهم موسى - عليه السلام - حكم الله تعالى في ذلك التخيل :

﴿ ... مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٨١)

(١) والخيال ما تشبه لك في اللحظة أو في النوم من صورة . والظل : ما يتصوره ذهنك من شيء - والخيال إحدى قوى العقل التي يتخيل بها الأشياء ، ويتصورها .

قال تعالى : ﴿ ... يَخْلُقُ إِلَهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْمَى ﴾ (٤٧) [طه] أي : تشبه له ، ويصور له بسبب سحرهم أنها تسمى كالحيات ، والحقيقة أنها ليست حيات ، ولكنه توهم وتخيل (القاموس القويم) .

وهكذا جاء القول الفصل الذي أنهى الأمر وأصدر الحكم فيما فعل فرعون وملأؤه<sup>(١)</sup> والسحرة ، فكل أعمالهم كانت تفسد في الأرض ، ولولا ذلك لما بعث الله سبحانه إليهم رسولا مؤيَّداً بمعجزة من صنف ما برعوا فيه ، فهم كانوا قد برعوا في السحر ، فأرسل إليهم الحق سبحانه معجزة حقيقية تلتهم ما صنعوا ، فإن كانوا قد برعوا في التخيل ، قاله سبحانه خلق الأكوان بكلمة «كن» وهو سبحانه يخلق حقائق لا تخيلات .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ<sup>(٢)</sup> وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٦)

فالمسألة التي يشاؤها سبحانه تتحقق بكلمة «كن» فيكون الشيء .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) [بر]

و«كن فيكون» عبارة طويلة بعض الشيء عند وقوع المطلوب ، ولكن لا توجد عبارة أقصر منها عند البشر ؛ لأن الكاف والنون لهما زمن ، وما يشاؤه الله سبحانه لا يحتاج منه إلى زمن ، والمراد من الأمر «كن» أن الشيء يوجد قبل كلمة «كن» ؛ لأن كل موجود إنما يتحقق ويرز بإرادة الله تعالى .

ويريد الحق سبحانه هنا أن يبين لنا أن الحق إنما يأتي على السنة الرسل ، ومعجزاتهم دليل على رسالتهم ؛ ليضع أنوف المجرمين في الرِّغَام<sup>(٣)</sup> ،

(١) ملأؤه : أي فرعون ومن يرجع إليهم .

(٢) يحق : يثبت ويظهر . بكلماته : بمواعيده [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

(٣) الرِّغَام : التراب . والمراد : إذلالهم وعقابهم على عصيانهم وإجرامهم .

وليريح العالم من إضلالهم ومن مفاسدهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن  
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ  
وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٢)

وإذا كان السحرة - وهم عُدَّة فرعون وعتادة لمواجهة موسى - أعلنوا  
الإيمان ، فعاقبهم الفرعون وقال :

﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ . . ﴾ (٧١) [طه]

فهذا يدل على أن فكرة الألوهية كانت ما تزال مسيطرة على عقله ؛  
ولذلك خاف الناس من إعلان الإيمان ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ . . ﴾ (٨٢) [يونس]

وكلمة «ذرية» تفيد الصغار الذين لم تلمسهم خميرة من الفساد الذي كان  
متشعراً ، كما أن الصغار يتمتعون بطلاقة من النقاء ، ويعيشون في خلوص  
من المشاكل ، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة التي يُحرص عليها ،  
ومع ذلك فهم قد آمنوا :

(١) ذرية : طائفة (جماعة) من أولاد قوم فرعون [تفسير الجلالين ص ١٨٦] ، وقيل : من بني إسرائيل  
[مختصر تفسير الطبري : ص ٢٣٩] .

(٢) ملئهم : آل فرعون والمقربون منه والموافقون له .

(٣) يفتنهم : يصرفهم عن دينهم بتعذيبهم لهم .

(٤) عال في الأرض : جبار مستكبر . والمراد بالأرض هنا أرض مصر .

(٥) المسرفين : المتجاوزين الحد بإدعاء الربوبية . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

﴿ عَلَى خَوْفٍ <sup>(١)</sup> مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمُ . . (٨٢) ﴾ [يونس]

وكلمة «عَلَى خَوْفٍ» تفيد الاستعلاء ، مثل قولنا : «على القرس» أو «على الكرسي» ويكون المستعلى في هذه الحالة متمكناً من «المستعلى عليه» ؛ ومن يستعلى إنما يركب المستعلى ، ويحمل المستعلى العبء .  
ولكن من استعمالات «على» أنها تأتي بمعنى «مع» .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ . . (٨) ﴾ [الإنسان]

أي : يطعمون الطعام مع حبه .

وحين يأتي الحق سبحانه بحرف مقام حرف آخر فلا بد من علة لذلك .

ومثال ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَا قُطَيْعَ مِنِّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَينَكُم فِي جُدُوعِ النَّخْلِ . . (٧١) ﴾ [طه]

جاء الحق سبحانه بالحرف «في» بدلاً من «على» ؛ ليدل على أن عملية الصلب ستكون تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب في المصلوب فيه .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) الخوف هو الفزع لتوقع حدوث مكرره ، أو فوت أمر محبوب ، والخوف ضد الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَأَمْتَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش] وقال : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوْعَدٍ جَنَافًا أَوْ إِنَّمَا فَاسَتْخَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِنَّم عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤٨) ﴾ [البقرة] أي : فزع لتوقعه ظلم الموصى وجوره خوفاً جملة يخاف . قال تعالى : ﴿ . . وَتَحَرَّفَهُمُ قَبْلًا يَرْتَدُّهُمْ إِلَىٰ طِفْلَانَا كَبِيرًا (٥٥) ﴾ [الإنسان] وخوفه فلاناً أي : جملة يخافه بتعدى للمعولين قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ . . (٧٥) ﴾ [آل عمران] .

[الإنسان]

﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ۖ ﴾ (٨١)

فكانتهم هم المستعملون على الحب ؛ ليذهب بهم حيث يريدون .

وكذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

[يونس]

﴿ عَلَى خَوْفٍ ۖ ﴾ (٨٢)

أى : أنهم فوق الخوف يسير بهم إلى دهااليز توقُّع الآلام<sup>(١)</sup> .

وهم هنا آمنوا : ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۖ ﴾ (٨٢) [يونس]

والكلام هنا من الحق الأعلى سبحانه يبيِّن لنا أن الخوف ليس من فرعون ؛ لأن فرعون إنما يمارس التخويف بمن حوله ، فمثلهم مثل زوّار الفجر فى أى دولة لا تقيم وزناً لكرامة الإنسان .

وفرعون فى وضعه ومكانته لا يباشر التعذيب بنفسه ، بل يقوم به زبائنته .

والإشارة هنا تدل على الخوف من شيعة فرعون وملئهم .

وقال الحق سبحانه هنا : ﴿ يَفْتِنُهُمْ ۖ ﴾ ، ولم يقل : «يفتنوهم» ؛ ليدلنا على

ملحظ أن الزبانية لا يصنعون التعذيب لشهوة عندهم ، بل يمارسون

التعذيب لشهوة عند الفرعون .

(١) من معانى الحرف (على) : الاستعلاء ؛ وهو أكثر معانيه استعمالاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۖ ﴾ [البقرة] . والظرفية ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ۖ ﴾ [القصاص] أى : فى حين غفلة . والمصاحبة ؛ نحو قوله تعالى : ﴿ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَفَرِحٌ فَغَفِيرٌ ۖ ﴾ [الرعد] أى : مع ظلمهم ؛ ونحو قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَكِينًا وَيَتَمَنَّى وَأُسَبِّحُ ۖ ﴾ [الإنسان] . أى : مع حبهم للمال . ومن معانيها أيضاً : أن تكون بمعنى (من) نحو قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمَطْلُوعِينَ ۚ ﴾ [الأنعام] الذى إذا اكتفوا على الناس يستوفون<sup>(٢)</sup> . [المطففين] أى : من الناس . ومن معانى (على) أيضاً : المجاوزة ، والتحليل ، والإضراب ، وأن تكون بمعنى الباء . انظر تمثيل ذلك فى [النحر الوافى] : (٥٠٩/٣ - ٥١٠/٢) .

وهكذا جاء الضمير مرة جمعاً ، ومرة مفرداً ؛ ليكون كل لفظ في القرآن جاذباً لمعناه .

وحين أراد المفسرون أن يوضحوا معنى (ذرية) قالوا <sup>(١)</sup> : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، وَمَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - وَكُتِبَ إِيمَانُهُ .

كل هؤلاء منعتهم خشية عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى ؛ لأن فرعون كان جبّاراً في الأرض ، مدّعياً للالهية ، وإذا ما رأى فرعون إنساناً يחדش ادعاءه للالهية ؛ فلا بد أن يبطش به بطشة فاتكة .

لذلك كانوا على خوف من هذا البطش ، فقد سبق وأن ذبح فرعون - بواسطة زبانيته - أبناء بنى إسرائيل واستحيا نساءهم <sup>(٢)</sup> ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نكّذوا ما أراده فرعون .

ولذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع في قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَلَئَهُمْ...﴾ (٨٣)

[يونس]

وجاء الضمير مفرداً معبراً عن فرعون الأمر في قوله سبحانه وتعالى :

﴿أَنْ يَفْتَهُمْ...﴾ (٨٣)

[يونس]

(١) هذا قول ابن عباس ، ذكره القرطبي في تفسيره (٣/٢٩٦) وعلى هذا يكون الضمير في ﴿قَوْمِهِ﴾ عائداً على فرعون . وقد ذكر القرطبي قولاً آخر - ونسبه للقرءاء - يجعل الضمير يحتمل عوده على موسى وفرعون في نفس الوقت ، باعتبار أن الذرية اقترام آبائهم من القبط أي : آل فرعون . وأمهانهم من بنى إسرائيل .

(٢) استحياهم النساء : أي : تركهم أحياء . وقد كان بنو إسرائيل واقعين تحت الإيذاء والاستضعاف من قبل أن يأتيهم موسى ، فبطش فرعون بهم كان مستمراً ، ولذلك قالوا لموسى : ﴿قَالُوا أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَنَحْنُ بِعَدُوٍّ مَا جِئْنَاكَ...﴾ [الأعراف : ١٤٩] ، وقد قال سبحانه عن فترة إيذاء فرعون لبني إسرائيل قبل مجيء موسى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص : ٢٦] .



فهم خافوا أن يفتنهم فرعون بالتعذيب الذي يقوم به أعوانه .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ .. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنِ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٨٣) [يونس]

والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود . وهو قد تجاوز في إسرافه وأدعى الألوهية .

وقد قال الحق سبحانه ما جاء على لسان فرعون :

﴿ .. أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (٢٤) [النازعات]

وقال الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (٢٨) [القصص]

وعلا فرعون في الأرض علواً طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

وقال الحق سبحانه على لسان فرعون :

﴿ أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ<sup>(١)</sup> وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ (٥١) [الإخرف]

إذن : فقد كان فرعون مسرفاً أشد الإسراف .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا

إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ (٨٤)

(١) المصّر : البلد العظيم ، قال تعالى : ﴿ أَفِطْرُوا مِصْرًا ﴾ (٥١) [البقرة] أي : بلداً عظيماً كبيراً .  
ومصّر بغير تنوين هي بلادنا العزيزة ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ .. ﴾ (٥١) [يوسف] [القاموس القويم] .

وهنا شرطان ، في قوله تعالى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وجاء جواب هذا الشرط في قوله سبحانه :

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. (٨٤) ﴾ [يونس]

ثم جاء بشرط آخر هو : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ .. (٨٤) ﴾ [يونس]

وهكذا جاء الشرط الأول وجوابه ، ثم جاء شرط آخر ، وهذا الشرط الآخر هو الشرط الأول وهو الإسلام لله ؛ لأن الإيمان بالله يقضي الإسلام وأن يكونوا مسلمين .

ومثال ذلك في حياتنا : حين يريد ناظر إحدى المدارس أن يعاقب تلميذاً خالف أوامر المدرسة ونظمها ، ويستعطف التلميذ الناظر ، فيرد الناظر على هذا الاستعفاف بقوله : « إن جئت يوم السبت القادم قبلتكَ في المدرسة إن كان معك وليٌ أمرك ؛ ومجئ ولي الأمر هنا مرتبط بالموعد الذي حدده الناظر لعودة التلميذ لصفوف الدراسة ، وهكذا نجد أن الشرط الآخر مرتبط بالشرط الأول .

وهنا يتجلى ذلك في قول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ <sup>(١)</sup> (٨٤) ﴾ [يونس]

والإيمان - كما نعلم - عملية وجدانية قلبية ، والإسلام عملية ظاهرية ، فمرة ينفذ الفرد تعاليم الإسلام <sup>(٢)</sup> ، وقد ينفك مرة أخرى من

(١) لأنه لا إيمان موصول إلا بالإسلام ، ولا إسلام واصل إلا بالإيمان ، فبينهما تلازم حقيقي لبلوغ المراد .  
(٢) الإسلام هو الانقياد لله تعالى ولما جاء به الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام ، فهو الانقياد الظاهري لجميع أحكام الإسلام أما الإيمان فهو اعتقاد القلب وتصديقه لجازم الذي لا يدخله شك ، قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَنفَكُمْ مِنْ أَعْيَانِكُمْ شَيْئًا .. (١٠٩) ﴾ [الحجرات] .

تنفيذ التعاليم رغم إيمانه بالله ، ومرة نجد واحداً ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً من غير رصيد من إيمان .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ (٢٥)

[البقرة]

ونجده سبحانه يبين هذا الأمر بتحديد قاطع في قوله تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا .. ﴾ (١٤)

[الحجرات]

والإيمان عملية قلبية ؛ لذلك يأتي الأمر الإلهي :

﴿ قُلْ لِمَ تَقُولُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ

[الحجرات]

.. ﴾ (١٤)

أي : أنكم تؤدون فروض الإسلام الظاهرية ، لكن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا .. ﴾ (٨٤)

[يونس]

وهكذا نرى أن التوكل مطلوب الإيمان ، وأن يُسلم الإنسان زمامه في كل أمر إلى مَنْ آمَنَ به ؛ ولذلك لا يتفع الإيمان إلا بالإسلام ، فإن كنتم مسلمين مع إيمانكم فتوكلوا على الله تعالى .

لكن إن كنتم قد آمنتم فقط ولم تسلموا الزمام لله في التكليف إلى الله في «افعل» و «لا تفعل» ، فهذا التوكل لا يصلح .

وهكذا يتأكد لنا ما قلناه من قبل من أنك إذا رأيت أسلوباً فيه شرط تقدم ، وجاء جواب بعد الشرط ، ثم جاء شرط آخر ؛ فاعلم أن الشرط

الأخير هو المقدم ؛ لأنه شرط في الشرط الأول <sup>(١)</sup> ، وبالمثل هنا فإن التوكل لن ينشأ إلا بالإسلام مع الإيمان .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً <sup>(٢)</sup>  
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> ٨٥

أى : أنهم استجابوا لدعوة موسى - عليه السلام - بمجرد قولهم : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ .

وإذا تقدم الجار على المجرور فمعنى ذلك قَصْرٌ وَخَصْرُ الأمر ، وهنا قصر وحصص التوكل على الله تعالى ، ولا توكل على سواه .

ويأتى بعد ذلك دعاؤهم :

﴿ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ٨٥ [يونس]

والفتنة : اختبار ، وهى - كما قلنا من قبل - ليست مذمومة فى ذاتها ، بل المذموم أن تكون النتيجة فى غير صالح من يمر بالفتنة .

ويقال : فتنن الذهب ، أى : صهرت الذهب ، واستخلصته من كل

(١) يجوز أن تتوالى أداتان - أو أكثر - من أدوات الشرط ، باتصال مباشر ، أو غير مباشر . والتوالى مع الاتصال المباشر يكون الاعتبار فيه للأداة الأولى ؛ فهى وحدها التى تحتاج لشرط وجواب . أما التوالى مع الاتصال غير المباشر فتكون لكل أداة جملتها الفعلية الشرطية التى تليها مباشرة ، وتفصل بينها وبين الأداة الشرطية التى بعدها وتحتاج كل أداة بعد هذا إلى جملة جوابية تخضع لعدة أحكام ، منها أنه إذا كان التوالى بغير عطف فالجواب للأداة الأولى وحدها ما لم تقم كربة تعيين غيرها . أما باني الأدوات الثالبة فجواب أى منها محذوف لدلالة جواب الأداة الأولى عليه . انظر تفصيل ذلك فى [النحو الوافى : ٤٨٩/٤ ، ٤٩٠] .

(٢) فتنة : مريض عذاب . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

(٣) لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين : أى : لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ؛ فيشتتوا بنا . [تفسير الجلالين : ص ٦٨٦] .

الشوائب ، ونحن نعلم أن صنّاع الذهب يخلطونه بعناصر أخرى ؛ ليكون متماسكاً ؛ لأن الذهب غير المخلوط بعناصر أخرى لا يتماسك .

والفتنة التي قالوا فيها :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

هي فتنة الخوف من أن يرتد بعضهم عن الإيمان لو انتصر عليهم فرعون وعذبتهم ، وكأنهم يقولون : يا رب لا تسلط علينا فرعون بعذاب شديد .

هذا إن كانوا مفتونين ، فماذا إن كانوا هم الفاتنين ؟

إنهم في هذه الحالة لو لم يتبعوا الدين الصحيح الحقيقي لما علم فرعون وآله أن هؤلاء الذين أعلنوا الإيمان هم مسلمون بحق ، وهم لو انحرفوا عن الدين لقال عنهم آل فرعون : إنهم ليسوا أهل إيمان حقيقي .

ونجد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو أبر الأنبياء وله قدره العظيم في النبوة ، يقول :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ (٥)

[الممتحنة]

ودعوة إبراهيم عليه السلام تعلمنا ضرورة التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه .

ولذلك كان سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يؤذي الأوامر بأكثر مما يطلب منه ، ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ <sup>(١)</sup> .. ﴾ (١٢٩)

[البقرة]

أي : أنه كان يتم كل عمل بنية وإتقان ؛ لأنه أسوة <sup>(٢)</sup> ، فلم يتم بعمل

(١) ابتلى : اختبر . بكلمات : بأوامر ونواه كلفه الله بها .

(٢) أسوة : قدوة حسنة .

إيماني بظهور سطحي .

إذن : فإن كانوا هم المفتونين ، فهم يدفعون الفتنة عن أنفسهم ، وإن كانوا هم الفاتنين ؛ فعليهم التمسك بتعاليم الدين ؛ حتى لا يتهمهم أحد بالتقصير في أمور دينهم ، فيزداد الكافرون كفراً وضللاً .

وجاء قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥)

[يونس]

ليبدل على انشغالهم بأمر الدين ، فاتنين أو مفتونين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٦)

وهنا توضح الآية الكريمة أنهم إن كانوا مشغولين بأمر الغير من الكافرين فهذا يعني أنهم طمعوا في إيمان العدو ؛ لعل هذا العدو يعود إلى رشد الإيمان .

ورسول الله ﷺ يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(١)</sup> .

وهم أرادوا إيمان العدو رغم أنه ظالم .

وهكذا يعلم الحق - سبحانه وتعالى - الخلق أنه من حُمَقِ العداوة أن يدعوا الإنسان على عدوه بالشر ؛ لأن الذي يتعبك من عدوك هو شره ، ومن صالحك أن تدعوه بالخير ؛ لأن هذا الخير سيتعدى إليك .

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) ، ومسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك باللفظ : « والذي نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

وعلى المؤمن أن يدعو لعدوه بالهداية ، لأنه حين يهتدى ؛ فلسوف يتعدى النفع إليك ، وهذه من مميزات الإيمان أن نفعه يتعدى إلى الغير .

وهم حين دعوا ألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين ، فإن ذلك يوضح لنا أن الظلم درجات ، وأن فرعون وملأه كانوا في قمة الظلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣٠ ﴾ [لقمان]

فقمة الظلم أن تأخذ حق الغير وتعطيه لغير صاحب الحق . وفرعون وملأه أشركوا بالله - سبحانه وتعالى - فظن فرعون أنه إله ، وصدقه من حوله .

فقمة الظلم هو الشرك بالله سبحانه ، ثم بعد ذلك ينتزل إلى الظلم في الكبائر ، ثم في الصغائر .

وقولهم في دعائهم للحق سبحانه :

﴿ وَتَجِنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٨٦ ﴾ [يونس]

أى : اجعلنا بنجوة<sup>(١)</sup> من هؤلاء .

وكان الذى يخيف الأقدمين هو سيل المياه ، حين تندفق ، ولا ينجو إلا من كان فى رتبة عالية - والنجوة هى المكان المرتفع - وهذا هو أصل كلمة " النجاة " .

وهنا يقول الحق سبحانه على لسانهم :

﴿ وَتَجِنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٨٦ ﴾ [يونس]

(١) النجوة: المرتفع من الأرض . ويقال : هو بنجوة من هذا الأمر : أى : بعيد عنه يرى سالم . [المعجم الوسيط : مادة ( ن ج و ) ] .

والرحمة هي الوقاية من أن يجيء الداء .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَتَنْزِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. ﴾ (٨٢) [الإسراء]

والشفاء إذا وُجد الداء ، والرحمة هي ألا يجيء الداء .

وأراد الحق سبحانه أن يكرم - بعد ذلك - موسى عليه السلام وقومه

فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا يُبَصِّرُ بُيُوتًا  
وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٧)

وأوضحنا من قبل أن موسى وهارون عليهما السلام رسولان برسالة واحدة ، وأن الوحي قد جاء لل اثنين برسالة واحدة .

فالحق سبحانه ساعه يختار نبياً رسولاً ، فإنما يختاره بتكوين وفطرة توهله لحمل الرسالة والنطق بمرادات الله تعالى .

وإذا كان الخلق قد صنعوا آلات ذاتية الحركة من مواد جامدة لا فكر لها

(١) تبوء : اتخذوا واجعلوا . قيلة : مصلى يصلون فيه لتأمينوا من الخوف . وكان فرعون قد منعهم من الصلاة . أقيموا الصلاة : أتموها . وبشر المؤمنين : بالنصر والجنة . [تفسير الجلالين : ص ١٨٦] .

وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٢٨ ، ٤٢٩) : أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا أي : يتخذوا القومهما بمصر بيوتاً ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) فمن ابن عباس : قال : أمروا أن يتخذوها مساجد . وعن إبراهيم النخعي قال : كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكذا قال غير واحد من علماء التفسير ، وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى : ﴿ يُؤَسِّسُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَقْبِلُوا بِالصَّلَاةِ .. ﴾ (البقرة) . وقال سعيد بن جبير في تفسير هذه الآية : (قيلة) أي : يقابل بعضها بعضاً . [من تفسير ابن كثير .. بتصرف] .



ولا رَوِيَّةٌ<sup>(١)</sup> ، مثل الساعة التي تُؤَدِّنُ ، أو المذيع الذي يذيع في توقيت محدد ، إذا كان البشر قد صنعوا ذلك فيما بالنا بالله سبحانه الخالق لكل الخلق والكون ومرسل الرسل؟

إنه سبحانه وتعالى يختار رسله بحيث يسمع تكوين الرسول أن يؤدي المهمة الموكولة إليه في أي ظرف من الظروف .  
وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

يبين لنا أن الوحي شمل كلا من موسى وهارون عليهما السلام ، بحيث إذا جاء موقف من المواقف يقتضي أن يتكلم فيه موسى ، فهارون أيضاً يمكن أن يتكلم في نفس الأمر ؛ لأن الشحنة الإيمانية واحدة ، والمنهج واحد .

وقد حدث ذلك بعد أن غرق فرعون وقومه ، وخلا لهم الجو ، فجاء لهم الأمر أن يستقروا في مصر ، وأن يكون لهم فيها بيوت .  
ولكن لنا أن نسأل :

هل فرعون هذا هو شخص غرق وانتهى؟

لا . . . إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو «فرعون» ؛ لذلك لا داعي أن نشغل أنفسنا : هل هو تحتسب الأول ؟ أو رمسيس ؟ أو ما إلى ذلك ؟ فهب أن فرعون المعنى هنا قد غرق ، ألا يعني ذلك مجيء فرعون جديد ؟

نحن نعلم من التاريخ أن الأسير الحاكمة توالث ، وكانوا فراعنة ، وكان منهم من يضطهد المؤمنين ، ولا بد أن يكون خليفة الفرعون أشد ضراوة وأكثر شحنة ضد هؤلاء القوم .

(١) الروية : النظر والتفكير في الأمور ، وهي خلاف البديهة [المعجم الوسيط : مادة (ر و ي)] .



ويعتبر الخروج من الوطن مجرد رحلة تقتضي العودة ؛ وكذلك البيت بالنسبة للإنسان ؛ فالواحد منا يطوف طوال النهار في الحقل أو المصنع أو المكتب ، وبعد ذلك يعود إلى البيت للبيتوتة <sup>(١)</sup> .

والبيوت التي أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامتها لقوم موسى وهارون - عليهما السلام - كان لها شرط هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. (٨٧) ﴾ [يونس]

والقبلة هي المتجه الذي نصلى إليه .

ومثال ذلك : المسجد ، وهو قبلة مَنْ هو خارجه ، وساعة ينادى المؤذن للصلاة يكون المسجد هو قبلتنا التي نذهب إليها ، وحين ندخل المسجد نتجه داخله إلى القبلة ، واتجاهنا إلى القبلة هو الذي يتحكم في وضعنا الصفي .

والأمر هنا من الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧) ﴾ [يونس]

فإقامة البيوت هنا مشروطة بأن يجعلوا بها قبلة لإقامة الصلاة بعيداً عن أعين الخصوم الذين يضطهدونهم ، شأنهم شأن المسلمين الأوائل حينما كان الإسلام - في أوليته - ضعيفاً بمكة ، وكان المسلمون حين ذاك يصلون في قلب البيوت ، وهذا هو سر عدم الجهر بالصلاة نهاراً ، وعدم الجهر بقيد في ألا ينتبه الخصوم إلى مكان المصلين .

وأما الجهر بالصلاة ليلاً وفجراً ، فقد كان المقصود به أن يعلمهم كيفية قراءة القرآن .

(١) البيتوتة : مصدر للفعل بات بيت ، حيث إن البيت هو محل البيات والمبيت . [السان العرب : مادة (ب ي ت) - بتصرف] .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ أَنْ تَبُوءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) [يونس]

وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة.

والى يومنا هذا أنت إن نظرت إلى ساحات<sup>(١)</sup> اليهود في أى بلد من بلاد الدنيا تجد أنهم يقطنون حياً واحداً ، ويرفضون أن يذوبوا فى الأحياء الأخرى ..

ففى كل بلد لهم حى يسكنون فيه، ويسمى باسم «حى اليهود». وكانت لهم فى مصر «حارات» كل منها تسمى باسم «حارة اليهود».

وقد شاء الحق - سبحانه وتعالى - ذلك وقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ .. ﴾ (٦٦) [البقرة]

وهم يحتمون بتواجدهم معاً ، فإن حدث أمر من الأمور يفرعهم ؛ يصيح من السهل عليهم أن يلتقوا .

أو ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .. ﴾ (٨٧) [يونس]

أى : أن يكون تخطيط الأماكن والشوارع التى تُبنى عليها البيوت فى اتجاه القبلة .

وأى خطأ معمارى مثل الذى يوجد فى تربية بناء مسجد الإمام الحسين بالقاهرة ، هذا الخطأ يوجب الاتجاه إلى اليمين قليلاً مما يسبب بغض

(١) الساحات: جمع ساحة وهى الناحية من البيوت . وهى أيضاً فضاء يكون بين بيوت الحى . وساحة الدار: باحتها. [اللسان مادة: س وح] ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَعَدَّابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٧٦) ، فإذا تزل بساحتهم فضاء صَاحَ الْمُنْدَرِينَ ﴿ [الصفات] أى: بالمحلة أو الديار التى يسكنونها.

الارتباك للمصلين ؛ لأن الانحراف قليلاً إلى اليمين في أثناء الصلاة يقتضى أن يقصر كل صف خلف الصف الآخر .

وحين نصلى في المسجد الحرام بمكة ، نجد بعضاً من المصلين يريدون مساواة الصفوف ، وأن تكون الصفوف مستقيمة ، فتجد من ينه إلى أن الصف يعتدل بمقدار أطول أضلاع الكعبة ، ثم ينحنى الصف . وكذلك في الأدوار العليا التي أقيمت بالمسجد الحرام نجد الصفوف منحنية متجهة إلى الكعبة .

ولذلك أقول دائماً حين أصلى بالمسجد الحرام : إن معنى قول الإمام : «سوروا صفوفكم» أي : اجعلوا منابكم<sup>(١)</sup> في مناب بعضكم البعض ، أما خارج الكعبة فيكفى أن نتجه إلى الجهة التي فيها الكعبة ، ونحن خارج الكعبة لا نصلى لعين الكعبة ، ولكننا نصلى تجاه الكعبة ؛ لأننا لو كنا نصلى إلى عين الكعبة لما زاد طول الصف في أي مسجد عن اثني عشر متراً وربع المتر ، وهو أطول أضلاع الكعبة .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ۖ ﴾ . . (٨٧) [يونس]

أي : خططوا في إقامة البيوت أن تكون على القبلة ، وبعض الناس يحاولون ذلك ، لكن تخطيط الشوارع والأحياء لا يساعد على ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) المناكب : جمع منكب ، وهو مجتمع عظم العضد والكتف . [لسان العرب : مادة ( ن ك ب )] .  
(٢) القبلة : الوجهة . قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلِيتَ قِبْلَةَ نَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ ﴾ [البقرة] ، وهي الجهة التي نتجه إليها في صلاتنا . ومعنى الآية هنا أن يتروا بيوتهم ، مواجهة للقبلة . أو : اجعلوها قِبْلَةً للناس يتجهون إليها لنيل الخير .

[يونس]

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ .. (٨٧)﴾

وهذا الأمر نفهم منه أن الصلاة فيها استدامة الولاء<sup>(١)</sup> لله تعالى ، فنحن نشهد ألا إله إلا الله مرة واحدة في العمر ، ونُزَكِّي - إن كان عندنا مال - مرة واحدة في السنة ، ونصوم - إن لم نكن مرضى - شهراً واحداً هو شهر رمضان ، ونحج - إن استطعنا - مرة واحدة في العمر .

ويبقى ركن الصلاة ، وهو يتكرر كل يوم خمس مرات ، وإن شاء الإنسان فَلْيُزِدْ ، وكأن الحق سبحانه وتعالى هنا ينبه إلى عماد الدين وهي الصلاة .

ولكن من الذى اختار المكان فى الآية التى نحن بصدد خواطرنّا عنها ؟ هل هو موسى وأخوه هارون ؟ أم أن الخطاب لكل القوم ؟

نلاحظ هنا أن الأمر بالتبوء هو لموسى وهارون - عليهما السلام - أما الأمر بالجعل فهو مطلوب من موسى وهارون والأتباع ؛ لذلك جاء الجعل هنا بصيغة الجمع .

وَيُنْهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

[يونس]

﴿.. وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)﴾

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة ؛ لذلك جاء له الأمر بأن يحمل البشارة للمؤمنين .

ونلاحظ هنا فى هذه الآية أن الحق سبحانه جاء بالتنبيه فى التبوء ، وجاء بالجمع فى جعل البيوت ، ثم جاء بالمفرد فى نهاية الآية لينبئنا إلى أن موسى - عليه السلام - هو الأصل فى الرسالة إلى بنى إسرائيل .

(١) الولاء : الحب والتصرة . يقول سبحانه : ﴿وَمَا لَهُمْ آلِيَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يُضِلُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الضَّالُّونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [الأنفال] .

والبشرى على الأعمال الصالحة تعنى : التبشير بالجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ  
زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ  
رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا  
حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨ ﴾

والزينة : هي الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى ،  
فاستبقاء الحياة يكون بالماكل لاي غذاء يسد الجوع ، وبالمشرب الذي يروى  
العطش .

أما إن كان الطعام منوعاً فهذا من ترف الحياة ، ومن ترف الحياة الملابس  
التي لا تستر العورة فقط ، بل بالزى الذي يتميز بجودة النسيج والتصميم  
والتفصيل .

وكذلك من ترف الحياة المكان الذي ينام فيه الإنسان ، بحيث يتم تأنيته

(١) اطمس على أموالهم : قال ابن عباس ومجاهد : أى : أهلكها . وقال الضحاك وأخرون : جعلها بقعة  
حجارة مقروشة .

(٢) واشدد على قلوبهم : اطمع عليها . وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه ، على  
فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا يخبر فيهم ولا ينجي منهم شئ . [ذكره ابن كثير فى تفسيره :  
٤/٢٤٢٩] .

(٣) رأى : نظره عينه كأبصر . ورأى بفكره وقلبه بمعنى : علم . ورأى : اعتقد . ورأى فى نفسه رؤيا :  
حلم . والرؤيا : الحلم فى النوم . ورأى : هنا هى البصرية ، أى : حتى يروا العذاب بأعينهم ويعاينوه  
معاينة .

بفاحش الرياش<sup>(١)</sup> ، ولكن الضرورة في النوم يكفى فيها مكان على الأرض ، وأى فراش يبقى من برودة الأرض أو حرارتها .

إذن : فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة ، والزينة تأتى من الأموال ، والرصيد الأصيل فى الأموال هو الذهب ، ثم تأخذ القضية المرتبة الثانية .

ومن مقومات الاقتصاد أن الذهب يعتبر قيمة الرصيد لغنى أية دولة ، مهما اكتشفوا من أحجار أغلى من الذهب .

وهذه الأحجار الكريمة - كالماس مثلاً - إن كُسرت أو خُدشت تقل قيمتها ، لكن الذهب مهما تفتت فأنت تعيد صهره ، فتستخلص ذهباً مُجمَعاً .

وكان الفراعنة الأقدمون يحكمون مصر حتى منابع النيل ، وكانوا يستخرجون الناس فى كل الأعمال ، حتى استخراج الذهب سواء من المناجم أو من غربة رمال بعض الجبال لاستخلاص الذهب منها .

وأنت قد تستطيع استخلاص الذهب من أماكن معينة ، ولكن الفرق دائماً إنما يكون فى القيمة الاقتصادية لاستخراج الذهب ، فحين يكون المنجم وفير العطاء ، فيه كثير من عروق الذهب ، هنا يصبح استخراج الذهب مسألة مربحة اقتصادياً .

أما إن كانت التكلفة أعلى من القيمة الاقتصادية للذهب المستخرج ، فلا أحد يستخرج هذا الذهب .

(١) الرياش والريش : الخشب ، والمعاش ، والمال ، والأنثى واللباس الحسن الفاخر . قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَازِي سُرَّتَكُمْ وَرِيشًا وَرِيشًا وَالْقُرَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ قِيَابِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَلَذَّخَرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢] .



وأنت إن نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع «توت عنخ آمون» آية في الجمال ، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية ، ويكفى أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام ؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف ، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات .

وفي هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ ۚ ﴾ (٨٨)

وهم لم يضلُّوا فقط بل أرادوا أن يضلُّوا غيرهم ؛ لذلك تحملوا وِزْرَ ضلالهم ، ووِزْرَ إضلال غيرهم .

فهل أعطاهم الله سبحانه المال والزينة للضلال والإضلال ؟

لا ، فليس ذلك علة العطاء ، ولكن هناك لام العاقبة ، مثلما تعطى أنت ابنك عشرة جنيهات وتقول له : افعل بها ما تريد ، وأرجو أن تتصرف فيها تصرفاً يعود عليك بالخير . وقد ينزل هذا الابن ليشتري شيئاً غير مفيد ولا يشتري - مثلاً - كتاباً تفيده .

هنا أنت أعطيت هذا الابن قوة شرائية لكنه لم يحسن التصرف فيها ، وغاية الاختيار هدته إلى اللعب . وهذا ما يسمى لام العاقبة ، ولا م العاقبة لا يكون المقصود بها سبب الفعل ، ولكنها تأتي لبيان عاقبة الفعل .

وحين أراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجي موسى - عليه السلام - في طفولته من القتل أوحى إلى أم موسى - عليهما السلام - بقوله تعالى :

(١) أي : أن فرعون لم تكن علة النقاطة لموسى أن يكون عدوآ له بل ليتخذ ولدأ ، وأخافت امرأته أن يكون قرة عين لها وفرعون ، ولكن كانت العاقبة غير ذلك ، أي : أن ما حدث كان عكس ما كان يريد .

﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ<sup>(١)</sup> وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنْ . (٧)﴾

[القصص]

ولا توجد أم تُقبل على تنفيذ مثل هذا الأمر ؛ لأنه موت محقق ؛ لأن الابن إن خُطف أو قُتل فهذا كله موت مَظنون ، أما القَاوِة في الماء فليس فيه موت مَظنون ، بل موت مؤكد ، إن لم يُنَجِّه الله تعالى .

ولكن أم موسى - لإيمانها بالله - فعلت ما أوحى به الله - سبحانه وتعالى - لها ؛ لأن الوارد من الله تعالى لا يجد في الفطرة منازعاً له .

أما نزغات الشيطان فهي تجد ألف منازع لها في النفس ، وكذلك هو اجس النفس .

ولذلك نفَّذت أم موسى ما أوحى الله تعالى به إليها ، وإن كان مخالفاً للعقل والمنطق .

وحين انقضى آل فرعون ، وقد كانوا يقتلون الأطفال<sup>(٢)</sup> ، وألقى الحق سبحانه وتعالى محبة موسى في قلوبهم ، قال :

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي (٢٩)﴾

[طه]

فهم ساعة رؤيتهم لموسى - عليه السلام - وهو طفل ، أحبه فلم يقتلوه ، وهكذا نفَّذت مشيئة الله تعالى ووعدته لأمه :

﴿.. إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾

[القصص]

أي : أن موسى - عليه السلام - مهمة مسبقة أرادها له الحق سبحانه .

(١) اليم : الماء الكثير المجتمع . والمراد به : نهر النيل في مصر .

(٢) كان فرعون وزبائنه يقتلون أبناء بني إسرائيل ويستحيون نساءهم بعد أن سمع فرعون النبوءة التي قبلت عن أن ولد آمن بني إسرائيل سيقتل علي فرعون . قال تعالى : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩)﴾ [القصص] وقال تعالى : ﴿.. وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَمَعَانٍ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٢٠)﴾ [القصص] .

ولذلك نجد أن هناك أوامر متتابعة جاء بها القرآن الكريم في مسألة إلقاء أم موسى لابنها ، فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ (٣٩) فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ (٣٩) ۖ ﴾ [طه]

وكلها أوامر من الحق سبحانه ، فتراه زوجة فرعون تقول لزوجها :

﴿ قَرَّتْ عَيْنٌ (٣٩) لِي وَلَكَ (٤٠) ۖ ﴾ [القصاص]

فهل كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي التقطه سيكون عدوآ له ؟

لا ، لقد التقطه وأعطاه حياة النرف ؛ ليكون قُرَّةَ عَيْنٍ له ، وهذه علة الالتقاط ، ولكن العاقبة انتهت إلى أن يكون عدوآ ؛ ولو كانت العلة هي العداوة لما التقطه فرعون أو لقتله لحظة الالتقاط .

ولذلك يترك الحق سبحانه وتعالى في كونه أشياء تكسر مكر البشر ؛ فأخذ فرعون ورياءه ، وكانت العاقبة غير ما كان يتوقع فرعون .

وقول الحق سبحانه هنا في الآية التي نحن بصددتها : ﴿ لِيُضِلُّوْا ﴾ تفهم منه أن - سبحانه وتعالى - لم يُعْظِمِهم المَال ليضلُّوا ، ولكنهم هم الذين اختاروا الضلال .

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى الكثير من الناس مالا وجاهاً وأرادوا به الخير ، وهكذا ترى اختيار الإنسان ، إن له أن يضل أو يهتدي .

وقد قال موسى عليه السلام تنفيساً عن نفسه :

(١) التابوت : الصندوق الذي وضعت فيه أم موسى ابنها قبل إلقائه في اليم ؛ ليحفظه من الماء .

(٢) الساحل : شاطئ النهر القريب من قصر فرعون .

(٣) قرة عين : مسرة وفرح . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف] .

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس]

ومعنى الطمس أى : إخفاء المعالم ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ<sup>(١)</sup> وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا .. ﴾ (٤٧) [النساء]

ومعنى الطمس هنا : إخفاء معالم تلك الوجوه ؛ فتكون قطعة واحدة بلا جهة أو حواجب أو عيين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

إذن : فالطمس هو إهلاك الصورة التى بها الشيء . ودعوة موسى - عليه السلام - هنا :

﴿ اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس]  
أى : امسحها .

وقال بعض الرواة<sup>(٢)</sup> أنها مُسخت ، فمن كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجددها حجارة ، ومن كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجددها زجاجاً .

أو أن ﴿ اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس]  
أى : أذهبهما ؛ لأن الأموال كانت وسيلة إضلال .

(١) وردت مادة الطمس فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع ، هى قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَبِثْنَا لَطْمِسًا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ . ﴾ (٦٦) [يس] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ لَطْمِسًا أَعْيُنُهُمْ فَذَوْقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ ﴾ (٧٧) [القصص] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا السُّجُودُ طُمِسَتْ ﴾ (٨٠) [المرسلات] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا .. ﴾ (٩٧) [النساء] ، وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. ﴾ (٨٨) [يونس] .

(٢) قاله ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئةها صحاحاً وثلاثاً وأصافاً ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد .

وقوله عليه السلام بعد ذلك :

﴿ .. وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) [يونس]

أى : أحكم يا رب الأربطة على تلك القلوب ؛ فلا يخرج ما فيها من كفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ؛ لأن هؤلاء قد افتروا افتراءً عظيماً ، وأن تظل الأربطة على قلوبهم ؛ حتى يروا العذاب الأليم .

ولماذا دعا موسى - عليه السلام - على آل فرعون هذا الدعاء ، ولم يَدْعُ مثلما دعا سيدنا محمد ﷺ : «اللهم اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ؟  
والإجابة : لا بد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن هؤلاء قوم لن تفلح فيهم دعوة الإيمان .

وكان خوف موسى - عليه السلام - لا من ضلال قوم فرعون ، ولكن من استمرار إضلالهم لغيرهم .

إذن : فقد دعا عليهم موسى - عليه السلام - بما جاء في هذه الآية :

﴿ .. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ

الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨)

[يونس]

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا .. ﴾ (٨٥) [غافر]

وهكذا يتبين لنا الفارق بين إيمان الإلجاء والقصير<sup>(١)</sup> وبين إيمان الاختيار<sup>(٢)</sup> .

(١) القصير والقصير : الإقبال على كره . ومن : قصيرت نفسى على الشيء إذا حبستها عليه والزمتها إياه . انظر [لسان العرب مادة : قصر ، قسر] .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. ﴾ (٣٥) [الكهف] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتِهِ فَرَعَلْنَاهُ سَجِيدًا مُبْصِرًا ۖ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا ﴾ (٤٠) [الإنسان]

فحين يأتى الرسول داعياً إلى الإيمان يصبح من حق السامع لدعوته أن يؤمن أو أن يكفر ؛ لأن الله تعالى قد خلق الإنسان وله حق الاختيار ، أما إيمان الإلجاء والقصر فهو لا ينفع الإنسان .

ومثال ذلك : فرعون ، فساعة أن جاءه العذاب أعلن الإيمان <sup>(١)</sup> . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿... حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس]

وإذا كان موسى - عليه السلام - قد دعا على قوم فرعون ، فقد سبقه نوح عليه السلام فى مثل هذا الدعاء مما أورده القرآن فى قوله :

﴿... رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذُرِّيًّا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْضِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

واستجاب الحق سبحانه لدعوة موسى عليه السلام :

(١) قال تعالى : ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩٠)﴾ [يونس] . قيل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل أو ميكائيل عليهما السلام . وفرعون الذى قال : ﴿... أَنَارُكُمْ الْأَعْمَى (٩٠)﴾ [التازعات] وقال : ﴿... مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي... (٩٠)﴾ [القصص] . جاء الآن عندما عاين الموت وآية الله على صديق موسى فطلق بالإيمان ، ورب العزة سبحانه يقول : ﴿... هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّلَاطَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَوْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا نُنْظُرُونَ (٩٠)﴾ [الأنعام] .

(٢) دياراً : أحداً . أى : استتصال كل نسمة كافرة من قوم نوح ، حتى طال هذا ولده من صلبه ، وقد أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٧) حديث ابن عباس ، وعزاه لابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «لرحم الله من قوم نوح أحداً لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم هذه المرأة» . قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ

سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩)

ويلاحظ أن الذي دعا هو موسى عليه السلام ، ولكن قوله سبحانه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ (٨٩) يدل على أن هارون - عليه السلام - قد دعا مع موسى .

وقد قلنا من قبل : إننا إن نظرنا إلى الأصالة في الرسالة لوجدنا موسى - عليه السلام - هو الأصل فيها ، وجاء هارون ليشد عضده (١) ، وإن نظرنا إلى طبيعة الاثنين فكل منهما رسول ، والاثنان لهما رسالة واحدة .

وما دام الحق سبحانه قد أرسل الاثنين لمهمة واحدة ، فإن انفعال واحد منهما لشيء فلا بد أن ينفعال الآخر لنفس الشيء ، لذلك فلا يوجد ما يمنع أن هارون ساعة سمع أخاه داعياً بمثل هذا الدعاء ، قد دعا هو أيضاً بالدعاء نفسه ، أو أنه - أي : هارون - قد دعا بهذا الدعاء سراً .

والدعاء معناه : أنك تفرع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه ، فأنت لا تدعو إلا في أمر عزت عليك أسبابه ، فتقول : إن لي رباً أو من به ، وهو يقدر على الأسباب لأنه خالق الأسباب ، وقادر على أن يعطي بلا أسباب ، والمؤمن الحق يستقبل الأحداث ، لا بأسبابه ، ولكن بقدرته من آمن به ، وهو المسبب الأعلى سبحانه .

ولذلك تَجِدُ موسى عليه السلام ومعه قومه حين وصلوا إلى شاطئ البحر ، وكان من خلقهم قوم فرعون يطاردونهم ، فقال قوم موسى :

(١) العضد من الإنسان وغيره : الساعد ، وهو ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بالعضد هنا : العون والمساعدة . قال تعالى : ﴿مَشَدَّ عُضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجَّلَ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ (٩٠) [التقصص] .

[الشعراء]

﴿.. إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١)﴾

فَرَدَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ :

[الشعراء]

﴿.. كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾

أَي : لَا تَرْتَبُوا الْأَمْرَ بِتَرْتِيبِ الْبَشَرِ ؛ لِأَن مَعِيَ رَبُّ الْبَشَرِ ، فَجَاءَهُ  
الْإِنْقَاضُ :

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ  
كَالطُّودِ الْعَظِيمِ<sup>(١)</sup> (٦٣)﴾

[الشعراء]

إِذَنْ : فَالدَّعَاءُ إِذَا يَكُونُ فِرْعَاوْنَ إِلَى مَنْ يَقْدِرُ عَلَى أَمْرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ .

وَالْمَوْضُوعُ الَّذِي كَانَ يَشْغُلُ مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ هُوَ بَقَاءُ آلِ  
فِرْعَوْنَ عَلَى ضِلَالِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى إِضْلَالِ غَيْرِهِمْ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَدْعُو كُلُّ  
مِنْهُمَا نَفْسَ الدَّعَاءِ ، وَمِثْلُ هَذَا نَجَدُهُ فِي غَيْرِ الرُّسُلِ وَنَسْمِيهِ «التَّخَاطُرُ» ،  
أَي : التَّقَاءُ الْخَوَاطِرُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَمِثَالُ ذَلِكَ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ ، لَحْظَةٌ أَنْ كَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَشْغُولًا بِالتَّفَكُّيرِ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْمُقَاتِلِينَ فِي إِحْدَى  
الْمَعَارِكِ ، وَكَانَ عُمَرُ فِي الْمَدِينَةِ يَخْطُبُ عَلَى الْمَنِيرِ ، فِإِذَا بِهِ يَقُولُ فَجْأَةً :  
«يَا سَارِيَّةُ<sup>(٢)</sup> الْجَيْلُ» وَهِيَ كَلِمَةٌ لَا مَوْضِعَ لَهَا فِي مَنْطِقِ الْخُطْبَةِ ، وَلَكِنْ كَانَ  
فِكْرُهُ مَشْغُولًا بِالْقَائِدِ الَّذِي يَحَارِبُ ، وَسَمِعَ الْقَائِدَ - وَهُوَ عَلَى الْبَعْدِ -  
الْأَمْرَ ؛ فَانْحَازَ إِلَى الْجَيْلِ .

(١) الْفِرْقَى : الْجُزْءُ ، وَالطُّودُ : الْجَيْلُ الْكَبِيرُ . [تفسير ابن كثير : (٣/٣٣٦)] .

(٢) هُوَ سَارِيَّةُ بْنُ رَبِيعٍ الدُّثَلِيُّ . أَمَرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى جَيْشٍ وَسَيَّرَهُ إِلَى فَارَسٍ سَنَةَ ٢٣ هـ ، فَوَقَعَ فِي  
خِطَابِ عُمَرَ وَهُوَ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنَّ الْجَيْشَ الْمَذْكُورَ لَاقَى الْعَدُوَّ وَهُمْ فِي بَطْنٍ وَادَّتَدَّ عُمَرُ بِالْمَهْزِمَةِ  
وَبِالْقُرْبِ مِنْهُمْ جَيْلٌ قُتِلَ فِي أَوَّلِ خَطْبَتِهِ يَا سَارِيَّةُ : الْجَيْلُ ، الْجَيْلُ ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ فَأَلْقَاهُ اللَّهُ فِي سَمْعِ  
سَارِيَّةٍ فَانْحَازَ بِالنَّاسِ إِلَى الْجَيْلِ ، وَقَاتَلُوا الْعَدُوَّ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَانْتَصَرُوا . [الإصابة  
فِي تَبَيُّنِ الْأَنْصَابِ لِابْنِ حَجَرٍ الْعَسْكَلَانِيِّ : ٢/٥٢ ، ٥٣] .



ويقال في هذه المسألة: إن الخاطر قد شغل مع الخاطر، مثلما تطلب أحداً في الهاتف فيرد عليك الشخص الذي تريد الكلام معه قائلاً: لقد كنت على وشك أن أتصل بك هاتفياً، وهذا يعني أن الخاطرين قد انضبطا معاً.

وإذا كان هذا ما يحدث في حياتنا العادية، فما بالنا بما يحدث في الأمور الصغائية؟ وفي أرقى درجاتها وهي النبوة؟

أو أن الذي دعا هو موسى وما كان هارون إلا مؤمناً<sup>(١)</sup>، والمؤمن هو أحد الداعيين، وما دام الحق سبحانه قد قبل دعوة موسى عليه السلام، فقد قبل أيضاً دعوة المؤمن معه.

ويظن بعض الناس أن إجابة الدعوة هي تحقيق المطلوب فور الدعاء، ولكن الحقيقة أن إجابة الدعوة هي موافقة على الطلب، أما ميعاد إنجاز الطلب، فقد يتأجل بعض الوقت، مثلما حدث مع دعوة موسى عليه السلام على فرعون وملكه، فحين دعا موسى، وأمن هارون، جاءت إجابة الدعاء: ﴿قَدْ أَجَبْتَ دَعْوَتَكُمَا﴾ (٨٩) بعد أربعين عاماً، ويحقق الله سبحانه الطمأنينة على المال.

فالسما ليس وظيفة عند من يدعو، وتقبل أي دعاء، ولكن قبول الدعوة يقتضي تحديد الميعاد الذي تنفذ فيه.

وهذه أمور من مشيئة الله سبحانه؛ فالحق سبحانه وتعالى متره عن أن يكون متفذاً لدعاء ما، ولكنه هو الذي يده مقاليد كل أمر، فإذا ما أجيب دعوة ما، فهو سبحانه بمشيئته يضع تنفيذ الدعوة في الميعاد الملائم؛ لأنها لو أجيب على الفور فقد تضر.

(١) التأمين: هو قولهم آمين وراء الداعي. ومئة التأمين في الصلاة وراء الإمام.

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا <sup>(١)</sup> ﴾ (١١)

[الإسراء]

لذلك يحدد الحق سبحانه ميعاد تطبيق الدعوة في مجال التنفيذ والواقع .

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ..سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ <sup>(٢)</sup> ﴾ (٣٧) [الأنبياء]

والإنسان يعرف أنه قد يكون قد دعا بأشياء ، فحقق الله سبحانه الدعاء وكان شراً ، وكم من شيء يدعو به الإنسان ولم يحققه الله تعالى وكان عدم تحقيقه خيراً .

إذن : فالقدرة العليا رقية علينا ، وتعلم ما في صالحنا ؛ لأننا لسنا آلهة تأمر بتنفيذ الدعوات ، بل فوقنا الحكيم الأعلى سبحانه .

ولذلك نقول في بيان قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ <sup>(٣)</sup> بِالْخَيْرِ لَقْضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ <sup>(٤)</sup> .. ﴾ (١١) [يونس]

(١) عجولاً : صيغة ببالغة من العجل والعجلة وهو السرعة . والمراد : أن الإنسيان مجبورون على حب الخير ، وعلى العجلة في طلبه لنفسه ، وبلغ في الدعاء ، حتى لو كان الأمر شراً وهو يظن بجعله أنه خير . قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ .. ﴾ (٩٥) [الأنبياء] . وقال تعالى : ﴿ أَمَّا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (١٠) [النحل] .

(٢) عجل يعجل - عجللاً وعجلة . واستعجل استعجالاً : قال تعالى : ﴿ اسْعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .. ﴾ (١٠٤) [الأعراف] وقال : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٢٥) [طه] وعجل الأمر : طلبه قبل أوانه بدافع الشهوة . وعجل الأمر : سبقه . [الفاموس القويم] .

(٤) الأجل : المدة من الزمن ، والمراد : العمر .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ



لأن الإنسان قد يدعو بالشر على نفسه<sup>(١)</sup> ، ألا تسمع أمّا تدعو على ابنتها أو ابنتها رغم حبها لهما ، فلو استجاب الله لدعائها على أولادها الذين تحبهم أليس في ذلك شر بالنسبة للأم .

والولد قد يقول لأمه مغاضباً : يا رب تحدث لى حادثة ؛ حتى تستريحى منى . فهب أن الله استجاب لهذا الدعاء ، أيرضى ذلك من دعا على نفسه أو يرضى أمه ؟

طبعاً لا ؛ فإذا كان الله سبحانه قد أسطأ عليك بدعاء الشر فهذا خير لك ، فعليك أن تأخذ إعطاء الله سبحانه عليك بدعاء الخير على أنه خير لك .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩)

[يونس]

أى : ابقيا على الطريق السوى ، ولا تدخلتا نفسيكما فيما لا علم لكما به . أليس الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٩٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ

(١) ثبت في صحيح مسلم النهى عن الدعاء على النفس والأولاد والأموال ، فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سرت مع رسول الله ﷺ في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجندى بن عمرو الجهنى ، وكان الناضح يفتقه منا الخمسة والستة والسبعة ، فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأنأخه فركبه ثم بعته فتلدن عليه بعض التلدن فقال له : شأ لعنك الله . فقال ﷺ : « من هذا اللاعن بعير » ؟ قال : أنا يا رسول الله . قال : « أنزل عنه فلا تصحبه بملعون » ، لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم » أخرجه مسلم (٣٠٠٩) .

فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ <sup>(٤٦)</sup> أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

[هود]

أى : كُنْ مُؤَدِّباً مع ربك حين تدعو وتنفس عن نفسك ، ودعْ لحكمة الحكيم الإجابة أو عدمها ، وقد تكون الإجابة فورية أو مؤجلة إلى حين أو أنها ، وكلامها خير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ  
ءَاَمَنْتُ أَنَّمَا إِلَهُ الْإِلَهِ إِلَّا الَّذِيءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا  
مِنَ الْمُسْلِمِينَ <sup>(٤٧)</sup> ﴾

قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ . . . ﴾ <sup>(٤٧)</sup> لأن الاجتياز لم يكن بأسباب بشرية ، بل بفعل بخرج عن أسباب البشر ، فلو أن موسى عليه السلام قد حفر نفقاً تحت الماء ، أو لو كان قد ركب سفناً هو وقومه لكان لهم مشاركة

(١) الوعظ : التصح بالطاعة والعمل الصالح الإرشاد إلى الخير ، قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلَبِّسُ قلبه من ثواب وعقاب . [ ذكره ابن منظور في اللسان مادة : وعظ ] . قال القرطبي في تفسيره (٣٣٦٦/٤) : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ . . . ﴾ [ هود ] . أى : إني أنهاك عن هذا السؤال وأحذرك لتلا تكون من الجاهلِينَ . أى : الآثمين . قال ابن العربي : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها توحشاً عن مقام الجاهلِينَ .

(٢) أتبعهم : أتبع أثرهم ؛ ليدركهم . وكان موسى وقومه بنو إسرائيل في خروجهم ستمائة ألف وستين ألفاً ، وتبعهم فرعون مصححاً في ألفي ألف وستمائة ألف . بغياً وعدواً : أى : في حال بغى وظلم واعتداء . وقال المفسرون : بغياً : طلباً للاستعلاء بغير حق في القول ، وعدواً : في الفعل . أدركه الغرق : ناله ووصله . قال أمنت : أى : صدقت ، وأمنت - والإيمان لا ينفع حيثئذ ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس . [ ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٠٤/٤ ، ٣٣٠٥) - بتصرف ] .

فى اجتياز البحر ، لكن المجاوزة كانت بأسباب غير ملحوظة بالنسبة للبشر ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى لموسى :

﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

ومياه البحر كأية مياه أخرى تخضع لقانون السيولة ، والاستطراق<sup>(١)</sup> هو وسيلة السيولة ، وهى عكس التجمد الذى يتسم بالتحيز .

والاستطراق هو الذى قامت عليه أساليب نقل المياه من صهاريج المياه التى تكون فى الأغلب أعلى من طول أى منزل ، ويتم ضخ المياه إليها ، لتتوزع من بعد ذلك حسب نظرية الأوانى المستطرقة على المنازل ، أما إذا كانت هناك بناية أعلى طولاً من الصهرج ، هنا يقوم سكان المبنى بتركيب مضخة لرفع المياه إلى الأدوار العالية .

وإذا كان قانون البحر هو السيولة والاستطراق ، فكيف يتم قطع هذا الاستطراق ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

فكيف تحول الماء إلى جبال يفصل بينها سراديب وطرق يسير فيها موسى عليه السلام وقومه ؟

كيف يسير موسى وقومه مطمئنين ؟

لا بد أنها معية الله سبحانه التى تحميه ، وهى تفسير لقول الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَهِدِينَ (٦٤) ﴾ [الشعراء]

(١) الاستطراق : عدة أنابيب مختلفة الأحجام والأشكال ، متصل بعضها ببعض بأنبوبة أفقية ، فإذا وضع سائل فى إحدى هذه الأنابيب ارتفع سطح السائل إلى مستوى أفقى واحد فى جميع الأنابيب . [المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية]

ورغم ذلك يتبعهم فرعون وجنوده لعله يدركهم ، وأراد سيدنا موسى - عليه السلام - بمجرد نجاحه في العبور هو وقومه أن يضرب البحر بعصاه ؛ ليعود إلى قانون السيولة ، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يريد غير ذلك ، فقد أراد الحق سبحانه أن ينجي ويهلك بالشئ الواحد ، فأوحى لموسى عليه السلام :

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا <sup>(١)</sup> إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ <sup>(٢)</sup>﴾ [الدخان]

أى : اترك البحر على حاله ؛ فينخدع فرعون وجنوده ، وما إن ينزل آخر جندى منهم إلى الممر بين جبال الماء ؛ سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده ، وينجو موسى وقومه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ... <sup>(٣)</sup>﴾ [يونس]

فهل كان هذا الإتياع دليل إرادة الشر ؟

أكان من الممكن أن تكون نية الفرعون أن يدعو موسى وقومه إلى العودة إلى مصر ليستقروا فيها ؟

لا ، لم تكن هذه هي نية الفرعون ؛ لذلك قال الحق سبحانه عن هذا الإتياع : ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا... <sup>(٤)</sup>﴾ [يونس]

أى : أنه إتياع رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان .

وبصور القرآن الكريم لحظة غرق فرعون بقوله :

(١) قال الأزهري : رهوا ساكناً من نعت موسى ، أى : على هيئة . قال : وأجود منه أن تجعل رهواً من نعت البحر ، وذلك أنه قام فرقاء ساكنين فقال لموسى : دع البحر قائماً مأوّه ساكناً واعبر أنت البحر . ذكره ابن متفرد في اللسان ، مادة : رها . فقله تعالى : ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا... <sup>(١)</sup>﴾ [الدخان] أى : ساكن الأمواج ليغترروا فيترلوا فيه .

﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ .. ﴾ (٦١)

[يونس]

والإدراك : قصد للمدرك أن يلحق بالشئ ، والغرق معنى ، فكيف يتحول المعنى إلى شئ يلاحق الفرعون ؟

نعم ، فكان الغرق جندى من الجنود ، وله عقل يفعل ؛ فيجربى إلى الأحداث :

﴿ .. حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦٢)

[يونس]

والإيمان إذا أطلق فهو الإيمان بالقوة العليا ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (٦٣)

[الحجرات]

لأن الإيمان يتطلب انقياد القلب ، والإسلام يقتضى اتباع أركان الإسلام ، فالإيمان كما قال رسول الله ﷺ : « قبل آمنت بالله ثم استقم »<sup>(١)</sup> . وفى هذا القول ذكر محدد بأن الإيمان إنما يكون لله الأعلى .

لكن لو قلت - مثلاً : « آمنت أنك رجل طيب » فهذا إيمان له متعلق ، أما إذا ذكر الإيمان بإطلاق فهو ينصرف إلى الإيمان بالله تعالى ؛ ولذلك قال الله سبحانه للأعراب :

﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. ﴾ (٦٤)

[الحجرات]

(١) وأنا من المسلمين ، أى : من الموحدين المسلمين بالانقياد والطاعة . وهو قول متأخر جداً جاء بعد فوات الأوان .

(٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أنسى عنه أحداً بعدك . قال : قل آمنت بالله ثم استقم . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٨) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٥) .

وهنا يأتي القول على لسان فرعون :

﴿ . آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٠) ﴾

[يونس]

والخلاف هنا كان بين الفرعون كجبهة كفر ، وبين موسى وهارون وقومهما كجبهة إيمان ، وأعلن فرعون إيمانه ، وقال أيضاً :

﴿ . وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١١) ﴾

[يونس]

ولم يقبل الله ذلك منه بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ . أَلَمْ تَكُنْ مِنْ الْمُنْقَسِذِينَ (١٢) ﴾



وهذا يعني : أنقول إنك آمنت الآن وإنك من المسلمين . إن قولك هذا مردود ؛ لأنه جاء في غير وقته ، فهناك فرق بين إيمان الإخبار وإيمان الاختيار ، أنقول الآن آمنت وأنت قد عصيت من قبل ، وكنت تفسد في الأرض .

وكان من الممكن أن يقبل الله سبحانه منه إيمانه وهو في نجوة<sup>(١)</sup> بعيدة عن الشر الذي حاق<sup>(٢)</sup> به .

(١) قبل : هو من قول الله تعالى . وقيل : هو من قول جبريل . وقيل : ميكائيل ، أو غيرهما من الملائكة - عليهم السلام - . وقيل : هو من قول فرعون في نفسه ، ولم يكن ثم قول باللسان ، بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال حيث لم تنفعه التذمة ، ونظيره : ﴿ إِنَّا نَطْعِمُكُمْ لَوْجَهُ اللَّهِ . . ﴾ (٢٠) [الإنسان] أنى عليهم الرب سبحانه بما في ضميرهم ، لا لأنهم قالوا ذلك بلنظهم . والكلام هنا هو كلام القلب . [ذكره القرطبي في تفسيره ٦/٤ - ٣٣٠] - بتصرف .

(٢) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

(٣) حاق به الشيء : يحيط حقيقاً . نزل به ، وأحاط به . وقيل : الحقيق في اللغة هو أن يشتمل على الإنسان عاقبة مكرهه نعله . قال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٥٥) ﴾ [غافر] وقال تعالى : ﴿ . إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَيْنَهُ وَاللَّهِ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦٦) ﴾ [الأحقاف] .



فالحق سبحانه لا يقبل إيمان أحد بلغت روحه الخلقوم ، فهذا إيمان إجبار ، لا إيمان اختيار .

ولو كان المطلوب إيمان الإجبار لأجبر الحق سبحانه الخلق كلهم على أن يؤمنوا ، ولما استطاع أحد أن يكفر بالله تعالى ، وأمامنا الكون كله خاضع لإمرة الله - سبحانه وتعالى - ولا يتأبى فيه أحد على الله تعالى .

وقدرة الحق - عز وجل - المطلقة قادرة على إجبار البشر على الإيمان ، لكنها تثبت طلاقة القدرة ، ولا تثبت المحبوبة للمعبود .

وهذه المحبوبة للمعبود لا تثبت إلا إذا كان لك خيار في أن تؤمن أو لا تؤمن . والله سبحانه يريد إيمان الاختيار .

إذن : فالمردود من فرعون ليس القول ، ولكن زمن القول .

ويقال : إنها ردت ولم تقبل - رغم أنه قالها ثلاث مرات - لأن قوم موسى في ذلك الوقت كانوا قد دخلوا في مرحلة التجسيم لذات الله وادعوا - معاذ الله - أن الله - تعالى الله عما يقولون - جلس على صخرة وأنزل رجليه في حوض ماء ، وكان يلعب مع الخوت . . . إلى آخر الحرفات التي ابتدعتها بنو إسرائيل .

وحين أعلن فرعون أنه آمن بالإله الذي آمن به بنو إسرائيل ، فهذا يعني أنه لم يؤمن بالإله الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالِ يَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِّكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ١٢ ﴾

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا لَا تَكُونَ الْفِتْنَةُ وَفَىٰ بِكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

(١٢) ﴿ يونس ﴾ .

ونحن نعرف أن الإنسان مكوّن من بدن ، وهو الهيكل المادى المنصور  
على تلك الصورة التى نعرفها ، وهناك الروح التى فى البدن ، وبها تكون  
الحركة والحياة.

وبساعة نقول : «بدن» ، فافهم أنها مجزدة عن الروح ، مثلما نقول :  
جسد . وإذا أطلقت كلمة «جسد» فمعناها الهيكل المادى المجرد من الروح .  
والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً . . (٣١)﴾ [ص]

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - يستمتع بما آناه الله سبحانه من  
الملك ما لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخر له الجن والرياح وعلمه كل  
اللغات ، وكان صاحب الأوامر والنواهي والهيمنة ، ثم وجد نفسه قاعداً  
على كرسيه بلا حراك وبلا روح ، ويقدر عليه أى واحد من الرعية ، ثم  
أعاد الله له روحه إلى جسده ، وهو ما يقوله الحق سبحانه :

﴿. . ثُمَّ أَنَابَ<sup>(١)</sup> (٣٢)﴾ [ص]

أى : أنه أفاق لنفسه ، فعلم أن كل ما يملكه هو أمر مقاض عليه ، لا  
أمر نابع من ذاته .

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصددتها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْيَوْمَ نَنجِيكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً<sup>(٢)</sup> . . (٣٣)﴾ [يونس]

(١) أناب : رجع إلى الله تعالى بالتوبة . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٢) ننجيك : نخرجك من البحر . بيدنا : بجسديك الذى لا روح فيه . لتكون لمن خلقك : بعلك . آية :  
عبرة ، فيعرفوا عبوديتك ولا يفتخروا على مثل فعلك . وعن ابن عباس أن بعض بنى إسرائيل شكوا إلى  
موسى فأخرج لهم ليوره . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] . وقد قرأ البيهقي وابن السكيت «ننجيك»  
بالحاء ، أى : تكون على ناحية من البحر ليورك .

وبالله ، لو لم يأمر الحق البحر بأن يلفظ جثمان فرعون ، أما كان من الجائز أن يقولوا : إنه إله ، وإنه سيرجع مرة أخرى ؟

ولكن الحق سبحانه قد شاء أن يلفظ البحر جثمانه كما يلفظ جيفة أى حيوان غارق ، حتى لا يكون هناك شك فى أن هذا الفرعون قد غرق ، وحتى ينظر من بقى من قومه إلى حقيقته ، فيعرفوا أنه مجرد بشر ، ويصبح عبرة للجميع ، بعد أن كان جباراً مسرفاً طاغية يقول لهم :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ۚ ۞ (٣٨) ﴾ [القصص]

وبعض من باحثى التاريخ يقول : إن فرعون المقصود هو «تحتشمس» ، وإنهم حللوا بعضاً من جثمانه ، فوجدوا به آثار مياة مالحة .

ونحن نقول : إن فرعون ليس اسماً لشخص ، بل هو توصيف لوظيفة ، ولعل أجساد الفراعين المحتظة تقول لنا : إن علة حفظ الأبدان هى عبرة ؛ وليست كل إنسان ويرى كيف انهارت الحضارات ، وكيف بقيت تلك الأبدان آية نعتبر بها .

وقد تعرض القرآن لمسألة الفرعون ، فقال الحق سبحانه :

﴿ وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ <sup>(١)</sup> ۞ (١٠) ﴾ [الفجر]

ويقول سبحانه فى نفس السورة عن كل جبار مفسد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ <sup>(٢)</sup> ۞ (١٤) ﴾ [الفجر]

(١) قيل فى معنى ذى الأوتاد : لأن فرعون كان يعذب الناس بأربعة أوتاد [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥١٣] . وذكر فى تفسير الجلالين (ص ٣٩٨) أن فرعون كان يتدكّل من يضرب عليه أربعة أوتاد يشد إليها يديه ورجليه ويعذبه . وفى [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] الأوتاد : الجند أو المبنى القوية .

(٢) إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم وينجزهم عليها . [كلمات القرآن] .

ونلاحظ أن كلام الحق سبحانه عن فرعون في سورة القجر كان كلاماً يضم إلى جانب حضارة الفراعنة حضارات أخرى قديمة ، مثل حضارة عاد وحضارة ثمود .

وكذلك تكلم الحق سبحانه عن الفرعون في أثناء لقطات قصة موسى عليه السلام ، ولكن الكلام يختلف في قصة يوسف عليه السلام ، فلا تأتي وظيفة الفرعون ، بل يحدثنا الحق سبحانه عن وظائف أخرى ، هي وظيفة «عزير مصر» - أي : رئيس وزرائها - ويحدثنا الله سبحانه عن ملك مصر بقوله :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ... ﴾ (٥٠) [يوسف]

ولم يُكتشف الفارق بين وظيفة «الفرعون» ووظيفة «الملك» في التاريخ المصري إلا بعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر وفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية من خلال نقوش حجر «رشيده» ، فعرفنا أن حكام مصر القديمة كانوا يسمون «الفراعنة» إلا في فترة كانت فيها مصر تحت حكم «ملوك الرعاة» أو «الهكسوس» الذين أغاروا على مصر ، وحكموها حكماً ملكياً وقضوا على حكم الفراعنة ، ثم عاد الفراعنة إلى حكم مصر بعد أن خلصوها من سيطرة «الهكسوس» .

وهكذا نجد أن إشارة القرآن في قصة يوسف - عليه السلام - كانت إلى الملك ، ولم يأت فيها بذكر فرعون ، وهذا دليل على أن القرآن قد سبق بعلمه أي اكتشاف ، وكلما جاء اكتشاف جديد أو ابتكار حقيقي ، نجده يؤيد كتاب الله .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ .. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (٦٦) [يونس]

(١) وإن كثيراً من الناس : أي : أهل مكة ، عن آياتنا غافلون : لا يفتخرون بها . [تفسير الجلالين ص ١٨٧] .

## سُورَةُ نُبُوتٍ

﴿٦١٨٧﴾

وهذا القول يوضح أن هناك من يغفل عن الآيات ، وهناك من لا يغفل عنها ، و ينظر إلى تلك الآيات ويتأملها ويتدبرها ، ويتساءل عن جدوى كل شيء ، فيصل إلى ابتكارات واختراعات يتفهم بها الإنسان ، أذن ميلادها عند البحث عنها ؛ لتستبين عظمة الله في خلقه .

وحين ينظر الإنسان في تلك الابتكارات سيجدها وليدة أفكار من نظروا بإمعان ، وامتلكوا قدرة الاستنباط ، ولو لم يغفل الناس عن النظر في آيات الكون ، والسموات والأرض ، لزادت الابتكارات والاختراعات ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [نُور]

وحين ننظر إلى مكتشف قانون الجاذبية «نيوتن» الذي رأى ثمرة تفاح تسقط من شجرتها ، نجد أن هناك عشرات الآلاف أو الملايين من البشر شاهدوا من قبله مشهد سقوط ثمرة من على شجرة ، ولكن نيوتن وحده هو الذي تفكر وتذبر ما يحدث أمامه إلى أن اهتدى إلى اكتشاف قانون الجاذبية .

وجاء من بعد نيوتن من بنى سفن الفضاء التي تستفيد من هذا القانون وغيره .

وكذلك نجد من صمم الغواصات ، والبواخر العملاقة التي تشبه المدن العائمة ، هؤلاء اعتمدوا على من اكتشف قانون «الطفو» وقاعدة «أرشميدس» الذي لاحظ أنه كلما غطس شيء في المياه ، ارتفع الماء بنفس حجم الشيء الغاطس فيه .

(١) كآين من آية - كم من آية - كثير من الآيات : [كلمات القرآن : للشيخ حسين محييد مخلوف] .

كل هؤلاء اكتشفوا - ولم يخلقوا - أسراراً كانت موجودة في الكون ،  
وهم تميّزوا بالانتباه لها .

وكذلك العالم الذي اكتشف «البنسلين» قد لاحظ أن أصيصاً<sup>(١)</sup> من  
المواد العضوية كانت تنزل منه قطرات من الماء العفن ، ورأى الحشرات التي  
تقترب من هذا الماء تموت ، فأخذ عينة من هذا العفن وأخذ يُجرى عليها  
بعض التجارب في معمله إلى أن اكتشف «البنسلين» .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا  
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)

[برسفا]

فكانهم لو لم يعرضوا لاستنيطوا من آيات الكون الشيء الكثير .

وكذلك القصص التي تأتي في القرآن ، إنما جاءت ليعتبر الناس  
ويتأملوا ، فحين يرسل الله رسولاً مؤيداً بمعجزة منه لا يقدر عليها البشر ؛  
فعلى الناس أن يسلموا ويقولوا : «آمنّا» ، لا أن يظنوا في حالة إعادة  
للتجارب السابقة ؛ لأن ارتفاعات البشر في الأمور المادية قد تواصلت ؛  
لأن كل جيل من العلماء يأخذ نتائج العلم التي توصل إليها من سبقوه ،  
فلماذا لا يحدث هذا في الأمور العقدية ؟

ولو أن الناس بدأوا من حيث انتهى غيرهم ؛ لوجدنا الكل مؤمناً بالله  
تعالى ، ولأخذ كل مولود الأمر من حيث انتهى أبوه ، ولوصل خبر آدم

(١) الأرض (بفتح الهمزة ، وبكسر ها ، وبضمها) : الأصل ، والأصيص : أصل الدُّنْ (إناء) أي : أسفله  
ويقال : هو كهينة الجر له غروتان يُحمل فيه الطين . وفي الصحاح : الأصيص ما تكسر من الآنية ، وهو  
نصف الجر أو الخابية تزرع فيه الرياحين . [لسان العرب : مادة (أص ص)] . وتطلق هذه الكلمة على  
أوان من الفخار تصنع خصيصاً لزراعة الأزهار والنباتات .

إلى كل من وكَّد بعد ذلك ، لكن آفة البشر أن الإنسان يريد أن يجرب بنفسه .

ونحن نجد ذلك في أمور ضارة مثل : الخمر ، نجدها ضارة لكل من يقرب منها ، فإذا حرَّمها الدين وجدنا من يتساءل : لماذا تُحرَّم ؟ وكذلك التدخين ، نجد من يجربه رغم أن التجارب السابقة أثبتت أضراره البالغة ، ولو أخذ كل إنسان تجارب السابقين عليه ؛ فهو يصل عمره بعمر الآخرين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبَآئِدَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَامُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ <sup>(١)</sup> ﴾

وكلمة «بَوَّأ» تعنى إقامة مباءة أى : البيوت التى يكون فيها السكن الخاص ، وإذا أطلقت كلمة «مبوا» فهى تعنى الإقليم أو الوطن ، والوطن أنت تتحرك فيه وكذلك غيرك ، أما البيت فهو للإنسان وأسرته كسكن خاص .

أما الثرى فقد يكون له جناح خاص فى البيت ، وقد يخصص الثرى فى منزله جناحاً لنفسه ، وآخر لولده وثالثاً لابنته .

أما غالبية الناس فكل أسرة تسكن فى «شقة» قد تتكوّن من غرفة أو اثنتين أو ثلاثة حسب إمكانيات الأسرة .

(١) بَوَّأْنَا : أنزلنا . مَبَآئِدَ : منزل كرامة وهو مصر والشام . فَمَا اخْتَلَفُوا : بأن آمن بعضهم وكفر بعضهم . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧ - بتصرفنا] .

إذن : فيوجد فرق بين تَبَوُّءِ البيوت وتَبَوُّءِ المواطن ، فتَبَوُّءُ المواطن هو الوطن .

وسبق أن قال الحق سبحانه لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ أَنْ تَبَوُّءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَئُودًا .. ﴾ (٨٧) [يونس]

هذا في التَبَوُّءِ الخاص ، أما في التَبَوُّءِ العام فهو يحتاج إلى قدرة الحق تعالى ، وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ .. ﴾ (٩٢) [يونس]

والحق سبحانه أتاح لهم ذلك في زمن موسى - عليه السلام - وأتاح لهم السكن في مصر والشام ، وهو سبحانه القائل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ .. ﴾ (١) [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد بارك حوله فلا بد أن فيه خيراً كثيراً ، ولا بد أن تكون الأرض التي حوله مُبُوءًا صِدْقٍ .

وكلمة «الصدق» تعني جماع الخير والبر ؛ ولذلك نجد الرسول ﷺ حينما سئل : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : «نعم» . وحين سئل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : «نعم» . وحين سئل : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : «لا»<sup>(١)</sup> .

(١) سبحانه الذي أسرى عبده : تنزيهاً ونبرة لله سبحانه وتعالى عما يقولون من المشركون . والإسراء والسرى : السير في الليل . المسجد الأقصى : بيت المقدس . الذي باركنا حوله : لكانه في معاشهم وأقواتهم . [مختصر تفسير الطبري : ص ٢١٣] .

(٢) أخرجه الإمام مالك في موطئه ( ص ٩٩٠ ) من حديث صفوان بن سليم مرسلًا .



ولذلك فأنت تجد في الإسلام عقوبة على الزنا ، وعقوبة ثقام على السارق <sup>(١)</sup> ، أما الكذب فهو خصلة لا يقربها المسلم ؛ لأن عليه أن يكون صادقاً . وكل خصال الخير هي مَبُوءُ الصديق .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ <sup>(٢)</sup> ﴾ (٨٠)

[الأنعام]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَشِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ <sup>(٣)</sup> ﴾ (٧٠) [يونس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ <sup>(٤)</sup> ﴾ (٨٤) [الشعراء]

أى : اجعل لى ذكرى حسنة فلا يقال فلان كان كاذباً ، وأما قدم الصديق فهي سوابق الخير التى يسعى إليها ؛ ولذلك كان الجزاء على الصديق هو ما يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ <sup>(٥)</sup> ﴾ (٥٥) [القمر]

(١) قرر الكتاب والسنّة عقوبات محددة لجرائم معينة هي جرائم الحدود ، وهي : الزنا ، والقتل ، والسرقة ، والشكر ، واللعنات ، والزدة ، والبغى ، وذلك لتحقيق صيانة المجتمع من نواحي الدين ، العقل ، المال ، المرض ، النفس ، ولكل جريمة من هذه الجرائم شروط يجب توافرها ليتم تنفيذ العقوبة الخاصة بها . انظر تفصيل هذا في كتب الفقه (أبواب الحدود) .

(٢) وقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، أى : ادخلنى المدينة إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره . وأخرجنى : من مكة مخرج صدق : إخراجاً لا أُنْصِتُ بقللى إليها . [تفسير الجلالين : ص ٢٥١] .

(٣) قدم صدق : سابقة فضل ، ومنزلة رفيعة . [كلمات القرآن : للشيخ حسين محمد مغلوب] .

(٤) لسان صدق : ثناء حسناً وذكرأ جميلاً . [كلمات القرآن] .

(٥) مقعد صدق : مكان مرضى . [كلمات القرآن] . عند ملك : ذى مُلْك . مقتدر : على كل ما يشاء ،

لا إله إلا هو . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٦٧] .

وهو مقعد عند ملك لا يبخل ، ولا يجلس في رحابه إلا من يحبه ،  
ولا يضن بخيره على من هم في رحابه .

ومقعد الصدق هو جزاء لمن استجاب له ربه فأدخله مدخل صدق ،  
وأخرجه مخرج صدق ، وجعل له لسان صدق ، وقدم صدق .

وبعد أن بوأ الحق سبحانه بنى إسرائيل مَبُوءاً صدق ، في مصر والشام ،  
وبعد أن قال لهم :

﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ <sup>(١)</sup> ۖ ۞ (٦١) ۞ ﴾

[البقرة]

أى : أن الحق سبحانه حقق قوله :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۖ ۞ (٩٣) ۞ ﴾

[يونس]

وأنجاهم من فرعون ، وكان من المفترض أن تستقيم أمورهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۖ ۞ (٩٣) ۞ ﴾

[يونس]

والمقصود بذلك هو معرفتهم بعلامات الرسول الخاتم محمد ﷺ ،  
ومنهم من ترقب مجيء النبي ﷺ ليزمن به ، ومنهم من تمادى في  
الطغيان ؛ لذلك قطعهم الله - سبحانه - في الأرض أئماً .

وحين نظر إلى دقة التعبير القرآني نجد أنه يحدد مسألة التقطيع هذه ، فهم  
في كل أمة يمثلون قطعة ، أى : أنه سبحانه لم يذنبهم في الشعوب . بل  
لهم في كل بلد ذهبوا إليه مكان خاص بهم ، ولا يذوبون في غيرهم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ <sup>(٢)</sup> إِنِّي إِسْرَآئِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ۖ ۞ (١٠٤) ۞ ﴾

[الإسراء]

(١) اهبطوا: انزلوا. مِصْرًا: من الأمصار ، أى : بلدًا من البلاد .

(٢) من بعده: أى من بعد إغراق فرعون .

## سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٦١٩٣

وقد يقول أحد السطحيين: وهل هناك سكن في غير الأرض؟

ونقول: لنا أن نلاحظ أن الحق سبحانه لم يحدد لهم في أية بقعة من الأرض يسكنون، فكان الحق سبحانه قد بين ما أصدره من حكم عليهم بالتقطيع في الأرض أعماً؛ فهو سبحانه القائل:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا<sup>(١)</sup>...﴾ (١٦٨)

[الأعراف]

وإذا كنا نراهم في أيامنا هذه وقد صار لهم وطن، فاعلم أن الحق سبحانه هو القائل:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا<sup>(٢)</sup>﴾ (١٧٤)

[الإسراء]

وقد قال في آخر سورة الإسراء:

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا<sup>(٣)</sup>﴾ (١٧٨)

[الإسراء]

والمجيء بهم لفيفاً إنما يعنى أن يجمعهم في وطن قومي لتأتى لهم الضربة القاصمة التي ذكرها الحق سبحانه في قوله:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوزُّوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتِيرًا<sup>(٤)</sup>﴾ (١٧٩)

[الإسراء]

(١) أي: فرقناهم في الأرض فرقا. [تفسير الجلالين: ص ١٤٦].

(٢) لفيفاً: جميعاً.

(٣) أي: إذا أقسمتم الكرة الأخيرة وجه أعدائكم ليسوزوا وجوهكم، أي: يهينوكم ويهزؤوكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ...﴾ (١٧٩) أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾ (١٧٩) أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار... ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتِيرًا﴾ (١٧٩) أي: يدمروا ويخربوا ما ظهروا عليه تدميراً. [بصرف من تفسير ابن كثير (٢/٢٦٦)] وقد ذكر ابن كثير قول قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمداً ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون، وهذا لا يضى أن يحدث عدة مرات، ولذلك قال رب العزة: ﴿وَأَنْ عَنِمْ عَدَا...﴾ (١٨٠) [الإسراء].

لأننا لن نستطيع أن نحاربهم في كل بلد من البلاد التي قطعهم الله فيها ، لكنهم حين يجتمعون في مكان واحد ، إنما يسهل أن ينزل عليهم قضاء الله .

وحين نظر إلى رحلتهم لمجد أن «يثرب» كانت المكان الذي اتسع لهم بعد اضطهادات المجتمعات التي دخلوا إليها ، وحين اجتمعوا في يثرب صار لهم الجاه ، لأنهم أهل علم ، وأهل اقتصاد ، وأهل حرب .

وهم قد اجتمعوا في المدينة ؛ لأن المخلصين من أهل الكتاب أخبروهم أن هذه المدينة هي المهجر لنبي ورسول يأتي من العرب في آخر الزمان ؛ فمكثوا فيها انتظاراً له ، وكانوا يقولون لكفار قريش : «لقد أظلم زمان يأتي فيه نبي نتبعه ، ونقتلكم فيه قتل عاد وإرم»<sup>(١)</sup> .

وكان من المفروض أن يؤمنوا برسالته ﷺ ، لكنه ما إن أطل رسول الله ﷺ بتور رسالته حتى أنكروه خوفاً على سلطتهم الزمنية .

وهو ما تقول عنه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرتنا عنها :

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ...﴾ (٩٢) [يونس]

أى : أن علمهم بحجى الرسول ﷺ هو مصدر اختلافهم ، فمنهم من سمعوا إشارات عنه ﷺ وعرفوا علاماته ﷺ ؛ فأمنوا به ، ومنهم من لم يؤمن به .

(١) قال الحق سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مِنْهُمْ وَكَانُوا مِنْ قُلٍّ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٩٢) [البقرة] وعن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد عرفناهم قهراً دبراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظلم زمانه فقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

وهم لم يختلفوا من قبل وكانوا متفقين ، وتوعدوا المشركين من قريش : وما إن أهلَّ الرسول ﷺ وعلمت به «الأوس» و«الخزرج» أنه رسول من الله تعالى قد ظهر بمكة ، فقالت الأوس والخزرج : إنه النبي الذي توعدتنا به يهود ، فهيا بنا لنذهب ونسبقهم إليه قبل أن يسبقونا ، فيقتلونا به .

فكان اليهود هم الذين تسببوا في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ؛ لأن الأوس والخزرج سبقوهم إليه ؛ وهذا لتعلم كيف ينصر الله تعالى دينه بأعدائه .

ولذلك نجد أنهم في اختلافهم يأتي عبد الله بن سلام<sup>(١)</sup> إلى رسول الله ﷺ ويقول : إن اليهود قوم بُهتٌ ، وإذا أنا آمنت بك يا رسول الله سيقولون في ما يسيء إليّ ؛ لذلك فقبل أن أعلن إسلامي أسألهم عني .

وكان ابن سلام في ذلك يسلك سلوكاً يتناسب مع كونه يهودياً ، ولا اجتمع معشر اليهود ، سألهم النبي ﷺ وقال : ما تقولون في ابن سلام ؟

قالوا : حَبْرُنَا وشيخنا وهو الورع فينا ، وبعد أن أثروا عليه ثناء عظيمًا ، قال ابن سلام : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله .

وهنا بدأ اليهود يكيلون له السُّبَاب ، فقال ابن سلام : ألم أقُلْ لك يا

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ، أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، كان اسمه الحصين وسماه النبي ﷺ عبد الله ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجلابية . ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب ، واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ (الأعلام - للزركلي ٩٠/٢) .

رسول الله إنهم قوم بُهت<sup>(١)</sup> ؟

إذن : فمعنى قوله سبحانه :

﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .. ﴾ (٩٢)

[يونس]

أى : أن أناساً منهم بقوا على الباطل ، وأناساً منهم آمنوا بالرسول الحق ﷺ .

وينهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. إِنَّ رَيْكَ يَقْضَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٣)

[يونس]

أى : أن الله سبحانه وتعالى سوف يقضى بين من جاءوا فى صف الإيمان ، وبين من بقوا على اليهودية المتعصبة ضد الإيمان .

ونحن نلاحظ أن كلمة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ توضح أن الضمير عام ، لهؤلاء ولأولئك .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقضى يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين ، ويقضى أيضاً بين الكافرين ، فمنهم من كان ظالماً لكافر ،

(١) عن أنس بن مالك أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء فقال : إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أسراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد يتزعج إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرني به جبريل أنفأ ، قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال : أما أول أسراط الساعة فتأخرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة تزوج الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل تزوجت الولد . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عيسى قبل أن يعلموا بإسلامي . فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا . وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبي ﷺ : أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاده الله من ذلك . فأعاد عليهم ؟ فقالوا مثل ذلك . فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قالوا : شرتنا وابن شرتنا ، وتقصصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله ، أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩٢٨) وأحمد في مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

## سُورَةُ يُوسُفَ

٦١٩٧

ومنهم من كان مختلساً أو مرتشياً ، ومنهم من عمل على غير مقتضى دينه ؛ لذلك يقضى الله سبحانه بينهم .

والآية تفيد العموم في القضاء ماضياً وحاضراً ومستقبلاً بين كل مؤمن وكافر ، وبين كل تائب وعاصي .  
ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ .

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قد قال من البداية إنه لا يشك في رسالته ، وحين وعده أهله بالسيادة قال :

«والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك

(١) يخاطب بهذه الآية محمد ﷺ والمراد به غيره ، وكذلك الآية بعدها : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس] ، وقد تأول بعض العلماء الشك هنا بأنه ضيق الصدر ، أي : إن ضايق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، وأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك بخبرك صبر الأنبياء من قبلك على أذى قوتهم وكيف عاقبة أمرهم . [تفسير القرطبي ٤ / ٣٣١٠] .

(٢) فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك : من أهل النوازة والإنجيل ، كعبد الله بن سلام . وقيل : إن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية - قال : «مما أشك ولا أسأل» . وقد علم الله ذلك منه ، ومخرج هذا القول ، كقول الرجل لابنه : إن كنت ابنى فيرنى - من البر - أي : كن باراً بي . وهو لا يشك في أنه ابنه . من الممترين : الشاكين . [مختصر تفسير الطبري : ص ٢٢١] .

(٣) أمشرى في الشيء : شك فيه ولم يستيقن . ومجاري القوم به : يجادلوا . ومجاري في الشيء : تشكك فيه . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَيْفَ تُشْرِكُونَ ﴾ [النجم] أي : تشكك . ويتضمن معنى التكذيب . [القاموس النجوم] وراجع : لسان العرب مادة [مرى] .

هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته <sup>(١)</sup> .

تقول : إن الحق سبحانه وتعالى يضمّر خطاب الأمة في خطاب رسوله ﷺ ، لأن الأتباع حين يقرأون ويسمعون الخطاب وهو موجه بهذا الأسلوب إلى الرسول ﷺ فهم لن يستكفوا <sup>(٢)</sup> عن أي أمر يصدر إليهم .

ومثال ذلك : لو أن قائداً يصدر أمراً لاثنتين من مساعديه اللذين يقودان مجموعتين من المقاتلين ، فيقول القائد الأعلى لكل منهما : إياك أن تفعل كذا أو تصنع كذا . والقائد الأعلى بتعليماته لا يقصد المساعدين له ، ولكنه يقصد كل مرسوميهم من الجند .

وجاء الأمر هنا لرسول الله ﷺ ؛ لتفهم أمته أن الرسول ﷺ ما كان ليتأبى على أمر من أوامر الله ، بل هو ﷺ ينفذ كل ما يؤمر به بدقة <sup>(٣)</sup> ؛ وذلك من باب خطاب الأمة في شخصية رسولها ﷺ .

وقول الحق سبحانه :

﴿ قَبْانَ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ ﴾ (٩١)

[يونس]

(١) أوردته ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإننا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصير على هذا من شئنا أباننا ، وتسفب أجلامنا ، وعيب ألهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننزله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبى عليّ وعلى نفسك ، ولا تعملن من الأمر ما لا أطيق . فقال له رسول الله ﷺ هذه المقالة .

(٢) الاستكفاف : الامتناع تكبراً أو أنفة . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْفَاسِقُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا لِلْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْفِرْ فَسَحَرْنَاهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٦) ﴿ [النساء] .

(٣) ومصدق ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنَّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ۖ ﴾ (٥٥) ﴿ [الشورى] .



هذا القول دليل على أن الذين عندهم علم بالكتاب من السابقين على رسول الله ﷺ ، يعرفون الحقائق الواضحة عن رسالته ﷺ .

وإن الذين يكابرون ويكفرون برسول الله ﷺ ورسالته إنما يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وقد قال عبد الله بن سلام : «لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد»<sup>(١)</sup> .

إذن : فالحق عندهم واضح مكتوب في التوراة<sup>(٢)</sup> من بشارة به ﷺ ، وهذا يثبت أنك يا محمد صادق في دعوتك ، بشهادة هؤلاء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) [يونس]

والحق القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ؛ لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتي على صورة واحدة .

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١٩٤/٢) أن عمر بن الخطاب سأل عبد الله بن سلام : أنعرف محمداً كما تعرف وملك؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدري ما كان من أمه .

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُخْلِئُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِهِ وَعَزِّزُوا وَتَضَرَّعُوا وَاتَّبَعُوا الْفُرْقَانِ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ الْقُرْآنَ هُمْ الَّتِي نَقُصُّ عَنْكَ ﴾ (٩٥) [الأعراف]

وعن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو ، كان يقول : إن هذه الآية التي في القرآن : ﴿ يَأْمُرُهُمُ النَّبِيُّ إِذَا أُرْسِلَكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٩٥) [الأعراف] هي في التوراة : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين ، أنت عيسى ورسولي ، سميتك : المشوكل ، نسيت بلفظ ولا غلط ولا سحاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن نقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عمياً ، وأذناناً صمّاً ، وقلوباً غلفاً . أخرجه البخاري في كتابه التفسير (٥٨٥/٨ فتح) والبيهقي في الدلائل (٣٧٥/١) .

أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

ولذلك فمهمة المحقق الدقيق أن يقلب أوجه الشهادات التى تقال أمامه فى النيابة أو القضاء ؛ حتى يأتى حكمه مصيباً لا مدخل فيه لتناقض ، ولا يعتمد على تخيل أو أكاذيب .

وقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ .. (٩٤) ﴾ [يونس]

إنما يدل على أن الذين قرأوا الكتاب قد عرفوا أنك رسول الله حقاً ، ومنهم من ترك معسكر اليهودية ، وجاء إلى معسكر الإيمان بك ؛ لأن الحق الذى جاء لا دخل للبشرية فيه ، بل جاء من ربك :

﴿ .. فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ [يونس]

ومعنى الخطاب بهذا الشكل ، هو كما قلت موجه إلى الأمة المؤمنة فى شخص الرسول ﷺ .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ (١٠٠) ﴾ [الزمر]

هذا القول نزل على رسول الله ﷺ ، ومن غير المعقول أن يشرك النبى ﷺ ، وكل الآيات التى تحمل معانى التوجيه فى الأمور المنزلة عنها رسول الله ﷺ خاصة بأمته ..

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

(٩) أى : لئن أشركت بالله أحداً ؛ ليعطلن عملك . [مختصر تفسير الطبرى : ص ٥٢٧] بتصرف ، وحيوط الأعمال بطلانها وفسادها رغم تحصيها . وأصله إذا حبطت الماشية : أى : تأكل فتكثر حتى تستفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها [انظر اللسان مادة : حبط] .

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

والقول الحكيم ساعة يوجه إلى الخير قد يأتي بمقابله من الشر ؛ لتتضح الأشياء بالمقارنة .

ونحن في حياتنا اليومية نجد الأب يقول لابنه : اجتهد في دروسك ، واستمع إلى مدرسك جيداً حتى تنجح ، فلا تكن مثل فلان الذي رسب ، والوالد في هذه الحالة يأتي بالإغراء الخير ، ويصاحبه بمقابله ، وهو التحذير من الشر .

وقد قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبَيَّنٌّ      وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوَّدٌ  
ضِدَّانَ لَمَّا اسْتَجَمَّا حَسَنًا      وَالضُّدُّ يَظْهَرُ حُسْنَهُ الضُّدُّ<sup>(١)</sup>

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ  
فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

وآيات الله سبحانه كما نعرفها متعددة ؛ إما آيات كونية وهي الأصل في المعتقد الأول بأن خالقها هو الخالق الأعلى سبحانه ، وتلقت هذه الآيات إلى بديع صنعه سبحانه ، ودقة تكوين خلقه ، وشمول قدرته .

وكذلك يُقصد بالآيات ؛ المعجزات المنزلة على الرسل - عليهم السلام - لتظهر صدق كل رسول في البلاغ عن الله تعالى .

(١) الأضداد : في ظهورها تظهر ميزات ما فيها ، فنحن لا نعرف قيمة الحق إلا إذا تلوقنا مرارة الباطل ، ولا نعرف قيمة النهار إلا إذا عشنا الليل في إظلامه ، ولا نعرف جمال العدل إلا إذا اكتوبنا بنار المظالم .

وآيات القرآن الكريم التي تحمل منهج الله .

وهم كانوا يكذبون بكل الآيات .

والخطاب في هذه الآية هو خطاب للنبي ﷺ ، وجاء معطوفاً على ما في الآية السابقة ، حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ .. ﴾ (١٤)

[يونس]

وكل ما يرد من مثل هذا القول لا يصح أن نفهم منه أن رسول الله ﷺ من الممكن أن يشك ، أو من المحتمل أن يكون من الذين كذبوا بآيات الله - سبحانه وتعالى - ولكن إيراد مثل هذا الأمر ، هو إيراد لدفع خواطر البشرية ، أيًا كانت تلك الخواطر ، فإذا وجدنا الخطاب المراد به رسول الله ﷺ في التنزيل ، فغاية المراد اعتدال موازين الفهم في أمته تعليماً وتوجيهاً ؛ لأن المنهج مُنَزَّل عليه لتبليغه لأمته فهو شهيد على الأمم<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت الآية التي سبقت توضح ؛ إن كنت في شك فاسأل ، فهو سبحانه يعطيه السؤال ؛ ليستمع منه إلى الجواب ، وليُسمع له لكل الأمة ؛ الجواب القائل : أنا لا أشك ولا أسأل ، وحسب ما أنزل الله سبحانه على .

ألم يَرِدْ في القرآن الكريم أن الحق سبحانه وتعالى يقول للملائكة يوم القيامة بمحضر من عبدوا الملائكة ، ويشير إلى هؤلاء الذين عبدوا الملائكة ومخاطباً ملائكة :

﴿ .. أَهْسُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (١٥)

[سجاء]

ونحن نعلم أن الملائكة :

﴿ .. لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (١٦)

[التحريم]

(١) وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾ (١٢٤) [البقرة] .

والحق سبحانه يعلم مسبقاً جواب الملائكة ، وهم يقولون :

﴿ سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْتَا مِنْ دُونِهِمْ .. ﴾ (١٤١) [سب]

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يُسمع من فى الحشر كلهم جواب الملائكة وهم يستنكرون أن يعبدتهم أحد من الخلق ، فهؤلاء الخلق إنما عبدوا الجن .

إذن : فالسؤال جاء : ليبين الرد عليه ، مثلما يرد عيسى عليه السلام حين يُعبد من بعض قومه ، ويسأله سبحانه عن ذلك :

﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (١٤٦) [المائدة]

فيأتى الجواب :

﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ .. ﴾ (١٤٧) [المائدة]

إذن : فالمراد أن يقول الرسول ﷺ : أنا لا أشك ولا أسأل .

والشك <sup>(١)</sup> - كما نعلم - معناه : تساوى كفة النفس وكفة الإثبات ، فإن رجحت واحدة منهما فهذا ظن ، وتكون المرجوحة وهماً وافتراف وكذباً .

وكلمة «الشك» مأخوذة من مسألة حسية ، فنحن نرى الصيادين وهم يصنعون كل سعة بعد اصطبارها فى خيط يسمى «المشكاك» .

وكذلك نرى من يقوم بـ(لضم) العقود ، وهو يشك الحبة فى الخيط <sup>(٢)</sup> .

من هذا نأخذ أن الشك معناه : ضمُّ شيء إلى شيء ، ومنه الشكائك <sup>(٣)</sup> ، وهى البيوت المنتظمة بجانب بعضها البعض .

(١) الشك : حالة نفسية يتردد معها الذهن بين الإثبات والنفي ، ويتوقف عن الحكم . [المعجم الوسيط] .

(٢) شك الشيء واشتكه : ضم أجزاءه . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٣) الشكائك : جمع شككة ، وهى مجموعة أشياء شك - أى ضم - بعضها إلى بعض . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

ومنه «شاك السلاح»<sup>(١)</sup> أي: الذي ضَمَّ نفسه إلى الدرع.

فالشك هو ضم شيء إلى شيء ، وفي النسب تضم النفي والإثبات معاً ؛ لأنك غير قادر على أن ترجِّح أحدهما.

وكل خطاب في الشك يأتي على هذا اللون.

والآية التي نحن بصددتها نقول:

﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٩٥)

[يونس]

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ هو نفسه آية من الآيات ، وهكذا نرى أن الخطاب مُوجَّه لأمته ، فمن المستحيل أن يكون الرسول ﷺ من المكذِّبين لآيات الله - سبحانه وتعالى - لأن التكذيب بآيات الله تعالى يعني: إخراج الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بالله ، أو يؤمنون بالله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بالله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

والذي يؤيد هذا وجود آية في آخر السورة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ اللَّهِ <sup>(٢)</sup> . . (١٠٤) ﴾

[يونس]

(١) الشُّكَّةُ : ما يحمل ثوبليس من السلاح . [المعجم الوسيط : مادة (ش ك ك)] .

(٢) دون : نقيض فوق ، ونكون ظرفاً ، وثاني بمعنى أمام ، ويعني وراء ، ويعني غير ، ويعني قرب أو جهة ، ويعني قبل ، ويعني أقل . والتمييز بين هذه المعاني يكون بالقرائن . وهي في الآية ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأُكُمْ وَأَمَرْتُ أَنۢ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤) [يونس] بمعنى (غير) . [القاموس القويم] بتصرف .

فكان الخطاب المقصود منه الأمة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾



وهذا القول يوضح لنا أن الحق سبحانه وتعالى قد علم علماً أزلياً بأنهم لن يوجهوا اختيارهم للإيمان .

فحكمه هنا لا ينفي عنهم مسئولية الاختيار ، ولكنه علم الله الأزلى بما سوف يفعلون ، ثم جاءوا إلى الاختيار فتحقق علم الله سبحانه وتعالى بهم من ملوكهم .

وحُكمه سبحانه مبنًى على الاختيار ، وهو حكم تقديرى .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يأتى وزير الزراعة ، ويعلن أننا قدّرنا محصول القطن هذا العام ، بحساب مساحة الأراضى المزرعة قطعاً ، وبالتوسط المتوقع لكل فدان ، وقد يصيب الحكم ، وقد يخيب نتيجة العوامل والظروف الأخرى المحيطة بزراعة القطن ، فمن المحتمل أن يصاب القطن بأفة من الآفات ، مثل : دودة اللوزة ، أو دودة الورقة .

إذن : ففي المجال البشرى قد يصيب التقدير وقد يخطئ ؛ لأن الإنسان يُقدّر بغير علم مطلق ، بل يعلم نسبي .

أما تقدير الحق سبحانه فهو تقدير أزلى ، وحين يُقدّر الحق سبحانه فلا بد من وقوع ما قدره .

(١) حقت : وجبت عليهم كلمة ربك بالعذاب [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

ولذلك يجب أن تفرق بين قضاء حكم لازم قهري ليس للإنسان فيه تصرف، وبين قدر قد قُدِّرَ من الله تعالى أن يفعله الإنسان باختياره، وهذه هي عظمة علم الغيب.

ومثال ذلك: هو سلوك أبي لهب <sup>(١)</sup>، فقد نزل فيه قرآن يُتلى:

﴿ تَبَّتْ <sup>(١)</sup> يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ <sup>(٢)</sup> مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ <sup>(٣)</sup> ﴾

[السند]

وقد نزلت السورة وأبو لهب على قيد الحياة؛ لأن الحق سبحانه قد علم أولاً أن خواطر أبي لهب لن تدفعه إلى الإيمان، ولو أن أبا لهب امتلك ذرة من ذكاء لجاء لرسول الله ﷺ وقال: أنت قلت عني إنني سأصلي النار، لكن ها أنذا أعلن أنني أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

لكن ذلك الذكاء لم يكن يملكه أبو لهب، فقد علم الله أولاً أن خواطره لن تدفعه إلى الإسلام، مثلما دفعت حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعمر بن العاص. وكان إسلام هؤلاء زعم وقوفهم ضد النبي ﷺ أمراً وارداً.

وقد يُقدَّرُ البشر التقدير، لكن هذا التقدير إنما يتم حسب المعلومات

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمى أبا لهب لاحمرار وجهه وإشراقه كأنه اللهب.

وسبب نزول السورة التي ذكر فيها، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا ضيحاء، فاجتمع إليه فريش فقال: أو أيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ <sup>(١)</sup> ﴾ إلى آخرها. أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٨) عن ابن عباس.

(٢) تبَّتْ: هلكت أو خسرت أو خابت. [كلمات القرآن: للشيخ حسين محمد مخلوف].

(٣) ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ <sup>(٢)</sup> ﴾ [السند: أي: سيُسْوَىٰ بنار جهنم].



المتاحة لهم ، ولا يملك إنسان علماً كونياً أزلياً بتقديراته ، فعلمه محدود ، وقد يأتي الأمر على غير ما يُقدَّر ؛ لأن الإنسان لا يملك ما يُقدَّر .

ولا يقولنَّ أحدٌ : إن الله يعاقب بعد أن قدَّر مسبقاً ؛ لأن تقدير الحق سبحانه تابع من علمه الأزلي ، وهم كانوا يتمتعون بحق الاختيار . والله سبحانه هو القائل :

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا <sup>(١)</sup> إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ <sup>(٢)</sup> ﴾

إذن : فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الانجاء إلى الإيمان ؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر ؛ فقد قالوا - من قبل - ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا <sup>(٣)</sup> (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ

(١) الرجس : القذر والنجس حسياً ومعنوياً ويطلق على ما يُستخرج في الشرع . والرجس والرجز معناهما واحد ويطلق الرجس على العذاب لأنه سبب عنه . قال تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رِجْسٍ رَجْسٌ وَغَضَبٌ (٧٥) ﴾ [الأعراف] أي : عذاب بسبب الرجس الذي اقترنوه [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم : فلا يضعهم حيث يشاء . [تفسير الجلالين : ص ١٨٧] .

(٣) ينبوع : العين التي لا ينضب ماؤها .

كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا<sup>(١)</sup> أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا<sup>(٢)</sup> أَوْ يَكُونُ لَكَ  
بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ<sup>(٣)</sup> أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ عَلَيْنَا  
كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا<sup>(٤)</sup> ﴿٩٣﴾ [الإسراء]

وكان الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضعاً: لست أنا الذي يُنزل  
الآيات ، بل الآيات من عند الله تعالى ، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم  
تنزل به تلك الآيات التي طلبوها ، فيقول سبحانه :

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ . . .﴾ [الإسراء]

إذن : فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة والمعارضة ، ويقابل  
قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه .

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون  
معتقد سابق ، ولينظر إلى المسألة ، وما يسمع به قلبه فليدخله فيه ؛ وبهذا  
الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول .

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاماً في الوجدانية ، وكلاماً  
في الآيات المعجزات ، وكلاماً في صدق النبوة ، وكلاماً عن الفيامة ،

(١) كسفاً : قطعاً . والكسف : السحاب المقطع قطعاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيَجْنِلُهُ كِسْفًا فَنرى الْوَدْقَ يَخْرُجُ  
مِنْ غَلَاةٍ . . .﴾ [الروم] .

(٢) قبيلاً : متقابلين . والمراد رؤيتهم عياناً .

(٣) الزخرف هنا : هو الذهب . والزخرف : المزينة ، وقد يعنى به التعميم والتزيين والكذب ، ومنه  
قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عِزًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا  
. . .﴾ [الأنعام] .

(٤) يسوعاً : عياناً تبع لنا به الله يئدنا هذا . جنة : يستأن . فسفجر الأنهار : بأرضنا هذه التي نحن بها .  
مخلانها : يعني : خلال التخييل والكروم . ومخلانها : بينها في أصولها . فتجبراً : سبلاً يسيل بينها .  
كسفاً : قطعاً . قبيلاً : مقابلة أوجسباً ، فتأينهم معانية . زخرف : ذهب . ترفى : تصعد في درج إلى  
السفاه . [مختصر تفسير الطبري : ص ٣٢٤ - ٣٢٥] يتصرف .

وقصّ لنا سبحانه بعضاً من قصص مواكب الرسل ، من نوح عليه السلام ، ثم فصل قليلاً في قصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب <sup>(١)</sup> ، ثم جاء بخبر عن رسل لم يُقْلَ لنا عنهم شيئاً ، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام ، ثم سيأتى من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام ، فالسورة تضم ثلاثاً من الرسائل : رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون ، ورسالة يونس ، وهو الرسول الذى مُّثِّتِ السَّوْرَةَ بِاسْمِهِ .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة ؟

وأقول : لقد تعبنا كثيراً ، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمس الحكمة في ذلك ، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود ، وثمود ، وشعيب ، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك .

هذه الحكمة فيما تجلّى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض مواكب الرسالة ومواكب المعارضين لكل رسول ، والنتيجة التى انتهى إليها أمر الأعداء ، وكذلك النتيجة التى انتهى إليها أمر الرسول ومن آمن به .

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكاً متحداً بتوحد واحد في الجميع ، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق ، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق ، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر ، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر .

(١) الإطناب والمساواة والإيجاز من فنون البلاغة فالإطناب : شرح بإفادته . والمساواة : مساواة اللفظ للمعنى . والإيجاز : اللفظ القليل للمعنى الكثير ولكل مقام مقال . [ شرح دلائل الإعجاز ] بتصرف .

إِذْ: فَمَنْ ذَكَرَ هَذَا مِنَ الرُّسُلِ كَانَ لَهُ عِلَاقَةٌ بِالْمَاءِ ، أَمَا بَقِيَّةُ الْمَوْكِبِ  
الرِّسَالِي فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ عِلَاقَةٌ بِالْمَاءِ .

وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ الْمَاءَ بِهِ الْحَيَاةُ ، وَبِهِ الْإِهْلَاكُ ؛ لِأَنَّ وَاجِبَ الْحَيَاةِ يَهْبِ  
الْحَيَاةَ بِالشَّيْءِ ، وَيُهْلِكُ بِالشَّيْءِ نَفْسَهُ . وَكَأَنَّ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ يَبَيِّنُ لَنَا الْحِكْمَةَ :  
أَنَا أَهْلَكْتُ بِالْغَرَقِ هُنَاكَ ، وَنَجَّيْتُ مِنَ الْغَرَقِ هُنَا .

إِذْ: فَطِلَاقَةُ الْقُدْرَةِ الْإِنْهِيَّةِ هِيَ الْمُسْتَوْلِيَةُ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ ، كَمَا تَظْهَرُ  
طِلَاقَةُ الْقُدْرَةِ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى ، وَبِأَلْوَانٍ أُخْرَى <sup>(١)</sup> .

وَسُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِاسْمِ يُونُسَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ أَرْسَلَهُ إِلَى أَكْثَرِ مَنْ  
مِائَةِ أَلْفٍ <sup>(٢)</sup> ، وَهُمْ الْأُمَّةُ الْوَحِيدَةُ فِي هَذَا الْمَجَالِ الَّتِي اسْتَشْنَاهَا الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ  
مِنَ الْإِهْلَاكِ ، فَقَدْ أَغْرَقَ قَوْمَ نُوحَ ، وَأَغْرَقَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ؛ فَكُلَاهُمَا قَدْ كَذَّبَ  
الرُّسُلَ ، وَلَكِنْ قَوْمَ يُونُسَ أُولَ مَا رَأَوْا الْبَاسَ <sup>(٣)</sup> آمَنُوا فَأَنْجَاهَهُمُ اللَّهُ سَبِّحَانَهُ .

وَسُمِّيَتْ السُّورَةُ بِاسْمِ مَنْ نَجَّى ؛ لِأَنَّهُ عَادَ إِلَى الْحَقِّ سَبِّحَانَهُ قَبْلَ أَنْ يُعَايِنَ  
الْعَذَابَ ، وَلَكِنْهُمْ رَأَوْا فَقَطْ بَشَائِرَ الْعَذَابِ ، فَتَجَرَّأَوْا أَنْفُسَهُمْ بِالْإِيمَانِ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) من طِلَاقَةِ الْقُدْرَةِ تَوْظِيْفُ الشَّيْءِ فِي عَصْدِهِ مِثْلَ النَّارِ ، فَيُوظِّفُهَا الْإِحْرَاقَ وَلَكِنْهَا كُنَانَتْ عَلَى سَبْدِنَا  
إِبْرَاهِيمَ بِرَدِّهِ وَسَلَامًا . وَالْمَاءُ بِهِ الْحَيَاةُ وَفِيهِ الْغَرَقُ ، وَبِهِ النُّجَاةُ ؛ فَقَدْ نَجَّى اللَّهُ سَبِّحَانَهُ بِرُسُلِي عَلَيْهِ السَّلَامُ  
وَأَغْرَقَ بِهِ فِرْعَوْنَ .

(٢) يَقُولُ سَبِّحَانَهُ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَى جَانَّةٍ أَلْفَ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ (١٠٧) ﴿ [الصَّافَّاتُ] وَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ نَبِيٌّ مِنْ جِهَةِ  
الْمَوْصِلِ بِالْعِرَاقِ الْحَالِيَةِ .

(٣) الْبَاسُ : الْعَذَابُ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسًا ﴾ (١٢٨) ﴿ [الْأَنْعَامُ] ،  
وَيَقُولُ : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَاسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (٢) ﴿ [الْأَعْرَافُ] . وَالْبَاسُ : شِدَّةُ  
الْحَرْبِ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَاسِ وَالْبُرْءَاءِ وَحِينَ الْيَأْسِ ﴾ (١٠٧) ﴿ [الْبَقَرَةُ] . وَالْبَاسُ : الْقُوَّةُ .  
يَقُولُ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ بَلْعِيسَ مِثْلَةَ سَيَاحِينَ شَاوَرْتَهُمْ فِي أَمْرِ سُلَيْمَانَ : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْرِ  
شَبْدَةٍ ﴾ (٢٢) ﴿ [الزَّمَلُ] .

(١) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ  
لَعَنَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَمَغْنَمَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٥٨)

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت  
العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي  
بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فقبل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه  
سبحانه لا يظلم عباده .

فمن وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يقبل منه ،  
ومن أحسن واستشف بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله .

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على  
جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ،  
فحين تدخل على جملة اسمية مثل : «لولا زيد عنك لأتينك» تفيد أن  
امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية  
فيقال عنها : «أداة تخفيض وحث» مثل قول الحق سبحانه :

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (١٢٢) [التوبة]

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية)  
ويختلف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمير يكون ضمير رفع متصل [القائم من القوم] .

(٢) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ (١١٥) : يقول عز وجل : لم تكن قرية آمنت فضعها الإيمان إذا نزل بهم بأس  
الله ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ (١١٥) : قيل : إنهم لما أظلمهم العذاب ، وطأوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ،  
فلذت الله في قلوبهم التوبة ، وفرقوا بين كل أنثى وولدها ، وعجزوا - أي : رفعوا أصواتهم بالخلبية - إلى  
الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب . ﴿وَمَغْنَمَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٥٨) :  
لم نعالجهم بالعقوبة ، واستشفوا بأجالهم في الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت قضاء أعمالهم [مختصر  
تفسير الطبري : ص ٢٤١ ، ٢٤٢] .

أى : أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ۖ ﴾ (٩٨) [يونس]

أى : أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس ، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيتها العذاب .

إذن : فقوم يونس هنا مُسْتَشُونَ ؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيتهم العذاب .

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة ، يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۖ لَنُثِبَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ ﴾ (١٤١) [الصافات]

أى : أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل في بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح .

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۖ ﴾ (٩٨) [يونس]

(١) المسبحون : هم المسلمون لله تعالى ، قبل البلاء والعقوبة التى نزلت به . وقيل : المسبحون : هم المذنبون ، بقوله كثيراً في بطن الحوت : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) [الأنبياء] .

﴿ لَنُثِبَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٤١) [الصافات] : لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة .  
[مختصر تفسير الطبرى ، وتفسير الجلالين] .

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب .  
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ .. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى : مكاناً مهيباً ، أهله مشغولون فيه ،  
فإذا ما مرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قرى<sup>(١)</sup> أى : وجبة طعام .  
ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد» ، وهؤلاء من  
يملكون طعاماً دائماً ، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس  
عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة .  
وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»<sup>(٢)</sup> ؛ لأن كل القرى تزورها .

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبي ﷺ فى قصة  
الذهاب للطائف ، وهى قرية العبد الصالح يونس بن متى<sup>(٣)</sup> ، وهى فى

(١) القرى : هو طعام الضيفان . والقرية فى اللغة : المصر أو البلد الكبير مثل : مصر ، مكة ، الطائف ،  
نينوى ، وغيرها مما أشار إليه القرآن . فقد وردت كلمة «القرية» فى بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المتى منها  
(١) والجمع (١٩) مرة .

(٢) قال عنها الحق سبحانه : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصفوف الذى بين يديه ولتقدر أم القصور ومن  
سورها .. ﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها .. ﴾ [الشورى] .

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعنة وشية أبى ربيعة فقال له عداس ، فعندما هم رسول  
الله ﷺ بالأكل من عنب يستأنهما قال : باسم الله . ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ، ثم قال : والله إن  
هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له ﷺ : ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟  
قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن  
متى . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذلك لئن ، كان نبياً وأنا  
نبي ، فأكتب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية  
(٢) / (٤٢١) .

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه :

﴿وَذَا النُّونِ <sup>(٨٦)</sup> إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا . . .﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذي يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره .

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالْمُهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً .

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة» .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ <sup>(٨٧)</sup>﴾ [الأنبياء]

وسمى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؟ لأن اسمه اقترن بالحيوت الذى ابتلعه .

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجرى إنما يجرى ليقوم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ؛ أى : أنهم أغضبوه .

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل أنجاه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم تدخل فى الفعل .

(١) النون : الحوت . واذو ، ذا ، ذى ) بمعنى : صاحب . أى : صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام .



وأبو الطيب المتنبي<sup>(١)</sup> يقول في هذا المعنى :

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَّرُوا  
أَلَّا تُغَادِرَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمْ  
أَي : إِنْ كُنْتَ تَعِيشُ مَعَ قَوْمٍ ، وَأَرَدْتَ أَنْ تَفَارِقَهُمْ وَقَدْ قَدَّرُوا أَنْ تَعِيشَ  
مَعَهُمْ ، فَالَّذِي رَحَلَ حَقِيقَةً هُمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ .  
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مِقَاضِباً :

﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

أَي : أَنَّهُ رَجَّحَ أَنَّ الْحَقَّ سَبَّحَانَهُ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ ،  
وَسَيَهَيِّءُ لَهُ مَكَاناً آخَرَ غَيْرَ مَكَانِ الْمِائَةِ الْأَلْفِ أَوْ يَزِيدُونَ الَّذِينَ يَعِشُهُ اللَّهُ  
تَعَالَى إِلَيْهِمْ .

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه ، لكن هذا  
الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة  
تُحَفِظُ<sup>(٢)</sup> وتغلا القلب بالألم والتعب ..

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة ،

والقرية التي أرسل إليها يونس عليه السلام هي قرية «نينوى» ، وهي  
التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي ﷺ والغلام النصراني «عداس»  
الذي قابله ﷺ في طريق عودته من الطائف .

(١) هو : أحمد بن الحسين المتنبي ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل في  
البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس . توفي مفتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١  
عاماً (الأعلام للزركلي ١/ ١١٥) .

(٢) تحفظ : تعصب . والحفيظة : الغضب . ويقال : إن الحفائظ تذهب الأحقاد أي : إذا رأيت حبيبك  
يظلم حبيبك له ، وإن كان عليه في قلبك حقد . [اللسان مادة حفظ] .

وكان النبي ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصره بعد أن آذاه قومه في مكة فلم يجد النصير<sup>(١)</sup> ، وجلس النبي ﷺ قريباً من حائط بستان .

فلما رآه صاحبيا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقي من السفهاء ؛ تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً ، يقال له عدّاس ، فقالا له : خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ؛ ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ثم قال له : كُلْ ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده ، قال : باسم الله ، ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله ﷺ : «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك؟» . قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى ؟» ؛ فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن مَتَّى ؟ فقال رسول الله ﷺ : «ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي» ، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يُقبّل رأسه ويديه وقدميه .

ولما سأل صاحبيا البستان عدّاساً عن صتيه هذا . قال لهما : لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي<sup>(٢)</sup> .

(١) لما نيس رسول الله ﷺ من قومه بكّة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» ليطلب نصره «ثقيف» وكلهم وعرض عليهم الإسلام ، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه سفهاء ثقيف ، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه . وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عني غضب فلا أبالى ، ولكن عاقبتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصالح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك» . [السيرة النبوية لابن هشام : ٤١٩/٢ ، ٤٢٠] . يتصرف .

(٢) انظر : تفصيل هذه القصة في السيرة النبوية لابن هشام (٤١٩/٢ - ٤٢١) .

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالة الإيمان ، إلى أن رأوا غيماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بداية عذاب الله لهم <sup>(١)</sup> ؛ فهُرَّعُوا إِلَى ذَوِي الرَّأْيِ فِيهِمْ ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِمْ بِأَن هَذِهِ هِيَ بَوَادِرُ الْعَذَابِ ، وَقَالُوا لَهُمْ : عَلَيْكُمْ بِإِرْضَاءِ يُونُسَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ ، فَأَمِنُوا بِهِ لِيُكْشَفَ عَنْكُمْ الْغَمَّةُ .

وهُرَّعَ النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، الْحَيُّ حَيِّنٌ لَا حَيٌّ ، وَالْقَيُّومُ وَالْمُحْيِي وَالْمُمِيتُ .

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضي عنهم بدأوا ينظرون في المظالم التي ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان يتقضم ويهدم جدار بيته ؛ لِأَن فِيهِ حَجَرًا قَدْ اخْتَلَسَهُ مِنْ جَارٍ لَهُ <sup>(٢)</sup> .

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا <sup>(٣)</sup> وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى

حِينَ (٩٨) ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الخوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب» وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان ؛ واختاره القرطبي في تفسيره (٣٢١٢/٤) .

(٢) نقله القرطبي في تفسيره (٣٢١٢/٤) من قول ابن مسعود .

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أم كشف عنهم العذاب في الدنيا فقط ؟ على قولين :

• الأول : إما كان ذلك في الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة .

• والثاني : كشف العذاب في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٠٧) فَأَمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٠٨) ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان متقدماً من العذاب الأخروي ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٤٣٢/٢)] .

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الفرق  
بركابها ؛ فالتقوا الأمتعة في البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر  
اضطرابها ، فافترعوا على أن يلقوا إلى البحر من تقع عليه القرعة ، فوُعت  
القرعة على نبي الله يونس عليه السلام .

مثمما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن  
الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى  
العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خلقاً ،  
لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين .

كذلك كان الأمر مع السفينة التي ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن  
تغرق ، فافترعوا ، وصار على يونس أن يتزل إلى البحر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَسَاهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ <sup>(١)</sup> (١٤١) ﴾

[الصفحات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه <sup>(٢)</sup> الحوت وابتلعه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام في بطن  
الحوت :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٢) لَلِئَلَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ  
يُخْرَجُونَ (١٤٣) ﴾

[الصفحات]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها يقول الحق سبحانه :

(١) ساهم : فارع ، أى : اشترك في الاقتراع . المدحضين : الغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه . [ابن كثير  
٢٠/٤ - بتصرف.]

(٢) التقمه : ابتلعه في سرعة . قال سبحانه : ﴿ فَالتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤١) ﴾ [الصفحات] ، والمليم : هو  
من أتى ذنباً يلام عليه .



وياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عز وجل قديم أزلي بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، ويكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى في ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذي أوجد كل شيء من عدم .

والذلك يُسمون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حي ، ومحي ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «محي» بعد أن وجد من يحييه ، لا ، إنه محي ، وبهذه الصفة أحياء .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه : قد نرى المصور أو الرسام الذي صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التي مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خلق الخلق .

فياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شيء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا يتفجع من خلقه بل هو الذي يشعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن<sup>(١)</sup>

(١) وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٥) [الذاريات] .



وأما بقية الكون فمُسَبِّحٌ "مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكل نظام لا يحيد عنه .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الثقلين - الإنس والجن - في نظام التشخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التشخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبة .

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبة إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القنسر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار .

وأما إيمان القنسر والقهر ، فكل ما في الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسَبِّحٌ له .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ (١٤)

[الإسراء]

وهذا ليس تسبيح "ذلالة ورمز" ، بل هو تسبيح حقيقي ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴾ (١٤)

[الإسراء]

فإن فَهَمَكَ الله تعالى في لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (١٤) [الإسراء] . ويقول تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٠) [الحشر] .

(٢) تسبيح الدلالة والرمز ملحوظ يقيناً في حركة الجناد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ، فكل حركة لها محرك ، وفي الحركة تسبيح ، وفرق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَكُنِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كُنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ (٢١) [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والماءقة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسها قلب .

عَلَّمَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ <sup>(١)</sup> ، وَسَمِعَ النَّمْلَةُ تَقُولُ :

﴿ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨)

[النمل]

وَالْهَدَّادُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا رَأَى عَنْ بَلْقِيسَ مَلَكَةَ سَبَأَ :

﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٩)

[النمل]

إِذَنْ : فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَبَّحٌ لِلَّهِ تَعَالَى ، يَسِيرُ عَلَى مَنَهِجِهِ  
سَبْحَانَهُ مَا عَدَا الْمُخْتَارَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ : الْإِنْسَانَ وَالْجَانَّ ، لِأَنَّ كِلَاهُمَا فِيهِ  
عَقْلٌ ، وَلَهُ مِيزَةُ الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْبِدَائِلِ .

وَمِنْ عَظَمَةِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ الْإِخْتِيَارَ حَتَّى يَذْهَبَ  
الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ اخْتِيَاراً ، وَلَوْ شَاءَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُجْبِرَ الْإِنْسَانَ عَلَى  
الْإِيمَانِ لَفَعَلَ .

أَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ : وَلِمَاذَا كُلُّ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنْ خَلْقٍ وَإِرْسَالِ  
رُسُلٍ ، وَتَكْذِيبِ أَنَاسٍ ، ثُمَّ إِهْلَاكِ الْمَكْذِبِينَ ؟

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٠)

[يونس]

(١) قُرْبُ الْعِزَّةِ سَبْحَانَهُ يَقُولُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأْتِيهَا النَّاسُ عَلِمْتَ مَنْطِقَ  
الطَّيْرِ وَأَوْرَثَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَعْلُ الْمُبِينُ (٢٠) » [النمل] .



إِذْنِ : فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَسَخَّرَ لَهُ كُلَّ الْأَجْنَاسِ ، وَلَمْ يَجْبِرْهُ عَلَى الْإِيمَانِ ، بَلْ يَقُولُ سُبْحَانَهُ لِرَسُولِهِ ﷺ :

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ<sup>(١)</sup> نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>﴾ [الشعراء]

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُحِبًّا مُخْلِصًا لِقَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَذَاقَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ، وَحُزْنَ لَاثِمِهِمْ لَمْ يُؤْمِنُوا ، فَبَيْنَهُمَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ عَلَيْهِ مَهْمَةُ الْبَلَاغِ فَقَطْ ، فَلَا يَكْلَفُ نَفْسَهُ شَطَطًا<sup>(٣)</sup> .

وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ لِلْإِنْسَانِ حَقَّ الْاِخْتِيَارِ وَسَخَّرَ لَهُ الْكَوْنَ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكْفُرُ ، بَلْ وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَطِيعُ مَرَّةً ، وَيَعْصِي أُخْرَى ، وَهَذِهِ هِيَ مَشْيِئَةُ الْحَقِّ لِيَتَوَازَنَ الْكَوْنَ ، فَكُلُّ صِفَةٍ خَيْرَةٍ إِنْ وَجَدَ مِنْ يِعَارِضٍ فِيهَا فَهَذَا مَا شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْإِنْسَانِ ، فَلَا تَحْزَنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَاءَ ذَلِكَ .

وَإِنْ غَضِبَ وَاحِدٌ مِنْ أَنْ الْآخَرِينَ لَمْ يَعْتَرَفُوا بِصِفَاتِهِ الطَّيِّبَةِ يَقُولُ لَهُ : إِنْ اَلْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُوَ خَالِقُ الْكَوْنَ وَهُوَ الرَّازِقُ ، قَدْ كَفَرُوا بِهِ وَأَلْجَدُوا ، وَجَعَلُوا لَهُ شُرَكَاءَ ، فَتَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ ؟

وَلِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

(١) بَاخِعٌ : أَيْ : مِهْلِكٌ نَفْسَكَ ، أَيْ : مِمَّا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ . وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ فِي عَدَمِ إِيْمَانِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنَ الْكُفَّارِ : كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿فَلَا تَغْصِبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ...﴾ [فاطر] . وَكَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ...﴾ [الكهف] . قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ : بَاخِعٌ نَفْسَكَ : أَيْ : قَاتِلٌ نَفْسَكَ . وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :  
إِلَّا أَتَيْتُهَا الْبَاخِعُ الْحَزْنَ نَفْسَهُ  
لَشَيْءٍ نَحْتَهُ عَنْ يَدِيهِ الْمَقَادِرُ  
[ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/٣٣١)] بِتَصَرُّفٍ .

(٢) الشَّطَطُ : الْجَوْرُ وَمِجَاوِزَةُ الْقُدْرَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْمَقْصُودُ : لَا تَطْلُمُ نَفْسَكَ ، وَلَا تَتَجَاوِزُ الْحُدُودَ فِي الْحَزَنِ عَلَيْهِمْ . وَمِمَّنْ قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ الْخَصَمِينَ الَّذِينَ طَلَبُوا حُكْمَ دَاوُدَ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ : ﴿... فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَأَمَّا إِلَى سَوَاءِ الْعِرَاطِ<sup>(٣)</sup>﴾ [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّى  
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩) ﴿

[يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَفَعَلَ  
الرَّجْسُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٠) ﴿

هكذا يُبَيِّنُ لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛  
لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك فطرة نتيجة تفكير في سماء ذات  
أبراج<sup>(١)</sup> ، وأرض ذات فجاج<sup>(٢)</sup> ، وبحار تزخر<sup>(٣)</sup> ، ورياح تصفر<sup>(٤)</sup> ، كل  
ذلك يدل على وجود الخالق سبحانه .

لكن أتترك الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

(١) الأبراج : الجبال والضلal . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استقدر  
من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسماها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب  
كـالرَّجَسِ ، وهو المأثم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ  
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (١٣٦) ﴿ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهي منازل الأنلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هي النجوم . [انظر لسان  
العرب : فادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِثْ جُفَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِأَاطَا  
(٤) لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فُجَاجًا ﴾ (٢٠٠) ﴿ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُعِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا  
فُجَاجًا سَبِيلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢٣٦) ﴿ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ  
كُلِّ فَجٍّ عَِصٍ ﴾ (٢٠٠) ﴿ [ذخر] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر انقوم : جاشوا لغير أو حرب . [لسان العرب :  
مادة : زخر] وهذه الجملة من خطبة خطبها فُرس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية ، كان قولها : يا أيها  
الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آتة انظر : البيان والشيء -  
للجاحظ (٣٠٨/ ١) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكروهم بالآيات الموجودة في الكون ، وليتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١) [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكان الحق سبحانه يُبين لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن ملكي إلا بإرادتي ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبة .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن من خلقه مختاراً عليم برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعة يأتي الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنتهج ليعدل لى خيائى ، فلا بد أن أُرهِفَ<sup>(١)</sup> له السمع .

وساعة يُقبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمان .

إن العبد متى إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدخلوه . وهو يقول ذلك ؛

(١) إرهاف السمع : الإنصات الشديد . والرهافة فى اللغة : الرقة واللفظ . [اللسان : مادة رهف] .

لأن الله سبحانه أطلعني على ما في قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاقٍ .

أما إذا دقَّ بابه عبدٌ آخر ، فتجده يأمر معاونه أن يُدخلوه وأن يفسحوا له ؛ لأنه علم بما في قلبه من محبة ورغبة في صدق اللقاء والمودة .  
إذا كان هذا يحدث بين العبياد ، وهم كلهم أغبيار ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى ؟

والله سبحانه هو القائل في حديث قدسي : «من ذكرني في نفسه ذكرته في ملائكتي منه» .

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله .  
إذن : أقبل على الله سبحانه وعلى ذكر الله ، وأنت إن ذكرت الله في نفسك ، فالله يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملائكتي في ملائكتي منه ، فالملائكة ستذكره فيه ملائكتي ، والله سبحانه سيذكرك في ملائكتي ظاهر .

ويقول الحق سبحانه في ذات الحديث القدسي <sup>(١)</sup> : «إن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً» .

والذراع أطول من الشبر .

ويقول : «وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» .

فالمشي قد يتعب العبد ، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل ، وهو سبحانه بكل ربييته ما إن يعلم أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى في

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) ، ونسائه : «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله ، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة» . من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلي يمشي أقبلت إليه هرولة .

## سُورَةُ التَّوْبَةِ

○ ٦٢٢٧ ○

شيء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيجِب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق في كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق ، وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧)

[متحد]

ونلاحظ أن الحق سبحانه يؤكد في الآية التي نحن بصدد خواطرنّا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ في الأرض جميعاً ؛ ليبين لنا أنه حتى إبليس الذي دخل في جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ ليُحْكِم الأمر حول كل خلقه ومخلوقاته ، فلا يشك منهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه في نفس الآية :

﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٩)

[يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . ﴾ (٢٥٦)

[البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هي المطلوبات الظاهرة فقط التي تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فهاهناك أنك أكرهت قلباً أن تستطيع أن تُكره قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلبياً لا قوالب<sup>(١)</sup> .

وهكذا لا يصلح الإكراه في قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألا يستحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد في مسنده (٢٨٥ / ٢ ، ٥٣٩) وابن ماجه في سننه (٤١٤٢) ، واللفظ لمسلم . والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكراهة ، والقوالب مادة تشير حسب الإدراك الذي تفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويسمى ( النزوع ) .

لا يصلى فينهره صديقه ، فيرد : لا إكراه فى الدين . وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطئ ؛ لأن الإكراه فى الدين إنما يكون ممنوعاً فى القضية العقدية الأولى .

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإن أخلّ بحكم من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته .

ولا إكراه فى الدين ، فيما يخص القضية العقدية الأولى ، وأنت حرٌّ فى أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإن دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرت محسوبةً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرهما ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإن زנית تُرجم أو تُجلد<sup>(١)</sup> ، وإن شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلت قواعد الإسلام وشريعته .

وإن رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولون إن الإسلام يُسرق ، ولكن إن رآه يُعاقب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم .

إذن : ﴿ لا إكراه فى الدين ٢٥٦ ﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إن خرجت على الحدود .

والرسول ﷺ يقول : «مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا<sup>(٢)</sup> على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

(١) للزنا فى شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد . أما الرجم فيعاقب به الزانى المحصن الذى قد أحصن بالزواج . أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج . فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور] .

(٢) استهموا : اقترعوا .

فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَشَقُّوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا :  
لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا ارَادُوا  
هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا ، وَنَجَّوْا جَمِيعًا<sup>(١)</sup> .

إِذَنْ : فَالْتِزَام بِفِرْعَوْنَ الدِّينِ أَمْرٌ وَاجِبٌ عَنْ دَخْلِ الدِّينِ دُونَ إِكْرَاهٍ ،  
وَإِنْ خَدَشَ حَكَمًا مِنَ الْأَحْكَامِ يُعَاقَبُ .

وَهُنَاكَ مَا هُوَ أَثْبَتُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ حَكْمُ مَنْ ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ  
الْقَتْلُ<sup>(٢)</sup> .

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ : إِنْ هَذَا الْأَمْرُ يَمَثُلُ الْوَحْشِيَّةَ . فنقول له : إِنْ مِنَ التَّزَمِ  
بِالدِّينِ ، إِنَّمَا قَدْ عَلِمَ بِدَايَةِ أَنَّهُ إِنْ أَمِنَ ثُمَّ ارْتَدَّ ، فَسَوْفَ يُقْتَلُ ؛ وَلِذَلِكَ  
فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا بِتَقْيِينِ الْإِيمَانِ .

وَهَذَا الشَّرْطُ لِلَّذِينَ ؛ لَا عَلَى الدِّينِ . فَلَا تَدْخُلُ عَلَى الدِّينِ إِلَّا وَأَنْتَ  
مُتَقَيِّنٌ أَنَّ أَوَامِرَ الدِّينِ فَوْقَ شَهْوَاتِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ دَخَلْتَ عَلَى الدِّينِ ثُمَّ  
تَخَلَّيْتَ عَنْهُ فَسَوْفَ تُقْتَلُ ، وَفِي هَذَا تَصْعِيبٌ لِأَمْرِ دَخُولِ الدِّينِ ،  
فَلَا يَدْخُلُهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ يَقِينِهِ الْإِيمَانِيِّ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُحْسُوبٌ  
لِلَّذِينَ لَا ضِدَّ الدِّينِ .

وَهُنَا يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ .. وَيَجْعَلُ الرَّجُلُ عَلَى الدِّينِ لَا يَقُولُونَ (١٠٠) ﴾ [يونس]

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد في مسنده (٢٦٨/٤) والترمذي في سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رسول الله ﷺ قال : « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد في مسنده (٢١٧/١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣١٢) وابن ماجه في سننه (٢٥٣٥) .  
- وقد قال رسول الله ﷺ في حديث آخر عن ابن مسعود : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِأَحَدِي ثَلَاثٍ : النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالثَّيْبَ الزَّائِي ، وَالْفَارِقَ لِدِينِ التَّارِكِ لِلْجَمَاعَةِ » .  
أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقلي بدون هوى ؛ لا بُدَّ أن ينتهي العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجد القسم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذي يشفى الغلَّة<sup>(١)</sup> ، أما الذين أخذوا المذاهب كميّرات عن الآباء ، فهم يظنون على حالهم .

وبعض القسم الفكرية في العالم التي اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تنجس إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام في زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القسم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادئ الإسلام ، وفرّقوا بين مبادئ الدين ؛ وبين الملتصين للدين ، وهذا إنصاف في البحث العقلي ؛ لأن الدين حين يُجرّم عملاً ، فليس في ذلك التجريم إذن من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرّم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ۖ ﴾ (٢٨)

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا<sup>(٢)</sup> ،

(١) الغلّة في اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفة ودرسه كأنظماً يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (٢٥) [الإمراء] . ويقول سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٣) والذين يرمون المحصنات لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون (٢٢) إِلَّا الَّذِينَ قَالُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأُصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١) [النور] .



وغير ذلك من الجرائم التي جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضرر الواقع على النفس أو المجتمع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكّر العقاب الذي أوقعه الإسلام على السارق ، وإن رأيت مسلماً يزني ، فتذكّر العقوبة التي حددها الحق سبحانه للزاني .

وهكذا الحال في جميع الجرائم .

وكبار المفكرين العالمين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادئ الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادئ الدين الحنيف .

وما هو ذا «جينو» المفكر الفرنسي يقول : « الحمد لله الذي هداني للإسلام قبل أن أعرف المسلمين ، فلو كنت قد عرفت المسلمين قبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة في النفس تجعلني أتردد في الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام » .

إذن : فإعمال العقل الراجي لا بد أن يؤدي إلى الإسلام لأنه فطرة الله ، والإسلام ينميها ، ويرتقي بها ، والعقل هو مناط التكليف .

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يعملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفي الرجس ، لأنهم سيقبلون على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به .

وإذا سألني سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مناط التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقل البعير ، وهو ما يشد على ركبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحين يريد صاحبه أن ينهض فهو يفكّ العقال .

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (عُثْرَة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العُقَال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطِيرَه .

إذن : فالعقل أرادَه الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى في تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل .

فحين يفكر الإنسان في تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك ؟ إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أرادَه الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التي فيها هَوَى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبتها <sup>(١)</sup> متعبة .

ويخطيء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذي يوضح لك آفاق المسؤولية في كل سلوك .

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طيعي ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل .

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُستوفٍ للملكات ، ولم تستوئ لديه القدرة على إنجاب مثل له .

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طعمها مقبولا مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التي فيها قادرة على

(١) غِبَّ الْأَمْرَ تَغَيَّبَهُ : عاقبته وأخبره . [لسان العرب : مادة (غ ب ب) ] .

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها في الأرض .

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، ونجد لبها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ،  
ونحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذي صار أسود اللون ؛ لأنه  
دليل نضج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللب وترعه ينتج لك بطيخاً .

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يزن السلوك قبل الإقدام  
عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكروه بقوة يقهره على أن  
يفعل ما لا يعقله .

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدريبه على  
الطاعة .

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ،  
واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرقوا بينهم في المضاجع»<sup>(١)</sup> .

وهنا نجد أن الذي يأمر هو الأب وليس الله ، والذي يعاقب هو الأب ،  
وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرَهُه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن  
يمسك (مسدساً) ويقول له : إن لم تشرب الخمر أطلقت عليك النار ، فهنا  
يرفع عنه التكليف .

ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتي  
الخطأ ، والنسيان ، وما استكروها عليه»<sup>(٢)</sup> .

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت قرناً أو غيرها .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٧/٢) ، وأبو داود في مسنده (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٠٤٥) والدارقطني في مسنده (١٧٠/٤) والحاكم في المستدرک (١٩٨/٢)

وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع .

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل في كل شيء ، ففي الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضمات ، وقد لا تفتح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطي الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أَكْثَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذي يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذي يدفع إلى التأنى والإجادة في العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأت العقل للإنسان ليستمرى به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى في مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صانع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي  
الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وهنا يُحدثنا الحق سبحانه عن عالم الملك الذي نراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذي يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا في السموات والأرض : أمر الكفار بالنظر والاعتبار في المصنوعات الدالة على الصانع والصادر على الكمال ، والآيات هنا بمعنى : الأدلة والبراهين على الوهبة لله ووحدانيته ، والآية تفيد عسوم النظر في ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر : المرسل ، جمع نذير ، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون : أي : عن سبق له في علم الله سبحانه أنه لا يؤمن . [تفسير القرطبي : ٤/٣٣١٤] - بتصرف .

إن لهذا العالم خالقاً إلهياً قادراً قوياً ، وتؤمن به ؛ هنا تهبُّ عليك نفحات الغيب ؛ لتصل إلى عالم الملكوت ؛ لأنك اكتشفت في داخلك أماتتك مع نفسك ، وأعلنت إيمانك بالخالق سبحانه ، ورأيت جميل صنّعه في السماء والكواكب ، وأعجبت بدقة نظام سير تلك الكواكب .

وترى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلى أو الجزئى ، وتبهر بدقة المنظم الخالق سبحانه وتعالى ؛ ولن تجد زحام مرور بين الكواكب يعطل القمر أو يعطل الأرض ، ولن يتوقف كوكب ما لغاد وقوده ، بل كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٤٠) ﴿ [يس]

ونحن في حياتنا حين نرى دقة الصنعة بكثير فيما هو أقل من السماء والشمس والقمر ، فنحن نكرم الصانع ، وقد أكرمت البشرية مصمم التلغراف ، ومصمم جهاز التليفزيون ، فما بالنا بخالق الكون كله سبحانه .

ويكفى أن نعلم أن الشمس تبعد عنا مسافة ثمانى دقائق ضوئية ، والثانية الضوئية تساوى ثلاثمائة ألف كيلومتر ، وهى شمس واحدة تراها ، غير آلاف الشمس الأخرى فى المجرات الأولى ، وكل مجرة فيها ملايين من المجموعات الشمسية ، ويكفى أن تعلم أن الحق سبحانه قيد أقصم

(١) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر : قال الثورى : أى : لا يدرك هذا ضوءه ، هذا ، ولا هذا ضوءه هذا . وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطاناً ، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل ، ولا الليل سابق النهار : قال مجاهد : يطلبان حثيثين يسبح أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ . لأنهما مسخران دأبان والفلك : جمع أفلاك ، وهى المدارات فى السماء التى تدور فيها النجوم والكواكب ؛ فكانها تسبح فى الفضاء . (تفسير ابن كثير) ٥٧٣ / ٣ . وهذا دليل على تقدير العزيز العليم .

بالشمس<sup>(١)</sup> ، وقال عن كوكب الشعرى :

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾<sup>(٢)</sup> (٤٩) ﴿

[النجم]

لأن كوكب الشعرى أكبر من الشمس .

وحين تتأمل السموات والأرض تجد في الأرض جبلاً شامخة ، وغمر عليها فتندهرش من دقة التكوين ودقة التماسك ، وتجد في داخلها تفاسس ومعادن بدرجات متفاوتة ، وقد تجد أسطح الجبال مكونة من مواد خصبة بشكل هش ، فإذا ما نزل عليها المطر ، فهو يصحبها معه إلى الأرض ؛ لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد ، وتتخلل الأرض التي شققتها حرارة الشمس .

والمثل الواضح على ذلك هو ما كان يحمله النبل من غرين<sup>(٣)</sup> في أثناء الفيضان إلى الدلتا قبل بناء السد العالي ، وكانت مياه النيل في أيام الفيضان تشبه مادة «الطحينة» من فرط امتزاجها بذرات الغرين ، وفي مثل هذا الغرين يوجد الخصب الذي نأخذ منه الأقوات<sup>(٤)</sup> .

ولو أن الجبال كلها كانت هشة التكوين ، لأزالها المطر مرة واحدة ، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مضاف لسطح الأرض ، ولاختفى الخصب من الأرض بعد سنوات ، لكن شاء الحق سبحانه أن يجعل الجبال

(١) قال الحق سبحانه في سورة الشمس : ﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا (١)﴾ [الشمس] . وقد ذكر الله عز وجل الشمس في كتابه العزيز (٣٤) مرة ، بل إنه سبحانه جعل سورة كاملة باسم هذا النجم .

(٢) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم عن (الشعري) إنه هو النجم الرقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء ، وكانت طائفة من العرب يعبدونه في الجاهلية . [تفسير ابن كثير : ٢٥٩ / ٤] .

(٣) الغرين : ما بقى في أسفل الحوض والتعبير من الماء أو الطين ، وقيل : هو الطين الذي يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً ، وكذلك (الغريل) . قال الأصمعي : الغرين أن يجيء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق : [لسان العرب : مادة (غ ر ن)] .

(٤) أتوات : جمع قوت ، وهو الرزق ، ويطلق لفظ قوت على كل ما يقتات به من رزق الله سبحانه وتعالى .

متماسكة ، وجعل سطحها فقط هو الهش لينزل المطر في كل عام مرة ،  
ليحمل الخصب إلى الأرض .

وَمَنْ يَتَأَمَّلْ هندسة التكوين في الاقتيات يجد الجبال مخازن للقوت .

فالبشر يحتاجون إلى الحديد ليصنعوا منه ما يفيدهم ، سواء أكان آلات  
لحرث الأرض ، أو أي آلات أخرى تساعد في تجميل الحياة ، وتجد الحديد  
مخزونا في الجبال .

وكذلك نجد المواد الأخرى مثل الفوسفات أو المنجنيز ، أو الرخام ،  
أو الفيروز أو الغازات .

إذن : فالمطمور<sup>(١)</sup> في الجبال إما للاقتيات ، أو وسيلة إلى الاقتيات ،  
أو وسيلة للترف فوق الاقتيات .

وحين ينزل المطر فوق الجبال فهو يأخذ الخصب من الطبقة الهشة<sup>(٢)</sup> على  
سطح الجبال ويبقى المواد الأخرى ككثروات للناس ، ففي إفريقيا مثلاً توجد  
مناجم للفحم والماس ، وفي بلاد أخرى تجد عتود الطيب ، وهو عبارة عن  
جذور أشجار .

وأنت لو شققت الأرض كقطاع من محيط الأرض إلى المركز تجد الأرض  
الخصبة مع الصحراء ، مع المياه ، مع الجبال ، متساوية في الخير مع القطاع  
المقابل للقطاع الأول .

(١) طبر الشيء : جباله . ومطمور : اسم مفعول من طمر ، وطمر : إذا قُتِب واستخفى ، والمراد : خيرات  
الله المخفية داخل الأرض تنتظر إذن الله تعالى لها بالظهور .

(٢) والشيء الهش الغير متماسك ، وهشم الشيء : البائس هشماً كسرة قال تعالى : ﴿ كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ﴾

(٣) [القمر] أي : كالمخضب والخشب المحطم في يد المخطر . أي : صانع الخطيرة [القاموس القويم

ص ٣٠٢ باختصار] .

وقد تختلف نوعيات العطاء من موقع إلى آخر على الأرض ، فأنت نور  
حسبت مثلاً ما أعطاه المطر للنيل من خصب الجبال من يوم أن خلق الله - عز  
وجل - النيل في أرض وادي النيل في إفريقيا ، وحسبت ما أعطاه النقط  
(البترول) في صحراء الإمارات مثلاً ، ستجد أن عطاء النيل يتساوى مع عطاء  
البترول ، رغم أن اكتشاف البترول قد تم حديثاً .

وكل قوت محسوب من مخازن القوت ، وكل قوت له زمن ، فهناك زمن  
للفحم ، وزمن للبترول ، كل ذلك بنظام هندسي أنشأه الحكيم الأعلى سبحانه .  
وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في مجال النظر في  
السموات وفي الأرض ، فهذه دعوة لتأمل عجائب السموات والأرض .

ومن تلك العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمة ، ولها قاعدة ، مثلها مثل  
الهرم ، وتجد الوديان على العكس من الجبال ؛ لأن الوادي يكون بين  
جبلين ، وتجد رأس الوادي في أسفل ، ورأس الجبل في قمته .

وحين ينزل المطر فهو يمر برأس الجبل الضيق ؛ ليصل إلى أسفل قاع  
الوادي الضيق ، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل ؛ ليملا مساحة  
الوادي المتسعة ، وكلما ازداد الخلق ، زاد الله سبحانه رقعة الاقليات .

ومثال ذلك تجده في الغرين القادم من منابع النيل ؛ ليأتي إلى وادي  
النيل والدلتا ، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة ، وشاء  
لها الحق سبحانه أن تتحول إلى أرض خصبة .

وحين نتأمل ذلك نرى أن كل شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه  
بحساب .

والذي يفسد الكون هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر ، بل ننظر إلى أن  
تزدحم الأرض بمن عليها ، ثم نفكر في استصلاح أراض جديدة ، وكان  
يجب أن تفعل ذلك من قبل .



وكلما نزل المظر على الجبال فهي تتخلخل وتظهر ما فيها من معادن ،  
يكشفها الإنسان ويعمل عقله في استخدامها .

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً ، وكلما طبق المؤمن حكماً تكليفاً  
مأموراً به ، يجد نور الإيمان وهو يشرق في قلبه .

وليُجرب أي مسلم هذه التجربة <sup>(١)</sup> ، فليجرب أن يعيش أسبوعاً في ضوء  
منهج الله سبحانه وتعالى ، ثم يزن نفسه ويقيمها ليعرف الفارق بين أول  
الأسبوع وآخر الأسبوع ، سيكتشف في هذا الأسبوع أنه يصلى في  
مواقيت الصلاة ، وسيجد أنه يعرق في عمله ليكسب حلالاً ، وسيجد أنه  
يصرف ماله في حلال .

زن نفسك يقيناً في آخر الأسبوع ستجد أن نفسك قد شفت شفافية  
رائجة ؛ لتجد ضوء ونور الإيمان وهو يصنع انسجاماً بينك وبين الكون كله  
في أبسط التفاصيل وأعقدها أيضاً .

ومثال ذلك : إنك قد تجد الرجل من هؤلاء الذين أصبح عليهم تطبيق  
منهج الله الشفافية تسأله زوجته : ماذا تطبخ اليوم ؟ فيقول لها : فلننقض  
اليوم بما بقي من طعام أمس ، ثم يفتاحاً بقريب له يزوره من الريف ، وقد  
جاءه ومعه الخير .

لقد وصل الرجل إلى درجة من الشفافية تجعله منسجماً مع الكون كله ،  
فيضله رزق الله تعالى له من أي مكان .

وتجد الشفافية أيضاً في أعقد الأمور ، ألم يقل يعقوب عليه السلام :

[يوسف]

﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رَيْحَ يُوسُفَ ۚ ۝ (٩٤) ﴾

(١) هذه تجربة التزويج الإيماني : فالسلم الذي تغلي عن المعاصي وتغلي بالطاعات تغلي الله عليه  
بالقبولات والنفقات .

وكان إخوة يوسف - عليه السلام - ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها للقاء أبيهم ، حاملين قميص يوسف ، الذي أوصاهم يوسف بإلقائه على وجه أبيه ليرتد إليه بصره <sup>(١)</sup> .

لقد جاءت ريح يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام قد عاش في انسجام مع الكون ، ولا توجد مضارة بينه وبين الكون .

والحال الحى لذلك هو فرح الكون بمجيء رسول الله ﷺ ، يوم مولده ، لقد فرح الكون بمقدم الرسول ﷺ ؛ لأن الكون عابد مُسَبِّح لله سبحانه ، فحين يأتى مَنْ يدعو العباد إلى التوحيد لا بُدَّ أن يفرح الكون ، أما مَنْ يَعْصِي الله تعالى ، فالكون كله يكرهه ويلعنه ، ويتلاعن الاثنان .

وقد فرح الكون بمجيء الرسول الذى أراد الله سبحانه أن تنزل عليه الرسالة الإلهية ليعتدل ميزان الإنسان مع الكون .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾ (١٧) [يونس]

والكون كله أمامهم ، فلماذا لا ينظرون ؟ إنهم يَنْصُرون ولا يستبصرون ، مثل الذى يسمع ولا يسمع ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

(١) وذلك أن يوسف عليه السلام بعد ما تعرّف عليه إخوته قال لهم : ﴿ قَالَ لَا تَرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٥) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذِهِ فَإِذَا قَرَأْتُمْ عَلَيْهِ وَجْهَ أَبِي بَاتٍ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (١٦) وَلَمَّا فَصَلَ الْغَمِيمُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّهُ لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن نَقُولُ (١٧) ﴿ [يوسف] أى : لولا أن تنهمنى بغساد الرأى والحرف .

﴿... وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾<sup>(١)</sup> عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴿يُوسُفَ﴾

إذن : فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ  
قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>



وهؤلاء الذين لا يؤمنون يظنون في طفيلياتهم يعمهون<sup>(٣)</sup> ، وكأنهم  
يتظرون أن تكرر معهم أحداث الذين سبقوا ولم يؤمنوا ، لقد جاءهم  
الرسول ببيان ككل المكذبين السابقين .

ونحن نعلم أن اليوم<sup>(٤)</sup> هو وحدة من وحدات الزمن ، وبعد الأسبوع ،  
وبعد الأسبوع نجد الشهر ، ثم نجد السنة ، وكلما ارتقى الإنسان قسم اليوم  
إلى ساعات ، وقسم الساعات إلى دقائق ، وقسم الدقائق إلى ثوانٍ .

وكلما تقدمت الأحداث في الزمن نجد المقاييس تزداد دقة ، واليوم - كما  
قلنا - جعله الله سبحانه وتعالى وحدة من وحدات الزمن ، وهو مُكوّن من  
ليل ونهار .

(١) النذر : جمع نذير ، وهو الرسول بحججه وآياته وبراهينه .

(٢) خلوا : مضوا وسبقوا . أي : فما يتظرون بكفرهم إلا مثل ما وقع للأمم التي سبقتهم من العذاب  
والعقاب . [تفسير الجلالين ص ١٨٨] .

(٣) يعمهون : يتخبرون ويترددون في الضلال . قال ابن الأثير : العَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر .  
[لسان العرب : مادة (ع م هـ)] .

(٤) اليوم : في علم الفلك هو مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدة أربع وعشرون ساعة  
وجمعه أيام . وأيام العرب : رقة لهم . وأيام الله : أيام جلّت فيها نعمه وعذابه . القاموس القويم ص ١٠٠٢

ولكن قد يُذكر اليوم ويُراد به ما حدث فيه من أحداث مُلْفَتة ، مثلما نقول : «يوم ذى قَرْد»<sup>(١)</sup> و«يوم حنين»<sup>(٢)</sup> و«يوم أحد».

إذن : فقد يكون المقصود باليوم الحدث البارز الذى حدث فيه ، وحين ننظر فى التاريخ ، ونجد كتاباً اسمه «تاريخ أيام العرب» ، فنجد «يوم بُعَاث»<sup>(٣)</sup> و«يوم أوطاس»<sup>(٤)</sup> وكل يوم يمثل حرباً.

إذن : فالיום ظرف زمنى ، ولكن قد يُقصد به الحدث الذى كان فى مثل هذا اليوم.

ومثال ذلك أنك قد تجد من أهل الزمن المعاصر مَنْ عاش فى أزمنة سابقة فيتذكر الأيام الخوالى ويقول : كانت الأسعار قديماً منخفضة ، وكان كل شيء مُتوفراً ، فيسمع مَنْ يرد عليه قائلاً : لقد كانت أياماً ، أى : أنها أيام حدث الرخاء فيها.

إذن : فقد يُنسب اليوم إلى الحدث الذى وقع فيه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا . . (١٠٢) ﴾

[يونس]

(١) ذو قَرْد : مكان به ماء من أرض نجد ، على مسافة يوم من المدينة ، مما يلى بلاد عطفان . ذهب أكثر كتب السيرة إلى أنها كانت قبل الحديبية ، أما البخارى فى صحيحه فقد ذهب إلى أنها قبل خيبر بثلاث سنين ، وذكرها بعد الحديبية . انظر : «سيرة ابن هشام» (٢٨١/٣) ودلائل النبوة (١٧٨/٤ - ١٩٣) .  
(٢) كان فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة ، وقد قال سبحانه فيه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (١٠٢) [النوبة] .

(٣) يوم بُعَاث : هو يوم افتتحت فيه الأوس والخزرج ، وكان المظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سمالك الأشجلى أبو أسيد بن حضير ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، فقتلوا جميعاً . (سيرة ابن هشام ٥٥٥/٢) .

(٤) يوم أوطاس هو نفسه يوم حنين ، وكان فى سنة ثمان للهجرة بعد فتح مكة . وأوطاس : وادئ ديار هوازن ، كانت فيه وقعة حنين .

والذين خلوا منهم قوم نوح عليه السلام وقد أغرقهم الله سبحانه ، وقوم  
فرعون الذين أغرقهم الله تعالى أيضاً .

والله سبحانه هو القائل :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۝ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ  
الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ  
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ ﴾ [العنكبوت]

وهذه أيام حدثت فيها أحداث يعلمونها ، فهل هم ينتظرون أياماً مثل  
هذه ؟

بالطبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرنوا الكفر ، حتى لا تتكرر معهم مأس  
كالتى حدثت لمن سبقهم إلى الكفر .

ونحن نجد فى العامية المثل الفطري الذى ينطق بإيمان الفطرة ، فتسمع  
من يقول : « لك يوم يا ظالم » أى : أن اليوم الذى ينتقم فيه الله تعالى من  
الظالم يصبح يوماً مشهوراً ؛ لأن الظالم إنما يفترى على خلق الله ؛ لذلك  
يأتى له الحق سبحانه يحدث ضخم يضربه فيه الله تعالى ويذيقه مجموع  
ما ظلم الناس به .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ١٠٢ ﴾ [يونس]

(١) الحصب : كل ما يلقى فى النار ، لتُسمر به . قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ  
.. ﴾ [الأنبياء] ، وحصبه : قذفه بالحصى ، قال تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ  
حَاصِبًا .. ﴾ [الملك] أى : عصيراً شديداً يذوقكم بالحصى ، فيهلككم ، والرياح العاصفة تفعل أكثر  
من ذلك .

## سُورَةُ يُوسُفَ

٦٢٤٤

وقوله هنا : ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ فيه تهديد ، وقوله : ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٦٠٢) فيه بشارة ؛ لأن الرسول ﷺ سيُنتظر هذا اليوم ليرى عذابهم ، أما هو ﷺ فسوف يتحقق له النصر في هذا اليوم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا  
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٧)

والحق سبحانه قد أنجى - من قبل - رُسُله وَمَنْ آمَنُوا بهم ، لتبقى معالم للحق والخير .

ومن ضمن معالم الخير والحق لا بد أن تظل معالم الشر ، لأنه لولا مجيء الشر بالأحداث التي تعصفُ الناس لما استشرف الناس إلى الخير .

ونحن نقول دائماً : إن الألم الذي يصيب المريض هو جندى من جنود العافية ؛ لأنه ينبه الإنسان إلى أن هناك خللاً يجب أن يبحث له عن تشخيص عند الطبيب ، وأن يجد علاجاً له .

والألم يوجد في ساعات اليقظة والوعى ، ولكنه يختفى في أثناء النوم ، وفي النوم رَدْعٌ ذاتيٌّ للألم .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٣) [يونس]

هذا القول يقرر البقاء لعناصر الخير في الدنيا .

(١) أى : أن الله سبحانه قد أنجى رُسُله السابقين والذين آمنوا معهم من العذاب ، ونسبجى النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين به حين تعذيب الكفار والمشركين . [تفسير الجلالين من ١٨٨ - بتصرف] .

وكلما زاد الناس في الإلحاد زاد الله تعالى في المدد ، ففي أى بلد يُفتري فيها على الإيمان ويُظلم المؤمنون ، ويكثر الطغاة ، تجدد فيها بعض الناس منقطعين إلى الله تعالى ، لتفهم حقيقة القيم ، وحين تضيق الدنيا بالظلمة والطغاة تجدهم يذهبون إلى هؤلاء المنقطعين لله ، ويسألونهم أن يدعوا لهم .  
وقد ألزم الحق - سبحانه وتعالى - هنا نفسه بأن يُنجي المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ .. كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٣) .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٤)

والشكُّ " معناه : وضع أمرين في كفتين متساويتين .

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأن يضعوها في كفة ، ويضعوا في الكفة المقابلة ما يؤمنون به .  
ويترك لهم الحكم في هذا الأمر .

هم - إذن - في شك : هل هذا الدين صحيح أم فاسد ؟

وعرض الرسول ﷺ لأمر الدين للحكم عليه ، يعنى : أن أمر الدين ملحوظ أيضاً عند أى كافر ، وهو ينتبه أحياناً إلى قيمة الدين .

(١) الشك : نقيض اليقين ، أو جمعة : شكوك . قال تعالى : ﴿ قَالَتْ زُتُّنَهُمْ إِلَى اللَّهِ إِنَّ الشَّكَّ طَائِفُ السُّعُوتِ وَالْأَرْضُ ﴾ (١١٤) . [إبراهيم] . [السان العرب : مادة (ش ك ك)] .

فإن كنتم في شك من الدين الذي أنزل على رسول الله ﷺ ، وهل ينتصر الرسول ﷺ ومن معه عليهم ، أم تكون لهم الغلبة ؟

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ، ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقة منه ﷺ بأن قضايأ دينه إن نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلا بد أن يلتجئ الإنسان إلى الإيمان .

ويحسم الحق سبحانه وتعالى أمر قضية الشرك به ، ويستمر أمره إلى الرسول ﷺ أن يقول :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يونس]  
 أى : أنه ﷺ لا يمكن أن يعبد الشركاء وأن يعبد الله ؛ لأنه لن يعبد إلا الله ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ .

ثم جاء سبحانه بالدليل الذي لا مرأى فيه ، الدليل القوى ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ؛ لأنه ﴿ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم ﴾ (١) ، ولا يوجد من يقدر أو يتأبى على قدر الله سبحانه حين يميت .  
 وهنا قضيتان :

الأولى : قضية العبادة في قوله سبحانه : ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم ۖ ۝ (١٠٤) ﴾ [يونس]

(١) المراء ، والمارة ، والتماري ، والامراء : الجفال والشك . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ الْآمِرَاءُ ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ ۝ (٥٧) ﴾ [الكهف] . وقال تعالى : ﴿ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۖ ۝ (٥٧) ﴾ [النجم] . وكذلك المرية ( بكسر الميم ، وبضمها ) ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَرَانِ الَّذِينَ تَقْرَؤُا لَهَا مِرْيَةً مِنْهُ ۖ ۝ (٥٨) ﴾ [الحج] [لسان العرب : مادة (م ر ي)] ينصرف .

(٢) يتوفاكم : يمتكم ويقبض أرواحكم . وهو من توفية العدد ، أى : يقبض أرواحكم أجمعين ، فلا ينقص واحد منكم . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ۖ ۝ (٥٧) ﴾ [الزمر] أى : يستوفى مدد أجالهم في الدنيا ، [اللسان : مادة (م ر ي)] .



وكان لا بُدَّ أن يأتي أمر المسألتين معاً : مسألة عدم عبادة الرسول لمن هم من دون الله ، ومسألة تخصيص الله تعالى وحده بالعبادة .

والفصل واضح بما يُحدّد قطع العلاقات بين معسكر الإيمان ومعسكر الشرك ، كما أورده الحق سبحانه في قوله :

﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

والذين يقولون : إن في سورة (الكافرون) <sup>(١)</sup> تكراراً لا يلتفتون إلى أن هذا الأمر تأكيد لقطع العلاقات ، ليستمر هذا القطع في كل الزمن ، فهو ليس قطعاً مؤقتاً للعلاقات <sup>(٢)</sup> .

وهذا أول قطع للعلاقات في الإسلام ، بصورة حاسمة ليست فيها أية فرصة للتفاهم أو للمساومة ، ويظل كل معسكر على حاله .

(١) نزلت سورة الكافرون في رطم من قريش قالوا : يا محمد ، علم اتبع ديننا وتبع دينك ، تعبد آلها سنة وتعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ إلى آخر السورة ، ففدأ رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملا من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوامه عند ذلك . [أسباب النزول - للواحدي ص ٢٦١] .

(٢) أقوال مُفسّري وعلماء سلفنا الصالح تلافى كلها فيما قاله فضيلة الشيخ هنا . فقال البعض منهم البخاري وغيره أن المراد به ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (١) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٢) ﴾ [الكافرون] في الماضي و ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٣) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٤) ﴾ [الكافرون] في المستقبل . وقال البعض الآخر : إن هذا تأكيد محض . وهناك قول آخر نصّره الإمام ابن تيمية ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (١) ﴾ [الكافرون] نفي الفعل لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٣) ﴾ [الكافرون] نفي خبره لذلك بالكلية ، لأن النفي بالجملة الاسمية أكد ، فكانه نفي الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفي الوقوع ، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٥٦١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النصر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر]

هنا يتأكد الأمر ، فبعد أن قطع الرسول ﷺ العلاقات مع معسكر الشرك ، جاء نصر الله سبحانه وتعالى وقُتِحَتْه ، فَهَرَّجَ الناس من معسكر الشرك إلى معسكر الإيمان <sup>(١)</sup> .

هم - إذن - الذين جاءوا إلى الإيمان . . هذه هي القضية الأولى :

﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ . . (١٠٤) ﴾ [يونس]

وهم كانوا يعبدون الأصنام المصنوعة من الحجارة .

وأنت إذا نظرت إلى الأجناس في الوجود ، فأكرمها هو الإنسان الذي سخر له الحق سبحانه بقية الأجناس لتكون في خدمته .

والجنس الأقل من الإنسان هو الحيوان .

ثم يأتي الجنس الأقل مرتبة من الإنسان والحيوان ، وهو النبات .

ثم يأتي الجسد كأدنى الأجناس مرتبة ، وهم قد اتخذوا من أدنى الأجناس آلهة ، وهذه هي قمة الخيبة .

ونأتي القضية الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى :

(١) كان بين سورتي «الكافرون» ، و«النصر» ما يزيد على ١٥ سنة ، فسورة الكافرون نزلت في بداية الدعوة ومحاوله قريش إنشاء رسول الله ﷺ عن الاستمرار في دعوته ، ثم حدثت الفاصلة ، ثم الهجرة ، ثم الغزوات ، إلى أن تم نصر الله بفتح مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فكانت سورة النصر . وهذا يؤكد ما قاله فضيلة الشيخ من امتداد القطع مع معسكر الشرك ؛ ليشمل الزمن كله بالنسبة لقضية الإيمان ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

﴿.. وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٠٤) ﴿ فإِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ رَفَضَ الْعِبَادَةَ لِمَنْ هُمْ دُونَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَنْ يَعْبُدَ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى .

وليس هذا موقفاً سلبياً ، بل هو قمة الإيجاب ؛ لأن العبادَةَ تقتضى استقبال منهج الله بأن يطيع أوامره ، ويحْتَنِب نواهيه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٥)

ومما دام الخطاب مُوجَّهًا لرسول الله ﷺ ، فهو ككل خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، إنما ينطوى على الأمر لكل مؤمن .

وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ؛ ولذلك يأتى الأمر هنا بالآلة يلتفت وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿اقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ..﴾ (١٠٥) ﴿ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمن يعبد الله ولا يعبد غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك - أيضاً - شركاً خفياً<sup>(١)</sup> ، كأن يعبد الإنسان من هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفْتَن بها الإنسان .

(١) حنيفاً : مائلاً عن كل طرق ومناهج الضلال ، إلى طريق الحق وحده .

(٢) الشرك الخفى : هو الرياء وطلب السمعة والصيت . فعن سعد بن أبي وقاص قال قال ﷺ : «إن أخوف ما أخوف على أمتي الإشراف بالله . أما إني لست أقول : يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً . ولكن أعمالاً تغير الله ، وشهوة خفية» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٠٥) .

ونحن عرفنا من قبل قول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا ۖ مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ ۚ

[النساء]

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ.. (١٢٥)﴾

والحنيف <sup>(١)</sup> أصله ميل في الساق ، وتجد البعض من الناس حين يسرون تظهر سيقانهم متباعدة ، وأقدامهم مُلتَفَّة ، هذا اعوجاج في التكوين .

أما المقصود هنا بكلمة (حنيفاً) أى : معوج عن الطريق المعوج ، أى : أنه يسير باستقامة .

ولكن : لماذا يأتي مثل هذا التعبير ؟

لأن الدين لا يجرى برسول جديد ومعجزة جديدة ، إلا إذا كان الفساد قد عمَّ ، فيأتى الدين ؛ ليدعو الناس إلى الميل عن هذا الفساد . وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع .

ويحذرنا رسول الله ﷺ من أن نقع في الشرك الخفى بعد الإيمان بالله تعالى .

(١) الدين : الطاعة والانقياد والشرعة والجزاء ، والعقيدة والمنهج والصرائط المستقيم [القاموس القديم - باختصار ص ٢٣٩] .

(٢) الملة (بكسر الهم ، ونضعيف اللام) : الشريعة ، والدين . قال تعالى : ﴿إِنِّي نَزَّهْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يَأْمَنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٧) ﴿يُوسُفَ﴾ . وقال تعالى : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ۖ.. (٧٥)﴾ [الحج] . [لسان العرب : مادة : م ل ن] . - بتصرف .

(٣) الحنط في القدمين : إقبال كل واحدة منهما على الأخرى بإيهامها . ورجل أحنط ، وامرأة حنقاء ، وبه سُمِّيَ «الأحنط بن قيس» ، واسمه «صخر» ؛ لحنط كنان في رجله . قال الجوهري : الحنط : الاعوجاج في الرجل . وقال أبو عمرو : الحنط هو المائل من خير إلى شر ، أو من شر إلى خير . وحنط عن الشيء : وحنط : مال . وحنط : المسلم الذي يحنط عن الأديان ، أى : يميل إلى الحق ، وقيل : هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ۖ.. (١٢٥)﴾ [آل عمران] . وقيل : الحنط هو الذى يميل عن الضلال ، ويعد عنه ليتجه إلى الحق ، وقد صارت هذه الكلمة علماً على المسلمين . [لسان العرب : مادة (ح ن ف) - بتصرف] .

ويأتى الكلام عن هذا الشرك الثانى فى قول الحق سبحانه :

﴿...وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾ [يونس]

وهذا الشرك الثانى هو أقل مرحلة من شرك العبادة ، ولكن أن تجعل لإنسان أو لآى شيء مع الله عملاً .

فإن رأيت - مثلاً - للطبيب أو للدواء عملاً ، فَقُلْ لنفسك : إن الطبيب هو مَنْ يصف الدواء كعلاج ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى يشفى ، بذليل أن الطبيب قد يخطئ مرة ، ويأخر بدواء تحدث منه مضاعفات ضارة للمريض .

وعلى المؤمن ألا يُفتن فى أى سبب من الأسباب .

وتذكر مثلاً آخر لذلك ، وهو أن بلداً من البلاد ذات الرقعة الزراعية المتسعة أعلنت فى أحد الأعوام أنها زرعت مساحة كبيرة من الأراضى بالقمح بما يكفى كل سكان الكرة الأرضية ، ونبتت التنايل وأينعت ، ثم جاءتها ريح عاصف أفسدت محصول القمح ، فاضطرت تلك الدولة أن تستورد قمحها من دول أخرى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ

فإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾

والمشرك من هؤلاء لحظة أن عبد الصنم ودعاه من دون الله تعالى ، فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ؟ إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهة لم يكن لها منهج ، ولا أحد منها

ينفع أو يضر ، وحين يجيء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجيء الضر لا يقدر الصنم أن يدفعه .

إذن : فمن يدعو من دون الله - سبحانه وتعالى - هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضر .

ومن يفعل ذلك يكون من الظالمين ؛ لأن الظلم هو إعطاء حق لغير ذي حق ، سواء أكان في القمة ، أو في غير القمة<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ  
وَلَئِنْ يُرِدْكَ خَيْرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ  
مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٠٧ ﴾

هذا كلام الربوبية المستغنية عن الخلق ، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس ، ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يحبوه ؛ لأنه يحبهم ، ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ؛ لأنه في غنى عن كل خلقه .

ويأتى الكلام عن الضر هنا بالمس ، ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ١٠٧ ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك «مسا» و«لمسا» و«إصابة» .

وقوله سبحانه هنا عن الضر يشير إلى مجرد المس ، أى : الضر البسيط ، ولا تقل : إن الضر ما دام صغيراً فالخلق يقدرُون عليه ، فلا أحد

(١) أى : سواء كان ظمناً في القمة - أى : بالإشراك بالله - أو ظمناً في غير القمة بظلم العباد بأخذ حقوقهم والتعدي عليهم .

يقدر على الضر أو النفع ، قلَّ الضرُّ أم كَثُرَ ، وكَثُرَ النفعُ أو قلَّ ، إلا بإذن من الله تعالى .

والحق سبحانه وتعالى يذكر الضرر هنا بالمرس ، أي : أهون الالتصاقات ، ولا يكشفه إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن عظمته - جلَّ وعلا - أنه ذكر مع المرس بالضر ، الكشف عنه ، وهذه هي الرحمة .

ثم يأتي سبحانه بالمقابل ، وهو «الخير» ، وحين يتحدث عنه الحق سبحانه ، يؤكد أنه لا يزده .

ونحن نجد كلمة «يُصِيبُ» في وصف مجيء الخير للإنسان ، فالحق سبحانه يصيب به من يشاء من عباده .

ويُنهي الحق سبحانه وتعالى الآية بهذه النهاية الجميلة في قوله تعالى :

﴿ .. وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾ [يونس]

وهكذا تضح لنا صورة جلال الخير المتجلى على العباد ، ففي الشر جاء به مساً ، ويكشفه ، وفي الخير يصيب به العباد ، ولا يمنعه .

والله تعالى هو الغفور الرحيم ؛ لأنه سبحانه لو عامل الناس - حتى المؤمنين منهم - بما يفعلون لعاقبهم ، ولكنه سبحانه غفور ورحيم ؛ لأن رحمته سبقت غضبه <sup>(١)</sup> ؛ ولذلك نجد سبحانه في آيات النعمة يقول :

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا <sup>(٢)</sup> .. (١٨) ﴾ [النحل]

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه ، فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤) ومسلم (٢٧٥١) .

(٢) الإحصاء : العدد والحصر .

وجاء الحق سبحانه بالشك ، فقال ﴿إِنْ﴾ ولم يقل : «إذا تعدون نعمة الله» ؛ لأن هذا أمر لن يحدث ، كما أن الإقبال على العَدِّ هو مظنة أنه يمكن أن يحصى ؛ فقد تُعدُّ النقود ، وقد يعدُّ الناظر طلاب المدرسة ، لكن أحداً لا يستطيع أن يعدَّ أو يحصى حبات الرمال مثلاً .

وقال الحق سبحانه ونعالى :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا.. (١٨)﴾ [النحل]

وهذا شك في أن تعدوا نعمة الله .

ومن العجيب أن العَدَّ يقتضى التجميع ، والجمع لأشياء كثيرة ، ولكنه سبحانه جاء هنا بكلمة مفردة هي ﴿نِعْمَةٌ﴾ ولم يقل : «نعم» فكان كل نعمة واحدة مطمور فيها نعم شتى .

إذن : فلن نستطيع أن نعدَّ النعم المطمورة في نعمة واحدة .

وجاء الحق سبحانه بذكر عَدِّ النعم في آيتين :

الآية الأولى تقول :

﴿..وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ<sup>(١)</sup> (٣٦)﴾

[إبراهيم]

والآية الثانية تقول :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

(١) ظَلُومٌ : صيغة مبالغة من (الظلم) ، أى : كثير الظلم لنفسه أو لغيره ، أو لهما معاً . وكَفَّارٌ : صيغة مبالغة من (الكفر) ، أى : شديد الكفر ، والكفر فى اللغة : السُّرُّ ، من ستر الشيء إذا أخفاه . فكان الإنسان بعدم شكر الله على النعمة يكون قد كفرها ، أى : سترها وأخفاه ولم يؤدِّ حقها من الذكر والشكر .



وصَدَّرَ الْآيَتَيْنِ وَاحِدًا ، وَلَكِنْ عَجَزَ كُلُّ مِنْهُمَا مُخْتَلَفٌ ، فَفِي الْآيَةِ  
الْأُولَى : ﴿ .. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢٤) [إبراهيم]

وفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [النحل]

لأنَّ النِّعْمَةَ لَهَا مُنْعَمٌ ؛ وَمُنْعَمٌ عَلَيْهِ ، وَالْمُنْعَمُ عَلَيْهِ - بِذَنْوِيهِ - لَا يَسْتَحِقُّ  
النِّعْمَةَ ؛ لِأَنَّهُ ظَلُومٌ وَكَفَّارٌ . وَلَكِنَّ الْمُنْعَمَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى غُفُورٌ وَرَحِيمٌ ،  
فَفِي آيَةٍ جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى جَاءَ مَلْحَظُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ .

وَمِنْ نَاحِيَةِ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ نَجِدُهُ ظَلُومًا كَفَّارًا ؛ لِأَنَّهُ يَأْخُذُ النِّعْمَةَ ،  
وَلَا يَشْكُرُ اللَّهَ عَلَيْهَا .

أَلَمْ تَقُلْ السَّمَاءُ : يَا رَبِّ ! ائْذَنْ لِي أَنْ أَسْقُطَ كِسْفًا عَلَى ابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ  
طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنَعَ شُكْرِكَ .

وَقَالَتِ الْأَرْضُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَنْخَسِفَ بِابْنِ آدَمَ ؛ فَقَدْ طَعِمَ خَيْرِكَ ،  
وَمَنَعَ شُكْرِكَ .

وَقَالَتِ الْجِبَالُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَسْقُطَ عَلَى ابْنِ آدَمَ .

وَقَالَ الْبَحْرُ : ائْذَنْ لِي أَنْ أَغْرِقَ ابْنَ آدَمَ الَّذِي طَعِمَ خَيْرِكَ ، وَمَنَعَ  
شُكْرِكَ .

هَذَا هُوَ الْكُفُورُ الْغَيُورُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يَحَاقِبَ الْإِنْسَانَ ، لَكِنَّ اللَّهَ  
سَبِّحَانَهُ رَبَّ الْجَمِيعِ يَقُولُ : « دَعَوْنِي وَعِبَادِي ، لَوْ خَلَقْتُمُوهُمْ  
لِرَحْمَتِيهِمْ ، إِنْ تَابُوا إِلَى قَانَا حَبِيبِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَيِّبُهُمْ » .

وَيَقُولُ الْحَقُّ سَبِّحَانَهُ بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ  
فَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا  
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨)

إذن : فالحق سبحانه لم يُقصر مع الخلق ، فقد خلق لكم العقول ، وكان  
يكفى أن تفكروا بها لتؤمنوا من غير مجيء رسول ، وكان على هذه العقول  
أن تفكر في القوى الذي خلق الكون كله ، بل هي التي تسعى لتطلب أن  
يرسل لها القوى رسولا بما يطلبه سبحانه من عباده ، فإذا ما جاء رسول  
ليخبرهم أنه رسول من الله ويحمل البلاغ منه ، كان يجب أن تستشرف  
آذانهم لما يقول .

إذن : كان على العباد أن يهتدوا بعقولهم ؛ ولذلك نجد أن الفلاسفة حين  
بحثوا عن المعرفة ، قالوا : إن هناك «فلسفة مادية» تحاول أن تتعرف على  
مادية الكون ، وهناك «فلسفة ميتافيزيقية»<sup>(١)</sup> تبحث عما وراء المادة .

فَمَنْ أَعْلَمَ الْفلاسفة - إذن - أن هناك شيئا وراء المادة .

وكان العقل المجرد ساعية يرى نُظم الكون الدقيقة كان يجب أن يقول :  
إن وراء الكون الواضح المُحسَّ قوة خفية .

ولم يذهب الفلاسفة إلى البحث فيما وراء المادة ، إلا لأنهم أخذوا من

(١) الوكيل : الكفيل الموكل بأمرهم ، والحفيظ الذي يحفظ أفعال الناس . قال سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٧) [ الأنعام ] ، وقد نفى الله سبحانه هذا عن نبيه  
ورسوله محمد ﷺ .

(٢) الفلسفة : لفظ يوناني ومعناه البحث عن الحقيقة . والميتافيزيقا : ما وراء الطبيعة والكون . أي :  
الغيبات التي لا تخضع لقوانين المادة .

المادة أن وراءها شيئاً مستوراً.

والمستور الذي وراء المادة هو الذي يعلن عن نفسه ، فهو أمر لا نعرفه بالعقل .

وقديماً ضربنا مثلاً في ذلك ، وقلنا: هبّ أثنا جالسون في حجرة ، ودقّ جرس الباب ، فعلم كل من في الحجرة أن طارقاً بالباب ، ولم يختلف أحد منهم على تلك الحقيقة .

وهذا ما قاله الفلاسفة حين أقرّوا بوجود قوة وراء المادة ، ولكنهم تجاوزوا مهمتهم ، وأرادوا أن يعرفونا ماهية أو حقيقة هذه القوة ، ولم يلتفتوا إلى الحقيقة البديهية التي تؤكد أن هذه القوة لا يمكن أن تُعرف بالعقل ؛ لأننا ما دُمنا قد عرفنا أن بالباب طارقاً يدق ؛ فنحن لا نقول من هو ، ولا نترك المسألة للظن ، بل نتركه هو الذي يحدد لنا من هو ، وماذا يطلب؟ لأن عليه هو أن يخبر عن نفسه .

اطلبوا منه أن يعلن عن اسمه وصفاته ، وهذه مسائل لا يمكن أن نعرفها بالعقل .

إذن: فخطأ الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقّل أن هناك قوة من وراء المادة ، وأرادوا أن يتفكروا من التعقّل إلى التصور ، والتصورات لا تأتي بالعقل ، بل بالإخبار .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ يَسْأَلُهَا النَّاسُ فَذِهِمُ الْخَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ ۝١٠٨ ﴾ [يونس]

والحق - كما نعلم - هو الشيء الثابت الذي لا يتغير أبداً ، وأن يأتي

الحق من الرب الذى يتولى التربية بعد أن خلق من عدم وأمد من عدم<sup>(١)</sup> ،  
ولا يكلفنا بتكاليف الإيمان إلا بعد البلوغ ، وخلق الكون كله ، وجعلنا  
خلفاء فيه .

هو - إذن - مأمون علينا ، فإذا جاء الحق منه سبحانه وتعالى ، فلماذا  
لا نجعل المنهج من ضمن التربية ؟

لماذا أخذنا تربية المأكل والملبس وسيادة الأجناس ؟

كان يجب - إذن - أن نأخذ من الرئيس - سبحانه وتعالى - المنهج الذى  
ندير به حركة الحياة ؟ فلا نفسدها .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿جَاءَكُمْ الْحَقُّ<sup>(٢)</sup> مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨)﴾

[يونس]

فمعنى ذلك أنه لا عذر لأحد أن يقول : «لم يبلغنى أحدٌ بمراد الله » ،  
فقد ترك الحق سبحانه العقول لتتعقل ، لا أن تتصور .

وجاء التصور للبالغ عن الله تعالى ، حين أرسل الحق سبحانه رسولا  
يقول : أنا رسول من الله ، وهو القوة التى خلقت الكون ، وكان علينا أن  
نقول للرسول بعد أن تصدق معجزته : أهلاً ، فأنت من كنا نبحث عنه ،  
فقل لنا : ماذا تريد القوة العليا أن تبلغنا به ؟

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

(١) العدم والعدم والعدم : فقدان الشيء ، وذهابه . ومثله فى ضبط حروف الكلمة : الرشد والرشد - الخزن  
والخزن . ومثله قوله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَجَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (١٠٩)﴾ [البقرة] . وقوله  
تعالى : ﴿وَمَا آتَانَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا خَشْداً (١٠)﴾ [الكهف] .

(٢) الحق : الأمر الثابت ضد الباطل ، والحق من أسماء الله الحسنى ، والحق القرآن ، والحق العدل  
والصدق والحكمة والبعث وكمال الأمر ، والحق الرافع الثابت الذى لا خلاف فيه ، قال تعالى : ﴿أَلَا  
إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [يونس] ، والحق ما  
وجب عليك لغيرك [القاموس المقوم بتصرف ص ١٦٤ ، ١٦٥] .

## سُورَةُ يُوسُفَ

﴿٦٢٥﴾

[يونس]

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ...﴾ (١٠٨)

لأن حصيلة هدايته لا تعود على مَنْ خلقه وهداه ، بل تعود عليه هو نفسه انسجماً مع الكون ، وإصلاحاً لذات النفس ، وراحة بال ، واطمئناناً ، وانتبهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه ، وهذا الحال عكس ما يعيشه مَنْ ضل عن الهداية .

ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس :

[يونس]

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...﴾ (١٠٨)

وكلمة ﴿ضل﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية ، لكنه ضلَّ عنها .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) [يونس]

وأنت لا توكل إنساناً إلا لأن وقتك لا يسع ، وكذلك قدرتك وعلمك وحركتك ، وهنا يُبلغ الرسول القوم : أنا لا أقدر أن أدفع عنكم الضلال ، أو أجبركم على الهداية ؛ لأنى لست وكيلاً عليكم ، بل على فقط مهمة البلاغ<sup>(١)</sup> عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه بخلاء القلب من غيره ، تهتدوا .

وإذا اهتديتم ؛ فالخير لكم ؛ لأن الجزاء سيكون خلوذاً في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذى ضيق على شهوات النفس ، ولكنه يهدى حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان .

(١) وقد ورد تأكيد هذا في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِن أَعْرَضُوا فَأَعْرِضْنَا عَنْكَ عَلَيْهِمْ حِفْظًا إِنَّ عَلَيْكَ الْبَلَاغَ﴾ (٥٨) [الشورى] . وقال تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٥٢) [النور] . فكل المطلوب من الرسول هو البلاغ رسالته ، وأن يكون هذا البلاغ مبيناً جليلاً واجماً .

وإذا كان الإنسان منّا يقبل أن يتعب ؛ ليتعلّم حرفة أو عملاً أو صنعة أو مهنة ؛ ليكسب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره .

ليس على هذا الإنسان أن يُقبل على العبادة التي تصلح باله ، وتسرع به إلى الغاية انسجاماً مع النفس ، ومع المجتمع ، وتقريباً وتهذيباً لشهوات النفس ، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة .

أما من يستكثر على نفسه الجِدَّ والاجتهاد في تحصيل العلم ، أو تعلّم مهنة أو حرفة ، فهو يحيا في ضيق وعدم ارتقاء ، فهو لا يبذل جهداً في التعلّم .

ونرى مَنْ يتعلّم ويبذل الجهد ، وهو يرتقى في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ؛ ليصل إلى درجة الدكتوراة - مثلاً - أو التخصص الدقيق الذي يأتي له بسعة الرزق .

وكلّما كانت الثمرة التي يريدها الإنسان أينع<sup>(١)</sup> وأطول عمراً كانت الخدمة من أجلها أطول .

وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة ؛ وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعاً ، ولا مقارنة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ ضَلَّ<sup>(٢)</sup> فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ<sup>(٣)</sup> ﴾ [يونس]

(١) أينع : أكثر فصلاً . وأينع : البضج . ومنه قوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام] .

(٢) ضلّ الكافر : غاب عن الحجة المقنعة ، وعدل عن الطريق المستقيم ، ولم يعرف الحق . والضلال : الضياع والضياع . وضلّ الشيء : خفي وغاب فهو فعل لازم . وضلّ المسافرين الطريق مُتَعَدِّ : لم يعرفه . [القاموس القويم ص ٣٩٤ - بتصريف] .

تجد فيه كلمة ﴿عَلَيْهَا﴾ وهي تفيد الاستعلاء على النفس ، أى : أنك بالضلال - والعياذ بالله - تستعلى على نفسك ، وتركب رأسك إلى الهاوية .

وفى المقابل تجد قول الحق سبحانه :

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

وتجد «اللام» هنا تفيد الملك ، لذلك يقال : «فلان له» و«فلان عليه» .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه فى ختام سورة يونس :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ

الْمُخَصِّمِينَ (١٠٩)﴾

وإذا كان الحق سبحانه قد أورد على لسان رسوله ﷺ : ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. (١٠٨)﴾ [يونس]

فهذا يعنى البلاغ بمنهج الله - تعالى - النظرى ، ولا بُدَّ أن يثب الناس فى المنهج ، بأن يكون الرسول هو أول المنفذين للمنهج ، لأنه - معاذ الله - لو غشَّ الناس جميعاً لما غشَّ نفسه .

إذن : فبعد البلاغ<sup>(١)</sup> عن الحق سبحانه ، وتعريف الناس بأن الهداية

(١) البلاغ : اسم مصدر يعنى الكفاية أو الإبلاغ أو التبليغ . قال تعالى : ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ .. (٥٦)﴾ [إبراهيم] وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي هَذَا بَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (٦٦)﴾ [الأنبياء] أى : فيما ذكر من الأخبار والمواعظ .

ومبلغ الشيء : حده ونهايته التى يصل إليها ، أو مقداره الذى ينتهى به . قال تعالى : ﴿فَلْيَكْفُرْ مِنْهُمْ مَنْ

العلم .. (٦٦)﴾ [التجم] [القاموس القوم - يتصرف ٨٣ / ١ ، ٨٤] .

لا يعود نفعها على الحق ، بل هي للإنسان ، فيملك نفسه ؛ ويملك زمام حياته ، فيسير براحة اليال في الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأن الضلال لا يعود إلا باستعلاء الإنسان على نفسه ؛ ليركبها إلى موارد التهلكة .

والرسول ﷺ ليس وكيلاً عنكم ، يأتي لكم بالخير حين لا تعملون خيراً ، ولا يصرف عنكم الشر وأنتم تعملون ما يستوجب الشر .

ولذلك كان على رسول الله ﷺ أن يكون هو النموذج والأسوة :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ <sup>(١)</sup> حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ <sup>(٢)</sup> وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا <sup>(٣)</sup> ﴾ [الأحزاب]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. <sup>(٤)</sup> ﴾ [يونس]

أى : عليك أن تكون الأسوة ، وحين تتبع ما يوحى إليك ؛ ستجد عقبات ممن يعيشون على الفساد ، ولا يرضيهم أن يوجد الإصلاح ، فوطن العزم على أن تتبع ما يوحى إليك ، وأن تصبر .

(١) الأسوة : القدوة ، والمثل الأعلى الذي يقتدى به . ورسول الله ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا . وقد قال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أيضاً : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمُهُمْ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَهُمْ سُوءٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ .. <sup>(٥)</sup> ﴾ [الممتحنة] ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ .. <sup>(٦)</sup> ﴾ [الممتحنة] .

(٢) ورد الرجاء في القرآن على معان عدة :

- منها : الطلب والامل في تحقيق شيء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ .. <sup>(٧)</sup> ﴾ [البقرة] .

- وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا .. <sup>(٨)</sup> ﴾ [النور] .

- منها : الحرف ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ <sup>(٩)</sup> أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ <sup>(١٠)</sup> ﴾ [يونس] .



وليس هناك أعدل ولا أحكم من الله سبحانه وتعالى.

ومعنى الربوبية هو التربية ، وأن يتولى المربي المربي إلى أن يبلغ حد الكمال المرجوة منه.

وقد صدقت هذه القضية في الكون.

إذن : نستمع إلى الرب - سبحانه وتعالى - الذى خلق ، حين يُبين لنا مهمتنا فى الحياة بمنهج تستقيم به حركة الحياة ، ويستقيم أمر الإنسان مع الغاية التى يعرفها قبل أن يخطو أى خطوة .

ومن المحال أن يخلق الله - سبحانه وتعالى - المخلوق ثم يُضَيِّعُه ، بل لا بد أن يضع له قانون صيانة نفسه <sup>(٩)</sup> ؛ لأن كل صنعة إنما يضع قانونها

(١) يقول سبحانه: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل...﴾ [الأحقاف: ٣٥] فالصبر هو اقتداء بالرسول الأعلام، الذين صبروا على إيذاء أقوامهم صبراً تميز عنه قدرات البشر، مثل: نوح وموسى وعيسى وإبراهيم ومحمد ﷺ.

(٢) يقول تعالى : ﴿ أَتَعْجَبُ إِنَّ بُرُكَ تُؤَدِّي ﴾ [القيامة] . قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٥٢) : « الآية نعتُ الخالين . أي : ليس يترك في هذه الدنيا مهملًا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره . سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منه في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة » .

ويحدد الغاية لها مَنْ صنعها ، فإذا ما خالفنا ذلك نكون قد أحلنا <sup>(١)</sup> وغيّرنا الأمور ، وأدخلنا العالم في متاهات ، وصار لكل امرئ غاية ، ولكل امرئ منهج ، ولكل عقل فكر ، ولصار الكون منضارباً ؛ لأن الأهواء مستضارب ، فتضعف قوة الأفراد ؛ لأن الصراع بين الأنداد <sup>(٢)</sup> يضعف قوة الفرد عن معالجة الأمر الذي يجب أن يعالجه .

فأراد الله - سبحانه وتعالى - توحيداً <sup>(٣)</sup> في العقيدة ، وتوحيداً في المنهج .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا مثلاً تطبيقياً في مواكب الرسالات ، فذكر لنا في هذه السورة قصة نوح - عليه السلام - وقصة موسى وهارون - عليهما السلام - وذكر بينهما القصص الأخرى .

ثم ذكر قضية يونس عليه السلام .

ثم ختم السورة بقوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ۖ ۝ (١٩) ﴾ [يونس]

بلاغاً عن الله تعالى .

وما دُمْتَ تَبْلُغُ ، وأمتك أمة محسوبة - إلى قيام الساعة - أنها وارثة

(١) أحلنا الأمور : حولناها وبدلناها لغير ما وضعت له . وفي اللسان : كل شيء تغير عن الاستواء إلى العوج فقد حال واستحال . ويقال : حال الرجل يحول مثل تحول من موضع إلى موضع . (مادة : حول) .

(٢) الأنداد : الأمثال والنظراء .

(٣) الرسالات في جوهرها تيسر بالتوحيد وعليه ربه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ بَشَرْنَا لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وُصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ۝ (١٣) ﴾ [الشورى] .



ليؤكد صدق الأسوة ؛ لأنه ﷺ لو لم يكن بشراً وطلب من الناس أن يفعلوا مثله لقالوا: لن نستطيع لأنك لست مثلاً.

ولذلك نلاحظ أن القرآن يؤكد على بشرية رسول الله ﷺ ، ولكنه ﷺ يزيد عن البشر باصطفاء الله سبحانه له ؛ ليكون رسولاً يوحي إليه ، فمهمته الرسالية الأولى أن يُبلغ هذا الوحي ، والمهمة الثانية أن يؤكد بسلوكه أنه مفتنع بهذا الوحي ويطبقه على نفسه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُمُوءٌ حَسَنَةٌ (٢١)﴾ [الأحزاب]

وكان رسول الله ﷺ من ناحية الثراء أقل الناس مالاً ، وهو غير متكبر ، ولا جبار ، وهو كنموذج سلوكي تتوارن فيه وبه كل الفضائل ؛ فلم يطلب لنفسه شيئاً ، بل إنه منع أقاربه وأهله من حقوق أقرها لغيرهم من المسلمين ، فأقاربه لم يُعطهم الحق في أن يرثوا شيئاً مما يملكه بعد وفاته وقد حرمهم ؛ ليكون كل عمل صادر منه ﷺ أو عن يتسبون بالقرابة إليه هو عمل خالص لوجه الله تعالى .

وهذا السلوك هو عكس سلوك الرئاسات البشرية ، أو السلطات الزمنية ، فهذه الرئاسات أو تلك السلطات تفيض أول ما تفيض على نفسها بالخير ، ثم تفيضه على الدوائر القريبة منها حسب أقطار القرب ؛ فالقريب جداً يأخذ أولاً وكثيراً ، ومن يبعد في القرابة يأخذ الأقل حسب درجة بعده .

(١) الأسوة والاسوة: القدوة. ويقال: اتسب به: أي: اقتدي به وكن مثله. قال الخليل: فلان ياتسب بفلان، أي: يرضى لنفسه بما رضىه ويقتدى به. وقال الهروي: اتسب به: اتبع فعله واقتدى به. [لسان العرب: مادة (أ س ا)].

لكن الذى فى دائرة القرابة مع رسول الله ﷺ لا يأخذ حتى ما يأخذه  
الفقير فى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان الله سبحانه وتعالى يدلنا  
بذلك على أنه من العيب أن يكون الإنسان منسوباً لآل بيت النبوة ، ويكون  
موضعاً لأخذ الزكاة .

إذن : فالاتباع الذى أمر الله تعالى به ، هو اتباع الوحي بلاغاً ، واتباع  
ما يُوحى به تطبيقاً ، ويستلزم هذا مواجهة متاعب كثيرة ، وسيلقى  
عقبات من الجبابرة المتفيعين بالفساد فى الأرض ، فلا بُدَّ أن يصادموا هذه  
الدعوات ، ليحافظوا على سلطتهم الزمنية ، فيأمر الحق سبحانه وتعالى  
رسوله ﷺ بأن يصبر ، وفى الأمر بالصبر إشارة إلى أن الرسول ﷺ مُقبل  
على عقبات فليُبعد نفسه لتحمل هذه العقبات بالصبر<sup>(١)</sup> .

وفى آية أخرى يأمره الحق سبحانه وتعالى أن يصبر ويصابر هو  
والمؤمنون . يقول سبحانه :

﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾<sup>(٢)</sup> . . . [آل عمران]

أى : إن صبرت ، فقد يصبر خصمك أيضاً ، وهنا عليك أن تصابره ،  
وكلمة «اصبر» توضح أن دعاة منهج الحق سبحانه لا بد أن يتعرضوا  
لمتاعب ، وإلا ما كانت هناك ضرورة لأن يجيء ، فلو كان العالم  
مستقيماً الحركة ، فما ضرورة المنهج إذن ؟

(١) وقد كان الحق سبحانه يُمدُّ يده ﷺ لهذا ، من نحو قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَفُوا بِحَلْفِهِمْ أَنْ قُلُوبُهُمْ قَدْ لَبِثَتْ أَعْيُنُهُمْ الْفِتْنَةَ وَفِي السَّاعَةِ يَصْطَرُونَ﴾ [الأنعام] .

(٢) اصبروا على الطاعات والمصائب ، واصبروا عن المعاصي . وصابروا الكفار فلا يكونوا أشدَّ ضيراً  
منكم . ورابطوا أى : جامدوا وأقيموا عليه واستمروا فيه . [تفسير الجلالين : ص ٦٤] . وصيغة «صبر»  
من «فَاعِلٌ» تدل على شدة الفعل والمبالغة فيه ، أى : شدة الصبر والتحمل . والاستمرار عليه حتى  
الوصول للهدف .

ولكن الشهج قد جاء ؛ لأن الفساد قد عمَّ الكون ، ويحتاج إلى إصلاح ، وإلى مواجهة المفسدين ، وهذا ما يرهق الداعين إلى الله تعالى ، وليُوطِن كل داعية نفسه على ذلك ، ما دام قد قام ليدعو إلى منهج الحق سبحانه وتعالى .

وكل داع إلى الله لا يصيبه أذى ، فهذا يُنقص من حفظه في ميراث النبوة ؛ لأن الذي يأتي له الأذى هو الذي يأخذ حظاً من ميراث النبوة ، فالأذى لا يجيء إلا بمقدار خطورة الداعي إلى الله سبحانه على الفساد والمفسدين ، وهم الذين يتجمعون ضده .

ورسول الله ﷺ يقول : «نَضَّرَ<sup>(١)</sup> الله امرأ سمع مقالتي فوعاها<sup>(٢)</sup> وحفظها وبلغها ، فربَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه»<sup>(٣)</sup> .

إذن : فنحن أمة محمد ﷺ قد ورثنا منه البلاغ ، وورثنا منه الأسوة الحسنة :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ  
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١)

[الأحزاب]

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (١٠٩)

[يونس]

هو دليل على أن الوحي يصدد الإنزال ؛ لأن الوحي لم ينزل بالقرآن

(١) التضارة : إشراق الوجه ونوره .

(٢) وعاءها : حفظها ، فكان كالوعاء يصب ما يوضع فيه ، وإن لم يترك تفاصيل ما وعاءه .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦٥٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٣١) من حديث عبيد الله بن مسعود .

دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَقَدْ كَانَ الْوَحْيُ يَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَوَالَ حَيَاتِهِ (١).

وهكذا تكون حياة رسول الله ﷺ هي مقام الاستقبال للوحي .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ...﴾ (١٠٩) [يونس]

يوضح لنا أنه سبحانه قد وضع حداً تؤمل فيه أن الأمر لن يظل صبراً ، وأن القضية ستُحسم من قريب بحكم من الله تعالى .

وكلمة ﴿يَحْكُمُ﴾ توضح أن هناك فريقين ؛ كُلٌّ يدعى أنه على حق ، ثم يأتي مَنْ يفصل في القضية ، والحجة إما الإقرار أو الشهود ، وبطبيعة الحال لن يُقرَّ الكفار بكفرهم ، والشهود قد يكونون عُدولاً ، أو يكونون ممن يُدَارُونَ فسقهم في ظاهر العدالة . فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحاكم ، فهو لا يحتاج إلى شهود ؛ لأنه خير الشاهدين ، والله سبحانه لا يحكم فقط دون قدرة إنفاذ الحكم ، لا بل هو يحكم وينفذ .

إذن : فهو سبحانه قد شهد وحكم ونفذ ، ولا توجد قوة تقف أمام قدرة الله تعالى ، أو تقف أمام حكم الله عز وجل .

ونحن في زماننا نرى القوى وهي تختلف ، فنجد القوى من الدول وقد تسلط على الضعيف ، فبلغا الضعيف إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، ويصدر كل منهما قرارات ، وحتى لو افترضنا عدالة الحكم ، فأين قوة التنفيذ ؟ إنها غير موجودة .

(١) أي : كان ينزل مُتَجَمِّعاً على حسب الأحوال والوقائع ، وهذا جعل القرآن بالنسبة لأصحاب رسول الله ﷺ غُصّاً وطياً ، لأنه ينزل بما يناسب حالهم . ومعلوم أن القرآن له تنزل آخر ، حيث نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا . راجع الإتقان في علوم القرآن (١/١١٦) .

ولكن قدرة الحق الأعلى سبحانه هي قدرة خير الحاكمين ، لأنه هو سبحانه الذي يشهد ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى مَنْ يُدَلِّسَ عليه في الشهادة ؛ لأنك إن عمَّيت على قضاء الأرض ، فلن تعمى على قضاء السماء <sup>(١)</sup> .

وبعد ذلك يحكم الحق سبحانه حكماً لا هوى فيه ؛ لأن آفة الأحكام أن يدخلها الهوى فتميل ، والحق سبحانه لا هوى له ؛ لأنه لا مصلحة له عند العباد ، فهو الخالق عز وجل ، ولن يأخذ مصلحة من مخلوق <sup>(٢)</sup> .

ويطمئنتنا الحق سبحانه على أن رسوله ﷺ أيضاً لا ينطق عن الهوى .

فيقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]

(١) عن ثم سلمة عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإمّا هي قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ لَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِشَيْءٍ وَلَا دِمَازَةٍ وَلَكِنْ يَأْتِيهِ الْقُرْآنُ مِنْكُمْ .. ﴾ [الحج] . قاله تعالى هو الغنى عما سواه ، وقد كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرايبتهم ونضحوا عليها من دمائها . فبين عز وجل أن ما يتاله الله منهم هو القرى وإخلاص القلب لله . (تفسير ابن كثير ٢٢٤/٣ بتصرف) .

(٣) الهوى : هوى النفس ، وإرادتها ومحبتها الشيء ، قال تعالى : ﴿ ... وَتَهَى النَّفْسُ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) ﴾ [التأزيات] أى : منعها عن المعاصي والشهوات ، وإذا تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن [لا مذموماً حتى يثبت بما يخرجها عن معناه كقولهم : هوى حسن ، أو هوى ضالّ للصواب] . أما المراد به في الآية فهو الهوى المذموم . قال تعالى : ﴿ ... فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْبُدُوا (٢٥) ﴾ [النساء] . وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ [ص] . وقال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .. ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْدَ هُدًى مِنَ اللَّهِ .. ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ .. ﴾ [المائدة] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ لَظَّالِمِينَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا اللَّهَ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .. ﴾ [الأنعام] . [لسان العرب : مادة (هوى) - بتصرف] .



أى: اطمئنوا إلى حكمه ؛ لأنه لا ينطق عن هوى فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق إلى حُسن عبادة الخالق سبحانه .

وقد يقول قائل: ولكن الحق - عز وجل - عدل للرسول بعضاً من الأحكام .

ونقول: لقد كان رسول الله ﷺ يجتهد ببشريته فيما لم يُنزل الله فيه حكماً ، وحين يُنزل الله حكماً ، فهو ﷺ ينزل على أمر الله تعالى ، ولم يكن رسول الله ﷺ يحكم حتى فيما اجتهد فيه عن هوى ، بل حكم بما رآه عدلاً ، وحين يُنزل الحق سبحانه وتعالى حكماً مغايراً فهو يبلغ المسلمين ويُعدل من الحكم .

إذن: فالتعديل للحكم هو فمة الأمانة مع البلاغ عن الله سبحانه وتعالى ، ورسول الله ﷺ قد أقبل على الحكم فى أمر لم ينزل فيه حكم من الله ، فهو قد حكم بما عنده من الرأى ، فيبلغ ﷺ الحكم من الله ، والذي عدل له ليس مساوياً له بل هو خالفه .

ثم إن الذى أخبرنا أن الله سبحانه قد عدل له هو النبى ﷺ ، فهل يوجد من يضعف مركز كلمته ، ويبلغ أن الحكم الذى صدر منه قد عدل له ؟

ولكن رسول الله ﷺ الذى استقبل الوحي تحلى بأمانة البلاغ عن الله ، وهو الذى نقل لنا عتاب ربه له <sup>(١)</sup> .

(١) عتابه ربه عن شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الذى جاءه يسمى ليتعلم منه ، فتلهن عنه رسول الله ﷺ بدعوة زعماء قريش للإيمان ، فترلت سورة عبس: ﴿ عبس وتولى ﴾ (١) أن جاءه الأعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) لو يذكر نفعه لأذكرى (٤) أنا من استغنى (٥) فأتت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يغشى (٩) فأتت عنه تلهي (١٠) ﴿ عبس ﴾ . وعبابه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ نساها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تضيي مرضات أزواجك والله غفور رحيم ﴾ (١١) ﴿ التحريم ﴾ .

وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله ، وكان اجتهاد رسول الله ﷺ محصوراً في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله ، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لتجرباً ونجتهد .

وقد بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن فقال : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أفضى بما في كتاب الله . قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ قال : أجتهد رأيي لا ألو<sup>(١)</sup> . قال : وضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup> .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين ؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور<sup>(٣)</sup> ، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية<sup>(٤)</sup> ، ولا هوى له ، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله ، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به ، ولا توجد قوة تحيّر عليه ، ولا يوجد حاكم يقادر

(١) لا ألو : لا أقصر في اجتهادي ويحتمل المسألة . ومنه قولهم : فلان لا يألو خيراً . أي : لا يدعه ولا يزال يفحصه . ويقول سبحانه : ﴿ يَأْتِيهَا الْقَلْبُ مِنْ أَشْرَافٍ لَا تَحِطُوهَا بِظُلْمَةٍ مِنْ ذُنُوبِكُمْ لَا يَأْتِيكُمْ خَبْرًا لََّا ﴾ (آل عمران) أي : لا يفصرون في فسادكم .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) وأبو داود في سننه (٣٥٩٢) والترمذي (١٣٢٧) وقال : ليس إسناده عندي متصل . لا تعرفه إلا من هذا الوجه .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (غافر) . فإله عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هو الرجل يدخل على أهل البيت بينهم ، وفيهم المرأة الحسنة ، أو عمره وبهم المرأة الحسنة فإذا غفلوا خط إليها ، فإذا قطنوا غص بفسره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا نظنوا غص ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) .

(٤) يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَحْمِلُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَلْنَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (عالم الغيوب والشهادة الكبير المتعالي) ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ (الرعد) .

على كل هذا إلا الله سبحانه .

وشاء الحق - عز وجل - أن يكرم المؤمنين الذين يحكمون بين الناس بأن جعل ذاته ضمنية بتفوق الخيرية على الحاكمين .

وواقع الأمر أن هناك بشراً يحكمون غيرهم ، ولكن الحق سبحانه حكم بأنه خيرهم ، فمن الحاكمين مَنْ قد يُدلس<sup>(١)</sup> عليه غيره ، ومن الممكن أن يدخل الهوى في أحكام هؤلاء الحاكمين ، لكنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، ولا يمكن أن يدخل الهوى إلى حكمه ، وأحكامه نافذة بطلاقة قدرته سبحانه ؛ لذلك فهو خير الحاكمين إطلاقاً .

وإذا سمعت جمعاً يدخل الله ذاته مع خلقه فيه ؛ فأعلم أن ذلك إيدان بأن تأخذ من واقع ما تشهد حقيقة مَنْ لا تشهد ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

[المؤمنون]

ويقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾

[الجمعة]

ويقول تعالى :

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾

[الأنبياء]

ويقول تعالى :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾

[التين]

وكلما وجدت جمعاً أدخل الله ذاته مع عباده ممن لهم هذا الوصف ، فهذا يدلُّك على أن الموصوفين معه لهم تلك الصفات المذكورة ، ولكنه

(١) التدليس : الإغفاء والمخادعة بعدم تبين السبب في الشيء . وبت التدليس في الاستاد بأن يحدث المحدث عن شيخه الأكبر بما لم يسمعه منه ، بل سمعه ممن هو دونه في المرتبة .

سبحانه وتعالى أزليٌّ مُطلق الصفات ، وهم أحداث<sup>(١)</sup> وأغيارٌ تتابهم القوة والتغير والضعف .

وتجد الله سبحانه وتعالى وهو يَصِفُ نفسه بأنه :

﴿ .. أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١٤) [المؤمنون]

وكلنا نعلم أن الله سبحانه هو خالق كل شيء من عدم ، ولكن هناك من الخلق مَنْ يخلق شيئاً من موجود ؛ ولذلك فالله سبحانه وتعالى هو أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يصف نفسه بأنه :

﴿ .. خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١) [الجمعة]

والرزق هو ما به يُتَنَفَّع ، وقد يأتي لك وليٌ أمرك بالمأكل والمشرب والملبس ، ويعطيك ما تتنفع به ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الرزق في الكون كله .

ويقول الحق سبحانه واصفاً نفسه :

﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٥٤) [آل عمران]

والإنسان حين يمكر قد يُدَارِي مسألة ، ويغفل عن زكن فيها ، لكن الله تعالى لا يغفل عن شيء .

إذن : فالخيرية في الحكم لها نصيب من طلاقة قدرة الله تعالى ، ونحن عرفنا أن الرسول ﷺ حين حكم في بعض الأحكام وعدلّها له الله سبحانه وتعالى ، لم يكن لله تعالى حكم قبل أن يحكم رسول الله ﷺ .

(١) الأحداث : جميع حوادث ، وهو ما يكون مسبوقاً بالعدم ، ويسمى حدوثاً زمنياً ، وقد يُعبر عن الحدوث بالحاجة إلى التغير ، ويسمى حدوثاً ذاتياً . (التعريفات للجرجاني - ص ٧١) .

ومثال ذلك: قصة زيد بن حارثة<sup>(١)</sup>، وكان مولى أو عبداً لحديجة بنت خويلد<sup>(٢)</sup> رضي الله عنها، وزهبت لسيدتنا رسول الله ﷺ، ثم علم أهله الذين كانوا يبحثون عنه أنه في مكة، وكان قد خطف صغيراً من بلده وبيع في مكة، كعادة العرب في الجاهلية مع الرقيق<sup>(٣)</sup>، فلما علموا بذلك ذهبوا إلى رسول الله ﷺ ليستردوا ابنهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «والله إني لأخيره»، فإن اختاركم فخذوه، وإن اختارني فهو لي. فاختار زيد أن يبقى مع رسول الله ﷺ.

ولم يكن رسول الله بعد ذلك ليفرط فيه؛ فأعطاه شرف النبوة، فأسماه زيد بن محمد<sup>(٤)</sup>.

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل، صحابي، من أقدمهم إسلاماً، كان ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمره عليها، ويحمل له الإمارة في مؤتة، فاستشهد فيها عام ٨ هـ (الأعلام ٥٧/٣).

(٢) هي: زوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل النبوة بـ ٦٥ عاماً، وأول من صلت به ﷺ، كانت مؤمنة، تاجر رسول الله ﷺ بآلها، وكانت خير معين له في رسالته. توفيت سنة عشر من النبوة بعد خروج بني هاشم من الشعب. راجع الإصابة في تمييز الصحابة (٦٠/٨ - ٦٦).

(٣) الرقيق: العبد، وقد سمي العبد رقيقاً لأنهم يرون لما لهم ويدلون ويخضعون. راجع اللسان مادة رفق أو قال الجرجاني في التعريفات (ص ٩٩): فالرق في اللغة: الضعف. ومنه رقة القلب، وفي عرف الفقهاء عبارة عن عجز حكمي شرع في الأصل جزاء عن الكفر. أما إنه عجز فلائله لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما، وأما إنه حكمي فلائله العبد قد يكون أقوى في الأحكام من الحر حسناً.

(٤) وذلك أن حارثة بن شراحيل جاء هو وأخوه كعب عم زيد إلى رسول الله ﷺ بمكة، وذلك قبل الإسلام، فقالا له: يا بن عبد المطلب، يا بن سيد قومه، أقم جيران الله، وتفكوا العاني (الأسير)، وتطعموا الجائع، وقد جئتكم في ابتنا عبدك، فتحسن إلينا في فدائنا، فقال: أو غير ذلك؟ فقالا: وما هو؟ فقال: أدمره وأخيره، فإن اختاركما فليكن، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار علي من اختارني أحداً، فقالا له: قد زدنا على النصف، فدعاه رسول الله ﷺ، فلما جاء قال: من هذان؟ فقال: هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي كعب بن شراحيل، فقال: قد غيرتك إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معي، فقال: بل أقيم معك. فقال له أبو زيد: أنت اختار العبودية على أهلك وأهلك ووليك وقومك؟ فقال: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً، فعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ بيده، وقام به إلى اللأ من قريش فقال: أشهدوا أن هذا ابني وارثا وموروثا. فطابت نفس أبيه عند ذلك، وكان يدعى زيد بن محمد، حتى أنزل الله تعالى: ﴿ادعوهم لأبائهم هو أحسن﴾ (الأحزاب).

وهكذا رأى النبي ﷺ في التنبؤ وسيلة تكريم ، ولكن الله عز وجل يريد أمراً غير هذا ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤١ ﴾ [الأحزاب]

لأن الأبوة بالنبي قد تحدث خلطاً في الأنساب ، فالابن بالنبي له حق الزواج من ابنة من تبناه ، فكيف يمنع عنه هذا الحق ، والابن بالنبي قد تحرم عليه زوجة من تبناه إن رحل عنها أو طلقها .

لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يحفظ للأنساب حقوقها ومستولياتها ، فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۝٤٢ ﴾ [الأحزاب]

ومهمته ﷺ كرسول من الله بالنسبة لكم أفضل من الأبوة لكم .

وقال الحق سبحانه في تعديل حكم النبي :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ ۝٤٣ عِنْدَ اللَّهِ ۝٤٤ ﴾ [الأحزاب]

وهذا ردّ لحكم من رسول الله بتكريم لرسول الله ، فمنا صنعه محمد ﷺ عدلٌ وقسطٌ بعُرف البشر ، لكن حكم الله سبحانه وتعالى هو الأقسط والأعدل ، فيشهى بذلك نسب زيد من محمد ، ويعود إلى نسبه الفعلي «زيد بن حارثة» .

(١) القسط : العدل والحق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بِنَهْمٍ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝١٥٩ ﴾ [المائدة] . أما القاسطون فهم الجاثرون ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥٥ ﴾ [الجن] .

وحتى لا يؤثر هذا الأمر في نفس زيد ، نجد الحق سبحانه وتعالى يكرمه تكريماً لم يكرمه لصحابي غيره ، فهو الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه بالشطرنج والعلم في القرآن ، فقال الحق سبحانه :

﴿ قَلَمًا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا <sup>(٢٧)</sup> ذُوجًا كَهَا .. ﴾ [الأحزاب]

وصار اسم «زيد» كلمة في القرآن تُتلى ويُجهر بها في الصلاة ، فإذا كان قد نفي عنه النسب إلى محمد ﷺ فقد أعطاء ذكرًا ثانياً خالداً في القرآن المحفوظ ، ومنحه بذلك شرفاً كبيراً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس]

يفيد أن حكم الله تعالى أعم من أن يكون حكماً في الدنيا أو الآخرة فقط ، فحكم الله سبحانه في الدنيا نصراً لدين الله ، ومن مات من المؤمنين أو الكفار لهم حكم آخر .

ونختم الله تعالى سورة يونس بهذا الحكم ، وأهدى الله سبحانه كل مؤمن بيونس - كئيب من أنبياء الله تعالى - قضية عندما ذهب مغاضباً ، قال فيه الحق سبحانه :

﴿ وَذَا النُّونِ <sup>(٢٨)</sup> إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء]

وأهداه الحق سبحانه وشاماً بقوله :

(١) الوطر : قال الليث : الوطر كل حاجة كان لصاحبها فيها حاجة ، فهي وطره ، وجمع الوطر : أوطار . وقال الزجاج : الوطر والأرب في اللغة بمعنى واحد . وقال الخليل بن أحمد : الوطر كل حاجة يكون لك فيها حاجة ، فإذا بلغها البالغ قيل : قضى وطره وأربه . (لسان العرب : مادة (وطر) ) .  
(٢) النون : الحوت . وذا النون : لقب يونس بن متى عليه السلام . أي : صاحب الحوت ، وهو الحوت الذي ابتلع يونس عليه السلام بعد إلقائه في البحر .

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

وأشركنا الحق سبحانه وتعالى في هذا الوسام بقوله تعالى :

﴿ .. وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أسدى<sup>(١)</sup> إلينا سيدنا يونس جميلاً كبيراً ، حين هداه الله إلى قوله :

﴿ .. لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧ ﴾ [الأنبياء]

واستجاب الله تعالى لدعائه ، وأنجاه من الغم ، وهو أعنف جتود الله ؛ لأن الشيء الذي يضايقك هو الذي لا تستطيع له دفعاً .

ولذلك يقال : إن العدو كلما لطّف<sup>(٢)</sup> عُنْفَ ؛ لأن العدو إن كان ضخماً الحجم ، تكون الرقاية منه أسهل من العدو الصغير سريع الحركة ، فإن كان العدو ضخماً ، فالإنسان يرى ضخامته من على البعد ، فيجبري منه الإنسان أو يختبئ ، لكن إن كان العدو ثعباناً رفيعاً - مثلاً - فقد لا يراه الإنسان ، وقد لا يستطيع الفرار منه ، وإن كان ميكروباً أو فيروساً لا يرى بالعين المجردة ؛ فهو أعنفُ قدرة وقوة في مهاجمة الإنسان .

إذن : كل مُتَعَبٍ في الدنيا من الممكن أن تحتاط منه إلا ما يتلصص عليك بدقة ولطّف ؛ فإِنَّكَ لا تعرف مدخله .

ونحن نسمع أن فلاناً قد أصيب بمرض ما ، لأنه أخذ عدوى من فيروس ما ، هذا الإنسان لا يعرف متى اخترق الفيروس جسده ، لكنه فوجيء

(١) غم الشيء بقمه غمّاً : أخفاه وغطّاه وستره .

وغمّه الأمر : أجزّاه .

قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۖ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء]

والغمة : التباس الأمر وعدم وضوحه ، قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ۖ ۝٨٨ ﴾ [يونس]

[القاموس القويم - ٢ / ص ٦٠ ، ٦١ بتصرف]

(٢) أسدى : أعطى ، وأعدى . [لسان العرب : مادة (س د ي)] .

(٣) لطف الشيء : يلطّف : صَغُرَ . [لسان العرب : مادة (ل ط ف)] .



بأعراض المرض تظهر عليه بعد كمون<sup>(١)</sup> الفيروس في جسده لأسبوعين ،  
وهكذا نجد أن العدو كلما لطف عُنْفًا .

والغمُّ من أشد وأقسى أنواع البلاء ، وكلنا نعرف قصة الإمام علي -  
كرم الله وجهه - وهو المشهور بالفتيا<sup>(٢)</sup> ، وكان الناس يستفتونه فيما  
يعجزون عن العُشور على حل له ، واجتمع بعض من الناس وقالوا: نريد  
أن نجتمع بعض الأشياء الصعبة ونسأله عنها لنختبره ، فلما اجتمعوا قالوا  
لعلِّي كرم الله وجهه: نريد أن نستعرض كون الله تعالى ، فقد جلسنا معاً  
لتعرف أقوى ما خلق الله ، واختلفنا فقال كل واحد اسم القوة على حَسَبِ  
ما يراها .

لم يتروَّ على بن أبي طالب ، ولم يَقُلْ كلاماً مَسْرُوداً<sup>(٣)</sup> بحيث إن  
وقف ، لا يطالبه أحد بزيادة ، بل حدَّد من الجملة الأولى عدد القوى  
حسب ترتيبها وقوتها ، حتى تطابق العدد على المحدود ، وهذا دليل على  
أنه مُسْتَحْضِرٌ للقضية استحضار الائق . وفرد أصابع يديه وقال:

أشدُّ جنود الله عشرة: الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار  
تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض

(١) الكمون: الاختفاء والاستتار . ومنه: الكمين في الحرب . وحزن مكتمن في القلب: مُخْضَبٌ .  
[اللسان: مادة كمن] .

(٢) الفتيا: تبين المشكل من الأحكام ، أصله من الفتى ، وهو الشاب الحديث (الحديث السن) الذي شبَّ  
وقوى ، فكانه يقوى ما أشكل ببيانه فيشب ويصير فتياً قوياً . وأفتى المفتي إذا أحدث حكماً . وأفتاه في  
الأمر: أبانه له . وأفتى الرجل في المسألة . واستفتيته فيها فأفتاني إفتاء . قال تعالى: ﴿ فاستفتهم نعم أشدَّ  
خلفاً .. ﴾ (١٦٦) [الصافات] وقال تعالى: ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم .. ﴾ (١٧٣) [النساء] أي: يسألونك .  
وقال تعالى: ﴿ .. ففتى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ (١٦) [يوسف] ، وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ:  
﴿ قالت يأتياها الصلا أقوي في أمرى .. ﴾ (٢٥) [النمل] . [لسان العرب: مادة افت ي] - بتصرف .

(٣) الكلام للمسرد: الكلام المتتابع ، بعضه إثر بعض ، بحيث لا يدرك السامع أوله من آخره ، فلا يستطيع  
أن يترك شيئاً على التكلم ، أو يحفظ منه شيئاً .

يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح ، يستشتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، واللهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله - سبحانه - اللهم .

هكذا قال سيدنا علي بن أبي طالب ، فالهم والغم من أشد جنود الله تعالى ، وكان سيدنا يونس عليه السلام سبياً في أن قدم الله سبحانه لكل مؤمن به إلهي أنه تقوم الساعة منجى من الهم والغم بالدعاء الذي ألهمه ليونس عليه السلام في قوله تعالى :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء]

وهكذا تعبدت «النجاة من الغم» من الخصوصية إلى العمومية ، وقد أخذها جعفر الصادق - رضى الله عنه - وجعل منها «تذكرة طيبة» للمؤمن حتى يستقبل أحداث الحياة كلها ، في كل جوانبها المفزعة ؛ لأن الإنسان يهدده الخوف مما يعلم .

أما الهم فلا يعرف الإنسان فيه سبب الخطر ، ولا يعلم الإنسان مكر الناس به ؛ لأن الإنسان لا يعلم ماذا يبتوا له .

وشغل الإنسان بأمر الدنيا وأن يكون متعمماً ومرفهاً في كل أمور الحياة ، يجعله عرضة للهموم .

وكان سيدنا جعفر الصادق <sup>(١)</sup> له بصر وبصيرة بآيات القرآن ومتعلقاتها ، فقال : «عجبت لمن خاف ولم يفرع إلى قول الحق سبحانه :

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران]

(١) هو : جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ، أبو غيد الله ، كان مشغولاً بالعبادة عن حب الرئاسة ، روى عنه شعبة والثوري ومالك . توفي بالمدينة عام ١٤٨ هـ .

## سُورَةُ الْاَنْعَامِ

﴿٦٢٨﴾

ولا يتعجب لمن يخيفه شيء إلا إذا كان عند المتعجب شيء يزيل الخوف .

فمن عنده صدىع يمكنه أن يعالجه بالأسبرين ، أما الخوف فقد وصف  
سيدنا جعفر دواءه ، يقول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (١٧٣)

[آل عمران]

فذلك هو الدرع من كل خوف .

ويقدم جعفر الصادق لئله السبب فيقول : لأن الله سبحانه قال عقبها :

﴿ فَانْقَلِبُوا "بِنِعْمَةِ" مِنْ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَنْسَهُمْ سُوءُ... ﴾ (١٧٤)

[آل عمران]

أى : ألقى سيدنا جعفر أهداء بالحيشية من نفس القرآن ، وأضاف جعفر  
الصادق : «وعجبت لمن أهتم» - وهو الموضوع الذى نبهته الآن - ولم يفرع  
إلى قول الله سبحانه :

﴿ ...لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧)

[الأنبياء]

فإني سمعته الله تعالى بعقبها يقول :

﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨)

[الأنبياء]

وعجبت لمن مكر به كيف لا يفرع إلى قول الله سبحانه :

﴿ .. وَأَقْرَضُ أَمرى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِبَصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ (٩٤)

[غانر]

لأنى سمعت الله تعالى بعقبها يقول :

(١) انقلبوا : رجعوا . أى : أنهم لما تركوا على الله كفاهم ما أمّنهم ورد عنهم بأس من أرادوا كيدهم ،  
فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم ينسهم سوء مما أضمر لهم عيودهم . (ابن كثير ٢ / ٤٣١) .

﴿فَرَقَاهُ﴾ (١) اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَخَاقٍ (٢) بِأَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٣٥) ﴿

[غافر]

وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرع إلى قول الله سبحانه:

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ..﴾ (٣٩) ﴿[الكهف]

لأنى سمعت الله تعالى يعقبا يقول:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حَبَابًا مِّنَ السَّمَاءِ  
فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠) ﴿[الكهف]

وهكذا وجد جعفر الصادق رضي الله عنه في كتاب الله أربع آيات لأربع  
حالات نفسية تصيب البشر ، وجاء مع كل حالة دليلها من القرآن الكريم .

وقول الحق سبحانه وتعالى في آخر سورة يونس:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ..﴾ (١٠٩) ﴿[يونس]

مناسب لقوله سبحانه في الآية الأولى من السورة التي تليها:

﴿الرَّ كِتَابٍ أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) ﴿[هود]

لأن الوحي كتاب أحكمت آياته حقاً وصدقاً.

(١) وفاه الله وقياً ووقاية وواقية: صانه . ووقيت الشيء إذا صنته وسبرته عن الأذى . ووقاه ما يكره : حماه  
بني . وقال تعالى : ﴿فَرَقَاهُمُ اللَّهُ عَشْرَ ذَلِكِ الْيَوْمِ ..﴾ (٣٥) [الإنسان] وقال تعالى : ﴿وَمِنْ نَحْوِ السَّيِّئَاتِ  
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ (٤١) [غافر] [لسان العرب : مادة (وق ي ق) ] .

(٢) خاق : أحاط . والحق : الإحاطة بالشيء . والإحاطة المحيط به المستدير حوله . قال الليث : الحق ما خاق  
بالإنسان من مكر أو سوء عمل يعمل به ، فيزل ذلك به . وقيل : الحق في اللغة هو أن يشتمل على  
الإنسان عاقبة مكرهة فعله . وقال الزجاج : خاق بهم العذاب أي : أحاط بهم جزاء ما كانوا  
يسهون ، كما تقول : أحاط بفلان عمله وأهلكه كسبه ، أي : أهلكه جزاء كسبه . قال تعالى :  
﴿فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤٣) [غافر] . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَحِثُّ  
الْمُكْرَ السَّيِّئَ إِلَّا بِأَعْلَاهُ ..﴾ (٤٤) [فاطر] . [لسان العرب : مادة (ح و ق ي ح ي ق) ] .

# سُورَةُ هُودٍ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبدأ سورة هود <sup>(١)</sup> بقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الرَّكُوبُ أَهْلَكْتُمْ آيَةً ثُمَّ فَضَّلَتْ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَيْرٌ ۝١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التي تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى : أن كل حرف من تلك الحروف يُنطق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه .

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف .

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول :

(١) سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب سور القرآن ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وغيرهما . وقال ابن عباس وقشادة : (لا آية ، وهي قوله تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْبُحَارِ﴾ [هود] . وعدد آياتها (١٢٣) آية .

سميت باسم نبي الله هود عليه السلام ، الذي أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبي هود مراراً . وذكر في سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفي الأعراف آية ٦٥ .

قال عنها رسول الله ﷺ : «شبيبتى هود وأخواتها : الواقعة ، وهم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٥٨/١) .

قال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في «تراجم الأصول» : فالفرع يورث الشيب ، وذلك أن الفرع ينهل النفس فينشف وطوية الجسد وتحث كل شعرة منبه ، ومنه يعرق ، فإذا نشف الفرع رطوبته يست المنابع فيس الشعر فايض ، كما ترى الزرع الأخضر يسقاه ، فإذا ذهب سقاؤه يس فايض . فالنفس تنهل بوعيد الله ، وأحوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتشرب ، وينشف ماها ذلك الوعيد والهول الذي جاء به ، فمنه شيب .

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حل بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل البغين إذا تلواها تراهي على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفرع لحق لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم في تلك الأحيان حتى يقرءوا كلامه . نقله القرطبي في تفسيره (٣٣١٩/٤) .

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الْم ١﴾<sup>(١)</sup> [البقرة]

إذن : فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه :

﴿الْم تَشْرَحُ<sup>(٢)</sup> لَكَ صَدْرَكَ ١﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف . . لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرأناً إلا إذا سمعت قرأناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف .

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى : أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ .

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارئ للقرآن .

ونقول لهم : إن القرآن ليس كتاباً عادياً تقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فبِرة نطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف .

وقول الحق سبحانه : ﴿الْم﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلاحظ أنه من العجيب فى فوائج السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنًى على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصَل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه :

(١) ﴿الْم﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . ونحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسَّعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضيق والهم . والمراد : أرضيتك وسررتك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أو هما معاً . [الغاموس القرم] .



﴿مُدَاهَمَتَانِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ  
نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴿[الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على  
الوصل .

وفي آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لتطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك  
تقرأ منصوباً بالفتحة . وهي موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم) .

ومن العجيب أن فوائج السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على  
الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول : «ألف لام ميم» بل  
نقول : «ألف لام ميم» .

وكذلك نقرأ في أول سورة مريم «كاف هاء ياء عين صا» ، ولا نقرأ  
الحروف بتشكيلها الإعرابي ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها .

وفي القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿حَٰمٍ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه :

(١) مداهمتان : استوداوان من شدة انخسرتيهما وكثرة الظلال وهذا كتابة من النعيم التام (وهو وصف

للجنة اللتين ورد ذكرهما في قول الله تعالى في آية : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ﴾ ﴿٦٦﴾ [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردتها : إلى أو إلى (بكسر الهمزة ، وفتحها ) قال تعالى : ﴿... فَذُكُّرُوا آلَاءَ اللَّهِ

تِلْكَمُ نِعْمَتُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [النجم] . [القاموس

القوم - بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوأتان بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤها غزيراً ، ونضاجة : حبيضة مبالغه تدل على

الكثرة : [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القويم] بتصرف .

[ق]

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾

وقول الحق سبحانه :

[القلم]

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾

ونلاحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿حَم (١)﴾<sup>(١)</sup> [الشورى]

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه :

﴿عَسَى (٢)﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿كَلَيْتُمْ (١)﴾ [برم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه : ﴿طه (١)﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق : ﴿يس (١)﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً : ﴿القصص (١)﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿طسم (١)﴾ [النمل] كآية .

وتجد أيضاً ﴿الزمر (١)﴾ [الزمر] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل : ﴿طس (١)﴾ ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

(١) يسطرون : يكتبون ، من سطر الكتاب أى : جعله سطوراً .

(٢) ﴿حَم﴾ : ذكرت في افتتاح سبع سور هي : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجمانية ، والأحزاب . وحسب آية مستقلة - والله أعلم بمكانها : [القاموس المبرور] . وتسمى الحواميم .

## سورة هود

﴿١٢٨٩﴾

إذن : فالمسألة لا نسق لها ، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف  
حكمة ، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة ، فننظرن إلى  
عبر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسنة ، ويجد الدليل على صدق  
الله تعالى فيما لم نعلم .

ومثال ذلك : حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة  
مفتاحاً ، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدة ، ولكن فى كل طابق  
من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح»  
وهو يفتح كل غرف الطابق ، وقد صنعوا ذلك ؛ حتى لا يفتح كل نزيل  
غرفة الآخر .

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية ، ما إن  
يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى يفتح الباب ، وكل  
غرفة لها بطاقة معينة ، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة  
واحدة ، تفتح كل غرف الطابق .

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح ، وكل حرف فى  
هذه الفواتح قد يشبه المفتاح ، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى  
تفتح باب الغرفة ؛ فلن تفتح لك السورة .

إذن : فكتاب الله له مفاتيح ، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية ،  
أو نقرأها كجزء من آية .

وتقول من قبل القراءة : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» <sup>(١)</sup> لتخلص  
نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن ، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل  
قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿التم﴾ (١) .

(١) قال عز وجل : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستمع له به من الشيطان الرجيم﴾ (٥٥) [النحل] ، عن عطاء قال :  
الاستماع واجب لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٦٥) طبعة دار  
الفكر ، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر .

فيُفْتَحُ لَكَ بابُ القراءة .

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك قانِخاً .

ونخذ فوائخ السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الر﴾ وهي مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿آلَم﴾ ، وقد وردت في خمس سور من القرآن الكريم هي : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر .

ولكن ﴿آلَم﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا في مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كآية .

وأيضاً (آلَمص) هي أربعة حروف تقرأها آية في سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف في أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية في سورة الأعراف .

إذن : فليس هناك قانون لهذه الحروف التي في أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد<sup>(١)</sup> ، لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده » .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ۖ﴾ (١)

[هود]

(١) قال السيوطي في «الإنقان في علوم القرآن» (٢/٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى . عن عامر الشعبي : أنه سئل عن فوائخ السور فقال : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فوائخ السور» .

قال ابن كثير في تفسيره (١/٢٧) : «مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور يحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي : أ ل م ص ن ك ه ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك : نص حكيم فاطع له سر» .



وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۖ ۝١ ﴾ [هود]

ومادة الحياء والكفاف والميم<sup>(١)</sup> تدل على أمر مُحسَّن وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار .

ولا بد من توازن هندسى لكل فتحة فى البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التى فى البناء متوازية على خط واحد ؛ فتحدث شروخ فى الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء فى عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۖ ۝١ ﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام<sup>(٢)</sup> ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرت إلى أن القرآن الكريم فى اللوح المحفوظ ستنجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التى تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه فى القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

(١) أحكم الأمر: أتقنه . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعَلِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۖ ۝٢٥ ﴾ [الحج] ، أى : يبينها ويجعلها متقنة متقنة محكمة ، وآيات محكمة ؛ متقنة مقننة واضحة ، وقيل : محكمة غير مشروخة أو محكمة غير مشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ ۝٧٧ ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُّحْكَمَةٍ ۖ ۝٦ ﴾ [محمد] ، أى : متقنة . [القاموس القويم] .

(٢) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٢٣٢١) : فأحسن ما قبل فى معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ۖ ۝٢٥ ﴾ [هود] قول قتادة : أى : جعلت محكمة كلها لا تخل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أى : نظمت نظاماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل .

إذن : فالقرآن قد أحكم أولاً ، ثم قُصِّل<sup>(١)</sup> .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ . . (١١) ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة في القرآن هي السور ، والفواصل الصغيرة هي الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذي جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هي مجموعة من الآيات .

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحكم وقُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى .

وحين تنظر إليه تجدته متوَّعاً ، فمرة يتكلم في العقيدة وقممتها ، ومرة يتكلم في النبوة وموكبها الرسالي ، والمعجزات ، ومرة يتكلم في الأحكام ، ومرة يتكلم في القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات . ومرة يتكلم في علم الفرائض<sup>(٢)</sup> .

إذن : فهو مفصل في اللفظ أو في المعنى ، وهو يتناول معاني كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة في الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدنى التفاصيل .

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم قُصِّل حسب الحوادث ، وهذا أدعى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه .

(١) قُصِّل الشيء : جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى : ﴿ ... وَكُلُّ شَيْءٍ فُصِّلَتْ تَفْصِيلًا (١٦) ﴾ [الإسراء] . وقال تعالى : ﴿ آيَاتٌ مُفَصَّلَاتٌ . . (٣٧) ﴾ [الأعراف] أي : معجزات مبينات واضحة ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ مُفَصَّلٍ عَلَى عِلْمٍ . . (٤٧) ﴾ [الأعراف] .

(٢) الفرائض المعنى بها علم الميراث ، أخذاً بما فرغه الله لكل واحد من أصحاب الفروض .

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتي فيها بكل الأدوية ، لكن إن أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها . أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن : فنزل القرآن منجماً شاء الحق - سبحانه - لتتبعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ<sup>(١)</sup> لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ<sup>(٢)</sup> وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا<sup>(٣)</sup>﴾ (١٠٦)

[الاسراء]

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين : قرآنه ، فرقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه : فصلناه من الملح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً مشجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس .

- وعلى القراءة الثانية فمعناه : أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً ، قاله ابن عباس أيضاً . ولهذا قال : ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ (١٠٦) أي : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم : ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أي : مهين . ﴿وَقَرَأْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أي : شيئاً بعد شيء ، تفسير ابن كثير (٦٨/٣) .

(٢) مكث : أقام في مكانه ، وتفيد الثبات وعدم العجلة . وقوله تعالى : ﴿لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ (١٠٦) [الاسراء] أي : على مهل وثبات بغير عجلة في أزمة متطاولة . وقال تعالى : ﴿فَمَكْثَ غَيْرِ بَعِيدٍ﴾ فقال أحطت بما تم تحط به .. (١١) [النمل] أي : استمر الهلهد في غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا كُنْهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (١٧) [الرعد] أي : يفي مدة طويلة فيها فيزيدها خصياً . وقال تعالى : ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ (١٠) [طه] أي : أقيموا في مكانكم منتظرين . [القاموس القويم] .



﴿لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ (٣٢) [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿...كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُتَجَمِّعاً<sup>(١)</sup> على الرسول ﷺ ، ليكون في كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ في المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده في حاجة إلى تثبيات متعددة حسب الأحداث التي تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿...كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (٣٢) [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التي جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق في هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التي

(١) مُتَجَمِّعاً : مفرقاً ؛ لأن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبي ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرين سنة . [السان العرب ، مادة : نجم] فنزل القرآن كان متجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقوم العبادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة في المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً : أنزلناه مرتلاً منسقاً مجزأً أحسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور في اللسان : «أي : أنزلناه على الترتيل ، وهو ضد العجلة والتعكث فيه» .

جاءت في القرآن: ﴿يسألونك عن﴾<sup>(١)</sup>.

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة ، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فينزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.. (٢٦) ﴿[البقرة].

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف ركب الحق سبحانه في هذا الكائن الضئيل - البعوضة<sup>(٢)</sup> - كل أجزاء الكائن الحي ؛ من محل الغذاء إلى قدرة الهضم ، إلى محل التنفس ، إلى محل الدم ، إلى محل الأعصاب . وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة ؛ لأن عظمة الصنعة تكون في أمرين : إما ضخامة الشيء المصنوع ، وإما أن يكون الشيء المصنوع تحت إدراك الحس .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفيين حين صنعوا ساعة «بيج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة ، ودقة أدائها ، وحين صنع الفيين في «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً في حجمها ، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة .

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى في صناعة الشيء الكبير في الحجم ، أو صناعة الشيء الدقيق جداً ؛ فما بالنا بخالق الكون كله ، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه .

(١) قال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهل قل هي موافقت للناس والنبي .. (١٨٩)﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قل فيه قل قال فيه خير .. (١٨٩)﴾ [البقرة] . وقال تعالى: ﴿يسألونك عن النهر والنبي قل فيهما اسم خير .. (١٨٩)﴾ [البقرة] . وقد وردت في القرآن ١٥ آية تبدأ بـ (يسألونك) .

(٢) البعوضة : حشرة صغيرة طائفة لها جناحان دقيقان ، وخرطوم تستقي به الدم ، فهي حشرة لاسعة ضارة ، وهي أنواع كثيرة جداً ، من ما ينقل أمراضاً مهلكة .

[الحج]

[الطيف]

(٣) الإحكام والحكمة في الشيء قدوة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل الوزن وإقامة العدل ، فالإحكام أساس ، والتفصيل بناء ، وهما متلازمان فلازم الحكم مع خيرة الإحلاق .

أحكم ، وهو سبحانه الذى فصل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب  
الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .  
وهو سبحانه حكيم يخلق الشيء مُحْكَمًا لا يتطرق إليه فساد ، وهو  
سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٠٣)  
[الأنعام]

فأله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن  
أدق شئ وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الرِّيبَ كِتَابٍ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١)  
[مرد]

يبيّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذى بُنى على الإحكام ، ونزل  
مُحْكَمًا جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا  
نجومًا مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هى الغاية من المنهج كله ، وبيئتها  
الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكَرِهُنَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٢)

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأنبر : اللطيف هو  
الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان  
مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذي لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل من عبد الصنم تلقى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل من عبد الشمس تلقى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن : فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هي عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها .

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢)

[هود]

غير قوله سبحانه :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴾ (٧٢)

[المائدة]

ولو أن الرسل تأتي الناس وهم غير ملتزمين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴾ (٥٩)

[الاعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢)

[هود]

فكانه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن ينهي هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله .

إذن : فهنا نفي وإثبات ، مثل قولنا : «أشهد ألا إله إلا الله» ، هنا نفي أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، وثبت الألوهية لله سبحانه .

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وجد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بالوهمية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن تقول هذه الشهادة<sup>(١)</sup> .

ولكن قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [مرد]

معناه النفي أولاً للباطل ، وإذا نفي الباطل لا بد أن يأتي إثبات الحق ، حتى يكون كل شيء قائماً على أساس سليم .

ولذلك يقال : «درء»<sup>(٣)</sup> المفسدة مقدّم دائماً على جلب المنفعة» فالبدائية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجه العبادة إلى الله سبحانه .

وما دامت العبادة هي طاعة الأمر ، وطاعة النهي ، فهي - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى .

وإن نظرت إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل قضية الحياة من قيمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إمطة<sup>(٤)</sup> الأذى عن الطريق<sup>(٥)</sup> .

وكل حركة تنظيها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة .

(١) لأن الشهادة تكون في قضية وعلى قضية ، فالذي يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضي ذلك ، فهذا إحكام في الميثاق والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ .. ﴾ (٢) [مرد] فقد عَصِر العبادة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير .

(٢) درء : دفع وإبعاد . قال تعالى : ﴿ وَيَهْرَأْ عَنْهَا الْعُقَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ تَبْعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ .. ﴾ (٣) [التور] أي : ويدفع عنها عذاب أخذ أن تشهد هذه الشهادات ، وبشيء الحكم في سورة التور في الآيتين رقمي (٨ ، ٩) . [الفاموس القويم] .

(٣) إمطة الأذى عن الطريق : تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم . والأذى لئذ يكون أحجاراً أو أي شيء قد يؤذي الناس ويعوق سيرهم في الطريق .

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان» . أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٩) دون : أفضلها ، وأدناها .

(١) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

وَالْعَوَّلُ<sup>(١)</sup>، والرَدُ<sup>(٢)</sup>؛ لأنَّ المسلم قد غمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً في قضية التوريث، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم، وغير ذلك.

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه، نقول له: أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فإذهب إلى المختصين بهذا العلم، وهم أهل الفقه والفتوى، لأنك حين تعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب، وحين تعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب، فإن تعرضت إلى أمر ديني، فأنت تسأل عنه أهل الذكور<sup>(٣)</sup>.

وأنت إذا نظرت إلى العبادة، تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت: هَبْ أَنْ إِنْسَانًا يَصَلِّي، ولا يفعل شيئاً في الحياة غير الصلاة، فمن أين له أن يشتري ثوباً يستربه عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة، وهو إن أراد أن يشتري ثوباً، فلا بد له من عمل يأخذ بمقابلته أجراً، ويشتري الثوب من تاجر التجزئة، الذي يشتري الأثواب من تاجر الجملة، وتاجر الجملة اشترى من المصنع،

(١) العَوَّلُ في اللغة: الارتفاع. وعند الفقهاء: زيادة في سهام ذوي الفروض، وتقضيان من مقادير أنصبتهم في الإرث. وهي مسألة تظهر عند حساب الأنصبة، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة في جانب والتقضيان في جانب.

(٢) الرَدُ: أي: رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم، عند عدم استحقاق الغير، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة:

١- وجود صاحب الفرض.

٢- بقاء الفائض من التركة.

٣- عدم العاصب.

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها في كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق، وغيره من كتب الفقه.

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء].



في الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل : الدين للجميع ، نقول : صدقت بمعنى الدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة <sup>(١)</sup> .

وأهل الذكر أيضاً في العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراستهم ، كما في الطب أو الهندسة أو غيرها ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذى يصلح أسس إقامة الناس في الحياة ، وهو التفقه في الدين .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ لَا تَقْرَءُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) [التوبة]

فتحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المساورث ليعرف العصبية <sup>(٢)</sup> وأصحاب الفروض <sup>(٣)</sup> ، وأولى الأرحام <sup>(٤)</sup> ،

(١) التفقه : الفهم ، وقفه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً ، والتفقه في الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَّيْسَ الْبِرُّ بِالْكَثْرِ فِي الْقُرْآنِ لَكُنْ بِرًّا بِوَلَدَيْكَ وَبِالْإِثْمَانِ ﴾ [النساء] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَقْرَءُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴾ (١٢٢) [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتفقهوا ، [القاموس القويم - بصرف] .

(٢) العصبية : هم بنو الرجل وقرباته لأبيه . والمقصود بهم في الموارث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباهم المقدرة لهم . وأملاكهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شيء بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب القرض الذى فرضه الله له .

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى : نصيب - وهم اثنا عشر : أربعة من الذكور ، وهم : الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج . وثلاث من الإناث ، وهن : الزوجة ، واليتيم ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبنات الابن ، والأم ، والجدلة الصحيحة وإن علّت ، ولكل منهم نصيب مقرر ذكره القرآن الكريم .

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبية . ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات .

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز<sup>(١)</sup> شعر الأغنام .

وهكذا نجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة في صلاتك ، هذا السر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ماذا أفطرت اليوم ؟

وأقل إجابة هي : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التي جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن في مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقي الصالح للتصنيع .

وهكذا نجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل : « سأنقطع للعبادة » بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هي عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة . وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى .

(١) جز الشعر والصوف : قصه .

إذن: فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء «افعل» و «لا تفعل»<sup>(١)</sup>.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ<sup>(٢)</sup> وَبَشِيرٌ<sup>(٣)</sup>﴾ [هود]

والنذير<sup>(٤)</sup>: هو من يُخبر بشرٍّ زَمَنه لم يَجِءَ ، لتكون هناك فرصة لتلافي العمل الذي يوقع في الشر ، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتي إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير.

إذن: الإنذار والبشارة هي أخبار تتعلق بأمر لم يَجِءَ .

وفي الإنذار تخويف ونوع من التعليم ، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجَدِّدًا في دراسته ؛ تقول له: إن لم تذكر فسوف تكون كابن فلان الذي أصبح صعلوكًا تافهًا في الحياة.

(١) الفعل: أمر من الأمر وهو الله . ولا تفعل: نهي من الله . والأمر يعطى القرض والسنة والمستحب . والنهي يعطى الحرام ، والمكروه المكروه عنه مباح ، هذا هو التكليف الشرعي ، وهو مبدأ الاختيار ، وهذا التكليف الشرعي يتدرج تحت الأمر بفعل الخير ، سواء كان تعبدياً أو معاشياً ، ومن هنا نعتقد بموازن العدل الاجتماعي .

(٢) النذير: الذي ينذر الكافرين والمشركين والمعصاة بعذاب الله . وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنُنَادِيكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِبَشِيرَيْنِ وَنَذِيرَيْنِ...﴾ [البقرة].

(٣) البشير: الذي يبشر القوم بالخير البار ، وهو هنا يعني الرسول الذي يبشر المؤمنين بنواب الله وبعثه جزاء على إيمانهم وعبادتهم . قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بُشِّرْنَاهُ بِأَنَّكَ لَبَشِيرٌ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِيرٌ لَهُ قَوْمًا لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم] . أي: قوماً شديدي الخصومة . وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ...﴾ [البقرة] . [القاموس القويم - بتصرف].

(٤) النذير: الإنذار والنذر ، وجسمه نذر . قال تعالى: ﴿يَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ...﴾ [الأنبياء] والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب ، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [التيسر] يحتمل إنذاراً ، ويحتمل نتائج إنذاراتي ، أي عقوباتي التي أُنذروا بها ، وحذفت ياء التكلم تخفيفاً . راجع

إذن : فأنت تنذر ابنك ؛ لئلا يلقى من الآن العمل الذي يؤدي به إلى  
الفشل الدراسي .

وكذلك ييثر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين  
يسلك الطريق القويم .

إذن : فالعبادة هى كل حركة من جركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبِعاً  
ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل»  
و «لا تفعل» فهو مباح .

وعلى الإنسان المسلم أن يُبَصِّرَ نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى  
ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل»  
ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم  
تحرُّى الدقة فى مدلول كل سلوك .

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن  
اللازم أن نبين للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير .

ومثال ذلك : حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة  
البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ،  
وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد .

ويبين الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم  
عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو  
نذير وبشير من الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ... ﴾ (٢)

[هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى .

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة<sup>(١)</sup> ، لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير أجل أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس .

لذلك بين الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه .

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى .

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُمَتِّعْكُم مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) البشارة والبشارة : ما يُعطى للبشر بالخير السار . والبشر الذى يبشر القوم بالأخبار المحيية ، والرسول بشير ، لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبواب الله . يقول الحق : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَآدَمَ﴾ [البقرة] ، ويقول الحق : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار .

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتبار مصدره ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُتَّع به وما يُتَّع به . قال تعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُ خَبْرَهُ أَوْ تَعَامٍ﴾ [الرعد] أى : وضع أشياء يُتَّع بها . وقوله تعالى : ﴿وَبَلَّغْنَا خَبْرَهُمْ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [الأنعام] أى : أبلغنا خبرهم إلى أهلها . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرْيَانَ الَّتِي أَهْلَكْنَا لَمَّا سَفَعْتُمُ مَاءَ الْحَمَةِ﴾ [الأنعام] أى : أهلكناهم لما سفعتم ماء الحمى . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرْيَانَ الَّتِي أَهْلَكْنَا لَمَّا سَفَعْتُمُ مَاءَ الْحَمَةِ﴾ [الأنعام] أى : أهلكناهم لما سفعتم ماء الحمى . (انظر : ابن كثير ٢٩٧/٤) .

وهكذا يبين الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التي وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه .

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه .

هذا هو مطلوب الله من العاصي ؛ لأن درء<sup>(١)</sup> المفسدة مقدم على جلب<sup>(٢)</sup> المصلحة ، وخير يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمن قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيقى حياً أم لا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ (٢٠)﴾

[هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه في قوله تعالى :

﴿...فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٢)﴾

[طه]

وقال في موضع آخر :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (١٧)﴾

[التحل]

فالخياة الطيبة في الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى .

(١) الدرء : الدفع والإبعاد .

(٢) الجلب : سَوَّقَ الشيءَ من موضع إلى آخر . وجَلَبَ الشيءَ : طلبه وكسبه . [لسان العرب : مادة (ج ل ب)] .

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض في ظاهره قول النبي ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»<sup>(١)</sup> . وإن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل<sup>(٢)</sup> فالأمثل<sup>(٣)</sup> .

وقال بعض العلماء : فكيف نقول : ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ۖ﴾ (٣) .  
[مرد]

هنا نقول : ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانسباط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة في الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بآية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِمَ من الثواب .

ونحن نجد في القرآن قصة العبد الصالح الذي قتل غلاماً كان أبواه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه في سننه (٤١١٣) من حديث أبي هريرة . قال النووي في شرح مسلم (٣٠٥ / ١٨) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون بمنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكرهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من نقصان . وأما الكافر فلأنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمخلفات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أي الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى في الرتبة والمنزلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أي : أفضل وأدنى إلى الخير . وأمائل الناس : خيارهم . [اللسان العرب - مادة : مثل] .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢ / ١) والترمذي في سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبي وقاص . قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وقام الحديث : «ويُنْزِلُ الرَّجُلَ عَلَى حَسْبِ دِينِهِ» وما زال البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشفاء<sup>(١)</sup> .

إذن : فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها .

ومنّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رجله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقْدًا» أى : مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعي ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال :

إنى لا أحب أن أغفل عن ربي طرفة عين .

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاض عليه من قدرة الله وقوته سبحانه .

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفئوها وأن يدفئوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء .

إذن : فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صجبه موسى ليتعلم منه : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَمَّا عَلِمَا قَتْلَهُ قَالَ أَقْبَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِمَا نَفْسِي لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا تُكْرَأُ ﴾ (٥٥) قَالَ أَتَمَّ أَقْبَلْتُ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ نَسِيَّ صَبْرًا ﴾ (٥٦) [الكهف] . ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح : ﴿ ... سَأُنْفِثُ بِأَوَّلِهِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٥٧) أَمَّا الْمَقْبُورَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْسَلْنَا أَنْعَامَنَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَائِكَةٌ يَأْخُذُ كُلُّ مَقْبُورَةٍ عَصَا (٥٨) وَأَمَّا الْعِلَامُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرَهْقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٥٩) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّنَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا (٦٠) [الكهف] .



ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة <sup>(١)</sup> قد تأتي للإنسان بنعمة أوسع مما أفقده .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم في بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُباد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثاني :

حالتنا في بلادنا إن أعطينا شكرنا ، وإن حُرمتنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب في «بلخ» <sup>(٢)</sup> أي : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثاني العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا <sup>(٣)</sup> ، وإن حُرمتنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش في منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر في كل أمر مؤلم وفي كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خائداً من الله سبحانه وتعالى .

(١) قال الشيخ : « قد البلاء خير من حزة النعماء »

(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .

(٣) أي : إن نالنا الخطاء فإننا نؤثر خيرنا به . أي : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

[هود]

﴿ يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا .. (٣) ﴾

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن .

ومثال ذلك : هو التلميذ الذي لا يترك كتبه ، بل حين يأتي وقت الطعام ، فهو يأكل وعينه لا تفارق الكتاب .

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسنة ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية :

[هود]

﴿ وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾

أي : يؤتي كل ذي فضل مجزول<sup>(١)</sup> لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمي الفضل للعبد .

ومثال ذلك : الفلاح الذي يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليذره في الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بوزارة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أي : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف .

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شيء ، والجزل الكريم المنة [المعجم الوسيط : مادة (ج ز ل)] .

## سُورَةُ الْهُودِ



وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ<sup>(١)</sup> عليك فضلاً من الخلق ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق .

إذن : فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، وفيضها عليهم ، فهي تزيد عنده لأنها تربو<sup>(٢)</sup> عند الله ، وإن لم يُفيضها على الغير فهي تنقص .  
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها :

﴿ وَيُؤْتِ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ ﴾<sup>(٤)</sup> [مود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذي يفيض على غيره بما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذي نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطي كل صاحب فضل فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل .

(١) أسبغ : أنعم وأجزل العطاء . وسبغ الشيء : قامه واتساعه . [المعجم الرسيط : مادة (س ب غ) تصرف] . وقال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۖ ﴾<sup>(٥)</sup> [الأنعام] .

(٢) ربا الشيء : يربو : زاد ونما . وأربيته : غييته .

(٣) أضعف الرجل : قما ماله وزاد واتسع ، فصار أضعفاً . واسم الفاعل مُضْعِف : ﴿ ... فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> [الروم] أي : الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٤٣١/٣) : «أي : من أعطى عطية يزيد أن يرد عليه الناس أكثر مما أعدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله . بهذا فسر ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والشعبي ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهي عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ تَتَكْبَرُ ﴾<sup>(٧)</sup> [المدثر] . أي : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا زيادة : قريباً لا يصح ، يعني : ربا البيع ، وزبياً لا بأس به ، وهو حلية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوَ عِنْدَ اللَّهِ ۖ ﴾<sup>(٨)</sup> [الروم] زاجاً الثواب عند الله في الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿... وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى ديار الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل مظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا يتقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾

أى : إلى الله مرجعكم<sup>(١)</sup> فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء على إساءته ، فيؤتى سيحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة .

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار .

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط .

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة .

(١) المراجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ ... ۝٢٥ ﴾ [آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ... ۝٢٥ ﴾ [يونس] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٣١٥

ومن كثرت سيئاته على حسناته كان في ضنك<sup>(١)</sup> العيش وقلق النفس .  
ويؤتي الحق سبحانه كل ذي فضل فضله ، فمن عمل لله عز وجل ،  
ونفقه الله فيما يستقبل على طاعته ، والذين أعرضوا يخاف عليهم من عذاب  
يوم كبير .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤ ﴾ [هود]

لأنه سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، وعلى البداية والنهاية  
المحدودة ، وبداية الخلود إما إلى جنة وإما إلى نار ، فهو القادر على كل شيء .  
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الْإِنِّهٖمۡ يَلْتَوِنُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسَّخِفُوْا مِنْهُ الْآخِیْنَ  
يَسْتَفْشِفُوْنَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُوْنَ إِنَّهُ  
عَلِیْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ٥ ﴾

(١) الضنك : ضيق العيش . ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ٥٧٨ ﴾ [طه]  
قال ابن كثير في تفسيره (١٦٨/٢) : « فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج  
لضلاله ، وإن تعم ظاهره ، وليس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص  
إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك المعيشة » .  
(٢) يلتون صدورهم : يظنونها على عداوة المسلمين ، ويكشون لهم البغض والكراهية .  
(٣) الاستخفاء : طلب الخفاء والاختفاء . ومن جهلهم يريدون الاستخفاء من الله تعالى ، وهو سبحانه  
لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في  
السماء ٣٠ ﴾ [آل عمران] . وقال تعالى : ﴿ إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ٥٦١ ﴾  
[الأحزاب] .

(٤) يستفشون ثيابهم : يتنظرون بها مبالغة في الاستخفاء . [كلمات القرآن] .  
(٥) ذكر الواحدى في « أسباب النزول » (ص ١٥٢) أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً  
حلوا الكلام جلوا المنظر ، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب ، ويطوى بقلبه ما يكره .  
وقال الكلبي : كان يجالس النبي ﷺ يظهر له أمراً يسراً ، ويضمر في قلبه خلاف ما يظهر .

وإذا وجدت «ألا» في أول الكلام فأنت تعلم أنها للتنبيه ، ومعنى التنبيه أنه أمر يوظف لك السامع إن كان غافلاً ؛ لأنك تحب ألا تفوته كلمة من الكلام الذي تقوله .

وحين تنبهه بغير أداء الأسلوب الذي تريده منه ، هنا يكون التنبيه قد أخذ حقه ، ومن بعد ذلك يجيء الكلام الذي تقوله ، وقد تهياً ذهن السامع لاستقبال ما تقول .

فـ «ألا» - إذن - هي أداة تنبيه ؛ لأن الكلام ستار بين المتكلم والمخاطب ، والمخاطب لا يعرف الموضوع الذي ستكلمه فيه ، والمتكلم هو الذي يملك زمام الموقف ، وهو يهيئ ذهنه لترتيب ما يقول من كلمات ، أما المستمع فسوف يفاجأ بالموضوع ؛ وحتى لا يفاجأ ولا تضيق منه الفرصة ليلتقط كلمات المتكلم من أولها ، فهو ينبه بأداة تنبيه ليستمع<sup>(١)</sup> .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ ﴾ (٥) [هود]

ويقال : ثبت الشيء أى : طويته ، وجعلته جزئين متصلين فوق بعضهما البعض .

وحين يثنى الإنسان صدره ، فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ، ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ؛ لأن

(١) وردت ألا في القرآن على أوجه :

الأول : التنبيه : فتدل على تحقق ما بعدها ، وتدخل على الجملتين الاسمية والفعلية ، نحو ﴿ .. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) [البقرة] ، ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ۚ ﴾ (٨٠) [هود] .

الثاني والثالث : التحفيز والعرض ، ومعناهما طلب الشيء ، لكن الأول طلب بحث ، والثاني طلب بلز ، وتختص بهما بالدخول على الجملة الفعلية نحو : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ۚ ﴾ (١٢٧) [التوبة] ، ﴿ .. أَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ يَفْقَرُ إِلَهُكُمْ ﴾ (١٢٧) [التوراة] .

انفعال مواجيد<sup>(١)</sup> النفس البشرية ينضج على الوجوه .

وهم كارهون للرسول ﷺ ، وحاقدون عليه ؛ ولا يريدون أن يلحظ الرسول ﷺ ما على ملامحهم من انفعالات تنضج مواجيدهم الكارهة .

ومثل ذلك جاء من قوم نوح عليه السلام ، حين قال الحق سبحانه على لسان نوح :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْأَبُهُمْ فِي أَذَانِهِمْ وَاسْتَقْبَلُوا<sup>(٢)</sup> ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾ [نوح]

ومن البدهية أن نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأذن<sup>(٣)</sup> تسد فقط فتحة السمع ، وعدل القرآن الكريم ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح - عليه السلام - ، فكل منهم أراد أن يدخل إصبعه في أذنه حتى لا يسمع أي دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه شهادة ضدهم ؛ لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد قتل قلوبهم لما يقال .

ولذلك نجد القرآن الكريم وهو ينقل لنا ما قاله مشركو مكة لبعضهم البعض :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمِعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا<sup>(٤)</sup> فِيهِ .. ۝٢٦ ﴾

[فصلت]

فكانهم تواصلوا بالتشويش على القرآن ، ثقة منهم في أن القرآن

(١) مواجيد : مفرد موجدة ، وقد وجد فلان رجلاً : عزن أو غضب . والمراد : انفعالات النفس البشرية [المعجم الوسيط : مادة (وج د)] بتصرف .

(٢) استقبلوا ثيابهم : تغطوا بها كي لا يروا نوحاً ولا يسمعوا كلامه . قاله ابن عباس . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٢٨٩/٨) طبعة دار الفكر .

(٣) الأذنلة : عقدة الإصبع أو سلامها . وهي أيضاً : المفصل الأعلى من الإصبع الذي فيه الظفر . والجمع : أنامل . [المعجم الوسيط مادة (ن م ل)] .

(٤) الغَوْ : ما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . [المعجم الوسيط] . والغوا فيه : اتوا بالغوا والبطل عند قراءته [كلمات القرآن] - قال ابن عباس : بالتصغير والتخفيف على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن . ذكره السيوطي في (الدر المنثور) (٣٢٦/٧) وعزاه لابن أبي حاتم .

لو تنهى<sup>(١)</sup> إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ؛ لأن النفس البشرية أغيار ، وقد تأتي للنفس ما يجعلها تميل دون أن يشعر صاحبها .

ولو كان هذا القرآن باطلاً ، فلماذا خافوا من سماعه ؟

ولكنه الغباء في العناد والكفر .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَتَكَفِّرُوا مِنْهُ أَلَّا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٥) ﴾ [هود]

وهم قد استغشوا ثيابهم ليعطوا وجوههم ؛ مداراة للانفعالات التي تحملها هذه الوجوه<sup>(٢)</sup> ، وهي انفعالات كراهية ، أو أنها قد تكون انفعالات أخرى ، فساعة يسمع واحد منهم القرآن قد يفعل لما يسمع ، ولا يريد أن يظهر الانفعال .

إذن : فالانفعال قد يكون قسرياً<sup>(٣)</sup> ، وكان كفار قريش رغم كبريهم وحريهم لرسول الله ﷺ ، يتسللون ناحية بيت النبي ﷺ ليسمعوا القرآن ، وكانوا يضبطون بعضهم البعض هنالك ، ويدّعى كل منهم أنه إنما مرّ على بيت النبي ﷺ مصادفة<sup>(٤)</sup> .

وفي ذلك يقول الشاعر :

(١) تنهى : بلغ ووصل . الإنهاء : الإيلاج . أنهيت إليه الخبر : أبلغته له . (لسان العرب - مادة : نهى) .  
(٢) قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حتى ظهر ، واستغشى ثوبه ، وأضمر في نفسه همه ، ذكره القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) .

(٣) قسرياً : أي خارجاً عن إرادة الإنسان .

(٤) وذلك أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم مكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . فجعلهم الطريق ، فقللوا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رأيكم بعض سفيانكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . وهكذا إلى ليلة ثالثة حتى قال بعضهم لبعض : لا تبرح حتى نعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا . (سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥) .



اذْكُرُوهُمْ وَقَدْ تَسَلَّلَ كُلٌّ  
بَعْدَ مَا انْفَضَّ مَجْلِسُ السُّمَارِ<sup>(١)</sup>  
اِخْتِلَاسًا يَسْعَى لِحِجْرَةِ طَهْ  
لِسَمَاعِ التَّنْزِيلِ فِي الْأَسْحَارِ<sup>(٢)</sup>  
عُذْرَهُمْ حُتُّهُ فَلَمَّا تَرَاءَوْا  
عَلَّلُوها بِبَارِزِ الْأَعْدَارِ

وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا في نفس الآية بـ «ألا» في قوله:

﴿.. أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود]

فهتم إن داروا على محمد ﷺ ، فهل هم قادرون على الإدارة على رب  
محمد ؟ والذي لا يدركه بصر محمد قرب محمد سيُعلمه به .

وما دام الحق سبحانه يعلم ما يسرون ، فمن باب أولى أنه سبحانه  
وتعالى يعلم ما يعلنون .

والحق سبحانه وتعالى غيب ، وربما ظن ظان أنه قد يفلت منه شيء ،  
ولكن الحق سبحانه يُحصي ولا يُحصَى عليه ، فإن ظن ظان أن الحق  
سبحانه يعلم الغيب فقط ؛ لأنه غيب ، فهذا ظن خاطيء ؛ لأنه يعلم السر  
والعلن ، فهو علیم بذات الصدور ، وكلمة «علیم» صيغة مبالغة<sup>(٣)</sup> ، وهي  
ذات في كنهها العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿.. عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود]

(١) السمار : هم الناس يسْمرون بالليل ، ويكون عادة في ضوء القمر .  
(٢) الأسحار : جثع سحر ، وهو الثلث الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . قال تعالى : ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ  
يَسْتَغْفِرُونَ ۝٥٦﴾ [الذاريات] .

(٣) علیم : صيغة مبالغة من العلم ، أي : بالغ العلم لا حد لعلمه سبحانه .  
(٤) الصدر : مقدم كل شيء وأوله ، وصدر الإنسان معروف ، ويدخله أضلاع رقلية وورثاء . وفي  
الصدر تظهر آثار الأفعال انقباضاً في الحزن وإشراحاً في السرور ، قال الحق سبحانه : ﴿لَمْ تَشْرَحْ لَكَ  
صَدْرَكَ ۝٦﴾ [الشرح] وقال : ﴿.. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥٦﴾ [آل عمران] أي : بالأسرار  
المصاحبة للصدور (القاموس القويم باختصار) .

نجد فيه كلمة ﴿ذَاتِ﴾ وهي تفيد الصحبة ، و(ذَاتِ الصُّدُورِ) أى : الأمور المصاحبة للصدور .

ونحن نعلم أن الصدر محل القلب ، ومحل الرئة ، والقلب محل المعتقدات التى انتهى إليها ، وصارت حقائق ثابتة ، وعليها تدور حركة الحياة . ويُقصد بـ ﴿ذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى : المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء أكانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

وكل الأمور التى يسمونها ذات الصدور ، أى : صاحبات الصدور ، وهى القلوب ، وكأن الجرم<sup>(١)</sup> نفسه وهو القلب معلوم للحق سبحانه وتعالى ، فخراطره من باب أولى معلومة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) جرم كل شئ : جسمه . والمقصود القلب البشرى نفسه .

(٢) الدابة : اسم فاعل ، وغلب على غير العاقل ، ويستوى فيه الذكر والمؤنث ، وقد يشمل العاقل وغيره ، كقوله تعالى : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ..﴾ (البقرة) [تشمل الإنسان وغيره ، وكذلك قوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ..﴾ (الشورى) ، الدابة تشمل الكائنات الحية فى الأرض والسماء ، ولها دليل على أن فى السماء كائنات حية وعاقلة .

أما قوله تعالى : ﴿وَتَكَلَّيْنِ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِنْ يَافِكُمْ ..﴾ (الأنعام) ، الدابة هنا كل حيوان ما عدا الإنسان بدليل (وإياكم) .

(٣) مستقرها : موضع استقرارها فى الأضلاب أو فى الأرحام ونحوها . ومستودعها : موضع استبداعها فى الأرحام ونحوها ، أو فى الأضلاب . [كلمات القرآن] للشيخ حسين محمد مخلوف .

وحين يذكر القرآن الكريم لقطة توضح صفة ما ، فهو يأتي بما يتعلق بهذه الصفة ، وما دام الحق سبحانه عليماً بذات الصدور ، فهذا علم بالأمور السلبية غير الواضحة ، والحق سبحانه يعلم الإيجابيات أيضاً ، فهو يعلم النية الحسنة أيضاً ، ولكن الكلام هنا يخص جماعة يشون صدورهم .  
وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، ويُنَّ أنه علم بكل شيء .  
وقال سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا  
وْمُسْتَوْدَعَهَا .. ﴾ (٦)

والدابة : كل ما يدب على الأرض ، وتستخدم في العرف الخاص للدلالة على أي كائن يدب على الأرض غير الإنسان .  
وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ  
أَمْثَلِكُمْ .. ﴾ (٤٨)

وذكر الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام أنه سُئل - حينما كُلف - بخواطر من أهله ، وتساءل : كيف أذهب لأداء الرسالة وأترك أهلي ؟

فأوحى له الله سبحانه أن يضرب حجراً فانفلق الحجر عن صخرة ، فأمره الحق سبحانه أن يضرب الصخرة ، فضربها فانفلقت ليخرج له حجر ، فضرب الحجر فانشق له عن دودة تلوك<sup>(١)</sup> شيئاً كأنما تتغذى به ، فقال : إن الذي رزق هذه في ظلمات تلك الأحجار كلها لن ينسى أهلي على ظهر

(١) لاك الشيء يلوكه لوكاً : مضغه . [اللسان : مادة (ل و ك)] .

الأرض . ومضى موسى عليه السلام إلى رسالته .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأن الحق سبحانه خالق كل الخلق ، ولا بد أن يضمن له استبقاء حياة واستبقاء نوع ؛ فاستبقاء الحياة بالقوت <sup>(١)</sup> ، واستبقاء النوع بالتزاوج والمصاهرة .

إذن : فمن ضمن ترتيبات الخلق أن يوفر الحق سبحانه وتعالى استبقاء الحياة بالقوت ، واستبقاء النوع بالتزاوج .

ولذلك نقول دائماً : يجب أن نفرق بين عطاء الإله وعطاء الرب ، فالإله سبحانه هو رب الجميع ، لكنه إله من آمن به .

وما دام الحق سبحانه هو رب الجميع ، فالجميع مسئولون منه ؛ فالشمس تشرق على المؤمن وعلى الكافر ، وقد يستخرج الكافر من الشمس طاقة شمسية ويتفعل بها ، فلماذا لا يأخذ المؤمن بالأسباب ؟

والهواء موجود للمؤمن وللكافر ؛ لأنه عطاء ربوبية ، فإن استفاد الكافر من الهواء ودرسه ، واستخدم خواصه أكثر من المؤمن ؛ فعلى المؤمن أن يجدد ويكبد في الأخذ بالأسباب .

إذن : فهناك عطاء للربوبية يشترك فيه الجميع ، لكن عطاء الألوهية إنما يكون في العبادة ، وهو يُخرجك عن مراداتك إلى مرادات ربك ، فحين تطلب منك شهواتك أن تفعل أمراً فيقول لك المنهج : لا . <sup>(٢)</sup>

(١) القوت : ما يمسك الرمح من الرزق . وفي الصحاح : هو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . [لسان العرب : مادة (قوت)] .

(٢) وأصحاب المنهج الذين قاموا به وعليه ، يقول الله في حقهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَاءُوا تَتَرَكُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣١) نَحْنُ أُولَئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣٢) تَرَى مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ (٣٣)﴾ [فصلت]

## سُورَةُ هُودٍ

﴿٦٣٢﴾

وفى هذا تحكم منك فى الشهوات ، وارتقاء فى الاختيارات ، أما فى الأمور الحياتية الدنيا ، فمطاء الربوبية لكل كائن ليستبقى حياته .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

[هود] ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (٦) .

وكلمة «على» تفيد أن الرزق حق للدابة ، لكنها لم تفرضه من على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه سبحانه قد ألزم نفسه بهذا الحق .

ويقول سبحانه :

[هود] ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (٦) .

ولأنه سبحانه هو الذى يرزق الدابة فهو يعلم مستقرها وأين تعيش ؛ ليوصل إليها هذا الرزق .

والمستقر : هو مكان الاستقرار ، والمستودع : هو مكان الوديعة .

والحق سبحانه يعلمنا بذلك ليطمئن كل إنسان أن رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق .

فالرزق يأتيك من حيث لا تحتسب ، لكن تسعى إلى الرزق شىء آخر ؛ فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزق لغيرك .

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤/ ٣٣٢٤) : «الرزق حقيقته ما يتغذى به الحي ، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده ، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك ، لأن البهائم ترزق وليس يصح وصفها بأنها مملكة لعلفها ، وهكذا الأمثال ترزق اللين ، ولا يقال : إن اللين الذى فى الثدي ملك للطفل .  
وقال تعالى : ﴿وَلِى السَّعَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ (٥٦) [الناريات] وليس لنا فى السماء ملك ، ولأن الرزق لو كان ملكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ، لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه» .

فمثلاً: أنت قد تزرع أرضك فمحاً فيأتى لك سفر للخارج ، وتترك  
فمحك ؛ ليأكله غيرك ، وتأكل أنت من قمح غيرك .  
ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ... وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلُّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ [هود]

أى : أن كل أمر مكتوب ، وهناك فرق بين أن تفعل ما تريد ، ولكن  
لا يحكم إرادتك مكتوب ؛ فما يأتى على بالك تفعله ، وبين أن تفعل أمراً  
قد وضعت خطواته فى خطة واضحة مكتوبة ، ثم تأتى أفعالك وفقاً لما  
كتبته .

ومن عظمة الخالق سبحانه أنه كتب كل شيء ، ثم يأتى كل ما فى الحياة  
وفق ما كتب .

والدليل على ذلك - على سبيل المثال - أن الله سبحانه كان يوحى إلى  
رسوله بالسورة من القرآن الكريم ، وبعد ذلك يُسرى<sup>(١)</sup> عن رسول الله ﷺ  
الروحى ، فيتلو السورة على أصحابه ، فمن يستطيع الكتابة فهو يكتب ،  
ومن يحفظ فهو يحفظ .

ثم يأتى الرسول ﷺ إلى الصلاة ، فيقرأ السورة كما كتبت ، ويأتى كل نجم  
من القرآن فى مكانه الذى قاله النبي ﷺ لأصحابه ، فكيف كان يحدث ذلك ؟  
لقد حدث ذلك بما جاء به الحق سبحانه ، وأبلغه لرسوله ﷺ :

﴿ سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنسَى (٦) ﴾ [الأعلى]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) التسمية : انكشاف الروحى عنه ﷺ ، بما فيه من شدة تؤدى إلى أن ينصب رسول الله ﷺ عرفاً .

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْرُوفُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا اسْتِغْرَافٌ مِنَ الْإِسْخَرِثِينَ ﴿٧﴾﴾

وقد تعرض القرآن الكريم لمسألة خلق الأرض والسماء أكثر من مرة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يخلق الأرض والسموات في ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أن يخلقها في أقل من طرفه عين بكلمة «كن» وعرفنا أن هناك فارقاً بين إيجاد الشيء ، وطرح مكونات إيجاد الشيء .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان صنع «الزبادى» ، فهو يضع جزءاً من مادة الزبادى - وتسمى «خميرة» - فى كمية مناسبة من اللبن الدافئ ، وهذه العملية لا تستغرق من الإنسان إلا دقائق ، ثم يترك اللبن المخلوط بخميرة الزبادى ، وبعد مضى أربع وعشرين ساعة يتحول اللبن المخلوط بالخميرة إلى زبادى بالفعل .

وهذا يحدث بالنسبة لأفعال البشر ، فهى أفعال تحتاج إلى علاج ، ولكن أفعال الخالق سبحانه وتعالى لا علاج فيها ؛ لأنها كلها تأتى بكلمة «كن» .

أو كما قال بعض العلماء : إن الله شاء أن يجعل خلق الأرض والسموات فى ستة أيام ، وقد أخذ بعض المستشرقين من هذه الآية ، ومن

(١) العرش فى اللغة : سرير الملك - وقد نُسب سبحانه سرير ملكة سبأ بالعرش ، فقال سبحانه : ﴿... وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٧٢)﴾ [النمل] . وعرش البارى سبحانه لا يُحْدَدُ ، ذكره رب العزة فى كتابه (٢١ مرة) تضافاً إليه سبحانه .

(٢) يبلوكم : ليختبركم ، وهو أعلم بأمركم .  
أحسن عملاً : أطوع لله وأروع عن محاربه . [كلمات القرآن] .

آيات أخرى مجالاً لمحاولة النيل من القرآن الكريم ، وأن يدَّعوا أن فيه تعارضاً ، فالحق سبحانه وتعالى هنا يقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴾ (٧) ﴿ [هود]

وجاءوا إلى آية التفصيل وجمعوا ما فيها من أيام ، وقالوا : إنها ثمانية أيام ، وهي قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا <sup>(١)</sup> ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّ <sup>(٣)</sup> مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْرَانَهَا <sup>(٤)</sup> فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (٥) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ <sup>(٦)</sup> فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اانثِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (٧) فَقَضَاهُنَّ <sup>(٨)</sup> سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ .. ﴾ (١٢) ﴿ [فصلت]

(١) الند : المثل والتظير . رجمعه : أنداد . وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَندَادًا .. ﴾ (٢٢) ﴿ [البقرة] : أى : أمتلاً شركاء . تعالى الله عما يقولون [القاموس القويم] بتصرف .

(٢) وسا الشئ : يوسوسوا : ثبت ورسخ ، وأرساه : جعله ثابتاً راسخاً ، وأرسي السفينة : ثبتها على الشاطئ . فلا تسير . والمراد بالرواسي : الجبال لأنها تثبت الأرض حتى تستقر ولا تميل . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴾ (٢٣) ﴿ [النحل] وقال تعالى : ﴿ وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا (٢٤) ﴾ [التازعات] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) الأقوات : جميع قوت ، وهو ما يمسك اللحم من الرزق . وفي الصحاح للجوهري : هو ما يقرم به بدن الإنسان من الطعام . [اللسان - مادة : قوت] .

(٤) ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. ﴾ (٥) ﴿ [فصلت] . الدخان : بخار الماء المتصاعد منها حين خلقت الأرض . ذكره ابن كثير في تفسيره [٩٣/٤] .

(٥) فقضاهن : خلقهن . فالفضاء هنا بمعنى الخلق . وهي من الكلمات التي تأتي على وجوه كثيرة من المعاني ، ومن معانيها :

الفرار : ﴿ فَإِذَا قُضِيَ مُسَابِقَتُكُمْ .. ﴾ (٥٥) ﴿ [البقرة] .

الأم : ﴿ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا .. ﴾ (١٧٧) ﴿ [البقرة] .

العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْتُ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ .. ﴾ (١٠) ﴿ [القصص] .

الوصية : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا بَاءً .. ﴾ (٢٢) ﴿ [الإسراء] .



وهنا قال بعض المستشرقين : لو كانت هذه هي قصة الخلق للأرض  
والسموات لطابقت آية الإجمال آية التفصيل .

وقال أحدهم : لنفرض أن عندى عشرة أرادب من القمح ، وأعطيت  
فلاتاً خمسة أرادب وفلاتاً ثلاثة أرادب ، وفلاتاً أعطيته إردبين ، وبذلك  
ينفذ<sup>(١)</sup> ما عندى ؛ لأن التفصيل مطابق للإجمال .

وادعى هذا البعض من المستشرقين أن التفصيل لا يتساوى مع الإجمال .  
ولم يفتنوا إلى أن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو يكلم أناساً لهم ملكة  
أداء وبيان وبلاغة وفصاحة ؛ وقد فهم هؤلاء ما لم يفهمه المستشرقون .

هم فهموا ، كأهل فصاحة ، أن الحق - سبحانه وتعالى - قد خلق  
الأرض في يومين ، ثم جعل فيها رواسي وبارك فيها ، إصافى الأرض  
أو في الجبال ، وقدر فيها أقواتها ، وكل ذلك تنمة للمحدث عن الأرض .

ومثال ذلك : حين أسافر إلى الإسكندرية فأنا أصل إلى مدينة طنطا في  
ساعة - مثلاً - وإلى الإسكندرية في ساعتين ، أى : أن ساعة السفر التى  
وصلت فيها إلى طنطا هي من ضمن ساعتى السفر إلى الإسكندرية .

وكذلك خلق الأرض والرواسي وتقدير القوت ، كل ذلك فى أربعة أيام<sup>(٢)</sup>

(١) نقد - ينفذ تقدماً وتقدّلاً : فنى وذُهِب وانقطع ولم يبق ، من الفساد ، وهو الانتهاء . وقال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۖ ﴾ [النحل] .

(٢) اليوم : فى علم الفلك الحديث مقدار دوران الأرض حول محورها مرة ، ومدة أربع وعشرون ساعة  
تقريباً ، وجمعه أيام . وأيام العرب : وقائهم الحزبية . وأيام الله أيام خلّقت فيها ينقسم الله وعنايه على  
الأم الماضية العاصية ، وأيامه التى أنعم فيها على أم مطيعة سالحة .

ويوم الدين : يوم القيامة . ويوم حنين : حدثت فيه موقعة حنين . واليوم عند الله بمقداره يختلف  
عن اليوم عندنا فأحياناً يكون ألف سنة ، ولكل نجم يومه ، ولكل كوكب يومه . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ  
يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ﴾ [الحج] . وقد يكون المقدار خمسين ألف سنة ، مصداقاً لقوله  
تعالى : ﴿ ... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝ ﴾ [المعارج] ، وبهذا التقدير نفهم معنى قوله تعالى  
فى خلق السموات والأرض : ﴿ فَخَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ۝ ﴾ [فصلت] قاله أعلم بمقدار  
هذين اليومين . [القاهر من القوم - يتصرف]

متضمنة يَوْمِ خَلَقَ الْأَرْضَ<sup>(١)</sup> ، ثم جاء خلق السماء في يومين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

كل هذه المسائل الغيبية لها حجة أساسية ، وهي أن الذي أخبر بها هو الصادق ، فلا أحد يشك أن الأرض والسموات مخلوقة ، ولا أحد يشك في أن السموات والأرض أكبر خلقاً من خلق الناس ، وليس هناك أحد من البشر ادعى أنه خلق الأرض أو خلق السموات .

وكل المخترعات البشرية تعرف أصحابها ، مثل : المصباح الكهربائي ، والهاتف ، والميكروفون ، والتليفزيون ، والسيارة ، وغيرها .

ولكن حين نجىء إلى السموات والأرض لا نجد أحداً قد ادعى أنه قد خلقها .

وقد أبلغنا الحق سبحانه أنه هو الذي خلقها ، وهي لمن ادعاهما إلى أن يظهر معارض ، ولن يظهر هذا المعارض أبداً .

وكل هذا الخلق من أجل البلاء :

﴿ لِيَبْلُوكُمْ<sup>(٢)</sup> أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٧) ﴾ [هود]

(١) ولذلك قال أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه «فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن» ص ٣٧٣ : «يوم خلق الأرض من جملة الأربعة بعدهما ، والمعنى في تسعة أربعة أيام ، وهي مع يوم خلق السموات ستة أيام . يوم الأحد والاثنين لخلق الأرض ، ويوم الثلاثاء والأربعاء للمجعل المذكور في الآية وما بعده ، ويوم الخميس والجمعة لخلق السموات» .

(٢) بلوت الشيء .. أبلوه بلبوا وبلاء : امتحنته واختبرته ، قال تعالى : ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْغَيْبِ غَنَةً .. (٢٥) ﴾ [الأنبياء] أي : تختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والشتم ؛ لتعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . وقوله تعالى : ﴿ هَذَا الَّذِي قُلْتُمْ مَا أَنفَقْنَا .. (٢٦) ﴾ [يونس] أي : تعرف حقيقة عملها الذي قدمته كما يعرف المختبر الشيء الذي يختبره . وقوله تعالى : ﴿ .. وَتَبْلُوا أَعْيُنَكُمْ ﴾ [محمد] أي : تعرف صدقها من كذبها . ومن أغراض البلاء والابتلاء إظهار حقيقة العمل والتمييز بين العمل الحسن وغيره ؛ تمهيداً للثواب أو العقاب . [القاموس القويم] بصرف .

أى : ليختبركم أيكم أحسن عملاً<sup>(١)</sup> ، ولكن من الذى يحدد العمل ؟  
إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أن يختبر مخلوقاته ؟  
لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كل ما يأتى من الخلق ، ولكنه سبحانه أراد  
بالاختبار أن يطابق ما يأتى منهم على ما علمه أزلاً ؛ حجة عليهم .  
وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبار الحجة علينا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ قُلْتُمْ إِنَّا كَافِرُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ هَذَا  
الْأَسْحَرِ مِينِ (٧) ﴾

[هود]

وهنا يصور الحق - سبحانه وتعالى - تكذيب المعاندين لرسول الله ﷺ ،  
فهم يلقون بالألفاظ على عواهنها<sup>(٢)</sup> من قبل أن تمر على تفكيرهم .  
قلو أنهم قد مروا بهذه الكلمات على تفكيرهم ؛ لاستحالة منطقياً أن  
يقولوها .

والرسول ﷺ يخبرهم ببلاغ الحق سبحانه وتعالى لهم بأنهم مبعوثون من  
بعد الموت .

(١) عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ تلا : ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٧) ﴾ [هود] . قال : « أيكم أحسن عملاً ،  
وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله » أورد الفريسي فى تفسيره (٢٣٢٧/٤) والسيوطى فى  
الدر المنثور (٤/٤٤٤) وعزاه لابن جرير الطبري وابن أبي حاتم والحاكم فى التاريخ وابن مردويه بنحوه .  
(٢) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتغيره ، وقيل : هو إذا لم يهتم أصاب أم أخطأ ، وقيل : إذا تهاون به .  
وقال ابن الأثير : العوامن أن تأخذ غير الطريق فى السير أو الكلام ؛ جمع عامية . وجهن الشيء : أى :  
أرسل الكلام على ما حضر منه وعجل ، من خطأ وصواب . أى : عدم التفكير فى الكلام قبل التلفظ به .  
والقائه على علته . [اللسان : مادة (ع ه ن)] بتصرف .

وهذا كلام إخباري بأنهم إن ماتوا - وهم سيموتون لا محالة - سيبعثهم الله سبحانه ، فما كان منهم إلا أن قالوا :

﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

والخبر الذي يقرله لهم هو خبر ، فما موقع السحر منه ؟ إنهم يعلمون أنه ﷺ لم يقل ذلك إلا من نص القرآن الكريم ، وهم يقولون عن القرآن الكريم إنه سحر ، فكان النص نفسه من السحر الذي حكموا به على القرآن .

وأوضحنا من قبل أن إبطال قضية السحر في القرآن الكريم دليله منطقي مع القول ؛ لأنهم إن كانوا قد ادعوا أن رسول الله ﷺ أو أن محمداً - في عرفهم - قد سحر القوم الذين اتبعوه .

فالساحر له تأثير على المسحور ، والمسحور لا يدخل له في عملية السحر ، فإذا كان محمد قد سحر القوم الذين اتبعوه ، فلماذا لم يسحر هؤلاء المنكرين لرسالته ؛ بنفس الطريقة التي سحر بها غيرهم ؟

وحيث إنهم قد بقوا على ما هم عليه من عناد لرسول الله ﷺ ، فهذا دليل على أن المسألة ليست سحراً ، ولو كان الأمر كذلك لسحروهم جميعاً .

وقولهم : ﴿ .. إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧) [هود]

يدل على أنه سحر محيط ، لا سحر لأناس خاصين ، فكلمة ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تعني : سحراً محيطاً بكل من يريد سحره .

وبقاء واحد على الكفر دون إيمان برسول الله يدل على أن المسألة ليست سحراً .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿مَا يَحْسِبُهُمْ هَٰذَا إِلَّا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>  
 ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

وساعة تجد ﴿لئن﴾ فافهم اللام الأولى التي بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره : «والله لئن» .  
 والقسم يأتي لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأکید المقسم عليه إنما يأتي لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تقسم لإنسان تلقاه وتقول له : والله لقد كنت عند فلان بالأمس .

(١) الأمة : اسم مشترك ، يقال على ثمانية أوجه :

- ١- فالأمة تكون الجماعة ، كقوله : ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ . ﴿[القصاص]﴾ .
- ٢- والأمة : أتباع الأنبياء عليهم السلام .
- ٣- والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ . ﴿[النحل]﴾ .
- ٤- والأمة : الدين والملة ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ . ﴿[الزخرف]﴾ .
- ٥- والأمة : الحين والزمان ، كقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ . ﴿[هود]﴾ .
- ٦- والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه .
- ٧- والأمة : الرجل المفرد بدينه وجمعه ولا يشركه فيه أحد . قال النبي ﷺ : «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة واحدة» .

٨- والأمة : الأم . يقال : هذه أمة زيد ، يعني : أم زيد .

[راجع تفسير القرطبي (٣٢٢٧/٤) ، ولسان العرب] .

(٢) أمة معدودة : إلى أمة معدود أي : أجل نحدد . والأمة في هذا الموضع : الأجل والحين . وقال تعالى في سورة يوسف : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَكُمُ بَيَوتُكُم﴾ . ﴿[يوسف]﴾ .

(٣) يعيسه : يستهزئ به .

(٤) حاق بهم : نزل بهم ، وأحاط بهم . وقال تعالى : ﴿وَحَاقَ بِاللَّذِينَ كَفَرُوا هُمُومٌ وَسَاءَ عَذَابُهُمْ﴾ . ﴿[غافر]﴾ .

[مختصر تفسير الطبري] بتصرف .

إذن: فالقسم يأتي لشك طراً<sup>(١)</sup> عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء .

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ .. (٨) ﴾ [هود]

فالواو هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب .

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكفي بجواب واحد ، مثلما نقول : « والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا » .

وهكذا يُغنى جواب القسم عن جواب الشرط . والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذي يغنى جوابه عن الآخر .

مثلما نقول : « والله إن جاء فلان لأكرمته » ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط . وإن قلت : إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم .

والاثنان متحذان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتى بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول : « زيد والله إن جاءك أكرمه » ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجع هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَحْسِبُ ﴾ [هود]

(١) طراً الشك : حدث ووقع في عقل السامع مما يستدعى من التكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقته سامعه .

والجواب هنا للتسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط .

أى : أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف<sup>(١)</sup> به الأرض .

فكان مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات .

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذب الكافرين فى المآرك .

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، قلن يحزن عليهم أحد .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء<sup>(٢)</sup> ليكون لهما معنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم<sup>(٣)</sup> ؛ لترداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

(١) قال عز وجل : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التكوير] ، أما الذين عذبوا بالحاصب - وهى الزيع العاتية الشديدة البرد الحاملة لخصباء الأرض - فهم قوم عاد .

أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو فارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما .

(٢) الإملاء : الإرجاء والإمهال . قال تعالى : ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف] . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إِنْ أَلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيُعْلَى لِلظَّالِمِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ . ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّأَخِيهِمْ شَدِيدٌ ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٢) البر والصلة .

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه .

ولذلك أقول دائماً :

إن من ذواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التي تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم .

ولكن لو استحضر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لفرحوا بالحكم على القاتل بالقتل .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول :

﴿ .. وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ <sup>(١)</sup> مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦) ﴾ [النور]

وذلك لينم التعذيب أمام المجتمع الذي شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعندى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشقى .

وهنا يبين الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتكم بالعذاب . ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، ونساءلوا : أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألسنتهم :

(١) طائفة : جماعة . قيل : ثلاثة . وقيل : أربعة ، عدد شهور الزنا . والمراد بالعذاب في هذه الآية الكريمة هو حد الزنا لغير المحصن . وغام الآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦) ﴾ [النور] .

[تفسير الجلالين] بتصرف .



## سُورَةُ هُودٍ

﴿ ٦٢٢٥ ﴾

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا <sup>(١)</sup> قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (١٦)

[حر]

والقطن : هو جزء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى : القطع .

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة .

ومن العجيب أن منهم من قال :

﴿ . . اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ

أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٢) [الأنفال]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم :

﴿ أَوْ تَسْقُطِ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا <sup>(٢)</sup> . . ﴾ (٩٧) [الاسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحدياً وسخرية واستهزاء .

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلاً عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ . . ﴾ (٣٢) [الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

(١) قِطَّنَا : أى : نصيبنا من العذاب الذى أوعدته . [كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف] . وقط الشيء وقطقطه : قطعه . [المعجم الرسيط] .

(٢) كِسْفًا : قطعاً . [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن] .  
والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء) : القطعة من الشيء . . والجمع : كسَفٌ ، وكِسَفٌ .  
وقد قرئت كسفاً بفتح السين ، وقرئت بكسبها . [المعجم الرسيط : مادة (ك س ف)] .

التي تمكنهم من مجابهة<sup>(١)</sup> الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحثمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك في سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا <sup>(٢)</sup> أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ <sup>(٣)</sup> فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ <sup>(٤)</sup> بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا <sup>(٥)</sup> لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا <sup>(٦)</sup> ﴾ [الفتح]

أى : لو تمبَّز الكافرون عن المؤمنين لبسَّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذي كان في الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنشورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين في جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين<sup>(٧)</sup> ،

(١) المجابهة : أى : المواجهة والرد على الخصوم . وقد جبه : أى : صاك جبهته ، أو قابله بما يكره ، أو رده عن حاجته . [المعجم الوسيط] يتصرف .

(٢) الهدي : البدن التي ساقها الرسول ﷺ لتضجر عند الحرم ، وهو من مناسك الحج . ومعكوفاً : محبوساً ومتنوعاً عن الوصول إلى مكان النحر وهو الحرم . [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] يتصرف .

(٣) تطَّوَّهُم : تهاكَّوهم مع الكفار .

(٤) معرة : مكروه ومشقة أو سيئة .

(٥) تزيَّلوا : تميزوا من الكفار في مكة . [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف .

(٦) لذلك قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَتْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَخَفُونَ غَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعَبَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا <sup>(٨)</sup> ﴾ [النساء] .

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المقداد بن الأسود قتل أعرابياً قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه ، فقتلته ، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل » أورد ابن كثير في تفسيره (١/ ٩٤) وعزاه للبخاري . وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٣٣) للدارقطني في الأفراد والطبراني من حديث ابن عباس .

وهذا ما لا يريد الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخْرَقْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ۖ ﴾ (٨) [هود]

والأمة : هي الطائفة أو الجماعة من جنس واحد ، مثل أمة الإنس ، وأمة الجن ، وأمة النمل . . وغير ذلك من خلق الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ ﴾ (١١) فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٢٨) [الأنعام]

والأمة : طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد ، وأفرادها متساوون في كل شيء . فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة . وهناك الأمة : الطائفة من الزمن . مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ ۚ بَعْدَ أُمَّةٍ ۖ ﴾ (٤٥) [يوسف]

أي : أن هذا الذي تذكر بعد فترة من الزمن ، وقد تكون الفترة المسماة «أمة» ، هي الزمن الذي يتحمل جيلاً من الأجيال .

الأمة - إذن - هي جماعة وطائفة لها جنس يجمعها ، ولها تميزات فردية ، وهي تلتقي في معنى عام .

(١) ما فرطنا : أي : أن الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره سواء أكان برياً أو بعيثاً . قاله ابن كثير في تفسيره (٢/١٣١) .

(٢) ادكر : أصلها اذكر . على وزن افعل ، فليت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً ، وأدغمت الدالان . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (٦٧) [الضحى] .

فأمة الإنسان هي حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات في المواهب .

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة .

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص في كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد في مجال ؛ ليعخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص في مجال آخر ويعخدم الباقين ، وهكذا .

وفي هذا تكافل اجتماعي ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق .

ولو عرف واحد كل الحرف التي في الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ولنجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضيلاً من أحد على أحد .

والذي يكنى الشارع أو يعمل في تنظيف الصرف الصحي لا يفعل ذلك تفضيلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملايس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل في تلك المهنة .

وإذا أخلص في عمله فالله سبحانه يحبه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل في هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته .

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل في هذه المهنة ، ويحمل الأقدار على كتفه ، وحين سمع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزحه من تلك المجارى .

وحين وسَّع الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسي ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك .

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هي التي فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترام قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستكف<sup>(١)</sup> ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فتستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم .

ونحن نعلم أن قيمة كل امرئ فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

سُخْرًى<sup>(٢)</sup> .. (٣٢) ﴿ [الزخرف]

(١) الاستكاف : الاستكبار والامتناع وأن تأخذه الأنفة من فعل الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْصَّالِحُ أَنْ يَكُونَ عِدَا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسُكُورٍ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ [النساء] .

(٢) سُخْرًى : مسخرًا فى العمل ، مستخدماً فيه . [كلمات القرآن] أى : يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال المختلفة حسب إرادة كل منهم لها . وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا ؛ ليرابط الناس ويتألفوا ، ولا يتمزق كل منهم بعيداً عن الآخرين تضاد الحياة .

لأن أحداً لا يسخر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخر فى حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك نجد من يطرق بابك ويسأل : ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذى يتقنه .  
ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . . إنه يخدم حاجة نفسه .  
وهكذا تترايط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .  
وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً <sup>(١)</sup> .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مُّعْتَدَةٍ <sup>(٢)</sup> .. (٨) ﴾ [هود]

وعادة ما تأتى كلمة « مُّعْتَدَةٌ » لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [النحل] قال : الأمة معلم الخير ، والقانت : المطيع لله . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٩٠) .

(٢) أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة . [كلمات القرآن] .

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠)

[يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب في فهمنا لكلمة «مَعْدُودَةٌ» أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقْبِلُ على عَدِّ شَيْءٍ إِلَّا مِظَنَّةً أَنَّا قَادِرُونَ عَلَى عَدِّهِ ؛ لِأَنَّهُ قَلِيلٌ ، لَكِنْ مَالاً نُقْبِلُ عَلَى عَدِّهِ فَهُوَ الْكَثِيرُ .

ومثال ذلك : أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ..﴾ (٣٤)

[إبراهيم]

و«إِنْ» - كما نعلم - تأتي للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مِظَنَّةَ الْحَصْرِ .

ورغم أن البشرية قد تقدمت في علوم الإحصاء فهل تفرِّغ أحدٌ لِيُحْصِيَ نعم الله ؟

طبعاً لا . . وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين في أي مجال أو تخصص .

وقديماً<sup>(١)</sup> كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات

(١) شروه : باعوه . قيل : هم السيارة (القافلة) تبيعوا يوسف - عليه السلام - بثمن بَخْسٍ : قليل . وقيل : حرام ؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه . وكانوا فيه من الزاهدين : قيل : هم السيارة كانوا فيه زاهدين ، لا يعلمون كرامته على الله تعالى ونبوته . [مختصر تفسير الطبري] .

وذكر الجلالان في تفسيرهما أن «بَخْسٍ» أي : ناقص . وأن الدراهم المعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً . وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين ، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذي اشتراه بعشرين ديناراً وزوجي نحل وقويين . [تفسير الجلالين] . يتصرف .

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أن كان وكيلاً للدعوة بوزارة الأوقاف .

معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً في الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التي حصروها في الكيلو جرام الأول .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿وَلَنُؤَخِّرَنَّهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا نَجَّبَهُ . . (٨)﴾ [هود]

كانهم يتساءلون سخرية واستهزاء : لماذا يتأخر العذاب الذي توعدّهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يزلّه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم .

ويأتي الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهي «ألا» أي : تنبّهوا إلى هذا الرد .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا<sup>(١)</sup> عَنْهُمْ . . (٨)﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتي ، ولكن العباد دائماً يعجلون .

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أَرَادَ ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿. . وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾ [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء : أولها : «ألا» وهي أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذي يخبر به هو الله سبحانه وتعالى .

(١) ليس مصروفًا : ليس مدفوعًا . [تفسير الجلالين]



وأيضاً فهذا العذاب : ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ (أ) . [هود]

أى : أنه عذاب مستمر .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿... وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (أ) . [هود]

يعنى : أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل .

وتحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، وينأتى التعبير عنه بالفعل الماضى <sup>(١)</sup> ؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى .

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (١) . [النحل]

وكلمة «أتى» فى عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى : أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقرع النسبة خارجاً ، مثلما نقول : «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل .

(١) هنا للتعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ؛ لتحقيق الوقوع ، وقد يُعبّر بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿إِنِّى لَأَرَىٰ فِي السَّمَاءِ أَنَّىٰ أُذْهِقُكَ فَأَنْظِرُ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (١٥٠) [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿لَتَنِيَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٥١) [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية .

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَغْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع ، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى .

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة ؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب في أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة ، فيقول ابنك الشاب: دعني أحملها لك ، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها في زمن يناسب قوته .

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا. فهل لن يحمل الحقيبة إلا في مقدار زمن يناسب قوته ، وهي قوة ضعيفة .

إذن: ففي المجال البشري أنت تحكم على الماضي ، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً ، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل ، لا تستطيع أن تحكم عليه ؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً .

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن في المستقبل ، ولا عائق يعوقه ، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة .

وهنا نجد الإنخبار من الله سبحانه وتعالى ، ولا شيء في الكون يتأبى<sup>(١)</sup> على الله سبحانه .

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى ، فهو آت لا محالة .

(١) أي الشيء : يأتيه من باب فرح - إباء وإبادة : وأبى الشيء أبى - من باب ضرب - امتنع عنه وكرهه ولم يرضه . قال الحق سبحانه : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى .. ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ فَأَبَى أَنْ يُعْمَلْهَا .. ﴾ [الأحزاب] وقوله : ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ .. ﴾ [التوبة] ويتأبى بفتح - القاموس القويم بتعريف .

ولذلك قال سبحانه :

[هود]

﴿وَحَاقَ بِهِمْ .. (أ)﴾

مع أن السياق في العرف البشرى أن يقال : وسيحقيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب .

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى غائق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِثْلَ خَمِيرٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ

إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۝١﴾

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه : ﴿ولئن﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول : لنن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع في اليأس .

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم .

وكلمة ﴿أذقنا﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها : تناول الشيء لإدراك طعمه : حلوا أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، فلولى أم حامض .

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تتفعل له ، فطرف اللسان يتفعل لطعم معين ، ووسط اللسان يتفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تتفعل لطعم ثالث ، وهكذا .

(١) يتوس : صيغة مبالغة من اليأس . أى : يظل يائساً قانعاً بمن رحمة الله وغيره . وكفور : صيغة مبالغة من الكفر أى : قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو حجبها وعدم شكر الله عليها . [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف .

كل ذلك في عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة في التركيب .

وكل «جلمة» من مكونات اللسان لها شيء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يتذوق الطعام ، فيقول : إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكنافة - فيقول : إن السكر المحلاة به مضبوط .

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سيعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول : إنها حرارة طبيعية . وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال : إنه مصاب بالهبوط . وإن ارتفعت يقال : مصاب بالحمى .

وهذا قياس للحرارة بالجلمة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها . ولكن كل عضو في الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدي عمله .

فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدي مهمته . وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات .

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ . . . (٩) ﴾ [هود]

والذوق هو الإدراك<sup>(١)</sup> ، لا للأكل ، فأنت حين تشتري فاكهة يقول لك البائع : «تفضل دُق» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشيء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالدوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه .

والنعمة <sup>(١)</sup> حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُزَع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس .

والنعمة مهما قلَّت فالإنسان يستطيعها ، وإن نُزعت منه فهو يثوس كفور .

واليأس : هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك القتل ، ولو كان يقدر عليه لما يثس .

والمؤمن لا ييأس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القاتل :

﴿ .. إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحٍ <sup>(٢)</sup> اللَّهُ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه .

والذي ييأس هو الذي ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول : «إن الله سيعوضني خيراً منه» .

أما الذي لا إيمان له بإله فهو يقول : «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى» .

(١) نعيم يشتمل فهو ناعم ، من باب فرح ، ومأى من باب كرم ، نعمة ونعمة بفتح النون وكسرهما . ونعيماً كان في رغد من العيش ، وفي تمتع به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكول ومليس وصحة ، يقول الحق : ﴿ .. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٢٠) ﴾ [يونس] أي : التي فيها كل نعيم . والنعمة بالفتح : النعيم ، وتطلق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق : ﴿ وَتَوَنَّى الْمَكِيدِينَ أُولَى النَّعْمَةِ .. (١٠) ﴾ [الزمر] في الدنيا ، والنعمة بكسر النون . مصدر بمعنى النعيم . وتطلق على المنافع والخير الذي يتمتع به الإنسان يقول الحق : ﴿ إِنَّكُمْ تَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا تَحْضَرُونَ .. (٢٢) ﴾ [التحل] القاسوس النعيم . بتصرف .

(٢) روح الله : وحمته وفرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم . [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا يتقطع أمل الإنسان في الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كالقارأ .

فإنَّ الإنسانَ الَّذِي يُسْرِقُ مِنْهُ جَنِيهٌ قَدْ يَحْزَنُ ، وَلَكِنْ إِذَا مَا كَانَ عِنْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ عَشْرَةٌ جَنِيهَاتٍ فَهُوَ يَحْزَنُ قَلِيلًا عَلَى الْجَنِيهِ الْمَفْقُودِ .

وَالْإِنْسَانُ لَا يَبْأَسُ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِ يَقِينِهِ بِمَصْدَرِ يَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَرِيدُهُ ، وَلَكِنْ حِينَ يُؤْمِنُ بِمَصْدَرِ يَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَرِيدُهُ فَلَا تَجِدُهُ يَائِسًا قَانِطًا .

وَالْمُؤْمِنُ يَعْلَمُ أَنَّ النِّعْمَةَ لَهَا وَاهِبٌ ، إِنْ جَاءَتْ شُكْرُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَإِنْ سُلِبَتْ مِنْهُ ، فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ قَدْ سَلَبَهَا الْحِكْمَةَ <sup>(١)</sup> .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَقَدْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ۖ ۞ (٦) ﴾ [مرد]

ونحن نعلم أَنَّ الإنسانَ مَقْصُودٌ بِهِ كُلُّ أَبْنَاءِ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُمْ كَثِيرُونَ ، مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ ، وَمِنْهُمْ الْكَافِرُ -

وهنا تأتي كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، وَلَكِنْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْتَنِي الْمُؤْمِنُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ حِينَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقِيْ خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا (٣) ۖ ۞ (٣) ﴾ [العصر]

والإنسان مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أَنَّ المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

(١) عن صهيب الرومي قال قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩) .

(٢) الخسر : الهلاك والنقصان .

وقد أخرج أبو الشيخ الأصبهاني عن الضحاك في تفسيره معنى الآية: يقضى شمسها وتغربها ونجومها وسحابها. وفي الأرض، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمذائق والقصور. ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٩٣).

إذن : فالقرائن لها مهمة يجب ألا تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلي من الغرائز ويوجهها إلى مهامها .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا تَجَسَّوْا﴾<sup>(١)</sup> .. (١٢) [الحجرات]

أى : لا تتبعوا العورات<sup>(٢)</sup> ؛ لأننا لو أبجنا لواحد أن يتتبع عورات الناس ؛ لأبجنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته .

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَقِنْ أَذْقَا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ .. (٩) [هود]

وكلمة «النزع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسّر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعنى : استمساك المتزوع منه بالشئ المتزوع .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ .. (٢٦) [آل عمران]

(١) لا تجسسوا : أى : لا تتجسسوا ، حذف منه إحدى التاءين - لغرض بلاغى - والمراد : عدم تتبع عورات الناس ومعانيهم بالبحث عنها . [تفسير الجلالين] بصرف .

(٢) العورة : ما يستره الإنسان من جسمه حياءً . والعورة : الخلل والمعيب . والبيت عورة : أى فيه خلل وقوله : ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ .. (٢٧) [الأنزاب] أى : فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد . القاموس القويم باختصار .



كَانَ الْمَوْجُودُ فِي الْمَلِكِ يَتَشَبِّثُ بِهِ جَدًّا .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا <sup>(١)</sup> مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ <sup>(٢)</sup> ﴾ [هود]

وفي نفس السورة يأتي الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ <sup>(٣)</sup> ﴾

[هود]

وسنأتي لها بالخواطر من بعد ذلك :

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - في المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة

واليثوس الكفور :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً <sup>(٤)</sup> بَعْدَ ضَرَاءٍ <sup>(٥)</sup> مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ <sup>(٦)</sup>  
 ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي <sup>(٧)</sup> إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ <sup>(٨)</sup> ﴾

وهنا نجد الضراء هي المرحودة ، والنعماء هي التي نظراً ، عكس الحالة

الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هي المرحودة .

(١) المقصود الرحمة التي أنعم الله بها عليه .

(٢) النعماء : أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان ، فتكون ملازمة له .

(٣) الضراء : أثر الفقر والشدة . وقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخْلَقْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ .. ﴾ [الأنعام] .

ومنه : أصابته . [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبري] بتصرف .

(٤) السيئات : المصائب والمحن والمعسر .

(٥) فرح : صيغة مبالغة من الفرح ، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن] .

(٦) فخور : صيغة مبالغة من الفخر ، أي : كثير الفخر بما نال من الناس ، وفخور على الناس بما أوتي ، وغير

شاكر لله تعالى على نعمه . [مختصر تفسير الطبري ، وتفسير الجلالين] بتصرف .

فالتزع في الأولى طراً على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضراء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تنعم به النفس .

لكن التنعم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أى منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء» .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّةٍ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي .. ﴾ (١١)

[مرد]

ولا يقطن من يقول ذلك إلى المذهب الذي أذهب السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عني السيئات .

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يفرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ۝ (١٠) ﴾

[مرد]

وكان الفرح بالنعمة أذهله <sup>(١)</sup> عن المتعم ، وعن تزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب <sup>(٢)</sup> ، وقد نجد

(١) الذهول عن الشيء : أن يشغلك عنه أمر آخر . ذهل عن الشيء : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه تشغل . [اللسان ، مادة : ذهل] .

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهي كرم الفعل . وكرم المناقب : حسن الخلق كرم الفعال . [اللسان] بتصرف .

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر .

ونحن نعلم أن التمييز لفرد ما يوجد في المجتمع ، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتمييز .

ولذلك نجد النبي ﷺ يقول : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»<sup>(١)</sup> .

وفي إحدى المعارك مجده ﷺ يقول :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»<sup>(٢)</sup> .

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب ، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن :

«أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»<sup>(٣)</sup> وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم .

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين ، واجدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧٦/٥) من حديث أبي هريرة . وعند المحاكم في مستدركه (٦٠٤/٢) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة .

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب ، لا إلى أبيه عبد الله ، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة طاهرة شائعة ، وكان سيد أهل مكة ، وكان مشهوراً عندهم أن عبد المطلب بشر بالنبي ﷺ ، وأنه سيظهر ، وسيكون شأنه عظيماً ، فلزاد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتبنيهم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء ، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم . نقله الترمذي في شرحه لصحيح مسلم (٣٦٠/١٢) .

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب : أفرم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء : ولكن رسول الله ﷺ لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رسالة ، وإننا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكبنا على القتلى فاستقبلنا بالسهم ، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بقلته البيضاء ، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بدجامها ، وهو يقول : «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» .

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب .

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التي يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضائل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضائل أمامه ، ولرد كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك في القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ ۖ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (٨٦) [الكهف]

وهذا سلوك العابدين المتواضع .

أما حال الفخوريين اللاميين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صورهم القرآن في قول قارون :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ۖ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ﴾ (٧٨) [القصص]

وكان مصيره هو القول الحق :

﴿فَخَسَفْنَا ۖ بِهِ ۖ وَبِذَارِهِ الْأَرْضَ ۖ﴾ (٨١) [القصص]

ولذلك قلنا : إنك تحصن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها : «بسم الله ما شاء الله» ؛ لتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التي عندك .

(١) القصود ما فعله الخضر عليه السلام من : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذي كان سينهار .

(٢) أوتيته : أى : اكتسبته . يقصد المال الذي رزقه الله إياه ، ولكن قارون ادعى أن علمه هو الذي جلب له المال ، تكفر بنعمة الله عليه ، فاستحق عقاب الله .

(٣) الخسف : خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتغور يقول الحق : ﴿فَخَسَفْنَا ۖ بِهِ ۖ وَبِذَارِهِ الْأَرْضَ ۖ﴾ (٨١) [القصص]

[القصص] وخسف القمر : نقص نوره ، وخسوف الشمس يقع في أواخر الشهر المعمر في أيام الحاق ، وسبب ترميط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس ، فإن كان الخسف كلياً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان كسوفاً . وجاء في اللسان الخسف : سؤخ الأرض بما عليها أى : ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى : أغابه فيها . القاموس المختصر .

أما حين تنسى الواهب فلن يحفظ تلك النعمة لك .

ونحن نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع الفرح المنبعث عن انشراح الصدر والسرور بنعمة الله بل طلبه منا في قوله سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلكَ فَلْيَفْرَحُوا ۖ ۝٥٨ ﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه يطلب من المؤمن أن لا يكون الفرح المنبعث لأنفسه الأسباب ، والملازم له ، وإلا كان من الفرحين الذين ذمهم الله تعالى<sup>(١)</sup> .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ  
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٥٩ ﴾

وكلمة ﴿صَبَرُوا﴾<sup>(٢)</sup> هنا موافقة للأميرين اللذين سبقا في الآيتين السابقتين ، فهناك نوع الرحمة ، وكذلك هناك «نعماء» من بعد «ضرأء» ، وكلا الموقفين يحتاج للصبر ؛ لأن كلا منا مقدور للأحداث التي تمر به ، وعليه أن يصبر للمحظية حكمة القادر سبحانه .

وبدأ الحق سبحانه وتعالى هذه الآية بالاستثناء ، فقال جل وعلا :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ۖ ۝٥٩ ﴾ [هود]

(١) فقال عن قوم موسى أنهم قالوا القارون : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ۝٦٠ ﴾ [ القصص ] أى :  
الأشرير البطرين اللذين لا يعترفون بنعمة الله عليهم . وقال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا  
بِمَا آتَاكُمْ ۖ ۝٦١ ﴾ [الحديد] .

(٢) والذين صبروا ماضياً ، وصابروا حالاً ومستقبلاً هم أهل الفلاح مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يسألونها الذين  
آمَنُوا سَبِّحُوا وَصَابِرُوا وَرَابِعُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٢ ﴾ [ آل عمران ]

ولولا هذا الاستثناء لكان الكل - كل البشر - ينطبق عليهم الحكم الصادر في الآيتين السابقتين ، حكم باليأس والكفر ، أو الفرح والفخر دون تذكُّر واهب النعم سبحانه .

ولكن هذا الاستثناء قد جاء ليُطمئن الذين صبروا على ما قد يصيبهم في أمر الدعوة ، أو ما يصيبهم في ذواتهم ؛ لا من الكافرين ؛ لكن بتقدير العزيز العليم .

أو أنهم صبروا عن عمل إخوانهم المؤمنين .

إذن : فالصبر معناه حُدُّ النفس بحيث ترضى عن أمر مكروه نزل بها <sup>(١)</sup> .  
والأمر المكروه له مصادر عدة ، منها :

\* أمر لا غريم <sup>(٢)</sup> لك فيه كالمرض مثلاً .

\* أو أن يكون لك غريم في الأمر ؛ كأن يُسرق منك متاع ، أو يُعصى عليك ، وفي هذه الحالة تنشغل برغبة الانتقام ، وتتأجج نفسك برغبة النيل من هذا الغريم ، أكثر مما تتأجج في حالة عدم وجود الغريم ، فحين يمرض الإنسان فلا غريم له .

وفي حالة الرغبة في الانتقام فالصبر يختلف عن الصبر في حالة عدم وجود الغريم .

ولذلك عرض الحق سبحانه وتعالى لتأثي الصبر حسب هذه المراحل ،  
فسيدينا لقمان يقول لابنه :

(١) ويكون الصبر مطلوباً أيضاً عند امتناع النعمة امتحاناً لإيمان المؤمن فعن أبي سعيد الخدري أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : « ما يكن عندي من خير قلن أدخره عنكم » ومن يستعقب بعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٧١) ومسلم في صحيحه (١٠٥٣) كتاب الزكاة .

(٢) الغريم : الدائن ، والمدين . والجمع : غرماء . والمراد بالغريم هنا : الخصم أو العدو . [اللسان ، والمعجم القومياً] ينصرف .

## سُورَةُ هُودٍ

﴿١٣٥﴾

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿١٧﴾ [لقمان]

وفي موضع آخر يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ <sup>(٢)</sup> [الشورى]

وفي هذه الآية «لام» التوكيد لتؤكد أن هذا الأمر يحتاج إلى عزم قوى ؛ لأن لى فيها غريماً يشير غضبى .

فساعة أرى من ضربنى أو أهانتى أو سرقنى أو أساء إلى إسائة بالغة ، فالأمر هنا يحتاج صبراً وقوة وعزيمة .

أما فى الحالة الأولى - حالة عدم وجود غريم - فالحق سبحانه يكتفى فقط بالقول الكريم :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ...﴾ <sup>(٣)</sup> [لقمان]

ولكنه سبحانه أضاف فى الآية الأخرى «اللام» لتأكيد العزم ؛ وليضيف سبحانه فى حالة وجود غريم طلب الغفران ، فيقول سبحانه :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ <sup>(٤)</sup> [الشورى]

وهكذا نجد المستثنى ، وهم الصابرون على ألوانهم المختلفة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ <sup>(٥)</sup> [معد]

وما دام هنا صبر ، فالصبر لا يكون إلا على إيذاء . ولكن إياك أن يكون الإيذاء من خصمك فى الإيمان ، أو من خصمك فى ما دون الإيمان ،

(١) والقبول : إما صبر على المأمورات أو صبر على المحذورات ، أو صبر على المقدرات ، فمن توافرت به هذه المقامات كان من أهل العزم . وعزم الأمور معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها . [تفسير الجلالين] .

صارفاً لك عن نشاطك في طاعة الله سبحانه ؛ لأن الصبر لا يعنى أن تكبت غضبك وتعذب نفسك بهذا الكبت بما يصرفك عن مهامك في الحياة ، بل يسمح لك الحق سبحانه أن تتخلص من غلّك وحقدك ، بمعاشة الإيمان الذي يُخفف من غَلْواء الغضب .

ولكسر حدة الغلّ أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على من اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد لك أن تظل في حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل فيقول عز وجل :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. ﴾ (١٦٩)

[البقرة]

ولكن هناك القادر على التحكم في نفسه ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ <sup>(١)</sup> .. ﴾ (١٣١)

[آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ : أن الغيظ موجود ، لكن صاحبه لا ينحرك بنزوع انتقامي ؛ مثلاً نقول : « كظمت القرية » لأن حامل القرية لو لم يكظم الماء فيها ، لفضلت الماء منها ، أى : أنه يحبس الماء فيها .

وكظم الغيظ درجة ومنزلة ، قد لا تكون إيجابية ؛ لأن الغيظ ما زال موجوداً ؛ ولذلك تأتي مرحلة أرقى ، وتمثل في قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

(١) الكافرين الغيظ : الحاسين غيظهم في قلوبهم . [كلمات القرآن] .

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً ، وهو قادر على أن ينقله ، دعاه الله سبحانه وتعالى على رأس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الخور العين ما شاء » أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٠) وأبو داود في سننه (٤٧٧٧) والترمذي في سننه (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣) وقال : حسن غريب .



أى : أن تُخرج الغيظ من قلبك وتسامح .

إذن : فأنت هنا أمام مراحل ثلاث :

أن ترد الاعتداء عليك بمثله ، والمثلثة في رد الاعتداء أمر لا يمكن أن يتحقق ، فمن صفعتك صفقة ، كيف تستطيع أن تضبط كمية الألم في الصفعة التي تردها إليه ؟

إن المتحكم في رد الاعتداء هو الغضب ، والغضب لا يقيس الاعتداء بمثله ، فلا يتحقق العدل المطلوب ؛ لهذا يكون الصبر خيراً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ .. وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١١)

[النحل]

فإن أزدت من قوة صفعتك تكون معتدياً .

ولعلنا نذكر مسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير ، وبطلها هذا التاجر اليهودي الذي أقرض رجلاً مالاً ، وكان صك القرض يفرض أن يقطع اليهودي رطلاً<sup>(١)</sup> من لحم المقرض إن تأخر في السداد .

وتأخر المقرض في السداد ، وأراد المراهي اليهودي أن يقطع رطلاً من لحم المقرض ، وعرض الأمر على القاضي ، وكان القاضي رجلاً حكيماً ، وأراد أن يصدر حكماً يتلمس فيه العدالة ، فقال القاضي : لا مانع أن تأخذ رطلاً من لحم الرجل ؛ هات السكين ، واقطع رطلاً واحداً بلا زيادة أو نقصان ؛ لأننا سنأخذ مقابل تلك الزيادة من لحمك أنت وبنفس السكين ، وكذلك إن قطعت من اللحم ما يقل عن الرطل ، فسنقطع الناقص لك من لحمك أنت عقاباً لك .

(١) الرطل : معيار يوزن به أو يكال ، يختلف باختلاف البلاد ، وهو في مصر اثنا عشرة أوقية ، والأوقية اثنا عشر ذمماً ، والجمع : أرطال ، [المعجم الوسيط] .

وتردّد المرابى اليهودى ؛ لأن الجزار - أى جزار - لا يمكن أن يضبط يده ليقطع رطلاً مكتمل الوزن ، بل يقطع أحياناً ما يزيد عن الوزن المطلوب ، ويقطع أحياناً ما يقل عن الوزن المطلوب ، ثم يكمل أو ينقص الوزن حسب كل حالة .

وانسحب المرابى اليهودى وتنازل عن دعواه ، والذي دفعه إلى ذلك هو عدم قدرته على أخذ المثل ؛ فلو كان قد ارتقى قليلاً فى مشاعره لما وصل إلى هذا الحكم .

والحق سبحانه وتعالى يحضنا <sup>(١)</sup> على أن نرد العدوان بمثله ، وإن أردنا الارتقاء فلنكظم الغيظ ، وإن أردنا الارتقاء أكثر فلنخرج الغيظ من القلب ولتكن من العافين عن الناس <sup>(٢)</sup> ؛ لننال محبة الله تعالى ؛ لأنه سبحانه يقول :

﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٣٤)

[آل عمران]

وفى هذا يرتقى المؤمن بمنهج الله سبحانه ، فيجعل المعتدى عليه هو الذى يُحسن .

وحين تريد أن تفسر حب الله سبحانه للمحسنين فلسفياً أو منطقياً أو اقتصادياً ، ستجد القضية صحيحة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(١) المحض : الحب ، والتشجيع على فعل شيء . [اللسان] يتصرف ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ (٣٦) ولا يحضر على طعام المسكين (٣٥) [الحاقة] .

(٢) عن أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يشرف له الشيطان ، وترفع له الدرجات ، فليعف عن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢ / ٢٩٥) عن أبى بن كعب وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » قال الذهبى : « فيه أبو أمية ضعيف الدارقطنى وإسحاق لم يدرك عبادة » .

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ <sup>(١)</sup> أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ <sup>(٢)</sup> .. ﴿٢٢﴾ [التور]

فإن أسماء <sup>(٣)</sup> أخوك إليك سيئة ، فإما أن ترد بالمثل ، أو تكظم الغيظ أو ترقى إلى العفو ، وبذلك تكون من المحسنين ؛ لأنك إذا كنت قد ارتكبت سيئة ، وعلمت أن الله سبحانه وتعالى يغفرها لك ، ألا تشعر بالسرور ؟  
إذن : فما دُمت تريد أن يغفر الله تعالى لك السيئة عنه ، فلماذا لا تعفو عن سيئة أخيك في حقك ؟

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ <sup>(٢٢)</sup> [التور]

وقد جاء الحق سبحانه هنا من ناحية النفس ، فجعل عفو العبد عن سيئة العبد بحسنة ، فلغفور العبد ثمن عند الله تعالى ؛ لأن العبد سيأخذ مغفرة الله تعالى ، وفوق ذلك فأنت تترك عقاب المصيبة والانتقام منه لربك ، وعند التسليم له راحة ..

(١) صفح عن رجل : أمرض عنه أو عفا عنه ولم يؤاخذه بثلثه . قال تعالى : ﴿ .. وَإِنْ تَعَفَّوْا وَلْيَصْفَحُوا وَتَعَفَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التغابن] . وقال تعالى : ﴿ .. وَإِنَّ الْمَاعِزَ لَأَجْبَىٰ لِاصْفَحِ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ ﴾ [النحل] . [اللسان] بصرف .

(٢) تمام الآية : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التور] .

وقد نزلت هذه الآية في شأن أبي بكر الصديق الذي حلف أن لا يعطي ابن عاتكة مسطح بن أثانة ما كان يعطيه من قبل من النفقة بسبب ما تكلم به في حق عائشة مع من تكلم ، وهو ما يسمى بمحادثة الإفك . فأنزل سبحانه الآية ، فقال أبو بكر : والله إنى أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه وقال : لا أنزعها منه أبداً . راجع تفسير ابن كثير (٢/٢٧٥) وأسباب النزول للواحدي (ص ١٨٥) ط . المكتبة الثقافية ..

(٣) أسماء إماءة : فعل السوء ضد أحسن ، وأساء العمل لم يحسنه ، والمسيء اسم فاعل من أساء ، والمسيء الفحيح ، والمنكر ، والشيبة : مؤنث السيء ، بمعنى الفحيح . والسوءة : ما يفتح إظهاره وينفى ستره . الفاء ومن القويم : باختصار ..

ولو اقتضت أنت ممن أساء إليك ، ففصاصك على قدر قوتك ، أما إن تركته إلى قدرة الله تعالى ، فهذا أصعب وأشق ؛ لأنك تركته إلى قوة القوى . وهكذا ينال العافى عن المسىء مرتبة راقية ؛ لأنه جعل الله - سبحانه وتعالى - فى جانبه .

وهناك من يقول : كيف يأمر الدين الناس بأن يحسنوا لمن أساء إليهم ؟ ويعلى ذلك بأنه أمر ضد النفس .

وتقول : إن الإحسان إلى المسىء هو مرحلة ارتقاء ، وليست تكليفاً<sup>(١)</sup> أصيلاً ؛ لأن الحق سبحانه قد أباح أن ترد العدوان بمثله ، ثم حث المؤمن على أن يكظم غيظه ، أو يرتقى إلى العفو وأن يصل إلى الإحسان ، وكل هذه ارتفاعات اليقين بالله سبحانه وتعالى .

وانظر إلى نفسك - ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه عن كل مثل - إن أردت أن تطبق الأمر على ذاتك حين تجد ولداً من أولادك قد اعتدى على أخيه ، فقلبك وعواطفك وتلطفاتك تكون مع المعتدى عليه .

ومن يقول : كيف يكتفى الشرع بأن أحسن إلى من أساء إلى ؟

نقول له : تذكر قول الحسن البصرى رضى الله عنه<sup>(٢)</sup> : «أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى » .

ولو طبق العالم هذه القاعدة بيقين وإخلاص لصارت الحياة على الأرض جنة معجلة ، التسامح ، قوامها القرب ، ومنهجها الحب .

(١) لأن التكليف الزام ، والعفو من الفضل ، وفى التعامل بالفضل ارتقاء .

(٢) هو : الحسن بن يسار البصرى ، أبو سعيد ، تابعى ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة فى زمانه ، وهو أحد العلماء الفقهاء النساك . ولد بالمدينة ٢١ هـ ، ومثب فى كنف على بن أبى طالب ، كان يدخل على الولاة يأمرهم وينهاهم ، سكن البصرة وتوفى بها عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

6372

[هود]

[هود]

[الأنعام] أي: حافظ.

سُررت من فشل فلان» وَفَحْوَى<sup>(١)</sup> هذا الخطاب ، استنفهام في معرض النهي ، وهو استنفهام يحمل الرجاء .

وهنا تجدد أن الراجي هو ربك - سبحانه وتعالى - الذي أرسلك بالدعوة .

ولذلك يأتي قول الحق سبحانه مُبَيَّنًا : لا يضيق صدرك يا رسول الله من هؤلاء المتعنتين ، الذين يريدون أن يخرجوك عن مقامك الذي تلح دائماً في التأكيد عليه ، فأنت تؤكد لهم دائماً أنك بشر<sup>(٢)</sup> ، وكان المفروض فيهم أن تكون مطلوباتهم منك على مقدار ما أقدرت على نفسك ، فأنت لم تقل أبداً عن نفسك إنك إله ، ليطلبوا منك آيات تُخالف التواميس<sup>(٣)</sup> ، بل أنت مبلغ عن الله تعالى .

وإياك أن يضيق صدرك فلا تُبلغهم شيئاً مما أنزل إليك ؛ لأن البلاغ هو النُحْجَةُ عليهم ، فلو ضاق صدرك منهم ، وأنقصت البلاغ الموكل إليك ؛ لأنهم كلما أبلغوا بآية كذبوها ، فاعلم أن الله سبحانه وتعالى سوف يزيد عقابهم بقدر ما كذبوا .

(١) فحوى القول : مضجونه ومرماء الذي يتجه إليه القائل . والجمع : فحار ، وفحارى . والمعجم الوسيط .

(٢) أكد رسول الله ﷺ على هذا المعنى في أحاديث شريفة كثيرة جداً :  
- منها حديث رافع بن خديج قال : قدم نبي الله ﷺ بالمدينة ، وهم يأبسون النخل ، يقولون يلقيحون النخل ، فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كنا نصنعه . قال : لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً أفر كنوه ، فنقصت . قال : فذكروا ذلك له ، فقال : «إنا أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذلوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ، فإنما أنا بشر» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٦٢) كتاب الفضائل .  
- وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : «إنا أنا بشر ، أرضى كما يرضى البشر ، وأغضب كما يغضب البشر ، فأبما أحد دعوت عليه من أمتى بدعوة ليس لها بأجل ، أن يجعلها له طهوراً وزكاة وقرية يقره بها من يوم القيامة» . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٠٣) .

(٣) التواميس : القوانين الإلهية التي يخضع لها الكون .

وكلمة «ضائق»<sup>(١)</sup> اسم فاعل ، ويعنى أن الموصوف به لن يظل محتفظاً بهذه الصفة لتكون لازمة له ، ولكنها تعبر عن مرحلة من المراحل ، مثلما نقول : «فلان تاجر» أى : أنه قادر على القيام بأعمال النجارة مرة واحدة - أو قليلاً - ولا يحترف هذا العمل .

وكذلك كلمة «ضائق» وهى تعبر في مرحلة لا أكثر من قرط ما قابلوا الرسول ﷺ من إنكار ، وما طالبوا به من أشياء تخرج عن نطاق إنسانيته ، فقد طالبوا هنا أن ينزل عليه كثر .

وقد جاء الحق سبحانه بذكر مسألة الكثر ؛ ليدلنا على مدى ما عندهم من قيم الحياة ، فقيمة القيم عندهم تركزت في المال ؛ ولذلك قمتوا لو أن هذا القرآن قد نزل على واحد من الأثرياء ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ <sup>(٢)</sup> (٢١) ﴾

[الزخرف]

إذن : فلم يكن اعتراضهم على القرآن ، بل على من نزل عليه القرآن . وفى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرها عنها ، طلبوا أن ينزل إليه كثر ، وقد ظنوا أن الشراء سيلهيه هو ومن معه عن الدعوة إلى الله تعالى

(١) الضيق ( بالكسر والفتح للضاد وسكون الياء ) ضد السعة ، فى الماديات والمعنويات .  
واسم الفاعل ضائق ، قال تعالى : ﴿ وضائق به صدرك .. ﴾ [هود] (١٢) ﴿ وضائق بهم قرارها .. ﴾ [هود] (٢٧) . أى : زجج صيفاً فى صدره ، ومنه : ﴿ لقد تعلم أنك بضيق صدرك بما يقولون ﴾ [الحجر] . وقوله : ﴿ .. لولا أنه فى ضيق مما يسكرون ﴾ [التخل] وقرى : بفتح الضاد وكسرها . والمعنى : ولا يضيق صدرك بنسب مكرهم . ( القاموس التورم باختصار ) .

(٢) المراد بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى تحديد اسم الرجل العظيم المقصود . فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة . ومن الطائف : عزرة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير فى تفسيره ( ١ / ٢٧ ) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان » .

ونسوا أنهم قد عرضوا الثروة عليه من قبل <sup>(١)</sup>.

وهكذا وضح لمن عرض عليه هذا الأمر أن مسألة الكثير لا تشغله <sup>(٢)</sup>.  
والكثير <sup>(٣)</sup> - لغوياً - هو الشيء المجتمع ، فإن كانت الماشية - مثلاً -  
مليئة باللحم يقال لها : « مُكْتَنَزَةٌ لَحْمًا » ولكن كلمة « الكثير » أطلقت على  
الشيء الذي هو ثمن لآى شيء ، وهو الذهب .  
ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبَرَّهُمْ

[التوبة]

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٢٤) ﴿

(١) ذلك أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قاك يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في  
المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها  
فنعطيها أيها شاء ، ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد . ثم إليه تكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى  
رسول الله ﷺ ، فقال : يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السطة ( الشرف ) في العشيرة والكان  
في النسب ، وإنك قد أثبت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أعلامهم ، وعبت به  
آلهم ودينهم وكفرت به من مضي من آياتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها لعلك تقبل  
منها بعضها . فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد أسمع . قال : يا بن أخي ، إن كنت تريد بما  
جئت به من هذا الأمر مالا جنعتنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً  
سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . . . حتى إذا فرغ عتبة ،  
قال له ﷺ : ه أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل ، فقال : ﴿ ه سمع  
(٦) تنزيل من الرحمن الرحيم (٧) كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (٨) ﴾ [فصلت] . ثم مضى  
ﷺ فيها بقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أتعت لها ، وألقى يديه خلف ظهره فاعتنق عليها يسمع  
منه . فلما عاد إلى قومه قال لهم : خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكون  
لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن نصيبه العرب فقد كفيتموه ، بئيركم ، وإن يظهر على العرب  
فملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسد الناس به . [ من سيرة النبي لابن هشام ١ / ٢٩٣ ، ٢٩٤ -  
بتصرف ] .

(٢) كثير المال يكثره كثراً : جمعه وأدخره . قال تعالى : ﴿ هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَتَلَّوْهُمَا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ

(٢٤) ﴾ [التوبة] وقال تعالى : ﴿ ه وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبَرَّهُمْ بِعَذَابٍ

أَلِيمٍ (٢٥) ﴾ [التوبة] والفنمير زاجع إلى الفضة لقربها في الذكر ، ولأنها أقل قيمة ، فممن يبخل بها

يبخل بالذهب من باب أولى . [ القاموس التوحيدي ] .



ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين الرزق المباشر والرزق غير المباشر ، فالرزق الغير مباشر هو ما تستفيع به ، طعاماً أو شرباً ، وهناك شيء يأتي لك بالرزق الغير مباشر ؟ لكنه لا يُغنى عن الرزق المباشر المستمر <sup>(١)</sup> .

فلو أن إنساناً في صحراء ومعه قناطير <sup>(٢)</sup> مقنطرة من الذهب ، ولا يجد طعاماً ولا شربة ماء ، ماذا يفعل له الذهب ؟ ولو عرض عليه إنسان آخر رغيف خبز وشربة ماء مقابل كل ما يملك من ذهب لوافق على الفور . وهنا لا يكون التقييم أن قنطار الذهب مقابل الرغيف وشربة الماء ، ولكن قنطار الذهب هنا مقابل استمرار الحياة وضرورة الحاجة .

إذن : معنى كلمة " كنز " هو نقد من الذهب والفضة مجتمعاً ، ويقال عنه بالعامية عندنا في مصر : «نقود تحت البلاطة» ، ولكن إذا أدنى صاحب هذا النقد حق الله تعالى فيما أدخره ، لا يُعتبر كنزاً ؛ لأن الشرط في الكثر أن يكون مخفياً ، والزكاة التي تُخرج من المال المدخر توضح للمجتمع أن صاحب المال لا يخفي ما عنده .

ولذلك لا يُسمى الكثر إلا للشيء المجتمع وممنوع منه حق الله تعالى ، فإن أدنى حق الله سبحانه فقد رفعت عنه الكثرية ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) ﴾

[التوبة]

(١) الرزق المباشر ما تقتضى به الحوائج بسيرة الاستمرار ، والغير مباشر تقتضى به الحوائج بصعوبة الحاجة والضرورة .

(٢) قناطير : جنت قنطار ، وهو مقدار مختلف المقدار عند الناس ، وهو بمصر في زماننا مائة رطل ، وهو ٩٢٨ ، ٤٤ من الكيلو جرامات . وقد يقصد بالقنطار : المال الكثير . [ المفهم الوسيط ] .

ومن هذا القول الكريم نفهم أن مَنْ يملك مالا ويؤدى حقَّ الله فيه ، لا يُعتبر كَثْرًا<sup>(١)</sup> ، وحين تُنْقَضَ الزكاةُ المالَ فى ظاهر الأمر ، فهى تدفع الإنسان إلى أن يُحَسِّنَ استثمارَ هذا المال ؛ حتى لا يفقده على مدار أربعين عاماً ، بحكم أن زكاة المال هى اثنان ونصف فى المائة ؛ ولذلك يحاول صاحب المال أن يُثْمِرَهُ ، وهو بذلك يُهيىء فرصة لغير واجدٍ وقادرٍ لأن يعمل ، وبذلك تقل البطالة .

وقد تكون أنت صاحب المال ؛ لكنك لا تفهم أسرار التجارة والصناعة ، فتشارك مَنْ يفهم فى التجارة أو الصناعة ، وبذلك تفتح أبواب فرص عمل لمن لا عمل له وقادر على إدارة العمل .

هذه هى إرادة الحق سبحانه وتعالى فى أن يجعل من تكامل المواهب نماءً وزيادة ، تكامل مواهب الوجد - النقود - ومواهب الجهد ، وبين الوجد والجهد تنشأ الحركة ، ويتفق صاحب المال مع صاحب الجهد على نسب الربح حسب العرض والطلب ؛ لأن كل تبادل إنما يخضع لهذا الأمر - العرض والطلب - لأن مثل هذا التعاون بين الواجد والقادر ينتج سلعة ، والسلعة لا هوى لها ، ولكن من يملك السلعة ومن يشتري السلعة لهما هوى ، فمالك السلعة يرغب فى البيع بأعلى سعر ، ومن يرغب فى شراء السلعة يريد بها بأقل سعر ، لكن السلعة نفسها لا هوى لها .

وما دام العرض والطلب هو الذى يتحكَّم فى السلع ، فهذا توازن

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٤ / ٣٠٥١) : اختلف العلماء فى المال الذى أدب زكاته هل يُسمى كَثْرًا أم

لا ، فقال قوم : نعم . ورواه أبو الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي بن رضى الله عنه ، قال على : أربعة آلاف فمأدونها ثقتة ، وما كثر فهو كثر وإن أدب زكاته ، ولا يضح .

وقال ابن عمر : ما أدب زكاته فليس بكثرة ، وإن كان تحت سبع أربين ، وكل ما لم تُؤد زكاته فهو كثر وإن كان فوق الأرض . ومثله عن جابر ، وهو الصحيح .

في ميزان الاقتصاد<sup>(١)</sup>

وعلى سبيل المثال : إن عُرضت اللحوم بسعر مرتفع ، فكبراء الذات في النفس البشرية تدفع غير القادر لأن يقول : إن تناول اللحم يرهقني صحياً . ويتجه إلى الأطعمة الأخرى التي يقدر على ثمنها ؛ لأن السلعة هي التي تتحكم ، أما إذا تدخل أحد في تسعير السلع ، بأن اكتنز المال ، ولم يخرج له للسوق لاستثماره ، حيثئذ تختفى قدرة الحركة لصاحب المال ، ولا يجد صاحب الموهبة مجالاً لإتقان صنعة .

وقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية :

﴿لَوْلَا<sup>(٢)</sup> أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَثْرًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ...﴾ (١٢) [هود]

فكلمة «لولا» - كما نعلم - للتمني ، وهم تمنوا الكثر أولاً ، ثم طلبوا مجيء ملك ، وكيف ينزل الملك ؟ أينزل على خلقه أم على غير خلقه بأن يتجسد على هيئة رجل ؟

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا...﴾ (١٤) [الأنعام]

(١) قصد في أمر ، يقصد كضرب قصداً : اعتدل فيه وسلك مسلكاً وسطاً ، مثل قوله تعالى : ﴿واقصد في مشيك...﴾ [القمان] أي : اعتدل وتوسط فيه وقال : ﴿فَسَنُفَعِّلُهُمْ مَقْنَصَةً...﴾ (٢١) [القمان] أي : نعتدل غير متخرف يقول الحق : ﴿...سَنُفَعِّلُهُمْ أُمَّةً مُقْنَصَةً﴾ (٢١) [المائدة] والاقتصاد الآن أصبح علماً له مناهجه ، وهو فن إدارة المال ، ولا يخرج التعريف الحديث عن ما ذهبت إليه اللغة ، وأشار إليه القرآن الكريم (القاموس القويم بزيادة اقتضاها المقام) .

(٢) لولا : حرف شرط لا يعمل ، ويدل على امتناع الجواب لو جرد الشرط . وقد يستعمل كأداة عرض وتخصيص مثل (هلاً) فتخصص بالدخول على الفعل المضارع في مثل قوله تعالى : ﴿...لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٤) [التعل] وتدخل على الفعل الماضي الذي في تأويل المضارع مثل قوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَثْرًا...﴾ (١٢) [هود] أي : لولا ينزل عليه كثر . وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ...﴾ (١٤) [الأنعام] أي : لولا تؤخرني . [القاموس القويم] بتصرف .

وأيضاً قال الحق سبحانه وتعالى :

ولو أنزله إحق سبحانه ملكاً فسوف يكون من نفس طبيعتهم البشرية ،  
وسوف يلتقى بهم ويتكلم معهم ، ولن يستطيعوا تمييزه عن بقية الناس  
وسوف يكذبونه أيضاً ..

وهذا الكلام موجّه من الله سبحانه للرسول ﷺ ليُلْقِيَ الحجة التي يرد بها عليهم ، وقد قال لهم الرسول ﷺ عن نفسه إنه نذير وبشير ، وقد طلب غيركم الآيات ، وحين جاءت الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا ، بل ظلُّوا على تكذيبهم ، فنكَّل الحق سبحانه بهم <sup>(١)</sup> .

إِذْ : فالتعاد بالكفر لا ينقلب إلى إيمان بمجرد نزول الآيات ، والحق سبحانه هو القائل :

(١١) التذير : الرِّسْوَةُ التَّذِيرُ وَالْعَذَابُ . قَالَ نَعَالِي : ﴿ وَأَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ ﴾ [الأعراف] .

(٢) وفي هذا يقول سبحانه : **وَالسَّمُورُ بِاللَّهِ جَهِدُوا أَيْمَانَهُمْ فَمِنْ جَاهِنِهِمُ آيَةٌ لِيُؤْمِنَ بِهَا قُلُوبٌ الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا تَشْعُرُكُمْ أَنَهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٤٦)** وَلَقَدْ أَفْقَدْتَهُم وَابْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدَرْتُمْ فِي حُلُقَانِهِمْ يَنْصَرِفُونَ (١٤٧) [الأنعام] .

## سُورَةُ هُودٍ

٦٣٧١

أى : أن الآيات التي طلبها الكافرون لم يأت بها الله سبحانه ؛ لأن الأولين قد كذبوا بها ؛ ولذلك يبلغ الحق سبحانه رسوله ﷺ هنا بقوله :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ .. (١٢) ﴾ [هود]

وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالإنذار والبشارة <sup>(١)</sup> .

ويُنتهى الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

﴿ .. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٣) ﴾ [هود]

وأنت حين توكل إنساناً في البيع والشراء والهبة والنقل ، وله حرية التصرف في كل ما يخصك ، وترقب سلوكه وتصرفه ، فإن أعجبك ظلمت على نفسك بتوكيله عنك ، وإن لم يعجبك تصرفه فأنت تلغى الوكالة ، هذا في المجال البشري ، أما وكالة الله سبحانه وتعالى على الخلق <sup>(٢)</sup> فهي باقية أبداً ، وإن أبى الكافرون منهم .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ

وَأَدْعُوا مِنْ أَسْطِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤) ﴾

وفي قول الحق سبحانه وتعالى هنا بيان للون آخر من مصادمة الكافرين لمنهج رسول الله ﷺ والإيمان به ، فقالوا : إن محمداً قد افترى القرآن .

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. (١١٩) ﴾ [البقرة]

(٢) الوكيل : الحافظ الأمين والناصر والمعين . قال تعالى : ﴿ .. وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٣٧) ﴾ [آل عمران] ، وكالة الله على خلقه أى : رعايتهم بالرزق والحفظ والنصرة .

(٣) الافتراء : اختلاق الكذب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (١٣) ﴾ [هود] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ .. (١٤) ﴾ [هود] أى : مكذوبات كما تكذبون . [القاموس القويم] .

والافتراء : هو الكذب المتعمد ، ومعنى الكذب المتعمد أنه كلام يخالف واقعاً في الكون .

فإذا كان الواقع نقيضاً وأنت قلت قضية إثبات ؛ تكون قد خالفت الواقع ، كأن يوجد في الكون شيئاً ثم تقول أنت : لا يوجد شيئاً في هذا المكان ، وهكذا يكون الواقع إيجاباً والكلام نقيضاً .

وكذلك أن يكون في الواقع نقيض وفي الكلام إيجاب ، فهذا أيضاً كذب ؛ لأن الصدق هو أن تتوافق القضية الكلامية مع الواقع الكوني ، فإن اختلفت مع الواقع الكوني صار الكلام كذباً .

والكذب نوعان : نوع متعمد ، ونوع غير متعمد . والكذب عرق واقع واختلاق غير موجود . ويقال : خرق الشيء أي : أنك أتيت لواقع وبدلت فيه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَخَرَقُوا<sup>(١)</sup> لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَنَبَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾ (١٠٠)

[الأنعام]

ويقول أيضاً الحق سبحانه :

﴿ وَتَخْلُقُونَ<sup>(٢)</sup> إِنْكَا<sup>(٣)</sup> .. ﴾ (١٧)

[المتكبر]

أي : تأتون بشيء من عدم ، وهو من عندكم فقط .

ويقول الله سبحانه تعالى :

(١) خرق الأمر أو الكلام : كذبه واخترعه . قال تعالى : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَنَبَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴾

(٢) [الأنعام] أي : نسبوا له بين ونبات كذباً واختراعاً بغير علم . [المعجم الوسيط] .

(٣) الإنك : الكذب والافتراء الباطل . وقال تعالى : ﴿ .. وَذَلِكَ إِنْكَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْتَرُونَ ﴾ (٢٠)

[الاحقاف] . وقال تعالى : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخَذُوا بِإِلْفِكَ عُصْبَتِكَ .. ﴾ (٦٥) [التوراة] .

﴿... وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦) [الأنعام]

وحين اتهموا محمداً ﷺ بهتاناً بأنه افترى القرآن جاء الرد من القرآن الكريم بمتهى البساطة ، فأنتم - معشر العرب - أهل فصاحة وبلاغة ، وقد جاء القرآن الكريم من جنس ونوع نُبوغكم ، وما دمتم قد قلتم : إن محمداً قد افترى القرآن ، وأن آيات القرآن ليست من عند الله ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

وما دام الافتراء أمراً سهلاً بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سور منه ؟ وأنتم قد عشتم مع محمد منذ صغره ، ولم يكن له شعر ، ولا نثر ، ولا خطابة ، ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يزاول الشعر أو الخطابة ، ولم يشترك في أسواق البلاغة والشعر التي كانت تُعقد في الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان من لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة ، قد جاء بهذا القرآن ؛ فليكن لديكم - وأنتم أهل قُدرة ودُرّة ورياضة على البلاغة أن تأتوا ببعض من مثله ، وإن كان قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون مثله ؟

وأنتم تعرفون المعارضات التي تُقام في أسواق البلاغة عندكم ، حين يقول شاعر قصيدة ، فيدخل معه شاعر آخر في مبارزة ليلقي قصيدة أفضل من قصيدة الشاعر الأول ، ثم تُعقد لجان تحكيم تُبين مظاهر الحُسْن ومظاهر السوء في أي قصيدة .

ولو كان محمداً ﷺ قد افترى القرآن - كما تقولون - فأين أنتم ؟ ألم تعرفوه منذ طفولته ؟ ولذلك يأمر الحق سبحانه رسول الله ﷺ أن يقول :

(١) يَخْرُصُونَ : يَكْذِبُونَ . ويستعمل الخُرُص في القرآن بمعنى الكذب أو الظن الخاطيء . قال تعالى : ﴿... وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام] أي : يَكْذِبُونَ أو يُخَمِّنُونَ ويظنون ولا يعلمون حقيقة الأمر على سبيل اليقين . [القاموس القزويني - ١/١٤٩]

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ<sup>(١)</sup> فِيكُمْ عُمُرًا  
مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ<sup>(٢)</sup>﴾ [يونس]

فَهَلْ أَثَرَ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ شِعْرًا أَوْ أَلْقَى خُطْبَةً أَوْ ثَبَرَ<sup>(٣)</sup>  
فِي عَكَاظٍ<sup>(٤)</sup> أَوْ الْمَرِيدِ أَوْ ذِي الْمَجَازِ<sup>(٥)</sup> أَوْ الْمَجَنَّةِ<sup>(٦)</sup> ، وَتِلْكَ هِيَ أَسْوَاقُ  
الْبَلَاغَةِ وَمَهْرَجَانَاتُهَا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ ؟

هُوَ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْأَمَاكِنِ مُنَافِسًا أَوْ قَاتِلًا .

إِذَنْ : أَفَلَيْسَ الَّذِينَ تَنَافَسُوا هُنَاكَ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى الْاِفْتِرَاءِ ؟ أَلَمْ يَكُنْ أَمْرُ  
الْقَيْسِ شَاعِرًا فَحَالًا ؟ لَقَدْ كَانَ ، وَكَانَ لَهُ نَظِيرٌ يَعَارِضُهُ .

وَكَذَلِكَ كَانَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ حِلْزَةَ الْيَشْكُرِيُّ ، كَمَا جَاءَ  
فِي عَصُورٍ تَالِيَةِ آخَرُونَ مِثْلُ : جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ .

إِذَنْ : فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ مَنْ يَقُولُونَ الشَّعْرَ وَمَنْ يَعَارِضُونَهُمْ مِنْ أَمْثَالِهِمْ مِنْ  
الشُّعْرَاءِ .

إِذَنْ : فَهَاتُوا مَنْ يَفْتَرِي مِثْلَ سُورِ الْقُرْآنِ ، فَإِنْ لَمْ تَفْتَرُوا ، فَمَعْنَى  
ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ اِفْتِرَاءً .

وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُنَا :

(١) لَبِثْتُ : أَقَامَ وَاسْتَقَرَّ . وَقَالَ تَعَالَى عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ [٢٠٥] . وَلَبِثْتُ فِي  
بَطْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [٢١٤] . { الصَّافَاتُ } . وَقَالَ سُبْحَانَهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قُلْتُ فِيهِمْ أَلِفَ سَنَةٍ إِلَّا  
خَمْسِينَ عَامًا . ﴾ [٢١] . { الْعَنَكِبُوتُ } . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ... فَخَلَّفْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ لَمْ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ  
يَا مُوسَى ﴾ [٥٠] . { طه } .

(٢) الثَّبَارُ : التَّنَافُسُ وَالتَّسَابُقُ .

(٣) سَوَاقُ عَكَاظٍ : سَوَاقُ بَقَرٍ مَكَّةَ ، كَانَ الْعَرَبُ يَجْتَمِعُونَ بِهَا كُلِّ سَنَةٍ ، فَيَقِيمُونَ شَهْرًا يَتَنَاجَوْنَ  
وَيَتَفَاخَرُونَ وَيَتَنَاسَلُونَ ، وَاسْمُ عَكَاظٍ هَذَا ، وَيُقَالُ : تَعَاكُظُ الْقَوْمِ : تَعَارُكُوهَا وَتَفَاخَرُوهَا  
[ انْظُرْ لِسَانَ الْعَرَبِ - مَادَّةُ عَكَاظ ]

(٤) ذُو الْمَجَازِ : مَوْضِعٌ مِّنْ - وَقِيلَ عِنْدَ عَرَفَاتٍ - كَانَ يُقَامُ فِيهِ سَوَاقٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . [ اللِّسَانُ مَادَّةُ : جَوْز ]

(٥) الْجَنَّةُ : مَوْضِعٌ عَلَى بَعْدِ أَمِيَالٍ مِّنْ مَّكَّةَ ، كَانَ بِهَا سَوَاقٌ مِّنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ .



﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ۝ (١٣) ﴾ [هود]

فهل كانوا قادرين على قبول التحدى ، بأن يأتوا بعشر سُورٍ من مثل القرآن الكريم فى البيان الأسر " وقرة الفصاحة وأسرار المعانى ؟

لقد تحدّاهم بأن يأتوا - أولاً - بمثل القرآن " ، فلم يستطيعوا ، ثم تحدّاهم بأن يأتوا بعشر سور ، فلم يستطيعوا ، وتحدّاهم بأن يأتوا بسورة " ، ثم تحدّى أن يأتوا ولو بحديث مثله ، فلم يستطيعوا .

وهنا جاء الحق سبحانه بالمرحلة الثانية من التحدى ، وهو أن يأتوا بعشر سُور ، ولم يكتفِ الحق سبحانه بذلك ، بل طالبهم أن يدعوا مَجْمَعاً من البُلغاء ، فقال سبحانه :

﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۝ (١٤) ﴾ [هود]

أى : هاتوا كل شركائكم وكل البُلغاء ، من دُونِ الله تعالى .

الحق سبحانه وتعالى هنا يقطع عليهم فرصة الادعاء عليه سبحانه حتى لا يقولوا : سوف ندعو الله ؛ ولذلك طالبهم الحق سبحانه أن يُجَنَّبُوهُ ﴿ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (١٤) ﴾ [هود]

أى : إن كنتم صادقين فى أن محمداً ﷺ قد افترى القرآن " ، وبما أنكم

(١) الأسر : الذى يأخذ بالباب الناس وعقولهم .

(٢) وذلك فى قول الله سبحانه : ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسَ وَالْعِزَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ۝ (٥٥) ﴾ [الإسراء] أى : معاً .

(٣) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۝ (٢٣) ﴾ [البقرة] . ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٢٤) ﴾ [يونس] .

(٤) القرآن : يطلق على كتاب الله المعجز ، المكتوب فى المصاحف ، الذى نزل على رسول الله ﷺ ، ويطلق متجازاً مرسلًا علانته الجزئية على الصلاة ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَوُا الْعَجْرَ ۝ (٧٨) ﴾ [الإسراء] أى : صلاة الفجر ( القاموس القويم باختصار ) .

أهل ريادة في الفصاحة فلتفتروا عَشْرَ سُورٍ من مثل القرآن ، أنتم ومن تستطيعون دعوتهم من الشركاء .

لذلك كان الرد الحكيم من الله في قول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَالَّذِينَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهْلَ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١٤)

والخطاب هنا موجه إلى الذين ادَّعوا أنَّ رسول الله ﷺ قد افترى القرآن ، أو أنَّ الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في الآية السابقة :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ (١١) «وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١٢) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. (١٤) ﴿

أي : إن لم يردوا على التحدي ، فليعلموا وليتيقنوا أنَّ هذا القرآن هو من عند الله تعالى ، بشهادة الخصوم منهم .

ولماذا عدَّلَ الحق سبحانه هنا الخطاب ، وقال :

﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ (١٤) ﴿

(١) مفتریات : مختلفات مكتوبات كما نادَّعون .

(٢) وعن القرآن قال عتبة بن ربيعة لقومه بعد حوار طويل مع رسول الله ﷺ لإثباته عن النفس في دعوته : « خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله لبيكونن لفوئه الذي سمعتُ منه نبأ عظيم » [سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٤] .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ .. ﴾ (١٤) ﴿ [هود] «ولم يقبل : لك . قيل : هو على تحويل المخاطبة من الأفراد إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً ، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة .

وقيل : التضمير في «لكم» وفي «فاعلموا» للجميع ، أي : فليعلم الجميع : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ .. ﴾ (١٤) ﴿ [هود] «قاله مجاهد : وقيل : التضمير في «لكم» ، وفي «فاعلموا» للمشركين ، والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعوته إلى العاونة ، ولا تهيبات لكم المعارضة : ﴿ فاعلموا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ

اللَّهِ .. ﴾ (١٤) ﴿ [هود] . [قاله القرطبي في تفسيره ١/ ٣٣٣] .

أي : من تدعونهم ، ثم قال سبحانه :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٤) ﴾ [هود]

وقد قال الحق سبحانه ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ مُطَالِبٌ بالبلاغ وما بلغه الرسول ﷺ للمؤمنين مطلوب منه أن يبلغوه ، وإن لم يستجيبوا للرسول ﷺ أو للمؤمنين ، ولم يأت أحد مع مَنْ يتهم القرآن بأنه مُفْتَرَى من محمد .

وقد يكون هؤلاء الموهوبون خائفين من التحدى ؛ لأنهم عرفوا أن القرآن حق ، وإن جاءوا ليفتروا مثله فلن يستطيعوا ، ولذلك فاعلموا - يا مَنْ لا تؤمنون بالقرآن - أن القرآن : ﴿ أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٤) ﴾ [هود]

إذن : فالخطاب يكون - مرة - موجهاً للنبي ﷺ ولأمته .

ولذلك عدل الحق سبحانه عن ضمير الإفراد إلى ضمير الجمع في قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٥) ﴾ [هود]

أي : ازدادوا علماً أيها المؤمنون بأن القرآن إنما نزل من عند الله .

والعلم - كما نعلم - مراحل ثلاث : علم يقين ، وعين يقين ، وحق يقين<sup>(١)</sup> .

أو أن الخطاب مُوجَّه للكافرين الذين طلب القرآن منهم أن يدعوا من يستطيعون دعاءه ليعاونهم في معارضة القرآن : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . . (١٥) ﴾ [هود]

وأعلى مراتب العلم عند الحق سبحانه الذي يعلم كل العلم أزلاً ، وهو غير علمنا نحن ، الذي يتغير حسب ما يتبع لنا الله سبحانه أن نعلم ، فأنت قد تكون عالماً بشيء وتجهل أشياء ، أو علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

(١) هذا التقسيم ذهب إليه أهل الحقيقة والمعارف من وحي الترييض العلمي والروحي والمشهدى .

ولذلك نجد الأطباء ، وأصحاب الصناعات الدقيقة وغيرهم من الباحثين والعلماء يستدرك بعضهم البعض ، فحين يذهب مريض لطبيب مثلاً ويصف له دواءً لا يستجيب له ، فيذهب المريض إلى طبيب آخر ، فيستدرك على الطبيب الأول ، فيصف دواءً ، وقد لا يستجيب له المريض مرة ثانية ، وهنا يجتمع الأطباء على هيئة «مجمع طبي» يُقرر ما يصلح أو لا يصلح للمريض .

ويستدرك كلٌ منهم على الآخر إلى أن يصلوا إلى قرار ، والذي يستدرك هو الأعلَم ؛ لأن الطبيب الأول كتب الدواء الذي أُرهِق المريض أو لم يَسْجِبْ له ، وهو قد حكم بما عنده من عِلْمٍ ، كذلك بقية الباحثين والعلماء .

وما دام فوق كل ذي علمٍ عِلْمٌ ؛ فالطبيب الثاني يستدرك على الطبيب الأول .. وهكذا .

ولكن أيجد أحدٌ يستدرك على الله سبحانه وتعالى ؟ لا يوجد .

وما دام القرآن الكريم قد جاء بعِلْمِ الله تعالى ، فلا علم لبشرٍ يمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن :

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١١) ﴾ [هود]

وجاء الحق سبحانه هنا بأنه لا إله إلا هو ؛ حتى لا يدعى أحدٌ أن هناك إلهاً آخر غير الله .

وذكر الله سبحانه هنا أن هذا القرآن قد نزل في دائرة :

﴿ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١١) ﴾ [هود]

وما دام الحق سبحانه قد حكم بذلك فلتثق بهذا الحكم .

مثال ذلك : هو حكم الحق سبحانه على أبي لهب<sup>(١)</sup> وعلى امرأته<sup>(٢)</sup> بأنهما سيدخلان النار<sup>(٣)</sup> فهل كان من الممكن أن يعلن أبو لهب إسلامه ، ولو نقاشاً ؟ طبعاً لا ؛ لأن الذي خلقه علم كيف يتصرف أبو لهب .  
لذلك نجد بعد سورة المسد<sup>(٤)</sup> التي قررت دخول أبي لهب النار ، قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ﴾ [الإخلاص]

أى : أن الحق سبحانه ما دام قد أصدر حكمه بأن أبا لهب سيدخل وزوجه النار ، فلن يقدر أحد على أن يغير من حكمه سبحانه ، فلا إله إلا هو .  
ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ .. فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ ﴾ [مجاد]

وهذا استفهام ، أى : طلب للفهم ، ولكن ليس كل استفهام طلباً للفهم ، فهذا الاستفهام هنا صادر عن إرادة حقيقية قادرة على فرض الإسلام على من يستفهم منهم .

(١) أبو لهب هو أحد أعمام رسول الله ﷺ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة سمي أبا لهب لشدة احترام وجهه كانه الذهب .

(٢) كانت امرأته من سادات نساء قريش ، وهى أم جميل ، واسمها لزوى بنت حرب بن أمية ، وهى أخت أبي سفيان ، وكانت عروناً لزوجها على كفره وجحوده وعناقه .

(٣) وذلك فى قول الله عز وجل عن أبي لهب وامرأته فى سورة المسد : ﴿ سِجِّيلٌ تَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ ٥ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ ٦ ۝ ﴾ [المسد] .

وسبب نزول هذه السورة كما أخرج البخارى فى صحيحه (٤٩٧١) : عن ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى الطحاء ، فصعد الجبل ، فنادى " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أم ممسيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألماذا جمعتنا ؟ نيا لك . فأنزل الله : ﴿ نَبِّئْ يَا أَبَى لَهَبٍ وَنَبِّئْ ۝ ١ ۝ ﴾ [المسد] إلى آخرها .

(٤) مسد الجبل [مكتنر] مسداً : أجاد فثله . والمسد الليف قال تعالى : ﴿ فِى جَبِينِهَا حُلٌّ مِّنْ فِئْدٍ ۝ ٦ ۝ ﴾ [المسد] أى : من ليف خشن : « القاموس المفرد » .

ولكنه سبحانه شاء أن يأتي هذا الاستفهام على لسان رسوله ليقابله جواب ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا يوجد إلا الإسلام لما قالها ، ولو لم يكن السائل واثقاً أنه لا جواب إلا أن يسلم السامع ، ما جعل جواب السامع حجة على السامع .

وقابل هذا الكلام هو الخالق سبحانه ، ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزّه عن كل مثل ، تجد إنساناً يحكى لك أمراً بتفاصيله ، ثم يسألك : هل أنا صادق فيما قلت لك ؟ . . وهو يأتي بهذا الاستفهام ؛ لأنه واثق من أنك ستقول له : نعم ، أنت صادق .

وإذا نظرنا في آية تحريم الخمر والميسر - على سبيل المثال - تجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٩٧) ﴿

[ثلاثة]

(١) الشيطان كل عاد متعمد من الإنس أو من الجن ، والشيطان من الجن مخلوق عجيب خلق من الناس ، وهو عدو للإنسان يقره بالنسر ، إلا من حفظه الله بالإيمان : يقول الحق : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ (٩٨) ﴿ وكذلك كل من التجأ إلى الله ، فالله حافظه من كيد الشيطان . [ القاموس القرين - يتصرف ]

(٢) أخرج ابن جرير في تفسيره عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شرب لنا ونحن على رمل ، ونحن على ثلاثة أو أربعة ، وعثنا باطية لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ فمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ (٩٧) ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٩٧) ﴿ فحدث إلى أصحابي فقرأت عليهم إلى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ قال : وبعض القوم شررت في يده ، قد ضرب بعضها ، وبقي بعض في الإساءة ، فقلنا بالإفاء تحت شفقتنا ألما كما يفعل الحجاج ، ثم صبروا ما في باطنهم فقالوا : انتهينا ربنا ، ذكره ابن كثير في تفسيره ( ٩٥ / ٢ ) .

وكان هذا الاستفهام يحمل صيغة الأمر بأن : انتهبوا من الخمر والميسر  
واخلجوا عما تفعلون .

إذن : فقول الحق سبحانه في آخر الآية الكريمة :

﴿ .. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) ﴾ يعنى : أسلموا ، واتركوا اللجاجة <sup>(١)</sup> بأن  
القرآن قد جاء من عند محمد ، أو أنه افتراه ، بل هو من عند الله سبحانه  
الذى لا إله إلا هو .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا نُوفَ إِيَّاهُمْ أَعْمَلَهُمْ  
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ (١٥) ﴾

وكان الكافرون <sup>(٢)</sup> قد تكلموا بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم  
وقالوا :

﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ (١٦) ﴾

[هود]

(١) اللجاجة : اختلاط الأصوات وارتفاعها ، والمقصود التشويش على القرآن بأدعيات باطلة .  
(٢) يخسه حقه : نقصه حقه ولم يرقه إياه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاهُمْ .. ﴾ (٥٩) [الأعراف] . والتمن البخس : القليل الناقص عن مثله ، ﴿ وَشُرُوءُ بَنِينَ بَخْسٍ .. ﴾ (٦٠) [يوسف] .  
(٣) اختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقليل : نزلت في الكفار ، قاله الضحاك ، واختاره النحاس ،  
بدليل الآية التي بعدها : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَسِيَ اللَّهُ فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ .. ﴾ (٦١) [هود] ، أي : من أتى منهم  
بصلة رحم أو صدقة فكأنه بها في الدنيا ، بصحة الجسيم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة له في الآخرة .  
وقيل : المراد بالآية المؤمنون ، أي : من أراد بعمله ثواب الدنيا عجل له الثواب ولم ينقص شيئاً في  
الدنيا ، وله في الآخرة العذاب لأنه جرد قصده للدنيا . وقيل : هو لأهل الرياء ، وفي الخبر أنه يقال  
لأهل الرياء : « صلتهم وصليتهم وتعبدتهم وتعبدتهم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك » ثم قال : « إن  
هؤلاء أول من تسمر بهم النار » .

وقيل : الآية حامية في كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان منه أصل إيمان أو لم يكن . [ تفسير

فهم - إذن - مشغولون بتعيم الدنيا وزينتها .

والحياة تتطلب المقومات الطبيعية للوجود ، من ستر عورة ، وأكل لقمة  
وبيت يقي الإنسان ويؤويه . أما الزينة فأمرها مختلف ، فبدلاً من أن  
يرتدى الإنسان ما يستر العورة ، يطلب لنفسه الصوف الناعم شتاءً ،  
والحرير الأملس صيفاً ، وبدلاً من أن يطلب حجرة متواضعة تقيه من  
البرد أو الحر ، يطلب لنفسه قصرأ .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ <sup>(١)</sup> مِنَ  
الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ <sup>(٢)</sup> وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ <sup>(٣)</sup> . . ﴾ [آل عمران]

وكل هذه أشياء تدخل في متاع الحياة الدنيا ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ . . ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ <sup>(٤)</sup> ﴾ [آل عمران]

إذن : ما معنى كلمة «زينة» ؟

معنى كلمة «زينة» أنها حُسْنٌ أو تحسين طارئ على الذات ، وهناك فرق  
بين التحسين الذاتي والتحسين الطارئ من الغير .

(١) القناطر : جمع قنطار وهو معيار مختلف مقدار عند الناس ، وهو بمصر في زماننا : مائة رطل ، وهو

٩٢٨ و ٤٤ من الكيلوجرامات ، وقد يقصد بها المال الكثير - كما في الآية الكريمة ، وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِذِ نُنَزِّلُ الْقُرْآنَ إِلَيْكَ . . ﴾ [آل عمران] .

والقناطر المقنطرة : أي : الفضاءة ، أو المحكمة المحصنة . [كلمات القرآن للشيخ حسين

مخلوف ، والمعجم الوسيط] .

(٢) الخيل المسومة : أي : المرشلة للرعى ، أو المعلمة بعلامات ، [القاموس الفيوم] .

(٣) الأنعام : الإبل والبقر والضأن والمعز .

والحرث : المزروعات . [كلمات القرآن] .

(٤) المآب : المرجع . وحسن المآب : أي : المرجع الحسن . [كلمات القرآن] .



والمرأة - على سبيل المثال - حين تتزين فهي تلبس الثياب الجميلة الملففة ، وتحلّى بالذهب البراق ، فهو المعدن الذي يأخذ نقاسته <sup>(١)</sup> من كثرة تلالته الذي يخطف الأبصار ، ولا تفعل ذلك بمغالة إلا التي تشك في جمالها .

أما المرأة الجميلة بطبيعتها ، فهي ترفض أن تتزين ؛ ولذلك يسمونها في اللغة : « الغانية » <sup>(٢)</sup> ، أي : التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة ، ولا تحتاج إلى مداراة كبر أذنيها بقُرْط <sup>(٣)</sup> ضخم ، ولا تحتاج إلى مداراة رقيتها بعقد ضخم ، ولا تحاول أن تداري معصمها الريان بسوار <sup>(٤)</sup> ، وترفض أن تُخفي جمال أصابعها بالخواتم .

وحين تُبالغ المرأة في ذلك التزيّن فهي تعطى الانطباع المقابل .

وقد يكون المثل الذي أضربه الآن بعيداً عن هذا المجال ، لكنه يوضح كيف يعطى الشيء المبالغ فيه المقابل له .

وفي ذلك يقول المتنبي <sup>(٥)</sup> :

الطيبُ أنت إذا أصابك طيبُ      والماءُ أنت إذا اغتسلت الغاسِلُ

(١) تشبّس الشيء نقاسة : كان عظيم القيمة فهو نفيس . وقيل : منه التناقص ، كل يريد أن يكون أنفُس من غيره ، أو يحرز ما هو أنفُس وأعظم قيمة . قال تعالى : ﴿ ... وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ (٦٦) [ المطففين ] أي : فليتنافسوا لإجرازه لأنفسهم .

(٢) الغانية من النساء : التي غنت بالزوج . وهي أيضاً التي غنت بحسنها وجمالها عن الخلق . وقيل : هي التي تُطلب ولا تُطلب . وقيل : الغانية الجارية الحشاء ، ذات زوج كانت أو غير ذات زوج . غنيت غانية لأنها غنيت بحسنها عن الزينة . [ لسان العرب - مادة : غنى ]

(٣) القُرْط : ما يُعلّق في شحمة الأذن من دُرٍّ أو ذهب أو فضة أو نحوها . والجمع : أقراط ، وقُرُوط . . . [ المعجم الوسيط ]

(٤) السَّوَار : حلية من الذهب مستديرة كالحلقة تلبس في المعصم . والجمع : أسورة ، وأساور . [ المعجم الوسيط ]

(٥) هو : أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، ولد بالكوفة في سنة تسمى « كئدة » عام ٣٠٣ هـ ، نشأ بالشام ، ادهى النيرة في يادية السماوة ( بين الكوفة والشام ) . ولعلك سميت بالمتنبي ، ثم رجع عن دعواه بعد أسره ، توفي عام ٣٥٤ هـ عن ٥٢ عاماً .

وهو هنا يقول : إن الطيب إذا ما أصاب ذلك الإنسان الموصوف ،  
فالطيب هو الذي يتطيب ، كما أن الماء هو الذي يُغسَل إذا ما لمس هذا  
الإنسان ، وكذلك تأتي المرأة الجميلة أن تُزَيَّن تُحَرِّها<sup>(١)</sup> بقلادة<sup>(٢)</sup> ؛ لأن  
نحرها بدون قلادة يكون أكثر جمالاً .

ويقال عن مثل هذه المرأة «غاية» ؛ لأنها استغنت بجمالها .

ويقال عن جمال نساء الحضر : إنه جمال مصنوع بمساحيق ، وكأن تلك  
المساحيق مثبتة على الوجه بمعجون كمعجون دهانات الحوائط ، وكأن كل  
واحدة تفعل ذلك قد جاءت يسكين من سكاكين المعجون لتملا الشقوق  
المجعدة في وجهها .

ولحظة أن يسبح هذا المعجون ترتبك ، ويختل مشهد وجهها بخليط  
الألوان ؛ ولذلك يقال :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيبٍ      وفي البدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ  
إذن : فالزينة هي تحسين الشيء بغيره ، والشيء الحسن يستغنى عن الزينة .  
وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا  
لَا يُخْسِرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> (١٥) ﴿

أي : إن كفرتم بالله فهو سبحانه لا يضمن عليكم في أن يعطيكم مقومات

(١) التَّحَرُّ : أعلى الصدر ، وهو موضع القلادة .

(٢) القلادة : كل ما يوضع حول الرقبة من عقود وحلى وذهب وغيره ، وسُميت الأضاحي قلائد مجازاً  
مرسلاً علاقته باللازمة ؛ لأن الذبائح كانت تُعَلَّم بقلادات في أعناقها . قال تعالى : ﴿ وَزُولا الْهَدْيِ وَلَا  
الْقِلَادِ .. ﴾ (٢٠) [المائدة] . أي : الأضاحي ذوات القلائد .

(٣) الْيُخْسِرُ : الانقاص . وَيَخْسِرُهُ حَقُّهُ يَخْسِرُ : نقصه حقه ولم يُوفِّه . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا آثَاسَ  
أَنْبِيَائِهِمْ .. ﴾ (٢٠) [الأعراف] [القاموس الفويم] .

الحياة وزيتها ؛ لأنه رب ، وهو الذى خلقكم واستدعاكم إلى الوجود ،  
وقد ألزم الحق سبحانه نفسه أن يعطيكم ما تريدون من مقومات الحياة  
وزيتها ؛ لأنه سبحانه هو القادر على أن يوفى بما وعد .

وهو سبحانه يقول هنا :

﴿ تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ۖ ۝ (١٥) ﴾ [هود]

أى : أنهم إن أخذوا بالأسباب فالحق سبحانه يلزم نفسه بإعطاء الشيء  
كاملاً غير منقوص .

وهم فى هذه الدار الدنيا لا يَتَخَسَّرُونَ فى حقوقهم ، فمن ينق عمله  
يأخذ ثمرة عمله .

وهذا القول الكريم يحلُّ لنا إشكالاً كبيراً نعانى منه ، فهناك مَنْ يقول : إن  
هؤلاء المسلمين الذين يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ويطيعون  
الصلاة ، وينون المساجد ، بينما هم قومٌ متخلفون ومتأخرون عن ركب  
الحضارة ، بينما نجد الكافرين وهم يرقلون<sup>(١)</sup> فى نعيم الحضارة .

ونقول : إن لله تعالى عطاءً ربوبية للأسباب ، فمن أحسن الأسباب  
حتى لو كان كافراً ، فالأسباب تعطيه ، ولكن ليس له فى الآخرة من  
نصيب ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءً مُّنْظَرًا ۖ ۝ (٢٢) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه يجزى الكافر الذى يعطى خيراً للناس بخير فى الدنيا ،  
ويجزى الصادق الذى لا يكذب من الكفار بصدق الآخرين معه فى الدنيا ،  
ويجزى من يمد يده بالمساعدة من الكفار بمساعدة له فى الدنيا .

(١) رَقَلَ : جَرَّ ذَيْلُ ثَوْبِهِ وَتَبَخَّرَ فِي مَشْيِهِ . وَيُرَقَلُونَ فِي التَّعْيِيمِ : أَيْ : يَعِشُونَ فِي رَافِعَةٍ فَرَحِينَ بِمَا لَدَيْهِمْ  
مِنْ نَعِيمٍ . [ المعجم الوسيط ] بتصرف .

(٢) النباء : الشور : الغبار المتطاير فى الجو . وقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءً مُّنْظَرًا ۖ ۝ (٢٢) ﴾ [الفرقان] أى :  
كل عمل عمله كالنباء الشور ، لا يعتد به ، ولا قيمة له . [ القاموس القويم ] .

وكلها أعمال مطلوبة في الدين ، ولكن الكافر قد يفعلها ، فيردُّ الله سبحانه وتعالى له ما فعل في الدنيا ، وإن كان قد فعل ذلك ليقال : إن فلاناً عمل كذا ، أو فلاناً كان شهماً في كذا ، فيقال له : «عملت ليقال وقد قيل» (١) .  
وإذا كان الكافرون يأخذون بالأسباب ؛ فالحق سبحانه يعطيهم ثمرة ما أخذوا به من الأسباب .

ويجب أن نقول لمن يتهم المسلمين بالتخلف :

لقد كان المسلمون في أوائل عهدهم متقدمين ، وكانوا سادة حين طبقوا دينهم ، ظاهراً وباطناً ، شكلاً ومضموناً .

وعلى ذلك فالتخلف ليس لازماً ولا ملازماً للإسلام ، وإنما جاء التخلف لأننا تركنا روح الإسلام وتطبيقه .

وإن عقدنا مقارنة بين حال أوروبا حينما كانت الكنيسة هي المسيطرة ، كنا نجد كل صاحب نشاط عقلي مُبدع ينال القتل عقوبة على الإبداع ، وكانت تسمى تلك الأيام في أوروبا «العصور المظلمة» .

وحينما جاءت الحروب الصليبية وعرفت أوروبا قوة الإسلام

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : فأنثت فيك حتى استهدت . قال : كذبت ، ولكنت فأنثت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأُتي به ، فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت القرآن وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنت تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل نجب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنت فعلت ليقال : هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار . [أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) كتاب الإمارة] .

والمسلمين ، ودحزهم<sup>(١)</sup> المسلمون ، بدأوا في محاولة الخروج على سلطان البابا والكنيسة ، وعندما فعلوا ذلك تقدّموا .

هم - إذن - عندما تركوا سلطان البابا تقدّموا ، ونحن حين تركنا العمل بتعاليم الإسلام تخلفنا .

إذن : فأى الجزعتين خير ؟

إن واقع الحياة قد أثبت تقدّم المسلمين حين أخذوا بتعاليم الإسلام ، وتخلّفوا حين تركوها .

وهكذا . . فمعيار التقدّم هو الأخذ بالأسباب ، فمن أخذ بالأسباب وهو مؤمن نال حسن خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ومن لم يؤمن وأخذ بالأسباب نال غير الدنيا ولم يتل ثواب الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ <sup>(٢)</sup> بَاقِيَةٍ <sup>(٣)</sup> يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ... (٣٩)﴾ [النور]

(١) دَحَزَهُ يَدْحِزُهُ دَحْزًا وَدَحْزًا : دفعه وطرده وأبعده مُهَانًا . ودَحَزَهُ فِي الْمَرْبِ : هَزَمَهُ . قال تعالى : ﴿...وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لِقَاءَ دُحُورٍ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاسِعٌ (٢٩)﴾ [الضافات] [القاموس القويم] .

(٢) السراب : ما تراه في نصف النهار في الأرض الغضاء كأنه ماء وليس بماء . ويقول الله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سرَابًا (١٦)﴾ [النبا] أي : حُضِرَتْ لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، أي : تشبه السراب في أنها لا حقيقة لها ، أُرْ كَالْأَرْضِ الْمُسَطْرَحَةِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا السَّرَابُ . [القاموس القويم] .

(٣) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . قال تعالى : ﴿...وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٧)﴾ [طه] .

قَاعًا صَفْصَفًا : مكانًا منخفضًا مستويًا معتدلًا ، لَا اِرْتِفَاعَ فِيهِ وَلَا اعْوِجَاجَ . وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَاقِيَةٍ... (٣٩)﴾ [النور] أي : يمكن أن منخفض مستويًا يظهر فيه السراب عادة . [القاموس القويم] .

وهكذا يُفاجأ بالآله الذي كذب به .

والحق سبحانه يقول :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ <sup>(١)</sup> لَا يَقْدِرُونَ بِمَا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فمن أراد الدنيا وزيتها ، فالحق الأعلى سبحانه يوفيه حاسبه ولا يبخسه من حقه شيئاً ، فحاتم الطائي - على سبيل المثال - أخذ صفة الكرم ، وعنترة أخذ صفة الشجاعة ، وكل إنسان أحسن عملاً أخذ أجره ، ولكن عطاء الآخرة هو لمن عمل عمله لوجه الله تعالى ، وآمن به .

وحتى الذين دخلوا الإسلام نفاقاً وحاربوا مع المسلمين ، أخذوا نصيبهم من الغنائم ، ولكن ليس لهم فى الآخرة من نصيب .

إذن : فالوفاء يعنى وجود عقد ، وما دام هناك عقد بين العامل والعمل ، وأتقن العامل العمل فلا يد أن يأخذ أجره دون بخس ؟ لأن البخس هو إنقاص الحق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِيطَ <sup>(٢)</sup> مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٣)</sup> ﴾

(١) عاصفت الريح ، تعصف عاصفاً وعصوفاً : اشتد هبوبها ، والريح عاصف وعاصفة فهي تذكسر وتؤثك ، والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شيء تمر عليه . قال تعالى : ﴿ وَلِسَانُ الرِّيحِ عَاصِفٌ .. (٥٥) ﴾ [الأنبياء] وقال تعالى : ﴿ جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. (٢٥) ﴾ [يونس] وقال تعالى : ﴿ فَالْعَاصِفَاتُ عَصِفْنَ <sup>(٦)</sup> ﴾ [المرسلات] هى للرياح الشديدة : [القاموس القريم] .

(٢) حيط العمل : بطل ولم يحقق ثمرته . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ .. (٤) ﴾ [المائدة] ، وأحبط الله عمله : أبطله وضيعه هباءً . قال تعالى : ﴿ .. فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ (٥) ﴾ [محمد]

[القاموس القريم] .

إذن : فالنار مشوى هؤلاء الذين عملوا من أجل الدنيا دون إيمان بالله ، فقد أخذوا حسابهم في الدنيا ، أما عملهم فقد حبط في الآخرة ، والحبط هو انتفاخ الماشية حين تأكل شيئاً أخضر لم ينضج بعد ، ويقال في الريف عن ذلك : « انتفخت البهيمة » أى : أن هناك غازات في بطنها ، وقد يظنها الجاهل سمناً ، لكن هذا الانتفاخ يزول بزوال سببه .

وعمل الكافرين إنما يحبط في الآخرة ؛ لأنه باطل .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ  
كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ  
مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْتَارُ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ  
مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَر النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ١٧ ﴾

والبيّنة<sup>(١)</sup> هي بصيرة الفطرة السليمة التي تُلقت للإنسان إلى وجود واجب الوجود ، وتوضح للإنسان أن هذا الكون الجميل البديع لا بُدَّ له من واجد .

وهكذا تكون الهداية بالبصيرة والفطرة .

(١) المربة : الجدل والشك وكذلك التمازى والامتزاء والمرآة والمباراة . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَعَارَفُ فِيهِمْ إِلَّا بِرَأْيِ ظَاهِرِهِ ۚ ﴾ [الكهف] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تُكُونُوا مِنَ الْمُعْتَرِينَ ﴾ [البقرة] وقال تعالى : ﴿ فَتَأْتِي الْأُمَمَ تَتَمَارَى ۝ ٥٥ ﴾ [النجم] [القاموس الفويم] يتصرف .

(٢) بأن الشيء يبين بَيَانًا : ظهر واتضح ، فهو بَيِّنٌ وهو بَيِّنَةٌ أى : ظاهر ، وظاهرة . ويستعمل البين والبيّنة بمعنى المظهر والمُظهرة ، والموضح والمُوضحة . قال تعالى : ﴿ كَمْ أَنبَأْنَاهُمْ مِنْ آيَةِ بَيِّنَةٍ ۚ ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها ، أو هي مَبَيِّنَةٌ للحق مؤكدة له ، مظهره لأمره ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۚ ﴾ [الكهف] أى : ظاهر واضح أو موضح مُظهر للحق [القاموس الفويم] .

والعربى القديم حين سار فى الصحراء ووجد بئراً ملقى فى الصحراء ، ورأى أثر قدم ، فقال : «البصرة»<sup>(١)</sup> تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، وسما ذات أبراج<sup>(٢)</sup> وأرض ذات فجاج<sup>(٣)</sup> وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟ »<sup>(٤)</sup> .

وهكذا اهتدى الرجل بالقطرة ، وهى بيّنة من الله .

وقد أودع الله سبحانه فى كل إنسان فطرة ، وبهذه الفطرة<sup>(٥)</sup> شهدنا فى عالم الدرّ :

وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ۚ﴾ (١٢٢) [الاعراف]

إذن : قالبيّنة هى إيمان القطرة المركوز فى ذرات الأشياء .

وقد تُصيّب<sup>(٦)</sup> الشهوات هذا الإيمان ، فلا يحمل نفسه على المنهج فيرسل الحق سبحانه رحمة منه رسلاً تذكّرنا بالبينات الأولى ، وتدلنا على العلل

(١) البصرة : واحدة البعر ، وهو رجيع ( روث ) ذرات الخُفّ والظلف من الحيوانات .

(٢) الأبراج : جمع بُرج ، وهى منازل الأفلاك فى السماء أو هى الكواكب . وقيل : هى النجوم . ( لسان العرب . مادة : برج ) .

(٣) الفجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سَبَاطًا﴾ (١٦) تَسْلُكُوا مِنْهَا سَبَلاً فِجَاجًا (٢٥) ﴿ [نوح] . وقال : ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُبِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبَلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٢٥) ﴿ [الأنبياء] .

(٤) هذه العبارات من خطبة خطبها قُس بن معاذة الأيادى فى الجاهلية . كان أولها : أيها الناس ، اسمعوا وعزوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . انظر البيان والبيان للجاحظ (١/٢٠٨) .

(٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٣) والطحايسى (٢/٤٣٣) ، والترمذى (٢/١٣٨) .

(٦) الضيّب والتضيب : تغطية الشئ ودخوله بغضه فى بعض . والضباية : تغطية الشئ الأرض كالدخان وقيل : الضباية والضباية : تبنى كالبغار يُغشى الأرض بالغدوات [لسان العرب - مادة : ضيب] .



والأحكام حتى تنضمَّ البينة من الرسل على البينة من الفطرية في الكائن .

وهكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مناط<sup>(١)</sup> الاقتناع بدين الله ، فقد يكون هذا الأمر مجهولاً للخلق ، فيريد سبحانه أن يبين لنا أن هذا الجهل هو جهل غير طبيعي ؛ لأن الفطرة السليمة تهتدي قبل أن يجيء رسولٌ يُلَفِّتُنَا إلى القوة العليا التي تدبر حركة هذا الكون .

وقد ضربت من قبل مثلاً لذلك بمن سقطت به طائفة في الصحراء ، لا ماء فيها ولا طعام ولا أنيس ولا مأوى ، ثم غلبه التوهم فنام ، وحين استيقظ وجد مائدة منصوبة عليها أطيب الطعام وأطيب الشراب ، ووجد صواناً<sup>(٢)</sup> منصوباً لمأوى إليه ؛ فلا بد لهذا الإنسان أن يدور بفكره سؤال : من صنع هذا ؟ وهو سيسأل نفسه هذا السؤال قبل أن يستمتع بشيء من هذا ، خصوصاً وأنه لم يجد أحداً يقول له : أنت في ضيافتي . إذن : فلا بد أن يفكر بعقله .

وكذلك الإنسان الذي طرأ على الوجود ، وما ادَّعى واحدٌ من خلق الله تعالى أنه خلق هذا الوجود ، وما ادَّعى أحدٌ أنه خلق السموات والأرض ، وما ادَّعى أحدٌ أنه سخر كل ما في الكون لخدمة الإنسان<sup>(٣)</sup> .

وكان من الواجب على الإنسان قبل أن ينعم بهذا ، أن يفكر : من الذي صنع له كل ذلك ؟ فإذا جاء رسول من جنس الإنسان ليقول له : أنا جئت لأحل لك اللغز المطلوب لك .

(١) مناط الشيء : كل ما تعلّق به من أمور . ونيط به الشيء : وُصِّلَ به . [ اللسان : مادة (ن و ط) ينصرف ]

(٢) الصوان : الرعاء الذي تُصان فيه الثياب ، أو توضع فيه الأطعمة . انظر [ اللسان - مادة صون ] .

(٣) يقول تعالى في سورة النحل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُومُ سُجَّرَاتُ الْيَمِّ ﴾ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون (٦٦) وما ذرأ لكم في الأرض مغنياً الوانة إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (٦٧) وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواجر فيه ولبتلوا من قبله ولعلكم تذكرون (٦٨) [ النحل ] .

هنا كان على الإنسان أن يرهف سمعه لذلك الرسول ؛ لأنه قد جاء ليحل للإنسان أمراً يشغل باله .

ومن لطف الله سبحانه بنا أنه لم يطلب منا مقدماً أن نفكر في ذلك ، بل تركنا فترة طويلة بلا تكليف في هذه الدنيا ، لينعم الإنسان بخير ربه ، ويعد ذلك إذا ما جاء اكتمال الرشد ونضج ، ولم يكن مكبرها ؛ فالخلق سبحانه وتعالى يكلفه بتكاليف الإيمان .

ولا بد للإنسان أن يتساءل : فكل شيء - مهما كان تأفهاً - لا بد له من صانع ، والمصباح الذي يضيء دائرة قطرها ٢٠ متراً ، عرفنا صانعه ، ودرسينا المعامل التي أتجزته ، والإمكانات التي تم استخدامها ، والمواد التي صنع منها ، أفلا نعرف تاريخ هذه الشمس ، ومن جعلها لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى وقود ولا إلى قطع غيار ، وتبصر نصف الكرة الأرضية ؟

هذه مسألة كان يجب أن نبحثها ؛ لنرى آفاق تلك البيئة ، بيئة نور وقوة وفطرة ، يهبها الله للإنسان المفكر ؛ ليهتدى إلى أن وراء هذا الكون خالقاً مدبراً .

فإذا ما جاء إنسان مثله ليقول له : إن خالق الدنيا هو الله تعالى ، وهو سبحانه يطلب منك كذا وكذا ، كان أمراً منطقياً وطبيعياً أن نسمع لهذا الإنسان ونطابق ما يقول على إحساس الفطرة ورؤية البيئات .

إذن : فنحن نصل إلى المجهول أولاً بالفطرة ، وقد نصل بالبدية التي لا تشوبها<sup>(١)</sup> أدنى شبهة ، فأنت حين ترى دخاناً تعتقد بالبدية أن هناك ناراً ، وحين تسير في الصحراء وترى خضرة ؛ ألا تعتقد أن هناك مياهاً ترويه ؟

(١) أي : لا تختلط به شبهة ، أي : الفكر البعيد عن الأهواء .

والشوب : ما اختلط بغيره من الأشياء ، وبخاصة السوائل ، قال تعالى : **وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهَا أَشْرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ** [الصافات ٤٥] . ويقال : سقاء اللوب بالشوب : الغسل بماء شاب به من ماء أولين ، [المعجم الوسيط] .

هذه - إذن - أمور تعرفها بالبديية ، ولا تحتاج إلى بحث أو جهد .

وهناك أمور قد تتطلب منك جهداً عقلياً تبحث به عما بعد المقدمات ، مثل الجهد العقلي الذي استدل به العربي على أن هناك إلهاً خالقاً يُدير هذا الكون ، فاستدل من البعرة على وجود البعير<sup>(١)</sup> ، وأن أثر القدم يدل على المسير ، واستنتج من ذلك أن الكواكب ذات الأبراج ، والأرض ذات الفجاج ، والبحار ذات الأمواج ، كلها أمور تدل على وجود اللطيف الخبير .

كل هذه الأمور لم يقدر العقل إلا على الحكم عليها جملة ، وإن لم يعرف التفصيل .

لقد عرف العقل أن وراء هذا الكون خالقاً ، صانعاً ، حكيماً ، لكنه لم يعرف اسماً له ، وهذا أمر لا يعرفه الإنسان بالعقل ، ولا يعرف أيضاً ما هو المنهج المطلوب لهذا الخالق ، وبماذا يجزى المطيع له ، ولا بماذا يعاقب العاصي له .

إذن : لا بد من بلاغ عن الله تعالى يدل على القوة التي اقتضت بها جملة . والمفكرون بالعقل في الكون يعلمون أن وراء هذا الكون خالقاً ، لكن لا يعرفون اسمه ، ولا مطلوبه .

إذن : فأنت لا تعرف اسم الله إلا منه ، عن طريق الوحي إلى رسوله ، ولا تعرف مطلوب الله إلا من الرسول الذي أنزل عليه البلاغ .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه سبحانه قد أرسل رسولاً ، ومع هذا الرسول معجزة هي القرآن ؛ لأن العقل حتى حين يهتدي إلى قوة القادر الأعلى سبحانه ، فإنها ستظل بالنسبة له مبهمه ، وحين أنزل الحق سبحانه القرآن الكريم فقد أنزله رحمة بعباده وبينه لهم .

(١) البعرة : رجميع (زروث) ذوات الخف وذوات الظلف من الحيوانات . والبعير : ما صلب للركوب والحمل من الإبل ، وذلك إذا استكمل أربع سننات . ويقال للجمل والناقة : بعير . والجميع : أباعر ، وأباعر ، وبعران . [المعجم الوسيط] .

﴿ أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ <sup>(١)</sup> مِنْهُ .. (١٧) ﴾ [هود]

فالقرآن حجة ونور ، وهو يهدي البصيرة الفطرية الموجودة في الإنسان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ .. (١٧) ﴾ وهو من أنزل عليه الوحي ، ويخبرنا عن الحق سبحانه ونعالي ما يوضح لنا أن الخالق الأعلى والقوة المطلقة هو الله سبحانه ، ويوضح لنا الشاهد مطلوب الله تعالى .

ونحن هنا أمام ثلاثة شهود :

**الشاهد الأول :** هو الحجة والبينة .

**والشاهد الثاني :** هو البرهان والبصيرة التي يهتدى إليها العقل ، والرسول هو من يبين لنا المنهج بعد الإجمال .

وهذا الرسول جاء من قبله كتاب موسى :

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً .. (١٧) ﴾ [هود]

وهذا هو الشاهد الثالث .

ومن لا يلتفت إلى المدلول بالأدلة الثلاثة مقصّر ؛ فمن عنده تلك البينة ، ومن سمع الشاهد من الرسول ، والشاهد الذي قبله ، وهو كتاب موسى

(١) في تأويل هذا الشاهد أقوال كثيرة ذكرها القرطبي في تفسيره (٤ / ٣٣٤) .

١- أنه محمد ﷺ .

٢- أنه جبريل عليه السلام .

٣- أنه علي بن أبي طالب .

٤- القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد .

٥- الإنجيل . فهو يتلو القرآن في التصديق وإن كان قبله .

٦- العقل الذي يتلو معرفة الله التي أشرقت لها القلوب .

قال ابن كثير في تفسيره (٢٦ / ٤٤٠) بعد أن ذكر الأقوال الثلاثة الأولى : « الأولى والثاني هو الحق ، وكلاهما قريب في المعنى ؛ لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى ، فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل : هو علي ، وهو ضعيف لا يثبت له قائل . المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعية من حيث الجملة ، والتفاصيل تؤخذ من الشريعة ، والفطرة تصدقها وتؤمن بها » .

## سُورَةُ هُودٍ

﴿١٢٩﴾

عليه السلام وشاهد<sup>(١)</sup> بعده إلى نفس قوم موسى لا بد أن يقوده ذلك إلى الإيمان.

وقول الحق سبحانه :

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ..﴾ (١٧) [هود]

إشارة إلى من التفتوا إلى الأدلة : بينة ، وشاهداً ، وشاهداً من قبله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ<sup>(٢)</sup> فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..﴾ (١٧) [هود]

والكفر - كما علمنا - هو الستر ، والكفر في ذاته دليل على الإيمان ، فلا يكفر أحد بغير موجود .

فوجود المكفور به سابق على الكفر ، والكفر ظاريء عليه .

إذن : فالكفر ظاريء على الإيمان ؛ لأن الإيمان هو أصل الفطرة .

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ..﴾ (١٧) [هود]

وكلمة «أحزاب» جمع حزب . والحزب هو الجماعة الملتقية على مبدأ تتحمس لتنفيذه ، مثل الأحزاب التي نراها في الحياة السياسية ، وهي

(١) المقصود به هنا الإنجيل الذي أرسل به عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل .

(٢) الأحزاب : جمع حزب . وهو الجماعة من الناس اجتمعوا على أمر واحد سواء أكان خيراً أو شراً .

يقول تعالى عن حزب الخير : ﴿ .. أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦٣) [المجادلة] .

وقال تعالى عن حزب الشر : ﴿ اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَانْسَاهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْغَافِرُونَ ﴾ (١٠٥) [المجادلة] .

والمقصود بالأحزاب هنا أهل الملل كلها من غير ملة الإسلام . قاله القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣٥) .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع من أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » .

أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - حديث (٢١٠) .

أحزاب بشرية تتصارع في المناهج والغايات ، وهم أحرار في ذلك ؛ لأنهم يتصارعون بفكر البشر .

أما في العقيدة الأولى ، فَمَنْ الْمُخْطِطُ الْأَعْلَى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، فالمنهج يأتي منه ؛ لأن هذا المنهج يوصل إليه ؛ لذلك قال الله سبحانه عَمَّنْ يَتَّبِعُونَ منهجه :

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ . . .﴾ (٢١) [المجادلة]

أى : أنهم يدخلون في حزب يختلف عن أحزاب البشر التي تختلف أو تتفق في فكر البشر .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ . . .﴾ (١٧) [هود]

والمنقصود بهم كفار قريش عبدة الأوثان ، والصابئة<sup>(١)</sup> واليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله ﷺ ، وكل منهم جماعة تمثل حزباً ، ويقول عنهم الحق سبحانه :

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٢) [المؤمن]

ومن يكفر من هؤلاء برسالة رسول الله ورسول الله فالجزاء هو النار ، وبذلك بين لنا الحق سبحانه أن هناك حزبين : حزب الله ، والأحزاب الأخرى ، وهما فريقان كل منهما يواجه للآخر .

ويقول الحق سبحانه لرسوله ، والمراد أيضاً أمة محمد ﷺ :

(١) الصابئون : يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . . . وقيل : هم عبادة الملائكة ، أو عبادة الكواكب والنجوم ، أو عبادة النار . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ . . .﴾ (٢٥) [البقرة] فهم غير اليهود والنصارى [انظر : القاموس القويم ١/ ٣٦٥] .

[هود]

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ<sup>(١)</sup> مِنْهُ .. ﴾ (١٧)

أى : لا تكن يا رسول الله فى شك من ذلك ؛ لأن رسالتك وبعثتك تقوم على أدلة البينة والفطرة والهدى والنور المطلوب من الله تعالى ، والشاهد معك ، كما شهد لك من جاء من قبلك أنك جئت بالمنهج الحق :

[هود]

﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .. ﴾ (١٧)

والحق - كما علمنا من قبل - هو الشيء الثابت الذى لا يعتريه تغيير ، وهذا الحق لا يمكن أن يأتى إلا من إله لا تتغير أفعاله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

[هود]

﴿ .. وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٧)

وهؤلاء لا يؤمنون عناداً ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، ومن يمتنع عليها هو مجرد معاند .

والحق سبحانه يقول فى مثل هؤلاء المعاندين :

﴿ وَجَحَدُوا<sup>(٢)</sup> بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا<sup>(٣)</sup> أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا .. ﴾ (١٨) [النمل]

أى : أنهم مع كفرهم يعلمون صدق الأدلة على رسالة رسول الله ﷺ ، وعلى صدق بعثته ، فيكون كفرهم حينئذ كفر عناد ؛ لأن الأدلة منصوبة بأقوى الحجج ، فيكون من يمتنع على الإيمان بهذه الأدلة إنساناً معانداً .

(١) مِرْيَةٍ : الجدل والشك . وهناك قراءة بضم الميم : [القاموس القويم] .

(٢) جَحَدَ الحق سبحانه جحوداً : أنكره وهو يعلمه . وجحد النعمة : أنكرها ولم يشكرها . وجحد بالآية : كفر بها .

وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ .. ﴾ (٥٩) [هود] [القاموس القويم] .

(٣) استيقن الأمر واستيقن به : مثل أيقنه وأيقن به ، من اليقين وهو الشيء الثابت الواضح الذى لا شك فيه . واستيقنتها أنفسهم : أى : علمتها نفوسهم علماً واضحاً . [القاموس القويم] .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآية تبدأ بخبر مؤكد في صيغة استفهام ، حتى يأتي الإقرار من هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً ، والإقرار سيد الأدلة .

والواحد من هؤلاء المفترين إذا سمع السؤال وأدار ذهنه في الظالمين ، فلن يجد ظلماً أفدح ولا أسوأ من الذي يفترى على الله كذباً ، ويقر بذلك ، وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي هذا الخبر في صيغة استفهام ، ليأتي الإقرار اعترافاً بهذا الظلم الفظيع .

وهؤلاء المكذبون يُعْرَضُونَ على الله مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . . . (١٨)﴾ [هود]

والعرض إظهار الشيء الخفى لتقف على حاله .

ومثال ذلك في حياتنا : هو الاستعراض العسكري حتى يبين الجيش قوته أمام الخصوم ، وحتى تُبلغ الدولة غيرها من الدول بحجم قوتها .

(١) افتري القول : اختلقه واخترعه . وافتري عليه الكذب : اخترعه . ويقول تعالى : ﴿وَأَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ﴾ [يونس] أي : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه .

(٢) الأشهاد : أي : الشهداء بالحق ، وأشهداء : جمع شهيد ، مثل أيتام جمع يتيم ، والشهيد صفة مشبهة . [القاموس القويم] . وفي تعيين الأشهاد في هذه الآية أقوال : الملائكة الحفظة - الأنبياء والرسل . وقال قتادة : الخلائق أجمع . قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٣٦) .



وكذلك نجد الضابط يستعرض فرقته ليقف على حال أفرادها ، وبقيس درجة انضباط كل فرد فيها وحسن هندامه ، وقدرة الجنود على طاعة الأوامر . ومثال آخر من حياتنا : فنحن نجد مدير المدرسة يستعرض تلاميذها لحظة إعلان نتائج الامتحان ، ويرى المدير والتلاميذ خزي المقصر منهم أو الذي لم يؤد واجبه بالتمام .

فما بالناس بالعرض على الله تعالى ، حين يرى المكذبون حالهم من الخزي ؟ ذلك أنهم سيفاجأون بوجود الله الذي أنكروه افتراءً ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ۖ ﴾ (٣٩) [النور]

قائ خزي - إذن - سيستعرون به ؟ !

ويُظهر الحق سبحانه وتعالى ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَعَرَّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا ۖ ﴾ (٤٨) [الكهف]

وكذلك يُعرضون على النار ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ (٤٦) [غافر]

(١) السراب : ما يُرى في نصف النهار على الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . وهو ظاهرة متعلقة بخداع البصر . والقِيعَة : الأرض المستوية المنخفضة عما يحيط بها من مرتفعات وكذلك «الفاع» . يقول تعالى : ﴿ وَسَأَلْنَاهُ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (٤٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٤٦) لَا تَبْقَىٰ فِيهَا جُودًا وَلَا أَكْثًا (٤٧) ﴾ [طه] [القاموس القويم] . والأرض الصفصف هي الأرض المستوية المساء ، أي : إن الجبال تزول فلا يكون لها أثر ، ولا ترى في مكانها ارتفاعاً ولا هبوطاً ولا عوجاً .

(٢) الغسق : الدخول في أول النهار . والعشي : آخر النهار . وهذه الآية قيلت في حق فرعون وآله . وقامها : ﴿ .. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) ﴾ [غافر] وهذه الآية أصل في إثبات عذاب الغير عند أهل السنة . انظر : [تفسير ابن كثير ٤ / ٨١] .

وهكذا يظهر الخزي والحجل والمهانة على هؤلاء الذين افتروا على الله تعالى .  
وهو سبحانه يعلم كل شيء أزلاً ، ولكنه سبحانه شاء بذلك أن يكشف  
الناس أمام بعضهم البعض ، وأمام أنفسهم ، حتى إذا ما رأى إنسان في  
الجنة إنساناً في النار ، فلا يستثير هذا المشهد شفقة المؤمنين ؟ لأنه يعلم أن  
جزء المقتري هو النار .

ويا ليت الأمر يقتصر على هذا الخزي ، بل هناك شهادة الأشهاد ؟ لأن  
الحق سبحانه وتعالى يقول في نفس الآية :

﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ .. ﴾ (١٨) [هود]

والأشهاد جمع له مفرد ، هو مرة «شاهد» ، مثل «صاحب»  
و«أصحاب» ، ومرة يكون المفرد «شهيد» مثل «شريف» و«أشراف» .

والأشهاد منهم الملائكة ؟ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ مَا يَلْفِظُ <sup>(١)</sup> مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ <sup>(٢)</sup> ﴾ (١٨) [ق]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ <sup>(٣)</sup> كِرَامًا كَاتِبِينَ <sup>(٤)</sup> يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٧) [الأنعام]

[الأنعام]

(١) اللفظ : إخراج الشيء من الفم ، والمراد به : التكلم ، واللفظ : الرمي والإلقاء عامة ، ومنه حديث ابن عمر أنه سئل عما لفظ البحر فنهى عنه . أراد ما يلقى به البحر من السمك إلى جوفه من غير اصطیاد . [اللسان : مادة لفظ] .

(٢) الرقيب العتيد : الحاضر المستعد لإثبات ما يتكلم به الإنسان في كتاب الحسنات والسيئات . [القاموس الفريسي] .

(٣) الحافظون : أي : الملائكة الرقباء والحافظون عليكم . يقول تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (٥) [الطارق] أي : ملك حافظ لها رقيب عليها . ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. ﴾ (١١) [الأنعام] أي : ملائكة يحفظونكم ويراقبون أعمالكم . [القاموس الفريسي] .

أو شهود من الأنبياء الذين بلغوهم منهج الله ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ۖ ﴾ (٤١) [النساء]

وأيضاً الشهيد على هؤلاء هو المؤمن من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، فيبلغها إلى غيره ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾ (١٤٣) [البقرة]

وكلمة «الشهادة» تعني : تسجيل ما فعلوا ، وتسجيل أيضاً أنهم بُلِّغُوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التي تقتضي العقاب ، لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنص ، ولا نص إلا بإعلام .

ولذلك نجد القوانين التي تصدر من الدولة تحمل دائماً عبارة «يُعمل بالقانون من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية» .

إذن : فحبل الأَشْهاد أن يعلنوا أن الذين أنكروا الرسالة والرسول قد بُلِّغُوا المنهج ، وبُلِّغُوا أن إنكار هذا المنهج وإنكار هذا الرسول هو الجريمة الكبرى ، وأن عقوبة هذا الإنكار هي الخلود في النار .

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو العدل نفسه ؛ لذلك فلا عقاب إلا بالتأكد من وقوع الجريمة ، لذلك لا بد من شهادات متعددة ، ولذلك يأتي الشاهد

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : اقرأ على القرآن . قال : فقلت يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل . قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيري ، فقرأت النساء حتى إذا بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ۖ ﴾ [النساء] . وفتت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبي ، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل . أخرجه مسلم في صحيحه (٨٠٦) والبخاري في صحيحه (٥٠٥٥) .

من الملائكة ، وهو من جنس غير جنس المعروضين ، ويأتى الشاهد من الأنبياء وهو من جنس البشر إلا أنه معصوم .

وكذلك يأتى الشاهد من الإخوة المؤمنين الذين يشهدون أنهم قد بلغوا منهج الإيمان ، ثم تأتى شهادة هى سيدة الشهادات كلها ، وهى شهادة الأبعاد على الكل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ <sup>(١)</sup> (٢٦) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) وَقَالُوا لِمَ لُجُودُنَا لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾

[فصلت]

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزوم له ؛ لذلك نجد السؤال هنا «لم» ؛ لأن الجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ؛ لأن اليد هى التى امتدت لتسرق ؛ واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى حقد ، والساق هى التى مشت إلى المعصية .

والإنسان - كما نعلم - مركب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكون الكل الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ؛ أو تمتد لتربت على اليتيم ؛ والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أن يأمرها بأن تنظر إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

(١) يُوزَعُونَ : يُفْتَنُونَ عن التفرق ويُجمعون فى مكان واحد . والوزع : فكف والمنع . يقال : وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم ، فيمنع عليهم التفرق والانتشار . [انظر : لسان العرب - مادة : وزع] .

## سُورَةُ هُودٍ

١٤٠٢

إذن: الجوارح خادمة مطيعة مُسخرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمر لأحد إلا الله .

والحق سبحانه القائل :

﴿ .. لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمرؤنا به من المعاصي رغمًا عنا ، لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا ، والآن انحلت إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

وهكذا تعترف الأشهاد ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود]

وما داموا قد كذبوا على ربهم ، فالملكذب عليه هو الله ، ولا بد أن يطردهم من الرحمة ، وهم قد ارتكبوا قمة الظلم وهو الشرك به والإلحاد<sup>(١)</sup> وإنكار الرسول ﷺ والرسالة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
مُمْكِرُونَ (١٩) ﴾

(١) الملحد: العادل المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه . يقال : قد أُلحد في الدين أي : حاد عنه . والإلحاد

الظلم في الحرم ، وهو أيضاً الشك في الله ، والميل عن الإيمان به . [انظر : لسان العرب - مادة إلحد] .

(٢) عوج : مائل وانحنى ولم يكن معتدلاً . وعاج عوجاً (يفتح العين والواو) ، وعوجاً (يكسر العين) وفتح

الواو) . قال تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ .. (١٨) ﴾ [الزمر] أي : قرآنًا مستقيماً في مبادئه

وأحكامه . وقال تعالى : ﴿ وَيَتَوَلَّوْهَا عِوَجًا .. (١٩) ﴾ [هود] أي : أن الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله

يريدون سبيل الله معوجة . [القاموس القويم] .

وهنا يحدثنا القرآن عن هؤلاء الذين كفروا بالله وآياته ورسوله ﷺ ، ولم يكتفوا بكفرهم ، بل تمادوا وأرادوا أن يصدوا غيرهم عن الإيمان . وبذلك تعدوا في الجريمة ، فبعد أن أجرموا في ذواتهم ، أرادوا لغيرهم أن يُجرم .

وسبق أن أنزل الحق سبحانه خطاباً خاصاً بأهل الكتاب ، الذين سبق لهم الإيمان برسول سابق على رسول الله ﷺ ، ولكن أعماهم الطمع في السلطة الزمنية فطمسوا الآيات المبشرة برسول الله في كتبهم ، وهم بذلك إنما صدوا عن سبيل الله ، وأرادوا أن تسير الحياة معوجة .  
يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٩)

[آل عمران]

وقد أرسل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليعدل المعوج من أمور المنهج . والعوج هو عدم الاستقامة والسوائية ، وقد يكون في القيم ، وهي ما قد خفى في المعنويات ، فتقول : أخلاق فلان فيها عوج ، وأمانة فلان فيها عوج .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝ (١) ﴾

[الكهف]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله سبحانه :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۖ ۝ (١٩) ﴾

[هود]

(١) ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ : أي : أنه قرآن مستقيم سليم في أحكامه ومبادئه ولا إعوجاج فيه . [القاموس القريني] بتصرف .

## سُورَةُ هُودٍ

٥٦٤

أما في الأمور المحسنة فلا يقال: «عوج»، بل يقال: «عوج»، فانت إذا رأيت شيئاً معوجاً في الأمور المحسنة تقول: عوج<sup>(١)</sup>.

لكننا نقرأ في القرآن قول الحق سبحانه:

﴿وَيَأْتُونَكَ مِنَ الْجِبَالِ فَفُلٌ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧)﴾ [طه]

وقد أوردتها الحق سبحانه هنا بهذا الشكل لدقة الأداء القرآني؛ لأن هناك عوجاً حسيماً يحسسه الإنسان، مثلما يسير الإنسان في الصحراء؛ فيجد الطريق منبسطاً ثم يرتفع إلى ربوة ثم ينسط مرة أخرى، ثم يقف في الطريق جبل، ثم يتزل إلى واد، وأي إنسان يرى مثل هذا الطريق يجد فيه عوجاً.

أما إذا كنت ترى الأرض مسبوطة مسبوطة كالأرض الزراعية، فقد تظن أنها أرض مستوية، ولكنها ليست كذلك؛ بدليل أن الفلاح حين يغمر الأرض بالمياه، يجد بقعة من الأرض قد غرقت بالماء، وقطعة أخرى من نفس الأرض لم تمسها المياه، وبذلك نعرف أن الأرض فيها عوج لحظة أن جاء الماء، والماء - كما نعلم - هو ميزان كل الأشياء المسبوطة.

(١) قال ابن منظور في اللسان (مادة عوج): «هو يفتح العين مختص بكل شخص مربي كالأنعام، وبالكسر بما ليس بمربي كالرأي والقول»، وقيل: «الكسر يقال فيهما معاً، والاول أكثر».

(٢) ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾: القاع: الأرض المستوية المنخفضة عما حولها. والصفصف: الأرض المساء المستوية. أي: أن الجبال تزول، فلا يكون لها أثر. [القاموس القويم].

يذكر ابن كثير في تفسيره أن الله تعالى يذهب الجبال عن أماكنها ويمحقتها ويسيرها تسيراً، فيجعلها - أي: الأرض - قاعاً صفصفاً، أي: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوى من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى استواء الأرض يومئذ، وقيل: الذي لا نبات فيه والاول أولى فإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ أي: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. قاله ابن عباس وعكرمة وأخرون. (ابن كثير ٣/ ١٦٥).

(٣) ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه] أي: أنها فلاة مستوية، لا انحراف فيها يمين ولا يسرة، فلا ميل فيها مطلقاً ولا انخفاض فيها ولا ارتفاع. [القاموس القويم].

ولذلك حين نريد أن نحكم استواء جدار أو أرض ، فنحن نأتي بميزان الماء ؛ لأنه يمنع حدوث أى عوج مهما بلغ هذا العوج من اللطف والدقة التي قد لا تراها العين المجردة .

وفي يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصورهم الحق سبحانه فى قوله :

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٨﴾ [طه]

هم - إذن - يصطفون بلا اعوجاج ، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن ، فى ذلة وصغار<sup>(١)</sup> ولا ينطقون إلا همساً .  
وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝١٩﴾ [هود]

والسبب فى صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحال مُعَوَّجاً ومائلاً ، وأن يُنْفَرُوا الناس من الإيمان ليضمّنوا لأنفسهم السلطة الزمنية ويفسدون فى الأرض ؛ لأن سبى الإصلاح بالإيمان أمر يزعجهم تماماً ، ويسلب منهم ما يتفعون به بالفساد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أى : يوم القيامة الذى يرون فيه هذه الأحوال والأهوال فيستجيبون مسارعين إلى الداعى حبشاً أمروا بادرُوا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أُنْفَعَ لهم . وقال قتادة : لا عوج له أى : لا يميلون عنه وخشعت : سكنت . [تفسير ابن كثير : ٣ / ١٦٥] .

(٢) خشعت الأصوات : خفت وهنّت ، كناية عن شدة البرهية والخوف يوم القيامة . [القاموس القويم - ١ / ١٩٤] .

(٣) الصغار (بفتح الصاد المشددة) : الخضوع فى ذل ومهانة . [لسان العرب - مادة : صغر] .



﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (٥)

والإعجاز هو الامتناع ، وأعجزت فلاناً ، أى : برهنت على أنه عمتع عن الأمر وغير قادر عليه .

وقد تجلّى الإعجاز - على سبيل المثال - فى عجز هؤلاء الذين أنكروا أن القرآن معجزة أن يأتى بأية من مثله .

والمعجز فى الأرض هو من لا تقدر عليه .

وبين لنا الحق سبحانه فى هذه الآية أن هؤلاء الكافرين لا يعجزون الله فى الأرض ، بدليل أن هناك نماذج من أم قد سبقت وكفرت ، فمنهم من أخذته الرياح ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، ومنهم من غرق ، وإذا انتقلوا إلى الآخرة فليس لهم ولى أو نصير من دون الله ؛ لأن الولي هو القريب منك ، ولا يقرب منك إلا من تحبه ، ومن ترجو خيره .

فإذا قُرب منك إنسان له مواهب فوق مواهبك ، تضع عليك من مواهبه ، وإذا كان من يقرب منك قوياً وأنت ضعيف ، ففى قوته سباج لك ، وإن كان غنياً ، فغناه ينضع عليك ، وإن كان عالماً أفادك بعلمه ، وإن كان حليماً أفادك بحلمه لحظة غضبك ، وكل صاحب موهبة تعلو موهبتك وأنت قريب منه ، فسوف يفيدك من موهبته .

(١) أعجزه : جعله عاجزاً عن ثبته وأفلت منه ، فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿... إِنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (٥٩) .

[الأنفال] أى : لا يعجزون الله إدراكهم وتمذيبهم وأخذهم بذنوبهم ، فلن يفلتوا . وقال تعالى :

﴿لَا تَحْصِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَهَمُّ النَّارَ﴾ (٥٧) . [النور] . [القاموس القويم - ٧ / ٢]

والولى هو النصير أيضاً ؛ لأنك أول ما تستصرخ سيأتى لك القريب منك .  
وهؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لن يجدوا ولياً ولا نصيراً فى الآخرة -  
وإن وجدوه فى الدنيا - لأن كل إنسان فى الآخرة سيكون مشغولاً بنفسه :

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ<sup>(١)</sup> كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ<sup>(٢)</sup>﴾  
[الحج]

ويقول الحق سبحانه :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًاؤُا رُبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ<sup>(٣)</sup> عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ..<sup>(٤)</sup>﴾  
[لقمان]

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ<sup>(٥)</sup> وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ<sup>(٦)</sup> وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ<sup>(٧)</sup> لِكُلِّ شَيْءٍ<sup>(٨)</sup> مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ<sup>(٩)</sup>﴾  
[عبس]

إذن : فهؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لا يُعجزون الله فى الأرض ، ولا يجدون الولى أو النصير فى الآخرة ، بل :

﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ ..<sup>(١٠)</sup>﴾  
[هود]

(١) تذهل : تغفل عما ترضعه ، كناية عن شدة الهول والفرع ، والذهول عن الشيء : تركه عن عمد أو الغفلة عنه ونسيانه شغل . [لسان العرب - مادة : ذهل] .

(٢) جاز : اسم فاعل من التعلل جزى ، وجزى عنه : قضى الحق نيابة عنه أو كفى بدلاً منه فى أمر ، وقال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ..<sup>(١٨)</sup>﴾ [البقرة] .

أى : لا تغنى ولا تقضى . والمراد بقوله تعالى : ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ..<sup>(٣٠)</sup>﴾ [لقمان] . أى : أن كلا منهما غير دافع عن الآخر شيئاً من العذاب [القاصوس القويم] بتصرف .



لأنه كان أسوة لغيره في أن يرتكب نفس الجرم .

والحق سبحانه وتعالى لا يريد للذنوب أن تنتشر ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يحض على أن يرى المؤمنون من ارتكب الجرم لحظة العقاب ، مثلما يقول سبحانه في الزنا :

﴿ .. وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ <sup>(١)</sup> مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وحين يرى المؤمنون وقوع العقوبة على جريمة ما ، ففى ذلك تحذير من ارتكاب الجرم ، وحذ من وقوع الجرائم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرتها عنها يضاعف العذاب لأولئك الذين صدّوا عن سبيل الله ، وأرادوا إضلال غيرهم ، فارتكبوا جريمتين :

أولاهما : ضلالهم .

والثانية : إضلالهم لغيرهم .

ولذلك نجد بعضاً من الذين أضلّوا يقولون يوم القيامة :

﴿ .. رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

ويقولون أيضاً :

﴿ .. رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا <sup>(٢)</sup> فَاصْلَوْنَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

(١) طائفة : جماعة أو فرقة من الناس . ذهب الإمام مالك إلى أن الطائفة أربعة نفر فصاعداً لأنه لا يكفى شهادة فى الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعى وقيل ربعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة ، انظر [ابن كثير (٣/ ٢٦٢)] .

(٢) السادات والكبراء : قال طفاوس : السادات هم أشرف القوم وعظمائهم . والكبراء : هم العلماء . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٦٩) وعزاه لابن أبى حاتم .

إذن: فالدعوة إلى الانحراف إضلال ، وعمل الشيء بالانحراف إضلال ؛ لأنه أسوة أمام الغير .

ومضاعفة العذاب لا تعنى الإحراق مرة واحدة في النار ؛ لأن الحق سبحانه لو تركنا للنار لتحرقنا مرة واحدة لانتهى الإيلاء ؛ ولذلك أراد الحق سبحانه أن يكون هناك عذاب بعد عذاب .

يقول الحق سبحانه:

﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ <sup>(١)</sup> جُلُودُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾

[النساء]

فهو عذاب على الدوام .

أو أن العذاب الذي يضاعف له لون آخر ، فهناك عذاب للكفر ، وهناك عذاب للإفساد .

يقول الحق سبحانه:

﴿ .. زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

[النحل]

فالعذاب على الكفر لا يلغى العذاب على المعاصي التي يرتكبها الكافر <sup>(٢)</sup> .

فإذا كانت الشاة القرناء يُقتَصَرُ للشاة الجِلْحاء منها <sup>(٣)</sup> ، أي: أن الشاة التي لها قرون وتنطح الشاة التي لا قرون لها ، فيوم القيامة يتم القصاص

(١) نضج اللحم: لينة وصلابته لأن يؤكل . والمراد: احترقت جلودهم .

(٢) لأنه لم يؤمن بالدين الذي يجب أن يؤمن به ، لهذا لم ينج من العذاب ، ويعذب أيضاً لمخالفته لمنهج الله (إن كان مؤمناً برسول ، أو لم يؤمن بالرسول ولكن كان مخالفاً للفتنة .

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: «تؤدون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجِلْحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة . والجِلْحاء: هي الشاة ذهب شعر مقدم رأسها ، وهي هنا بمنزلة الجماء التي لا قران لها .

منها ، رغم أنه لا حساب للحيوانات ؛ لأنها لا تملك الاختيار ، ولكنها سوف تُستخدم كوسيلة إيضاح لميزان العدالة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ <sup>(١)</sup> وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾ [هود]

أى : ما كانوا يستطيعون الاستفادة من السمع رغم وجود آلة السمع ، فلم يستمعوا لبلاغ الرسول ﷺ ، ولا استطاعوا الاستفادة من أبصارهم ليروا آيات الله سبحانه وتعالى فى الكون ، فكأنهم صُمُّ عُمًى ، أو يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم السمع والإبصار .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ <sup>(٣)</sup> .. ﴾ [٣٨] [مريم]

أى : أن سمعهم وأبصارهم ستكون سليمة وجيدة فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ <sup>(٤)</sup> ﴾

(١) السمع : حس الأذن ، ويطلق على الأذن ، وعلى الأذن ، بلفظه لأنه مصدر . وقال تعالى : ﴿ خُتِمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ .. ﴾ [البقرة] أى : ختم على آذانهم فلا تسمع ، والمراد : أنهم يسمعون ولا يفهمون . [القاموس القويم] .

(٢) أسمع بهم وأبصر : فعل تعجب من « سمع » ومن « أبصر » أى : ما أدق سمعهم وبصرهم ، وما أعجب شأنهم يوم القيامة ، إذ يرى كل أعماله فى الدنيا ، وسمع كل ما قاله فى خطباته ليشهد على نفسه . [القاموس القويم] .

إذن : فهم خسروا أنفسهم ؛ لأنهم بظلم النفس وإعطائها شهوة عاجلة زمنها قليل ، أخذوا عذاباً آجلاً زمنه خالد .

وفى هذا ظلم للنفس ، وهذه قمة الخيبة ، وهذا يدل على اختلال الموازين .  
وأنت قد تظلم غيرك فتأخذ من عنده بعضاً من الخير لتستفيد به ، وبذلك تظلم الغير لصالح نفسك .

وظلم النفس يعنى أنك تعطيها متعة عاجلة وتغفل عنها عذاباً آجلاً ، والمتعة العاجلة لها مدة محدودة ، أما العذاب فلا مدة تحدده .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٧٦)

[هود]

أى : لم يهتد إليهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله ، ولو كان لهؤلاء الذين عبدوهم قوة يوم القيامة ؛ لهرعوا إليهم ليستنقذوهم من العذاب ، ولكنهم بلا حول ولا قوة ؛ لأن الحق سبحانه قد حكم على هؤلاء الكافرين ، وقال :

﴿ .. وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٧٧)

[التوبة]

وكذلك هؤلاء الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ، أو شركاء مع الله ، لا يهتدون إليهم ، حتى يفرض قلوبهم على النصرة ، فتلک الآلهة أو الشركاء لا يهتدون إليهم ، ولا يعرفون لهم مكاناً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ .. ﴾ (٦١)

[هود]

أى : غاب وتاه عنهم .

(١) ضل الكافر : غاب عن الحق المقتضى ، وعدل عن الطريق المستقيم ولم يعرف الحق .  
والضلال : النسيان والضياع ؛ وضل الشيء : غشى وغاب ، فهو ضال لا يتم .  
وضل المسافر الطريق : لم يعرفه فهو متعذر [ القاموس القويم - ينصرف ]

[هود]

وقوله سبحانه: ﴿.. مَا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴾ (٢١) ﴿

أى: ما كانوا يدعونه كذباً.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٢٢)

واختلف العلماء فى معنى كلمة ﴿لا جرم﴾ ، والمعنى العام حين نسمع كلمة ﴿لا جرم﴾ أى: حق وثابت ، أو لا بد من حصول شئ محدد.

وحين يقول الحق سبحانه:

﴿لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ..﴾ (٦٢) ﴿

[التحليل]

أى: حق وثبت أن لهم النار ؛ نتيجة ما فعلوا من أعمال ، وتلك الأعمال مقدمة بين يدي عذابهم ، فحين نسمع ﴿لا جرم﴾ ومعها العمل الذى ارتكبوه ، تلقى فى أنه يحق على الله - سبحانه - أن يعذبهم.

وقال بعض العلماء<sup>(١)</sup>: إن معنى: ﴿لا جرم﴾ حق وثبت.

وقال آخرون<sup>(٢)</sup>: إن معنى ﴿لا جرم﴾ هو لا بد ولا مفر.

(١) لا جرم: لا محالة ولا بد ، وتحولت إلى معنى القسم فصارت بمنزلة نولنا: حقاً. وهى هنا بمعنى دققاً. وقد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع:

الأول: سورة هود - آية ٢٢ وهى التى بصدد تفسيرها هنا.

الثانى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٥٥) [التحليل].

الثالث: ﴿.. لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّقْرَّبُونَ﴾ (٥٦) [التحليل].

الرابع: ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥٧) [التحليل].

الخامس: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ..﴾ (٥٨) [غافر].

(٢) قاله الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وسيبويه ، قالوا: وهجرم: عندهما كلمة واحدة ، وأن: عندهما فى موضع رفع . (هذا قول الفراء ومحمد بن يزيد . انظر تفسير القرطبي (٤/ ٣٤٣٨).

(٣) قال المهدوى: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة. وهو قول الفراء أيضاً. ذكره الثعلبي: انظر

تفسير القرطبي (٤/ ٣٣٣٨).



والمعنيان ملتقيان لأن انتفاء البدئية<sup>(١)</sup> يدل على أنها ثابتة .

وكان يجب على العلماء أن يبحثوا في مادة الكلمة ، ومادة الكلمة هي «الجرم» ، والجرم : هو القطع<sup>(٢)</sup> ، ويقال : جرم يده ، أى : قطع يده .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ ﴾ (٢٢) [هود]

أى : لا قطع لقول الله فيهم بأن لهم النار ، ولا شيء يحول دون ذلك أبداً ، ولا بد أن ينالوا هذا الوعيد ؛ وهكذا التضى المعنى بـ «لا بد» .

إذن : فساعة تسمع كلمة «لا جرم» ، أى : ثبت ، أو لا بد من حدوث الوعيد .

وأيضاً تجد كلمة «الجريمة» مأخوذة من «الجرم» ، وهى قطع تاموس مستقيم ، فحين تقرر ألا يسرق أحد من أحد شيئاً ، فهذا تاموس مستقيم ، فإن سرق واحد من آخر ، فهو قد قطع الأمن والسلام للناس ، وأى جريمة هى قطع للمألوف الذى يحيا عليه الناس .

وأيضاً يقال : جرم<sup>(٣)</sup> الشيء أى : اكتسب شره ، ومنه الجريمة ، ولذلك يقال : من الناس من هو «جارم» وهى اسم فاعل من الفعل : «جرم» ، مثل كلمة «كاتب» من الفعل «كتب» و«مجروم عليه» وهى اسم مفعول ، مثلها مثل «مكتوب» .

فإن أخذت الجريمة من قطع الأمر السائد فى النظام ، فهؤلاء الذين افتروا على الله وظلموا وصدوا عن سبيل الله ، فلا جريمة فى أن يعذبهم الله بالنار .

(١) البد : التصيب من كل شيء . ولا بد منه : لا مفر . [المعجم الوسيط] .

(٢) الجريمة : ما قطع من السر (السر) . [المعجم الوسيط] .

(٣) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم أذنبي وجنى جناية ، وجرم المال : كسبه من أى وجه ، وجرمه : حملته على فعل شر أو فنب أو جرم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ لَا يَحْمِلُنَكُمْ يُفْضِلُ قَوْمٌ عَلَىٰ ٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ [المائدة] (٥٨) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل .

ومثل هذه العقوبة ليست جريمة ؛ لأن العقوبة على الجريمة ليست جريمة ، بل هي مَنع للجريمة<sup>(١)</sup> .

وهكذا تلنقى المعانى كلها ، فحين نقول : ﴿لَا جَرَمَ﴾ فذلك يعنى أنه لا جريمة فى الجزء ؛ لأن الجريمة هى الآثام العظيمة التى ارتكبوها .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿رَجَاءَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا ..﴾ (٤٠) [الشورى]

وقد سماها الحق سيئة ؛ لأنها تسيء إلى المجتمع ، أو تسيء إلى الفرد نفسه .  
ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَن عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ..﴾ (٤٦) [النحل]

وهكذا نجد أن هناك معانى متعددة لتأويل قول الحق سبحانه : ﴿لَا جَرَمَ﴾ ، فهى تعنى : لا قطع لقول الله فى أن المشركين سيدخلون النار ، أو لا بد أن يدخلوا النار ، أو حق وثبت أن يدخلوا النار ، أو لا جريمة من الحق سبحانه عليهم أن يفعل بهم هكذا ؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستحق عقابهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ (٤٢) [هود]

وكلمة (الأخسر) جمع «أخسر»<sup>(٢)</sup> وهى أفعل تفضيل لخاسر ، وخاسر اسم فاعل مأخوذ من الخسارة .

(١) ولذلك قال سبحانه : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢٨) [البقرة] . قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٢١١) : «إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان فى ذلك حياة للنفس . قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكف من رجل يريد أن يقتل فتعنته مخافة أن يقتل» .

(٢) أخسر : صيغة أفعل التفضيل ، ونقيض المبالغة فى المعنى ، أى : أكثر وأشد خسارة . [راجع : لسان العرب - مادة : خسر]

## سُورَةُ هُودٍ

٦٤١٧

والخسارة في أمور الدنيا أن تكون المبادلة إجحافاً<sup>(١)</sup> لواحد ، كأن يشتري شيئاً بخمسة قروش وكان يجب أن يبيعها بأكثر من خمسة قروش ، لكنه باعها بثلاثة قروش فقط ، فبعد أن كان يرغب في الزيادة ، باع الشيء بما ينقص عن قيمته الأصلية .

ومن يفعل ذلك يسمى «خاسر» ، والخسارة في الدنيا موقوتة بالدنيا ، ومن يخسر في صفقة قد يربح في صفقة أخرى .

ولنفترض أنه قد خسر في كل صفقات الدنيا ، فما أقصر وقت الدنيا ! لأن كل ما ينتهي فهو قصير ، لكن خسارة الآخرة لا نهاية لها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ <sup>(٢)</sup> بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً <sup>(١٠٤)</sup> الَّذِينَ <sup>(٣)</sup> ضَلُّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(١٠٥)</sup> ﴾ [الكهف]

وهكذا وصفهم الحق سبحانه مرة بأنهم الأخسرون ، ومرة يقول سبحانه واصفاً الحكم عليهم :

﴿ .. أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ <sup>(١٠٥)</sup> ﴾ [الزمر]

(١) الجحف والمجاحفة : أخذ الشيء واجترأه . والجحف : شدة الجرف . والإجحاف : الظلم الشديد . [انظر : لسان العرب : مادة جحف] .

(٢) أنباء بالشيء ، ونباء به : أخبره به وذكر له قصته . والنبأ : الخبر ، أو الخبر ذو الشأن والقصة ذات البال . والإنباء أيضاً : التحديث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ خُطْبِ إِبْرَاهِيمَ <sup>(١٠٤)</sup> ﴾ [الحجر] . أي : حدثهم . [ القاموس القويم ٢ / ٢٥٠ ]

(٣) الآية عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ ، وعمله مردود ، فتجددهم يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون منحيرون . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ قُرْآنًا مَسْنُونًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ <sup>(١٠٥)</sup> ﴾ [النور] . [ تفسير ابن كثير ٣ / ١٠٧ ] بتصرف .

وهو خسران محيط يستوجب كل الأمكنة .

وشاء الحق سبحانه بعد ذلك أن يأتي بالمقابل لهؤلاء ، وفي ذلك فيض من الإيناسات المعنوية ؛ لأن النفس حين ترى حكماً على شيء تأنس أن تأخذ الحكم المقابل على الشيء المقابل .

فحين يسمع الإنسان قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ ﴾ [الأنعام]

فلا بد أن يأتي إلى الذهن تساؤل عن مصير الفجار ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾ [الأنعام]

وهذا التقابل يعطى بسطة النفس الأولى وقبضة النفس الثانية ، وبين البسطة والقبضة توجد الموعظة ، ويوجد الاعتبار .

ويأتي الحق سبحانه هنا بالمقابل للمشركين الذين صدوا عن سبيل الله ، فصاروا إلى النار ، والمقابل هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٣ ﴾ [الأنعام]

(١) الأبرار : جمع برّ ، وهو الرجل الصادق الصالح صاحب الطاعة والإحسان ، واليار : هو الذي يبر والديه فيحسن إليهما . [لسان العرب - مادة : يرو] يتصرف .

(٢) الفجار : جمع فاجر ، وهو المنبعث في العاصي ، غير مكثرت ولا مبال ، وهو أيضاً من بالغ في العصيان وجهريه . [القاموس القويم ٧ / ٧٣] يتصرف .

(٣) أخبتوا إلى ربهم : تواضعوا وخشعوا وساروا في الطريق المستقيم المطمئن الواسع . وقال تعالى : ﴿ ... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝٤١ ﴾ [الحج] : أي : الخاشعين . وأخبت : المكان الواسع المطمئن من الأرض . [القاموس القويم] .

الإيمان - كما نعلم - أمر عقدي <sup>(١)</sup> ، يعلن فيه الإنسان إيمانه بإله واحد موجود ، ويلتزم بالمنهج الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على الرسول ﷺ ، ومن آمن بالله تعالى ولم يعمل العمل الصالح يتلقَّ العقاب ؛ لأنَّ فائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا <sup>(٢)</sup> وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا .. (٦٤) ﴾

[الحجرات]

أي : اتبعتم ظاهر الإسلام .

وهكذا نعرف أنه يوجد مُتيقَّن بصحة واعتقاد بأن الإله الواحد الأحد موجود ، وأن الرسول ﷺ مُبلَّغ عن الله عز وجل ؛ لكن العمل الذي يقوم به الإنسان هو القيصَل بين مرتبة المؤمن ، ومرتبة المعلم .

فالذي يُحسن العمل هو مؤمن ، أما من يؤدي العمل بتكاسل واتباع لظواهر الدين ، فهو المسلم ، وكلاهما يختلف عن المنافق الذي يدعى الحماس إلى أداء العبادات ، لكنه يمكر ويبغ <sup>(٣)</sup> العداة للإسلام الذي لا يؤمن به .

وكان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وكانوا مع هذا يكتُمون الكيد ويدبرون المؤامرات ضد النبي ﷺ .

(١) قال ابن منظور في اللسان (مائة عقد) : «اعتقد كذا بقلبه ، وليس له معقود ، أي : عقد رأى . وفي الحديث : أن رجلاً كان يبايع وفي عقده ضعف ، أي : في رأيه ونظره في مصالح نفسه » فالإيمان أمر يعتقد القلب .

(٢) الإيمان هو اعتقاد القلب الجازم الذي لا يداعله شك بالأمور الغيبية من إيمان بالله واليوم الآخر والكب والرسول بما لا يراه الناس ، أما الإسلام فهو الالتزام الظاهري بأحكام الدين من صلاة وصيام وغيرهما وإن لم يكن في القلب إيمان . فالإيمان وحسنه أمر يعلمه الله من قلب كل عبد .

(٣) يَتَّ أَمْرًا : دَبَّرَهُ فِي خَفَاءٍ ، كَأَنَّهُ دَبَّرَهُ فِي اللَّيْلِ لِيَخْفِيَ . يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْهِنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨٩) ﴾

[النساء] . [القائم من الفرق - ٨٩/١]

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ ۝ (٢٣) ﴾ [هود]

هذا القول يبين لنا أن معيار الإيمان إنما يعتمد على التوحيد ، وإتقان أداء ما يتطلبه منهج الله سبحانه ، وأن يكون كل ذلك بإخبات وخضوع ، ولذلك يقال : ربّ معصية أورثت ذلاً والكساراً ، خير من عبادة أورثت عزاً واستكباراً .

أى : أن المؤمن عليه ألا يأخذ العبادة وسيلة للاستكبار<sup>(١)</sup> .

وكلمة ﴿أَخْبَتُوا﴾ أى : خضعوا خشية لله تعالى ، فهم لا يؤدون فروض الإيمان لمجرد رغبتهم فى ألا يعاقبهم الله ، لا بل يؤدون فروض الإيمان والعمل الصالح خشية لله .

وأصل الكلمة من «الخبث» وهى الأرض السهلة المظمتة المتواضعة ، وكذلك الخبت فى الإيمان .

ويصف الحق سبحانه أهل الإيمان المخبتين بأنهم :

﴿ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٤) ﴾ [هود]

أى : الملازمون لها ، وخلودهم فى الجنة يعنى أنهم يقيمون فى النعيم أبداً ، ونعيم الجنة مقيم ودائم ، على عكس نعيم الدنيا الذى قد يفوته الإنسان بالموت ، أو يفوت النعيم الإنسان بالسلب<sup>(٢)</sup> ، لأن الإنسان فى الدنيا عرضة للأغيار ، أما فى الآخرة ، فأهل الإيمان أصحاب العمل الصالح المخبتون لربهم ، فهم أهل النعيم المقيم أبداً .

(١) الاستكبار : التعاظم والتجبر على الناس وظلمهم بغير الحق ، وصيغة تستعمل تشعر بتكلف وإدعاء الشئ ، فالتكبر يدعى أو يظن أن نفسه أنه كبير .

(٢) السلب : هو سلب النعمة من الإنسان .

وهكذا عرض الحق سبحانه حال الفريقين : الفريق الذي ظلم نفسه بافتراء الكذب على الله ، وصدوا عن سبيل الله ، وابتغوا الأمر عوجاً ، هؤلاء لن يُعجزوا " الله ، وليس لهم أولياء يحمونهم من العذاب المضاعف .

وهم الذين خسروا أنفسهم ، ولن يجدوا عوناً من الآلهة التي عبدوها من دون الله ، ولا شيء بقادر على أن يفصل بينهم وبين العذاب ، وهم الآن خسرون .

أما الفريق الثاني فهم الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة بخشوع وخشية ومحبة لله سبحانه وتعالى ، وهم أصحاب الجنة الخالدون فيها .

إذن : فلكل فريق مسئلة وغايته .

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٤)

والفریقان هما من تحدثنا عنهما من قبل .

وكلمة «الفريق» تعني : جماعة يلتقون عند غاية وهدف واحد ، مثلما نقول : فريق كرة القدم أو غيره من الفرق ، فهي جماعات ، وكل جماعة منها لها هدف يجمعها .

ونحن نحمد الحق سبحانه وتعالى بقول :

﴿ . . فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ (٧) [الشورى]

(١) أعجزه : جملة عاجزاً عن قبلة ، وأفلت منه فلم يقدر عليه . قال تعالى : ﴿ ولا يحسن الذين كفروا سبقوا ﴾

﴿ الأنفال ﴾ [٢٥] أي : لا يعجزون الله إدراكهم وتعذيبهم وأخذهم بذنوبهم فلن يفلتوا .

(٢) السعير : النار المشتعلة المتقدة المروجة . يقول تعالى : ﴿ وإذا الجحيم سُفرت ﴾ [التكوير] أي :

أوقدت بشدة . ويراد بالسعير : نار جهنم . ويقول تعالى : ﴿ ما أراهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾

[الاسراء] أي : زدناهم ناراً هائلة موقدة مشتعلة .

وكلمة ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ جاءت في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لأن كل فرقة تضم جماعة مختلفة عن الجماعة الأخرى ، ولهؤلاء منعصبون ، وللآخرين منعصبون .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية المثل بسَيِّدَيِ الحواس الإدراكية في الإنسان ، وهما السمع والبصر ، فهما المصدران الأساسيان عند الإنسان لأخذ المعلومات ، إما مسموعة ، أو مرئية ، ثم تتكون لدى الإنسان قدرة الاستنباط <sup>(١)</sup> والتوليد مما سمعه بالأذن ورآه بالعين .

ونذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [التحل]

إذن : فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتي منها ثمرة ، هي المعلومات وتحصيلها <sup>(٢)</sup> ، فالحق سبحانه يستحق الشكر <sup>(٣)</sup> عليها .

ونحن نعلم أن الطفرات <sup>(٤)</sup> الحضرية وارتقاءات العلم ، إنما تأتي بمن سمع ومن رأى ، ثم جاءت من الاستنباط أفكار تطبيقية تفيد البشرية .

(١) الاستنباط : استخراج الماء من باطن الأرض . ومن المجاز : استنبط الرأي الصحيح : استخرجه ببحثه وفكره فمن يستخرج ماء من البئر . يقول تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَالَّذِي أُوتِيَ الْأَمْرُ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُمْ شَيْئًا﴾ [النساء] .

(٢) تحصيل الشيء : اختياره وفحصه بدقة . [المعجم الوسيط] بتصرف .  
وقال تعالى : ﴿وَلِيَحْمِصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [٢٢٩] [آل عمران] . أي : يظهرهم ويخلصهم من العيوب ومن المنافقين ويفضي على الكافرين . وقال تعالى : ﴿وَلِيَحْمِصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [٢٥٤] [آل عمران] . أي : يظهر الإيمان الذي في قلوبهم من الرسائس والشكوك . [القاموس المفيد] .

(٣) الشكر : مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية ، فبشيء عني الممنع بلسانه ، ويذيب نفسه في طاعته ويعتقد أنه مولياها .

(٤) طفرات : جمع طفرة ، وهي وثبة في الارتفاع . وقد طفر بظفر : وثب في الارتفاع . [انظر لسان العرب] .



ومثال ذلك : هو من رأى إناء طعام وله غطاء ، وكان بالإناء ماء يغلى ،  
فارتفع الغطاء عن الإناء .

هذا الإنسان اكتشف طاقة البخار ، واستنبط أن البخار يحتاج حيزاً أكبر  
من حيز السائل الموجود في الإناء ؛ لذلك ارتفع الغطاء عن الإناء ، وارتقى  
هذا الاكتشاف ليطور كثيراً من أوجه الحياة .

ولو أن كل إنسان وقف عند ما يسمعه أو يراه ولم يستنبط منه شيئاً  
لما تطورت الحياة بكل تلك الارتقاءات الحضارية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ  
مَثَلًا ۚ﴾ (٢١) [هود]

ولن يشك كل من الأعمى أو الأصم أن من يرى أو من يسمع هو خير  
منه ، ولا يمكن أن يستوى الأعمى بالبصير ، أو الأصم بسميع .

وهكذا جاء الحق سبحانه وتعالى بالأشياء المتناقضة ، ليحكم الإنسان  
السامع أو القارىء لهذه الآية ، وليفصل بحكم يُذكره بالفارق بين الذى  
يرى ومن هو أعمى ، وكذلك بين من يسمع ومن هو أصم ، ومن الطبيعى  
ألا يستويان .

لذلك ينهى الحق سبحانه الآية بقوله تعالى :

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : ألا تعتبرون بوجود هذه الأشياء .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد قال لنا :

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦)

[الحج]

أى : أن الإنسان قد يكون مبصراً ، أو له أذن تسمع ، لكنه لا يستخدم حاسة الإبصار أو حاسة السمع فيما خلقت من أجله في التقاط مجاهيل الأشياء .

وبعد أن بين الحق سبحانه وَصَفَ كل طرف وصراعه مع الآخر ، واختلاف كل منهما في الغاية ، والصراع الذى بينهما تشرحه قصص الرسل عليهم السلام .

ويقول الحق سبحانه في بعض من مواضع القرآن الكريم ، وفى كل موضع لقطات من قصة أى رسول ، واللقطة التى توجد فى سورة قد تختلف عن اللقطة التى فى سورة أخرى .

ومثال ذلك : أن الحق سبحانه قد تكلم فى سورة يونس عن نوح وموسى وهارون ويونس عليهم السلام ، وهنا - فى سورة هود - تأتى مرة أخرى قصة نوح عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥ ﴾

والآية توضح مسألة إرسال نوح عليه السلام كرَسُول لقومه ، وعلى نوح الرسول أن يمارس مهمته وهى البلاغ ، فيقول :

﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥ ﴾ [هود]

وتحس نلاحظ أن همزة (إن) فى إحدى قراءتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة <sup>(١)</sup> ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه

(١) نذير : الرسول المُنذِر بالعذاب . وأنذره : حذره ، وأنذره شيئاً : أعلمه إياه وعرفه به وبما يترتب عليه من ضرر فى مدة تكفى لالتحفظ منه . أى : خوفاً منه لينبذ عنه . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ٥ ﴾ [النبا] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ٥ ﴾ [الأنعام] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥ ﴾ [الحج] . [القاموس القويم ٢/ ٢٥٨] يتصرف .

(٢) قراءة الفتح فقرأها ابن كثير وأبو عمرو والكسائى . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣٤٠) أى : أرسلناه بأنى لكم نذير مبين .

السلام قد جاء بالرسالة قبله قومه وقال :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

وأما في القراءة الأخرى بالفتح فتعني أن الرسالة هي :

﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

فكان القراءة الأولى تعني الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد  
مضمون الرسالة : ﴿ .. إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٥) [هود]

والقراءة الأولى فيها حذف القول ، وحذف القول كثير في القرآن ، مثل  
قوله تعالى :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ <sup>(١)</sup> مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (٢٢) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ  
بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴾ (٢٤) [الرعد]

وهذا يعني أن الملائكة يدخلون على المؤمنين في الجنة من كل باب <sup>(٢)</sup> ،  
وساعة الدخول يقول الملائكة :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .. ﴾ (٢٤) [الرعد]

(١) الضمير في (عليهم) عائد على أولى الأبواب الذين وضعهم ربهم لصفات استحقاقها دخول جنات عدن . قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ إنما يتذكر أولو الألباب (١٩) الذين يؤمنون بعهد الله ولا يتقصون الميثاق (٢٠) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويذرون بالجنة السجدة أولئك لهم غفران الدار (٢٢) [الرعد]

(٢) للجنة أبواب ، عدداً بعض العلماء ثمانية أبواب ، استدلالاً بحديث رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد بشراً فيبلغ - أو ليسبح الوضوء - ثم يقول : أشهد إلا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٤) من حديث هبة بن عامر .

وقول نوح عليه السلام : ﴿... إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٥) [هود]

نعلم منه أن النذير - كما قلنا من قبل - هو من يخبر بشراً لم يأت وقته بعد ، حتى يستعد السامع لملاقاته ، وما دام أن نبي الله نوحاً قد جاء نذيراً ، فالسياق مستمر ؛ لأن الحق سبحانه قال في الآية التي قبلها :

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ...﴾ (٢٤) [هود]

أى : أن هناك فريقاً عاصياً وكافراً وله نذير ، أما الفريق الآخر فله بشير ، يخبر بخير قادم ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

والفريق الكافر الذى يستحق الإنذار ، يأتى لهم الحق سبحانه بنص الإنذار فى قوله تعالى : (١)

﴿أَنْ لَا تَقْبِذُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابُ يَوْمِ الْيُسْرِ﴾ (١٦)

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام محسوب على قومه ، وهم محسوبون عليه ؛ ولذلك نجده خائفاً عليهم ؛ لأن الرباط الذى يربطه بهم رباط جامع قوى . وكذلك نجد الحق سبحانه يُحِثُّ قلوب المرسل إليهم لعلمهم يحسنون استقبال الرسول .

ومثال ذلك : قول الحق سبحانه :

﴿وَإِلَى عادِ أخَاهُمْ هُودًا...﴾ (٦٥) [الأعراف]

ولأن الرسول أخ لهم فلن يقشهم أو يخدعهم .

(١) وذلك أنهم كانوا يعبدون مع الله سبحانه أصناماً ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة نوح - آية ٢٣ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَا آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَا وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٦٥) [نوح] وهم أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا عمل الناس على هيتهم أصناماً تذكروهم بأعمالهم ، ثم نقاد الزمن فأصبحوا يعبدونها من دون الله . [انظر : تفسير ابن كثير ٤/٤٢٦]

واستقبل الملا من قوم نوح الأمر بما يقوله الحق سبحانه عنهم :

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا  
مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا  
الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَحْنُكُمْ كَذِيبَاتٍ ﴾



والملا - كما نعلم - هم وجوه القوم ، وهم السادة الذين يملأون العيون  
مهابة ، ويتصدرون أي مجلس .

وهناك مثل شعبي في بلادنا يوضح ذلك المعنى حين نقول : «فلان يملأ  
العين» .

أي : أن العين حين تنظر إليه لا تكون فارغة ، فلا جزء في العين يرى غيره .  
ويقال أيضاً : «فلان قيّد النواظر» أي : أنه إذا ظهر تقيّد به كل  
النواظر ، فلا تلتفت إلى سواء ، ولا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا كانت  
فيه مزايا تجذب العيون إليه بحيث لا تتحول عنه .

والمراد بذلك هو الحاشية المقربة ، أو الدائرة الأولى التي حول المركز ،  
فحول كل مركز هناك دوائر ، والملا هم الدائرة الأولى ، ثم تليهم دائرة  
ثانية ، ثم ثالثة وهكذا ، والارتباك إنما ينشأ حين يكون للدائرة أكثر من  
مركز ، فتشتت الدوائر .

ورد الذين يكوّنون الملا على سيدنا نوح قائلين :

(١) الملا : أشراف القوم أو جميعهم .

(٢) الذين هم أرادنا : أي : أقرنا وأحفر الناس في نظرتنا .

بادى الرأي : ظاهرة الذى لا روية فيه ، أي : رأى سطحي غير متعمق .

رفرى : هبدي : الرأي . أي : بده الرأي وأمله من غير روية أيضاً [القاهر من القويم] .

[هود]

﴿ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا .. ﴾ (٢٧)

أى : أنه لا توجد لك ميزة تجعلك متفوقاً علينا ، فما الذى سودك علينا لتكون أنت الرسول ؟

وقولهم هذا دليل غباء ؛ لأن الرسول ما دام قد جاء من البشر ، فسلكه يكون أسوة ، وقوله يصلح للاتباع ، ولو كان الرسول من غير البشر لكان من حق القوم أن يعترضوا ؛ لأنهم لن يستطيعوا اتخاذ الملاك<sup>(٢)</sup> أسوة لهم .

ولذلك بين الحق سبحانه هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (٩٤)

[الأنعام]

وجاء الرد منه سبحانه بأن قل لهم :

﴿ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٥)

[الأنعام]

إذن : فالرسول إنما يجيء مُبَلِّغٌ منهج وأسوة<sup>(٣)</sup> سلوك ، فإذا لم يكن من جنس البشر ، فالأسوة لن تصلح ، ولن يستطيع إلا البلاغ فقط .

(١) سودك علينا : جعل لك السيادة والرياسة علينا فتأمرنا وننهانا .

(٢) إذ كيف يتخذون الملاك أسوة لهم ، وهو من جنس غير جنسهم . وله أحكام وقدرات تختلف عن قدراتهم ، فلا يصلح الاحتجاج بأفعال الملائكة على غيرهم من الأجناس . ولذلك عندما قال مشركو مكة : ﴿ لَوْ لَا نُؤْتِلُ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ قيل لهم : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُتِنَ الْأَمْرُ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ (١) ولولا جعلنا مَلَكًا لَّخَفَّاهُ رَجُلًا وَلَبَسَا عَلَيْهِمْ ثِيَابًا يَلْبَسُونَ ﴾ (٢) [الأنعام] . [بتصرف من تفسير ابن كثير ١٢٤ / ٢]

(٣) الأسوة : القدوة . والمراد بها هنا : القدوة الحسنة التى ينبش على الجميع الاقتداء بها . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (١) [الأحزاب] .

## سورة هود

٥٦٢٩

ومثال ذلك : أنت حين ترى الأسد في أي حديقة من حدائق الحيوان ، يصول ويجول ، ويأكل اللحم النيء المقدم له من الحارس ، أتحدثك نفسك أن تفعل مثله ؟ . طبعاً لا ، لكنك إن رأيت فارساً على جواد ومعه سيفه ، فتفكر قد تحدثك أن تكون مثله .

وهكذا نجد أن الأسوة تتطلب اتحاد الجنس . ولذلك قلنا : إن الأسوة هي الدليل على إبطال من يدعى الألوهية لتعزير<sup>(١)</sup> أو لعيسى عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى ما جاء على لسان الملائكة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِذُوا ﴾ .. (٢٧) ﴿ [هود]

والأرادل<sup>(٢)</sup> جمع «أرذل» ، مثل قولنا : «أفاضل قوم» ، وهي جمع «أفضل» .

والأرذل هو الخسيس الدنيء في أعين الناس . ورذال المال أي : رديئه . ورذال كل شيء هو نفايته .

ونرى في الريف أثناء مواسم جمع «القطن» عملية «فرز» القطن ، يقوم بها صغار البنين والبنات ، فيقصصون القطن النظيف ، عن اللوز الذي لم يتفتح

(١) عزير : هو رجل صالح من بني إسرائيل جعله اليهود ابناً لله وعيذوه لعلمه بالنبوة وحفظه لها كما في الكتب حرقاً بحرف [ القاموس القويم ١٨ / ٢ ] . و [ تفسير ابن كثير ٣٤٨ / ٢ ] . وهو الذي ورد ذكره في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَ اللَّهُ مَالَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَخَرَابِكَ لَمْ يَتَمَسَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنُجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة] .

(٢) رَذُلُ الشيء ، رَذَالَةٌ ورَذُلَةٌ : صار خيساً رديئاً ، فهو رَذُلٌ .

والأرذل : اسم تفضيل يفيد المبالغة في الصفة . وقال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَدُّ إِلَى الْأَرْذَالِ نُفُورًا ﴾ [النحل] أي : إلى الهرم والعجز . وقال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً وَأَنْجِئْنَا مِنْ عَذَابِ الْآزْدِلِ ﴾ [الشعراء] ، أي : أحسن الناس ، في نظرنا . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِذُوا ﴾ [هود] . أي : أفرقنا وأحقرنا الناس في نظرنا . [القاموس القويم] .

بالشكل المناسب ؛ لأن اللوزة المصابة عادة ما تعاني من ضمور ، ولم تنضج النضج الصحيح .

وكذلك يفعل الفلاحون في موسم جمع «البلح» ، فيفصلون البلح الجيد عن البلح المعيب ..

إذن : فردال كل شيء هو نفاقته .

وقد قال الملأ من الكفار من قوم نوح :

﴿ وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا ﴾ (٢٧) [هود]

أى : أنهم وصفوا من آمنوا بنوح عليه السلام بأنهم نفاقية المجتمع .

وجاء الحق على الستهم بقولهم في موضع آخر :

﴿ .. وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُثُونَ ﴾ (١١١) [الشعراء]

ولم ينف نوح عليه السلام ذلك ؛ لأن الذين اتبعوه قد يكونون من الضعاف ، وهم ضحايا الإفساد ؛ لأن القوى في المجتمع لا يقربه أحد ؛ ولذلك فإنه لا يعاني من ضغوط المفسدين ، أما الضعاف فهم الذين يعانون من المفسدين ؛ فما إن يظهر المخلص لهم من المفسدين فلا بد أن يتمسكوا به .

ولكن ذلك لا يعنى أن الإيمان لا يلمس قلوب الأقوياء ، بدليل أن البعض من سادة وأغنياء مكة استجابوا للدعوة الحمديدية مثل : أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ رضى الله عنهم .

ولكن الغالب في دعوات الإصلاح أنه يستجيب لها المطحونون بالفساد ، هؤلاء الذين يشعرون بالغليان في مراحل<sup>(١)</sup> الألم بسبب الفساد ، وما إن

(١) المراحل : جمع مرجل ، وهو كل ما طبخ فيه من قدر وغيرها . وقيل : هو القدر المصنوع من النحاس خاصة . [انظر : اللسان ، مادة : رجل] .



(١) آفة الشيء: الخطأ الذي فيه، أو نقصه، أو عيبه. [راجع: لسان العرب - مادة أوف].

ومن هنا يجيء الهدوء والاستقرار في المجتمع .

إذن : فقد كان قول الكافرين من ملاء قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُكْفِرُوا مِنْ قَبْلُ وَهُمْ هَادُونَ ﴾ (٢٧) .

هو قول يؤكد وجود الفساد في هذا المجتمع ، وأن الضعاف المطحونين من الفساد قد اتبعوا نوحاً عليه السلام .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ .. ﴾ (٢٧) .

[هود]

والبادي هو الظاهر ؛ ضد المستتر .

وهناك قراءة أخرى " هي " ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ .. ﴾ .

أي : بعد بدء الرأي .

والآية هنا تقول :

﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ .. ﴾ (٢٧) .

[هود]

أي : ظاهر الأمر ، فساعة ما يُلقَى إلى الإنسان أي شيء فهو ينظر له نظرة سطحية ، ثم يفكر بأمعان في هذا الشيء .

وساعة يسمع الإنسان دعوى أو قضية ، فعليه ألا يحكم عليها بظاهر الأمر ، بل لا بد أن يبحث القضية أو الدعوى بترك وهدوء .

وهم قد قالوا لنوح عليه السلام : أنت بشر مثلنا ، وقد اتبعك أراذلنا ؛ لأنهم نظروا إلى دعوتك نظرة ظاهرية ، ولو تعقبوا دعوتك وتأملوها ونظروا في عواقبها بتدبر لما آمنوا بها .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٣٤٢/٤) : «يجوز أن يكون «بادي الرأي» من بدأ يبدأ وحذف الهمزة ، وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ «بادي الرأي» أي أول الرأي ، أي : اتبعوك حين ابتداءوا ينظرون ، ولو آمنوا بالنظر والفكر لم يتبعوك ، ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمزة » .

ويكشف الحق سبحانه هذا الغيباء فيهم ، فقول الملائكة بأن الضعفاء كان يجب عليهم أن يتدبروا الأمر ويتمعنوا في دعوة نوح قبل الإيمان به ، ينقضه إصرار الضعفاء على الإيمان ؛ لأنه يؤكد أن جوهر الحكم عندهم جوهر سليم ؛ لأن الواحد من هؤلاء الضعفاء لا يقيس الأمر بمقياس من يملك المال ، ولا بمقياس من يملك الجاه ، ولا بمقياس من له سيادة ، بل قاس الضعيف من هؤلاء الأمر بالقلب ، الذي تعقل وتبصر ، وباللسان الذي أعلن الإيمان ؛ لأن الإنسان بأصغريه : قلبه ولسانه<sup>(١)</sup> .

إذن : فهذا الملائكة الكافر من قوم نوح - عليه السلام - قد حكم بأن الضعفاء أراذل بالمقاييس الهابطة ، لا بالمقاييس الصحيحة .

ولو امتنع هؤلاء الذين يُقال عنهم «أراذل» عن خدمة من يقال لهم «سادة» لذاق السادة الأمرين ، فهم الذين يقدمون الخدمة ، ولو لم يصنع النجار أثاث البيت لما كانت هناك بيوت مؤثثة .

ولو امتنع العمال عن الحفر والبناء لما كانت هناك قصور مشيدة .

ولو امتنع الطاهي عن طهي الطعام لما كانت هناك موائد ممتدة ، وكل خدمات هؤلاء الضعفاء تصب عند الغني أو صاحب المال أو صاحب الجاه .

وهكذا نرى أن الكون يحتاج إلى من يملك الثروة - ولو عن طريق الميراث - ليصرف على من يحتاجه المجتمع أيضاً ، وهم الضعفاء الذين يعطون الخير من كدهم وإنتاجهم .

إذن : فالضعفاء هم تنمة السيادة .

(١) هذا من أمثال العرب : المرء بأصغريه ، وأصغراه قلبه ولسانه . قال ابن منظور في لسان العرب : «معناه : أن المرء يفعل الأمور ويفعلها بجناته ولسانه» .

وحين نمنع النظر لوجدنا أن سيادة الثرى أو صاحب الجاه إنما تأتي نتيجة لمجهودات من يقال عنهم : إنهم أراذل .

ولو أنهم تخلّوا عن الثرى أو صاحب الجاه ، لما استطاع أن يكون سيداً .

ويذكر لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الملائكة الكافر من قوم نوح :

﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٤٧) [هود]

وهم - بهذا القول - قد أنكروا أن سيادتكم إنما نشأت بجهد من قالوا عنهم إنهم أراذل ، وأنكروا فضل هؤلاء الناس .

ويُلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى الآفة التي تتاب بعض المجتمعات حين يذكر لنا ما قاله الكافرون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٤٦) أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .. (٤٧) [الزخرف]

إذن : فالحق سبحانه هو الذى قسم المعيشة ، وآفة الحكم أن ننظر إلى المرفوع على أنه الفتى ، لا ، فليس المرفوع هو الغنى ، بل هو كل ذى موهبة ليست فى سواه .

وما دام مرفوعاً فى مجال فهو سيخدم غيره فيه ، وغيره سيخدمونه فيما رُفِعوا فيه ؛ لأن المسألة أساسها التكامل .

(١) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . وقد اختلف العلماء فى المقصود بالرجلين ، ذكر ابن كثير هذا الاختلاف ، ثم قال : الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان تفسير ابن كثير (٤/١٢٧) .  
(٢) سخرياً : أى : يسخر بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا . قاله السدى وغيره . (تفسير ابن كثير ٤/١٢٧) ونقل ابن منظور فى اللسان : «سخرت : عيّد وأما وأجره» .  
راجعته على الأصل وخرج أحاديثه صاحب الفضيلة الشيخ / محمد السراوى المتشار بالآزهر والاساذ / عادل أبو المعاطي .